تراثنا

صبح الأعشى

في

صناعة الإنشا

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي

٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الثاني

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة
بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تراثنا

صبح الأعشى

في

صناعة الإنشا

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي

٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الثاني

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة
بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠١١٨ س.ت ٦٣٤١١

فهرس

الجـــزء الثـانى من كتاب صبح الأعشى

تم فهرس الجزء الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

النوع الثامن عشر

المعرفة بالأحكام السلطانية

ليعرف[1] كيف يخلص قلمه على حكم الشريعة المطهرة، وما يشترط فى كل ولاية من الشروط، فينبه عليها ويقف عندها؛ وما يلزم ربّ كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له، فيورده فى وصاياه. وقد أورد أقضى القُضاة أبو الحسن على بن حبيب الماوردىّ[2] رحمه الله فى الأحكام السلطانية ما فيه مَقْنَع من ذلك. ونحن نورد فى هذا الكتاب نُبْذةً من كل باب، مما به يستغنِي الناظرُ فيه عن مراجعة غيره. والذى تكلم عليه الماوردىّ من الوظائف الأصول: الإمامةُ، والوزارة، وتقليد الإمارة على البلاد، وتقليد الإمارة على الجهاد، والولاية على ضُروب المصالح، وولاية القضاء، وولاية المظالم، وولاية النِّقابة على ذوى الأنساب، والولاية على إقامة الصلوات، والولاية على الحج، والولاية على الصدقات، وقَسم الفىء والغنيمة، ووَضْع الجزية والخَرَاج، ومعرفة ما تختلف أحكامه من البلاد، وإحياء الموات، واستخراج المياه، والحِمى، والأوقاف، وأحكام الإقطاع، وأحكام الديوان، وأحكام الجرائم، وأحكام الحِسْبة.

---

(١) أى الكاتب.

(٢) هو على بن محمد بن حبيب أُنظر كشف الظنون.

وأنا أقتصر من ذلك هنا على ما تفضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام، دُونَ ما عداه من الفروع الزائدة على ذلك ؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من هــذه الولايات ، وما يوجب توليتهـا ، وما يعتبر فى متوليهـا من الشروط ، وما يلزمه من الأمور إذا تولاها، وما ينافى أمورَها، ويجانب أحوالَها؛ عرف ما يأتى من ذلك وما يَذَر، فيكون ما ينشئه من البَيْعات، والعُهود، والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع؛ وما يجرى مجرى ذلك جاريا منه على السداد، ماشيا على القواعد الشرعية التى من حاد عنها ضلَّ، ومن سلك خلاف طريقها زلَّ . وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات، وعقد الجزية والمُهادَنات والمُفاسَخات، وما يجرى مجرى ذلك من الأمور السلطانية . فإذا عرف حكم كل قضــية، وما يجب على الكاتب فيها، وَفَّاها حقها، وأتى بذكر ما يتعلق بها من الشروط، وجرى فى وصايا الولايات بمـا يناسب كل ولاية منها؛ فجرى الأمر فى ذلك على الســداد، ومشَتْ كتابته فيهـا على أتم المراد ؛ إن كتب بَيْعــة أو عهدًا لخليفة، تعرّض فيه إلى وجوب القيام بأمر الخلافة ، ونَصْبِ إمام للنــاس يقوم بأمرهم ، وتعرّض إلى ٱجتماع شروط الخلافة فى المولَّى ؛ وأنه أحق بهـا من غيره . ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفــة تعرّض لذكر الخليفــة المُيت، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة، وأنه دَرَج بالوفاة، وأن المولَّى ٱستحقها من بعــده دون غيره . وإن كانت ناشئة عن خلع خليفــة تعرّض للسبب الموجب لخلعه، من الخروج عن سَنَن الطريق، والعدول عن مَنْهج الحق ونحو ذلك مما يوجب الخلع لتصح ولاية الثانى . وإن كان عهدا تعرّض فيه إلى عهد الخليفة السابق إليه بالخلافة ، وأنه أصاب فى ذلك الغرض، وجرى فيه على سَوَاء الصراط ، ونحو ذلك ممـا يجرى هذا المجرى من سائر الولايات على ما ســيأتى ذكره فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وهذه فقرة من بيعة أنشأتها توضح ما أشرت إليه من ذلك

فمن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى وجوب القيام بالإمامة :

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوى دليل تنقطع دون نقضه الأطماع؛ وتنبو عن سماع ما يخالفه الأسماع .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى آجتماع شروط الخلافة فى المولّى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين، هو الذى جمع شروطها فوفّاها، وأحاط منها بصفات الكمال وآستوفاها، ورامت به أدنى مراتبها فبلغت أغياها، وتسوّر مَعاليَهَا فَرَقِىَ إلى أعلاها، وآتحد بها فكان صورتَها ومعناها .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى عقد البَيْعة : بجمع أهلَ الحل والعَقْد، المعتبرين للاعتبار والعارفين بالنقد؛ من القضاة والعلماء، وأهل الخَيْر والصُلَحاء، وأرباب الرأى والنُّصَحاء؛ وآستشارهم فى ذلك فصوّبوه، ولم يروا العُدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلى القبول : وقابل عَقْدَها بالقَبُول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت، ومضى حكُمها على الصحة فانبرمت، إلى غير ذلك مما ينخرط فى هذا من سائر الولايات وغيرها .

قلت : وكما يجب عليه معرفة الأحكام السلطانية، يتعين عليه معرفة ما عدا ذلك من الأمور الصناعية التى ينتظم أصحابها فى سلك الولايات كالهندسة ونحوها، وسيأتى التنبيه فيما يجب على كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الطـــرف الثـانى

فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى أصناف الكتابة مما تدعوه ضرورة الكتابة إليه على آختلاف أنواعها ، ويشتمل على أنواع

النـــوع الأوّل

ممّا يحتاج إلى وصفه النوعُ الإنسانى، وهو على ضربين

الضـــرب الأوّل

أوصافه الجسمية ، وهى على ثلاثة أقسام

القســـم الأوّل

ما يَشترِك فيه الرجال والنساء، وهى عدّة أمور

منها : حُسْن اللون؛ والألوانُ فى البَشَر ترجع إلى ثلاثة أصول؛ وهى البياض، والسُّمْرة، والسّواد؛ ويعبَّر عن السواد بشدّة الأُدْمة، وربما عبّر عن البياض بِرقّة السُّمْرة؛ ويستحسن من هـذه الألوان البياضُ؛ وأحسنُ البياض ما كان مُشْرَبا بحمرة؛ وقد جاء فى حديث ضِمام بن ثعلبة أنه حين سألَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم عند وُفُوده عليه بقوله : "أيُّكم آبنُ عبدِ المُطَّلب؟ قيل: هو ذاك الأمغَرُ المُتَّكئُ" : والأمغَرُ هو المُشْرَب بحمرة، أخذًا من المَغْرة؛ وهى الصِّبْغ المعروف .

وقد جاء فى وصفه صلى الله عليـه وسلم أنه : "أزْهَرُ اللّوْن"؛ والأزهر هو الأبيضُ بصُفْرة خفيفة . والسُّمْرة مستحسنة عنـد كثير من الناس ، وهو الغالب فى لون العَرَب ؛ وقد قيل فى قوله صلى الله عليـه وسلم : "بُعثتُ إلى الأحْمرِ والأسْوَد": إن المراد بالأحمر : العجم لغَلَبة البياض فيهم؛ والمراد بالأسود : العربُ لغلبة السُّمرة فيهم ؛ أما السواد فإنه غير ممدوح بل قد ذمّ الله تعالى السواد ، ومدح

البياض بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية ؛ على أن كثيرا من الناس قد جَنَحُوا إلى آستحسان السُّودان والميل إليهم ، وتأنقوا فى الاحتفال بأمرهم ؛ وقد نص أصحابنا الشافعية على أنه لو قال لزوجته : إن لم تكونى أحسن من القمر فأنت طالقٌ، لم تطلق وإن كانت زنجية سوداء؛ فقد قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ . وبالجملة فالحَسَن فى كل لون يستحسن؛ ولله القائل :

إن المَلِيحَ مَلِيحٌ * يُحَبُّ فى كُلِّ لَوْنِ

ومنها: حُسْن القدّ، وأحسن القُدُود الرَّبْعة : وهو المعتدل القامة، الذى لا طُولَ فيه ولا قصَر، وليس كما يقع فى بعض الأذهان من أنَّ المراد منه دُون الاعتدال . وقد جاء فى وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم، "أنَّهُ كان رَبْعَةً" . ويستحسن فى القدّ القَوَام والرَّشَاقة ، ويشبَّه بالرمح وبالغُصْن، وأكثر ما يشبه به فى ذلك أغصان البان لقَوَامها .

ومنها : سواد الشعر؛ وأكثر ما يكون ذلك فى السُّمْر، فإن آجتمع مع البياض سواد الشعر كان ذلك فى غاية من الحسن، ويشبَّه سواد الشعر بالليل ؛ وربما وقعت المبالغة فيه فشُبِّه بفَحْمة الليل، وبدُجى الليل ، وبفَحْمة الدُّجى ؛ وقد يشبَّه بالآبَنُوس ونحوه مما يغلب فيه حَلَك السَّواد .

وقد اختلف الناس فى جُعُودة الشعر وسُبُوطته أيُّهما أحسن؟ فذهب قوم إلى استحسان الجُعودة ؛ وهى انقباض الشعر بعض آنقباض ؛ وهو مما يستحسنه العرب ، وإليه ذهب الفقهاء حتّى لو شرط البائع فى عبد كونَه جعْدَ الشعر وظهر سَبِطَ الشعر رُدّ بذلك بخلاف العكس؛ وذهب آخرون إلى آستحسان السُّبُوطة ، وهى آسترسال الشعر وآنبساطه من غير انكماش؛ وأكثر ما يوجد ذلك فى الترك ومَنْ

فى معناهم . ثم الذاهبون إلى ٱستحسان الجُعُودة يستحسنون التواء شعر الصُّــدْغ ، ويشبِّهونه بالواو تارة وبالعقرب أخرى

ومنها : وضوح الجبين ، وسَعةُ الجبهة ، وٱنحسارُ الشعر عنها ؛ فيُستقبَحُ الغَمَم ؛ وهو عموم الجبهة أو بعضها بشعر الرأس .

ومنها : وَسَامة الوجه وحُسْن المُحَيَّا . ويشبَّه الوجه فى الحسن بالشمس ، وبالقمر ، وبالسيف ؛ إلا أن التشبيه بالشمس وبالقمر أتمّ من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة الاستطالة ؛ وقد جاء فى بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم : هل كان وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف ؟ فقال بل كالشمس والقمر .

ويستحسن فى الوجه حمرةُ الوجنتيْنِ ؛ ويشــبَّه لونُهما بالورد ، وبالشَّقيق ، وبالعَقيق ، وبالعَنْدَم ، وما يَجْرى مجرى ذلك مما تغلب فيه الحمرة المُشْرِقَة .

ومنها : بَلَج الحاجبين وزَجَجُهما ، فالبَلَجُ : ٱنقطاع شعر الحاجبين ، بألا يكون بينهما شعر يصل ما بينهما ، وهو خلاف القَرَن ؛ وربما استُحسن الخفىُّ من القَرَن ، وهو الذى دقَّ فيه شعر ما بين الحاجبين حتَّى لا يظهر فيه إلا خضرة خفيَّة . والزَّجَج : دقة الحاجب مع طوله بحيث ينتهى إلى مُؤْخِر العين ؛ وقد جاء فى وصف النبىّ صلى الله عليه وسلم : أنَّه كانَ أَزَجَّ الحاجِبَيْنِ .

ويُستَحْسَنُ فى الحاجبين سواد شعرهما ، وأن يكونا مقوَّسين ؛ ويشبَّه تقويسُهما بالنون تارة ، وبالقوس أخرى .

ومنها : حُسْن العينين ؛ ويستحسَنُ فى العين الحَوَر ؛ وهو خُلُوص بياض العين ؛ والنَّجَل : وهو سعتُها ، ويقال فيه حينئذ : أَنْجَلُ وربما قيل : أَعْيَنُ ، ومنه قيل للحُور : عِين . والدَّعَج ؛ وهو شِدّة سواد الحَدَقة . والكَحَل ؛ وهو أن تسودّ مواضع الكُحْل من العين خِلْقة .

وتشبه العين بالصاد تارة ، وبالجيم أخرى ؛ وتشبه بالنَّرْجِس وربما شبهت بنَوْر الباقِلَّى ، وآعتُرِض بأن فيه حَوَلا . وربما شبهت العينُ بالسيف ، وبالسَّهْم ، وبالسِّنَان ؛ وقد يستحسن فى العينين الفُتُور وضعفُ الأجفان .

ومنها : حُسْن الأنف ؛ ويستحسن فيه القَنَا ؛ وهو آرتفاع وسط الأنف قليلا عن طرفيه مع دِقَّةٍ فيه ، وهو الغالب فى العرب ؛ وقد جاء فى وصفه صلى الله عليه وسلم : أنَّهُ كان أقْنَى الأَنْفِ ؛ ويستحسن فيه الشَّمَم أيضا ؛ وهو آستواء قَصَبة الأنف وعلُوُّ أَرْنبته . ويشبه الأنف بالسيف فى بَرِيقه .

ومنها : حسن الفَم ؛ ويستحسن فيه الضِّيق ، ويشبَّه بالميم ، وبالصاد ، وبالخاتم .

ومنها : حُسْن الشفتين ، ويُستحسن فيهما الحمرة ، وتشبَّه حُمْرتهما بما تُشَبَّه به الوجنة من الورد والعقيق والمرجان ونحوها ؛ ويستحسن فيهما اللَّمَى ؛ وهو سمرة تعلو حمرتَهما .

ومنها : حسن الأسنان ؛ ويستحسن فيها الشَّنَب ؛ وهو بياض وبريق يعلوهما . وتشبه الأسنان فى البياض وحُسْن النظم باللؤلؤ ، وبالبَرَد ، وبالطَّلْع ؛ وهو نبت أبيض ، وبالأَقَاح ، وبالحَبَب ؛ وهو الذى يعلو الكأس عند شَجِّه(١) بالماء ؛ وقد تشبه بالجوهر ؛ ويستحسن فيها الأَشَر ؛ وهو تحديد الأسنان كما يقع فى كثير من الصِّبيان ؛ ويستحسن فى السِّنْخ — وهو لحم الأسنان — حمرة لونه ؛ ويشبه بالعقيق والورد وسائر ما يشبه به الخد .

ومنها : حسن الجيد ؛ وهو العنق ؛ ويستحسن فيه طُوله وبياضُه من الأبيض ؛ ويشبه بإبريق فضة .

ومنها : دِقَّة الخَصْر ؛ وهو مَعْقِد الإزار حتَّى إنهم يشبهونه بدَوْر دُمْلُج ، ودور خَلْخال وما أشبه ذلك .

(١) أى مزجه ، يقال : شج الخمر بالماء اذا مزجها به . أنظر اللسان .

قلت : وهــذه الصفات وإن كانت مستحسنة فى الرجال والنساء جميعا فإنهـا فى النساء آكدُ ؛ فإن الأمر فى الحسن منوط بهنّ ؛ فمهما كانت المـرأة أحسنَ كان أعظم لشأنها ، وأعز لمكانها . وقد قيل لرجل من بنى عُذْرة : ما بال الرجُل منكم يموتُ فى هوى امرأة ! إنما ذلك لضعف فيكم يابنى عُذْرة ، فقال : أما والله لو رأيتم النَّواظر الدُّعْج ، فوقها الحواجب الزُّج ، تحتها المَبَاسم الفُلْج ، لاتَّخذتموها اللّاتَ والعزى !

وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بمـا ملأ الدفاتر مما لا حاجة بنا إلى ذكره هنـا .

القســـم الثـانى

ما يختــص به الــرجال

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن : اللِّحية ، وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشَاءُ﴾ : إن المراد اللحية ، على خلاف فى ذلك ؛ ويستحسن فى اللحية آستدارتها وتوسُّطها فى المقدار ، وسواد شعرها . فإذا حسُنت اللحية من الرجل كَمُلت محاسنه . وتزيد الأحداث على الرجال فى الحُسْن بمقدّمات ذلك ؛ فيستحسن منهم خضْرة الشارب ، وخضْرة العارض والعذار ؛ ويشبه كل منهما بالآس ، و بالريحان ، وبدَبيب النمـل ونحو ذلك . ويشبَّه العِذار بالألف ، وباللام ، وبالباء . ويشـبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قُزَح ، وبالآس مع الورد ونحو ذلك ؛ على أن أهل الفِراسة قد استحسنوا فى الرجل أمورا تخالف ما تقدّم .

منها : سَعَة الفم وغِلَظ الشفتين وما أشبه ذلك قائلين : إن ذلك ممـا يدل على الشجاعة وهو أمر مطلوب فى الرجل كما تقدّم .

القسم الثالث

ما يختص به النساء

ومما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسمية: السِّمَنُ، فهو أمر مَطلوب فى المرأة ما لم يُفرِط ويخرُج عن الحدّ المطلوب؛ ففى الصحيحين من حديث أمّ زرع: "بنت أبِى زَرْعٍ وما بِنْت أبى زَرْع؟ مِلْءُ كِسائِها، وغَيْظُ جارتِها" إشارة إلى امتلائها بالشحم. ووصف أعرابىّ امرأة فقال: "بَيْضاءُ رُعْبُوبه، بالشحْمِ مَكْروبه، بالمِسْك مَشْبُوبه".

وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم: الخِفَّة وقلة اللحم لأجل قوة النَّهضة، وسرعة الحركة فى الحرب وغيره، والسِّمَن يمنع ذلك، مع ما يقال إن فيه تبليدا للذهن؛ قال بعضهم: ما رأيت حَبْرا سمينا إلا محمد بن الحسن يعنى صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه. وربما آستُحسن قلّة اللحم فى المرأة أيضا، وتوصف حينئذ بالهَيَف.

ومن ذلك ثِقَل الردف؛ فهو مما يُتمدّح به فى النساء بخلاف الرجل فإن ذلك فيه غير محمود.

ومن غريب ما يحكى فى ذلك أن رجلا أخذ خَطَرا من قوم على أن يُغْضب معاوية بنَ أبى سُفْيان مع غلبة حِلْمه، فعمَد إلى معاوية وهو ساجد فى الصلاة، فوضع يده على عَجِيزته وقال: ما أشبه هذه العجيزةَ بعجيزة هند! — يعنى أم معاوية فلما سلم من صلاته، التفت إلى ذلك الرجل وقال: يا هذا إن أبا سفيان كان محتاجا من هند إلى ذلك، وإن كان أحد جعل لك شيئا على ذلك فخذه.

ومما يستحسن فى المرأة طول الشعر فى الرأس، ودِقّة العظم، وصغَر القدم، ونُعُومة الجسد، وقلة شعر البدن، فى أمور أخرى يطول ذكرها.

الضـــرب الثـانى

الصفات الخارجة عن الجسد، وهى على ثلاثة أقسام أيضا

القســـم الأوّل

ما يشــترك فيــه الرجال والنساء

وهو يرجع الى أصلين : العقل والعِفّة، ويدخل تحت كل من هذين الأصلين عِدّة من أوصاف المدح . فأمّا العقل فيدخل تحته العلم؛ وصفاته : المعرفة، والحياء، والبيان، والسِّياسة، والكِفَاية، والصَّدْع بالحُجَّة، والحلم عن سفاهة الجَهَلة وغير ذلك ممــا يجرى هذا المجرى . ولا يَخفى أن هــذه الأوصاف مطلوبة فى الرجال والنساء جميعا و إن كان أكثرها بالرجال أليق .

وأما العِفّة فيدخل تحتها : القَناعة، وقِلّة الشَّرَه، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما لايستغنى عنه رجل ولا آمرأةٌ، و إذا رُكِّب العقلُ مع العِفّة حدث عنهما صفاتٌ أُخرى مما يتمدّح به : كالنَّزاهة، والرغبة عن المسألة، والاقتصار على أدنى معيشة، ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السلك .

القســـم الثـانى

ما يختص به الرجال دونـ النساء

وهو يرجع الى أصلين أيضا، وهمــا العَدْل والشجاعة، ويدخل تحت كل من الأصلين عدّة أوصاف من أوصاف المدح؛ فيدخُل تحت العدل السَّماحة، والتبرُّع بالنائل، و إجابة السائل، وقِرى الضيف، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة عدّة أوصاف كالحِمَاية والدِّفاع ، والأخذ بالثأر، والنِّكاية فى العدوّ، والمَهَابة، وقتل الأقران، والسير فى المَهَامِه المُوحشة، وما أشبه ذلك؛ و إذا رُكّب العقل مع الشجاعة

حدث عنهما صفات أُخرى مما يتمدح به كالصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

ما يختص به النساء

ويرجع الى أصلين مذمومين فى الرجل ؛ وهما الجُبْن والبُخْل ؛ وذلك أن المرأة اذا جَبُنت كفَّت عن المَسَاوى خوفا على نفسها أو عِرْضها ، وإذا بَخِلت حفِظت مال زوجها عن الضَّياع والإتلاف ؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال الممدوحة أربعةَ أوصاف : آثنان يشتركون فيهما مع النساء ، وهما العقل والعفة ؛ وآثنان ينفردون بهما عن النساء ، وهما العدل والشجاعة .

وتكون أوصاف النساء الممدوحة أربعة أيضا : آثنان يشتركْن فيهما مع الرجال ، وهما العقل والعفة ؛ وآثنان ينفردن بهما عن الرجال ، وهما الجُبْن والبُخْل ؛ فيمدح كل من الصنفين بما هو مشتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .

قال قُدَامة بن جعفر الكاتب فى نقد الشعر : ومدائح الرجال تنقسم بحسَب الممدوحين من أصناف الناس فى الآرتفاع والآتضاع ، وضروب الصناعات والتبدّى والتحضُّر ؛ فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل ؛ فمدح الملوك يكون بما يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلو الرتبة والآنفراد عن المِثل والقرِين ؛ كقول النابغة فى النعمان بن المنذر :

أَلَمْ تَر أنّ الله أعْطاكَ سُورَةً * تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونها يَتَذَبْذَبُ
بأنك شمسٌ والمُلُوك كواكبٌ * إذا طلَعتْ لم يبدُ منهنّ كَوْكَبُ

وما يجرى مجرى ذلك ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والدّربة ، وحسن التنفيذ والسياسة ، فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة فى إصابة الحزم ، والاستغناء بحضور الذهن عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكمل للمدح كما قيل :

بَديهتُه مِثْـلُ تفكيرِه ٭ متى رُمْتَهُ فهو مُسْتَجمع

وكما قيـــل :

يُرى ساكنَ الأوصَالِ باسِطَ وَجْهِه ٭ يُرِيكَ الهُوَيْنى والأمُورُ تَطِيرُ

ويُمْتَدح القائد يعنى الأمير الذى يقود الجيش بما يجانس البأس والنجدة ، ويدخل فى باب البطش والبَسَالة ، فإنْ أضيف إلى ذلك المدحُ بالجُود والسماحة والحذق والبَذْل والعطية كان أحسن وأتم ، من حيث إن السخاء أخو الشجاعة ، وهما فى أكثر الأمور موجودان فى ذوى بُعْدِ الهِمَّة ، والإقدام والصولة ، كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

فتًى دَهْرُه شَطْرانِ ممّا يَنُوبه ٭ ففى بأسه شَطر وفى جُوده شطر

فلا مِنْ بُغَاةِ الخيرِ فى عَيْنِه قَذًى ٭ ولا مِنْ زَئِيرِ الحَرْب فى أُذْنِه وَقْر

قال : وتمـدح السُّوقة والمتعيشون بأصناف الحِرَف وضُروب المكاسب ، والصَّعاليك بمـا يضاهى الفضائل النفسانية من العقل والعِفَّة والعَـدل والشَّجاعة ، خاليا عن مثل مدح الملوك ومن تقدّم ذكره من الوزراء والكُتّاب والقُوَّاد .

ويمدح ذوو الشجاعة منهم بالإقدام والفتك والتشمير والتيقُّظ والصبر مع التحدّق والسَّماحة وقلّة الاكتراث بالخطوب الملمة ونحو ذلك

قلت ويؤخذ ممـا ذكره قدامةُ أن القضاة والعلماء يُوصَفون بما يليق بمحلهم من ذلك ، فيوصف العالم بثَقَابة الذهن ، وحدَّة الفهم ، وسَعَة الباع فى الفضل ، وما يجرى

مَجْرى ذلك، ويُوصَفُ القُضاة بذلك وبالعدل والعفة ومباينة الجور ونحو ذلك ؛ وستقف فى قسم الولايات فى نسخ البيعات والعهود والتقاليد والتواقيع والتفاويض والمراسيم ونحوها من ذلك بما(١) يتضح لك به سواء السبيل .

وٱعلم أن الكاتب كما يحتاج إلى معرفة الصفات المحمودة من النوع الإنسانىّ كذلك يحتاج إلى معرفة الصفات المذمومة منه ؛ فربما ٱحتاج إلى الكتابة بذم شىء من ذلك فيكون عنده من العلم بالصفات المذمومة ما ينفق معه(٢)؛ كما حكى أن بعض العمال بعث إلى الرشيد بعبد أسود فقَلَب كتابه ووَقَّع عليه: أما بعدُ فإنّك لو وجَدْتَ عَدَدا أقل من الواحد، أو لَونا شرًّا من السواد لبعثت به إلينا والسلام .

ولا يخفى أن كل ما خالف صفة من الصفات المستحسنة المتقدّمة فهو مستقْبَح مع ما هو معلوم من الصفات المذمومة الجسمية، كالحَدَب والحَوَل ونحوهما؛ ومن الصفات المعنوية، كسُوء الخُلُق وبَذاءة اللسان ونحو ذلك. وفى هذا مَقْنَع فى الإرشاد إلى المراد والتنبيه على القَصْد .

النــــوع الثـانى

ممـا يحتاج إلى وصفه هى دوابّ الركوب ؛ وهى أربعة أصناف

الصـــــنف الأوّل

الخيـــل

ويحتاج إلى المعرفة بوصفها فى مواضع ؛ من أهمها وصفُها عند بعث شىء منها فى الإنعام والهدايا، والجواب عن ذلك ؛ ووصفُها فى ترتيب الجُيُوش والموَاكب، وذكرها فى مجَالات الحرب، وما يجرى مجْرى ذلك ؛ ويشتمل الغرض منه على معرفة

---

(١) أى على ما يتضح .　　(٢) لعله منه .

أصنافها، وألوانها، وشِيَاتها، وما يُستحسن ويستقبح من صفاتها، ومعرفة الدوائر التى تكون فيها، والبصَر بأمور أسنانها وأعمارها .

أما أصنافها فثلاثة

الأوّل : العِرَاب، وهى أفضلها وأعلاها قيمةً، وأغلاها ثمناً، تطلب للسبق واللحاق، والملوك تتغالى فى أثمانها وتُعِدّها لمهم الحرب، وتُوجَد ببلاد العرب ومحلاتهم فى أقطار الأرض، كالحجاز، ونجد، واليمن، والعراق، والشأم، ومصر، وبَرْقة، وبلاد المغرب وغيرها .

الثانى : العَجَميّات، وهى البَرَاذين ويقال لها : الهَمَالِيجُ، وتُعرَف الآن بالأكاديش وتُجلَب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم، وغالبُ ما تُوجد مشقوقةَ المناخر، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشى .

الثالث : المُوَلَّد بين العراب والبَرَاذين، فإن كان الأبُ عَجَمِياً والأم عربيةً قيل له : هَجِين، وإن كان بالعكس قيل له : مُقْرِف، وهى تكون فى الجَرْى والمشى متوسطة بين النوعين .

وأما ألوانها فقد ذكر ابن أبى أصبع : أن أصُول الألوان فيها ترجع إلى أربعة ألوان، وما سواها مفترع عنها .

الأوّل : البياض، وقلّ أن يَخْلُص من لون يخالطه، فإن صفا بياضه قيل فيه : أشْهَبُ قِرْطاسيٌّ، فإن كان أذناه وقوائمه وعُرْفه وذيلُه سُودا قيل : مُطَرَّف، فإن خالط البياض شعرٌ أسود والأغلب فيه البياض قيل : أشهبُ كافوريٌّ، وإن كان السوادُ فيه أغلبَ قيل : أشهبُ حديديٌّ، وأشهبُ أشمطُ، وأشهبُ مخلَّس(١)، فإن كان

(١) فى الأصل بالصاد وهو تصحيف، كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان فى مادة خ ل س .

فيه نُكَتٌ سُود قيل : أشهب مُفَلَّس، فإن ٱتَّسَعتْ قليلا قيل : أشهبُ مُدَنَّر، فإن كان فى شُهْبته طرائقُ قيل : أشهبُ مُجَزَّع، فإن كان فيه بُقَعٌ من أىّ لَوْن كان دون البياض قيل : مبقّع، فإن صغُرت تلك البُقَع قيل : أبقعُ، فإن تفرقتْ وٱختلفتْ مقاديرُها قيل : أشيمُ، فإن تعادَلَ ذلك اللونُ مع البياض مع صِغَر النُّقَط من اللونين قيل : أنمش، فإن تناهتْ فى الصغر قيل : أبْرَشُ، فإن كان البياض نُكَتًا صغيرة فى ذلك اللون قيل : مُفَوَّف، فإن كان شىء من ذلك كله فى عضو واحد قيد به مثل قولك : مُفَوَّف القَطَاة، وأنمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثانى : السَّواد، فإذا كان الفرس شديدَ السواد قيل فيه : أدْهَمُ، فإن ٱشتدّ سوادُه قيل : أدْهَمُ غَيْهَبىّ، فإن علا السوادَ خضرةٌ قيل : أحْوَى والجمع حُوٌّ، فإن خالط سوادَه شُقْرة قيل : أدْبَسُ، فإن ٱنضم إليه أدنى حمرةٍ أو صُفْرةٍ قيل : أحمُّ، فإن ضرب سوادُه إلى يسيرٍ بياض قيل : أوْرَقُ، ونحوه الأَكْهَبُ، وفى دونه من السواد يقال : أرْبَدُ .

الثالث : الحمرة، إذا كان الفرس خالص الحمرة، وعُرْفه وذَيْلُه أسودان قيل فيه : أوْرَد والجمع وِرَاد والأنثى وَرْدة، فإن خالط حُمْرتَه سوادٌ فهو كُمَيْت، الذكر والأنثى فيه سواء، فإن صفت حمرته شيئا قليلا قيل : كميت مُدَمًّى، فإن كان صافيا قليل الحمرة وعُرْفه وذيله أشقران قيل : أشقر فإن كان أحمر وذيلُه وعرفه كذلك قيل : أمغر، فإن خالط شُقرةَ الأشقر أو الكميتَ شَعْرةٌ بيضاءُ قيل : صِنَابِىٌّ، أخذا من الصِّنَاب وهو ٱلخرْدل بالزبيب، فإن كانت حمرته كصدإ الحديد قيل : أصدأ، فإن زاد فيه السواد شيئا يسيرًا قيل : أجْأَى والاسم : الجُؤْوَة .

الرابع : الصُّفرة، فإن كانت صُفرته خالصةً تُشْبه لون الذهب وعُرْفه وذيله أصْهبانِ مائلان إلى البياض قيل : أصفر خالِصٌ، فإن كانا أبيضين قيل : أصفر

فاضح ، فإن كانا أسودين قيل : أصفر مطرّف ، وهو الذى يسمونه فى زماننا الحبشىّ ؛ فإن كان أصفر ممتزجا ببياض قيل : أشهب سَوْسنىّ ، فإن كان فى أكارعه خُطوط سُود قيل : مَوْشىّ .

وأما شياتها وهى البياض المخالف للونها ، فمنها : الغُرّة ، وهى البياض الذى يكون فى وجه الفرس اذا كان قَدْره فوق الدّرهم ، فإن كان دُونَ الدرهم قيل : فى الفَرس أقرَح والعامة تقول فيه : أغْرُ شعرات ، فإن جاوز البياضُ قدرَ الدرهم قيل فيه : أعْرَم[1] ، ثم أول رتبة الغرّة يقال له : النَّجْم فإن سالت الغُرّة و رقَّت ولم تجاوز جبهته قيل فيه : أغرّ عُصْفُورىّ ، فإن تمادَتْ حتّى جلَّلت خَيْشُومه ولم تبلغ جَحْفَلته قيل : أغرُّ شِمْراخىّ ، فإن ملأتْ جبهته ولم تبلغ العينين قيل : أشْدَخُ ، فإن أصابتْ جميع وجهه إلا أنه ينظر فى سوادٍ قيل : مُبَرْقَع ، فإن فشَتْ حتّى جاوزتْ عينيه وآبيضّت منها أشفاره قيل : مُغْرَب ، فإن أصابت منه خدًّا دون خدّ قيل : لَطِيم أيْمَنُ أو أيسَرُ ، فإن كان بشَفَته العُليا بياض قيل : أرثمُ ، وإن كان بالسفلى بياض قيل : ألْمَظُ[2] ، فإن نالها جميعا قيل : أرثمُ ألْمَظ .

ومنها : التحجيل فى الرِّجلين وما فى معنى ذلك ، إن كان البياض فى مؤخر الرُّسْغ لم يستدِرْ عليه قيل فى الفَرَس : مُنْعَل ، وإن كان فى الأربع قيل : مُنْعَل الأربع ، أو فى بعضها أضيف إليه فقيل : مُنْعَل اليدين أو الرجلين أو اليد أو الرجل اليمنى أو اليسرى ، فإن آستدار على الرُّسْغ ، وهو المَفْصِل الذى يكتنفُه الوَظيفُ والحافرُ وكان فى إحدى الرجلين قيل : أرجَلُ ، وإن كان فى الرجلين جميعا قيل : مُخَدَّم وأخْدَمُ ، فإن جاوز رُسْغ الرِّجل وآتصل بالوَظِيف ، وهو ما بين الكعب وبين أسفله

(١) وقع فى الأصل أعرم بإعجام الغين وهو تصحيف .

(٢) فى الأصل أمعط بالنون والطاء وهو تصحيف .

ولم يجاوز ثُلُثيه قيل: مُحَجَّل، أخذا من الحِجْل، وهو الخلخال، فإن كان فى رِجْل واحدة قيل: مُحَجَّل الرجل اليمنى أو الرجل اليُسرى، فإن كان فى الرجلين جميعا قيل: محجَّل الرجلين، فإن كان معه فى إحدى اليدين بياض يجاوز الرُّسْغ إلى دون ثلثى الوظيف قيل: محجَّل الثلاث مطلقُ اليد اليمنى أو اليسرى، فإن كان البياض فى اليد الأخرى كذلك قيل: محجَّل الأربع، فإن كان البياض فى اليدين فقط قيل: أعصَمُ، سواء جاوز الرسغ أم لا، ولا يُطْلَق التحجيل على اليدين أو إحداهما إلا بانضمام إلى تحجيل الرجلين أو احداهما، فإن كان فى اليد الواحدة قيل: أعْصمُ اليد اليمنى أو اليسرى، وإن كان فيهما قيل: أعصَمُ اليدين، وإن كان التحجيل فى يد ورجل من جانب واحد قيل: مُمسَك، وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل: مُمْسَك الأيامن مطلقُ الأياسر، وإن كان بالعكس قيل: مُمْسَك الأياسر مطلقُ الأيامن، وإن كان التحجيل فى يد ورجل من خلاف فهو الشِّكال، وقيل: الشكال بياض القائمتين من جانب، وقيل: بياض ثلاث قوائم، فإن تعدّى البياضُ حتّى جاوز عُرْقوبَىِ الرِّجلين أو ركبَتَىِ اليدين قيل: فيه مُجبَّب، فإن علا البياضُ حقْوى(١) رجليه ومِرْفَقىْ يديه قيل: أبلَق، فإن زاد على ذلك حتّى بلغ الأفخاذ والأعضاد قيل: أبلَقُ مُسَرْوَل، فإن آختص البياض بيدَيْه وطال حتّى بلغ مِرْفَقَيْه قيل: أقْفَز ومُقَفَّز، فإن كان البياض فى الوظيف غير متصل بالرسغ ولا بالعُرْقوب ولا بالرُّكبة قيل: مُوَقَّف .

ومنها: الشِّيات التى تتخلل سائر جسدها، فإن كان الفرس مبيَضَّ الأذنين أو فى أذنيه نَقْش بياض دون سائر لونه قيل فيه: أَذْرأ، وإن كان مبيض الرأس قيل: أصْقَع، فإن آبيضّ قفاه قيل: أقْنَف، فإن شابت ناصيته قيل: أسْعَف، فإن آبيضّت

(١) كذا فى الأصل بالقاف، ولعله مصحف عن النون لان الحقو الخاصرة وبقية الكلام يأباه، أما الحِنو فهو الإعوجاج، والغرض جاوز البياض العرقوبين ولم يبلغ الأفخاذ الخ .

جميعها قيل : أصبغُ الناصية ؛ فإن غشّى البياض جميع رأسه قيل : أغشى ، وربما قيل فيه : أرْخَم ؛ فإن ابيضّ رأسه وعنقه جميعا قيل : أدْرَعُ ؛ فإن ابيض ظهره قيل : أرْحَلُ ؛ فإن كان ذلك البياض من أثر الدَّبَر قيل : مضرد ؛ فإن ابيضّ بطنه قيل : أنْبَطُ ؛ فإن ابيضّ جَنْباه قيل : أخْصَفُ ؛ فإن كان البياض بأحد جَنْبيه قيل : أخصف الجنب الأيمن أو الأيسر ؛ فإن ابيضّ كفَلُه قيل : آزرُ ؛ فإن ابيضّ عَرْض ذَنَبه من أعلاه : قيل أشْعَلُ ؛ فإن ابيضّ بعض هُلْبه دون بعض قيل : مُخَصَّل ؛ فإن ابيضّ جميعُ هُلْبه قيل : أصبغ هُلْب الذَّنَب ؛ فإن عدى عرقو به البياض جملة قيل : بهيم ومُصْمَتٌ من أى لون كان .

وأما ما يُستحسَن من أوصافها فقد قال العلماء بأمر الخيل : يستحَبُّ فى الفرس : دِقّة الأُذنين وطولُها وانتصابُهما ، ودقة أطرافهما ، وقُرْب ما بينهما ؛ وكل ذلك من علامات العتْق : وفى الناصية ؛ اعتدال شعرها فى الطُّول ، بحيث لا تكون خفيفة الشعر ولا مُفْرِطةً فى كثرته ؛ ويقال فى هذه : الناصية الجَثْلة . ويُستحبُّ مع ذلك : لِينُ الشَّكِير — وهو ما طاف بجَنْب الناصِيّة من الزَّغَب — ويستحب : عِظَم الرأسِ وطُوله وسَعة الجبهة ، وأَسالة الخدّ ، ومَلاستُه ، ودِقّته ، وقلّة لحم الوجه ، وعُرْىُ الناهِضَين — وهما عظمان فى الخدّ — وسَعةُ العين ، وصفاء الحَدَقَة ؛ وذلك كله من علامات العِتْق . ويستحبُّ فى العين : السُّمُوّ والحِدّة ورقّةُ الجُفُون وبعدُ نظره .

قال ابن قتيبة : وهم يصفونها بالقَبَل والشَّوَس والخَوَص ، وليس ذلك فيها عيبا ولا هو خلقـةً ، وإنمـا تفعله لعزة أنفسها . ويستحَبُّ فى المنخر : السَّعة ، لأنه إذا ضاق شقّ عليه النَّفَس ؛ قال : وربما شُقّ مُنْخُره لذلك وبعد ما بين المنخرين . ويستحب فى الفم : الهَرَت — وهو طول شَقّ شِدْقيه من الجانبين — لأنه أوسع لخروج نَفَسه ، ورقة الجَحْفَلتين وهما الشفتان لأنه دليل العِتْق ، وطولُ اللسان ليكثر

ريقه فلا ينبهر، ورقته لأنه أسرع لقضمه العلف، وصفاء الصهيل لأنه دليل صحة رئته وسهولة نَفَسه.. ويستحب في العُنُق : الطُّول، فقد كان سَلْمان بن ربيعة يفرق بين العِتاق والهجن، فدعا بطست من ماء فوضعت بالأرض ثم قدّمت الخيل اليها واحدا واحدا فما ثنى سُنْبُكه منها ثم شرب هَجَّنه، وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقا، لأن في أعناق الهجن قِصَرا فلا تنال الماءَ حتّى تثنى سنابكها؛ وقد روى أنه هَجَّن فرس عمرو بن معدى كرب فاستعدى عليه أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال سَلْمانُ : ادع بإناء فيه ماء ثم أُتِى بفرس عتيق لا شك فى عتقه فأشرع فى الإناء فصف بين سُنْبُكَيه ومدَّ عنقَه فشرب؛ ثم قال : ائتونى بهجين لا شك فيه فأشرع فبرك فشرب؛ ثم أُتِى بفرس عمرو بن معدى كرب فأشرع فصف بين سنبكيه ومدّ عنقه ثم ثنى أحد سنبكيه قليلا فشرب؛ فقال عمر: أنت سلمانُ الخيل.

ويستحب فيها مع ذلك الكبر لأنه أقرب لانقياده وعَطْفِه، وغلظُ مُركَّب عنُقه ودقَّة مَذْبَحه. ويستحب فيه : ارتفاع الكَتِفين والحارِك والكاهِل؛ وقِصَر الظهر وعِرَض الصَّهوة — وهى مقْعَد الفارس من الظهر — وارتفاع القَطَاة — وهى مقعد الرِّدْف من الظهر أيضا — وقلة لحم المَتْنَين وهما ما تحت دفتى السرج من الظهر. ويستحب فى الكفل : الاستواء والاستدارة والمَلاَسة والتدوير. ويستحب : طُول السَّبِيب، وهو الشعر المسترسِلُ فى ذيله، وقِصرُ العَسِيب، وهو عَظْم الذنب وجِلْدُه، ولذلك قال بعض الأعراب : اختَرْه طويلَ الذَّنب قصير الذَّنَب يعنى طويل الشعر قصير العَسيب.

قال ابن قتيبة : ويستحب : أن يرفع ذَنَبه عند العَدْو، ويقال : إن ذلك من شدّة الصُّلْب. ويستحب عِرَض الصدر، وهو ما عَرُض حيثُ ملتقى أعلى لَبَبه، ويسمَّى : اللَّبَان والكَلْكَل؛ وكذلك ارتفاعه عن الأرض مع دِقَّة الزَّوْر، وهو

ما استدق من صدره بين يديه بحيث يقرُب ما بين المِرْفَقين لأنه أشدّ له وأقوى لجريه ، ويستحب فيه : عِرَضُ الكتف وغِلَظه وقِصَر النَّسا ، وهو عِرْق فى الساق مستبطِن الفخذ ، وشَنَجُه ، وقِصَر وَظِيف اليد ، وهو قَصَب يديه ، وقِصَر الرُّسْغ ، ودِقَّة إبرة العُرْقوب وتحديده ، لأنه أشدّ لقَصَب الساق ، وطُولُ وَظيف الرجل ليخْذِف الأرضَ بها فيكون أشدّ لعدوه ، وغِلَظُ عَظْم القوائم ، وغِلَظُ الحِبَال ، وهى عَصَب الذراعين ، ولُطْف الرُّكْبة ، وقُرْب ما بين الركبتين ، وشِدّة كَعْبه ، لأن ضَعْف الكعب داعية الجَرَد[1] ، وانحناء الرجلين وتوتُّرهما ، وبُعْدُ ما بين الرجلين ، وهو الفَحَج ، لأنه أشــد لتمكّن رجليه من الأرض . ويستحب : صفاءُ الحافر ، وصَلابَتُه ، وسعتُه ، وكونه أزرقَ أو أخضَرَ غير مَشُوب ببياض ، لأن البياض دليل الضعف فيــه ، وأن يكون مع ذلك فيــه تقَعُّب ، ولُطْف نُسُوره ، وهى شىء فى باطن حافره كالنوى ، لأنه إذا ضاق موضعها كان أصلب لحافره ، وأن تكون أطراف سَنَابكه وهى مَقَادم حوافره رقيقةً .

ويستحب فيه مع ذلك كلّه : اتساع إهَابه وهو جلده ، ورقّة أديمه ، وصفاء لونه ، ولِينُ شعره ، وكثرةُ عُرْفه ، وكثرة نومه ، وسَعة خطوه ، وخِفَّة عِنانه ، ولِين ظهره ، وحُسْن استقلاله فى أوّل سـيره ، وخِفَّة وَقْع قوائمه على الأرض إذا مشى ، وشدّة وقعها اذا عَدَا ، مع حِدَّة نفسه وسُرعة عَدْوه ، واتساع طرقته ، وقــد يغتفر القِطَاف فى المشى فى دوابّ الجَرْى .

ثم إنه قد يحتمل فواتُ آلة الحسن والفَرَاهة فى المشى ولا يُغتفَر النقص فى آلة الجَوْدة وشدّة العَدْو والصَّبْر ، لأن بهما يدرك ما يطلُب ، وينجو ممـا يَهْرُب .

---

(١) فى اللسان الجرد : ورم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتى يمنعه المشى والسعى .

وأما ما يُستقبح ويُذَمّ من أوصافها، فقد ذكروا للفرس عدّة عيوب، بعضها خِلْقية وبعضها حادثة .

فمن العيوب الخلقية: البدد، وهو بُعْد ما بين اليدين، والصَّمَم، وهو ألا يسمع وعلامته أن يراه يَصُرُّ أذنيه أبدا إلى خلف، وإذا جُرّ خلفه خشبةٌ ونحوها لا يشعر ولم ينفر عنها، والخذاء، وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحوَ العينين أو الخدّين كآذان الكلاب السَّلُوقيّة، والطَّوَل، وهو أن تطول إحدى أذنيه وتقصر الأخرى، وكونه أسَكَّ، وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها: السَّفا، وهو قلّة شعر الناصية، والغَمَم، وهو أن يكثُر شعر الناصية ويطُول حتّى يغطّىَ العين، وهو عيب خفيف، والسَّفا(١)، وهو خفة الناصية .

ومنها: القَرَح، وهو أن يكون البياض الذى فى الوجه دُون قدر الدرهم كما تقدّم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجيل ونحوه فلا يكره حينئذ، فإن كان فى وسط البياض فى الوجه سواد كان عيبا يُتشاءم به .

ومنها: العَشا، وهو ألّا(٢) يُبْصر ليلا فيصير بمثابة نصف فرس، لأنه لا ينتفع به فى الليـل دون النهار، وكونه قائم العين، وهو الذى يكون على ناظره سواد يضرب للخُضْرة والكُدْرة يقلّ معها بصرُه، والحَوَل، وهو أن يكون بإحدى عينيـه بياضٌ خارجَ سواد الحدقة من فوق، ويكون خلاف العين الأخرى وهو مع ذلك مما يتبرَّك به بعض الناس، ويقول: إذا كان ذلك فى العينين كان أعظم لبركته، والخَيَف، وهو أن تكون إحدى عينيـه زرقاءَ، وهو ممـا يُتشاءم به لا سيما إذا كانت الزُّرقة فى العين اليسرى، فإن آزرقّت العينان جميعا كان أقلّ لشُؤمه، وغُـؤور العينين، وهو

(١) أى: أن السفا بهذا المعنى عيب خفيف .

(٢) فى الخط إسقاط لا، وفى المطبوع إثباتها وهو الظاهر .

دخولها فى وجهه ، والغَرب ، وهو بياض أشفار العينين ، يكون عنه ضعف بصره فى القمر والحر الشديد ، والكُمْنة ، وهو أن يبصر قدامه ، ولا يبصر عن يمينه ولا شماله .

ومنها : القَنا ، وهو احديداب فى الأنف ، ويكون فى الهُجن ، والخَنَس ، وهو أن يُرى فوق مَنْخِريه منخسفا لأنه يضيق نَفَسه إذا ركَض .

ومنها : الفَطَس ، وهو أن تكون أسنانه العُلْيا داخلة عن أسنانه السُّفلى ، والطَّبْطَبة ، وهو أن تسترخىَ جَحْفلته السفلى فإذا سار حركها وطبطبها كالبعير الأهْدَل ، وأن يكون فى حنكه شامةٌ سوداء وسائر فمه أبيض .

ومنها : قِصَر اللسان ، لأنه إذا قَصُر لسانه قلَّ ريقه فيُسرِع إليه العَطَش ، والخَرَسُ ، وعلامته أن تراه يصهَل ولا يُحَمْحِم ، وهو عيب لطيف .

ومنها : القَصَر ، وهو غلظ فى العنُق ، واللَّفَف ، وهو استدارة فيه مع قصر ، والدَّنَن ، وهو طُمَأْنينة فى أصل العنق ، والهَنَع ، وهو طمأنينة فى وَسَط العنق ، والقَوَد ، وهو يُبْس فى العنق بحيث لا يقدِر الفرسُ أن يدير عنقه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشى ، وهو عيب شديد ، والجَسَأُ ، وهو يُبْس المَعْطِف .

ومنها : الكَتَف ، وهو انفراج يكون فى أعالى كَتِفَى الفرس مما يلى الكاهل ، والقَعَس ، وهو أن يطمئنَّ الصُّلْب من الظهر وترتفع القَطاةُ ، والبَزَخ ، وهو أن يطمئن الصُّلْب والقَطَاة جميعا ، وهو عيب ردىء يَضُرُّ بالعمل ، وكونُ الكَفَل فيه تحديد ويكون العجُز صغيرا ، والفَرَق ، وهو نُقصان إحدى حَرْقَفتَى الوركَيْن ، فإن نقصتا جميعا فهو ممسوح الكفل ولا عَيْب فيه .

ومنها : الدَّنَن ، وهو تطامُن الصدر ودُنُوُّه من الأرض ، وهو من أسوإ العيوب ، والزَّوَر ، وهو دخول إحدى فَهْدتَى الصدر وخروج الأخرى .

ومنها : الهَصَم ، وهو آستقامة الضلوع ودخول أعاليها ، والإخطاف ، وهو لُحوق ما خلف المَحزِم من بطنه ، والشَّجَل ، وهو خروج الخاصرة ورقّة الصِّفاق .

ومنها : العَصَل ، وهو التواء عَسِيب الذَّنَب حتى يبرُز بعضُ باطنه الذى لا شعر عليه ، والكَشَف ، وهو أكثر من ذلك ، والصَّبَغ ، وهو بياض الذَّنَب ، والشَّعَل ، وهو أن يبيضَّ عَرْض الذنب وهو وسطه .

ومنها : الفَحَج ، وهو إفراط بُعْد ما بين الكعبين ، والحَلَل ، وهو رَخاوة الكعبين ، ويلتحِقُ به تقويسُ اليدين ، وهو عيبٌ فاحش ، والطَّرَق ، وهو أن ترى ركبتيه مفسوختين كالمقوَّستين إلى داخل ، وهو عيب فاحش ، والقَسَط ، وهو أن ترى رجلاه منتصبتين غير مُحَنَّبتين ، والبَدَد ، وهو بُعد ما بين اليدين ، والفَحَج ، وهو إفراط بُعدِ ما بين العُرقوبين ، والقَفَد ، وهو آنتصاب الرُّسْغ وإقبالُه على الحافر ولا يكون إلا فى الرِّجْل ، والصَّدَف ، وهو تدانى الفخذين وتباعدُ الحافرَيْنِ فى التواء من الرُّسْغين بحيث ترى رُسْغى يديه مفتوحين ، والتَّوجيه ، وهو نحو منه إلا أنه أقل من ذلك ، والفَدَع ، وهو التواء الرُّسْغ من عُرْضه الوحشىِّ من الجانبين(١) من رأس الشَّظى ، ووطْؤه على وحشىِّ حافريه جميعا وهو الجانب الخارجُ ، والارتهاش ، وهو أن يصُكَّ بعُرض حافره عُرْض مُجَايته من اليد الأخرى وذلك لضَعْف يده ، والحَنَف ، وهو أن يكون حافرا يديه مكبوبين إلى داخل ، والنَّقَد ، وهو أن يرى الحافر كالمتقشر ، والشَّرَج ، وهو أن يكون ذو الحافر له بيضة واحدة ، والأَرَحُّ ، وهو أن يمس الأرض بباطن حافره .

ومنها : البدد فى اليَدَين ، وهو أن يكون اذا مشى يدير حافره إلى خارج عند النَّقْل وليس فيه ضرر فى العمل ، والتلقُّف ، وهو أن يخبط بيديه مستوى(٢) لا يرفعُهما إلى بطنه ، وهو خلاف البَدَد .

(١) لعله أو من الجانبين . (٢) فى اللسان . فى آستنانه .

ومنها : التلويح، وهو أن يكون الفرس إذا صربته حرّك ذنبه، وهو عيب فاحش فى الجُودة لأنه ربما بالت الجر ورشّت به صاحبها .

الضـــرب الثـانى

العُيوب الحادثةُ، وهى عِدّة عيوب

منها: الحَدَب، ويكون فى الظهر بمثابة حَدَبة الإنسان، وهو عيبٌ فاحش، والغُدّة وتكون فى الظهر أيضا بإزاء السُّرة .

ومنها: العنق، وهو آنتفاخ ووَرَم بقدر الرُّمانة أو أقلّ مما يلى الخاصرة، وهو عيب فاحش لا علاج فيه .

ومنها : الحَمر، وهو عيب يحدث عن تُخَمة الشعير، وربما كان من شرب المـاء على التعب فيحدث عنه ثِقَل الصدر .

ومنها: الآنتشار، وهو آنتفاخ العَصَب بواسطة التَّعَب، ويكون من فوق الرُّسْغ إلى آخر الركبة، وهو عيب فاحش .

ومنها : تحرُّك الشَّظَاة، وهو عظم لا صق بالذِّراع، وهو على الفـرس أشق من الآنتشار .

ومنها : الرَّوَح، وهو داء يكون منه غِلَظٌ فى القوائم كمثل داء الفيل فى البشر .

ومنها : المَشَش، وهو داء يكون فى بدء أمره ماءً أصفرَ، ثم يصير دمًا، ثم يصير عظما، ويكون على الوظيف وفى مَفْصِل الركبة، وهو على العَصَب والركبة شرٌّ منـه على الوظيف .

ومنها : القَمَع، ويكون فى الرجلين فى طرف العُرْقوبين، وهو غلَظ يعتريهـما، والمَلَح، ويكون فى الرجلين تحت القَمَع من خَلْف، وهو آنتفاخٌ مستطيلٌ لا يضر

بالعمل؛ والجَرَذ؛ وهو كالعظم الناتئ يكون فى الرجلين تحت العُرْقوبين على المَفْصِل من داخل ومن خارج؛ وهو عيب فاحش تَشُول منه الدابة إلى العَطَب؛ والنَّفَخ؛ وهو انتفاخ يكون فى مواضع الجَرَذ؛ وهو من دواعى الجَرَذ؛ والعُقَال؛ وهو أن تَقَلِص رجلُه، وذلك يكون فى عصَب الرجل الواحدة دون الأخرى، وربما كان فى الرجلين جميعا، وهو عيب فاحش يضُرّ بالعمل؛ وهو فى البرد أشدّ منه فى الحرّ.

ومنها: الشُّقَاق؛ وهو داء يصيبه فى أرساغه، وربما ارتفع إلى وظيفه؛ والسَّرَطان؛ وهو داء يأخذ فى الرُّسْغ فَيُيَبِّس عروقَه حتّى ينقلب حافره.

ومنها: العَرَنُ؛ وهو جُسوءٌ فى رُسْغ رجله؛ والدَّخَس؛ وهو ورم يكون فى حافره؛ والقَفَد؛ وهو تَشَنّج عصب رُسْغه حتّى ينقلب حافره إلى داخل فيمشى على ظاهر الحافر.

ومنها: النَّمْلة؛ وهى شَقٌّ فى الحافر من ظاهره؛ والرَّهْصة؛ وهى ما يكون فى الحافر من صَدْمة ونحوها — والعامّة تقولها بالصاد — والقَشَر؛ وهو أن تتقشر حوافره؛ وهو عيب فاحش؛ والنَّاسُور — وهو الذى تسميه العامة الوَقْرة — وهو داء يحدث فى نُسُور الدابة فإذا قُطِع سال الدمُ منه.

ومنها: الأُدْرة؛ وهى عِظَم الخُصْيتين، وربما عَظُمت خُصْيتاه فى الصيف واحمرّت[1] فى الشتاء؛ والمُدْلِي؛ وهو الذى يدلى ذَكَرَه ثم لا يردّه؛ وهو عيبٌ قبيح بحيث يقبحُ ركوب الفرس الذى به هذا العيب.

ومنها: البَرَص؛ وهو بياض يعترى الفرسَ فى مَرَقّاته؛ كالجَحْفَلة وجُفُون العينين وبين الفخذين والخُصْيَتين.

---

(١) ولعله واضطمرتا.

ومنها : الحلذ؛ وهو داءٌ شديد ينقُب موضعه من بَدَن الدابة يسيل منه ماءٌ أصفرُ، فإذا كُوى بالنـار بَرَأ وآنفتح موضعٌ آخَرُ، فلا يزال كذلك حتّى تعطَب الدابة ؛ وهو عيب فاحش، فى عيوب أخرى يطول ذكرها .

وفى كتب البَيْطرة، ذكر الكثير من ذلك مع علاج ما له عِلاجٌ منه وبيان ما لا علاجَ له .

وأما الدوائر التى تكون فى الخيل فقد عدّها العرب ثمـانِى عشرةَ دائرةً، بعضها مستحب وبعضها مكروه .

الأُولى : دائرة المُحَيَّا — وهو الوجه — وهى اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية: دائرة اللَّطَاة؛ وهى دائرة تكون فى وسط الجبهة . الثالثة : دائرة النَّطيح؛ وهى دائرة ثانية فى الجبهة بأن يكون فى الجبهة دائرتان . الرابعـة : دائرة اللَّهْزِمة؛ وهى دائرة تكون فى لِهْزِمة الفرس . الخامسة : دائرة المِقْوَد(١)؛ وهى التى تكون فى موضع القِلادة . السادسـة : دائرة السَّمَامَة؛ وهى دائرة تكون فى وَسَط العنق . السابعة والثامنـة : دائرتا البَنِيقتيْنِ؛ وهما دائرتان فى نَحْر الفرس فيما قاله الأصمعى .

وقال أبو عبيد : البَنِيقة الشعر المختلف فى منتهى الخاصرة والشاكلة . التاسعة : دائرة الناحر؛ وهى دائرة فى باطن الحلق الى أسفل من ذلك . العاشرة : دائرة القالع؛ وهى دائرة تكون تحت اللِّبْـد . الحـادية عشرة : دائرة الهَقْعة؛ وهى دائرة تكون فى عُرْض الزَّوْر . الثانيـةَ عشرةَ : دائرة النافذة؛ وهى دائرة ثانية تكون فى الزَّوْر بأن تكون فيه دائرتان فى الشِّقين فى كل شِقّ منهما دائرة؛ وتسمّى النافذةُ : دائرةَ الحزام أيضا . الثالثةَ عشرةَ والرابعةَ عشرةَ : دائرتا الخَرَب؛ وهما اللتان يكونان تحت

(١) فى المخصص : المُقُوم .

الصَّقرين وهما رأسا الجبتين اللتين هما العظمان الناتئان المشرفان على الخاصرتين كأنهما صَقْران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة : دائرتا الصَّقْرين، وهما دائرتان بين الجَبَتين والقُصْرَيَيْن . السابعة عشرة والثامنة عشرة : دائرتا الناخس، وهما دائرتان تكونان تحت الخاعرتين .

قال ابن قتيبة : وهم يكرهون منها أربع دوائر، وهى دائرة الهَقْعة، مع ذكره أن أبقى الخيل : المَهْقُوع . ودائرة القالع . ودائرة الناخس . ودائرة النطيح . قال : وما سوى ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

وذكر صاحب زهر الآداب فى اللغة : أنهم يستحبون من الدوائر دائرة المَقْود[1]، ودائرة السَّمَامَة، ودائرة الهَقْعة، احتجاجا بأن أبقى الخيل المَهْقُوع ، ويكرهون دائرة النَّطيح ، ودائرة اللَّهْزمة ، ودائرة القالع .

ورأيت فى بعض كتب البيطرة : أن المستحب منها ثلاث دوائر : دائرة المَقْود ، ودائرة السَّمَامَة ، ودائرة الهَقْعة ، وما عدا ذلك فهو مكروه .

وكره حكماء الهند : دوائرَ أخرى ذكروها ، وهى أن يكون فى مقدّم يده دائرةٌ ، أو فى أصل ذنبه من الجانبين دائرتان أو على ناصيته دائرة ، أو على مُحِجره دائرة ، أو فى جَحْفلته السُّفْلى دائرة ، أو على سُرَّته دائرةٌ ، أو على مِنْسَجه دائرتان .

وأما أسنان الخيل : فأول ما تَضع الجِحْرة جنينَها قيل : مُهْر ، والأنثى مُهْرة ؛ فإذا فُصِل عن أمه قيل : فَلُوٌّ ، فاذا استكمل حَوْلا قيل : حَوْلىّ والأنثى حَوْليّة ؛ فإذا دخل فى الثانية قيل : جَذَعٌ والأنثى جَذَعة ؛ فإذا دخل فى الثالثة قيل : ثَنِىٌّ

(١) فى المخصص : العموم .

والأنثى ثنيّة ، فإذا دخل فى الرابعة قيل : رَبَاع والأنثى رَبَاعِيَة ، فإذا دخل فى الخامسة قيل : قارِح للذكر والأنثى .

وفى الغالب يلقى أسنانَه فى السنة الثالثة ، وربما تأخر إلقاؤها الى السنة الرابعة ؛ وذلك إذا كان أبواه شابّين ، وقد يلقى أسنانه فى حول واحد ، وذلك إذا كان أبواه هَرِمين . ثم لكل مُهْر اثنتا عَشْرةَ سِنًّا : سِتّ من فوقُ وستٌّ من أسفَلُ ، ويليهـا من كل جانب نابٌ ، ويليها الأضراس ، وتنبت ثَنَاياه ، بعد وضعه بخمسة أيام ، وتنبت رَبَاعِيَاته بعـد ذلك الى مدّة شهرين ؛ وتُنْبُت قوارحه بعـد ذلك الى ثمـانية أشهر ؛ ويختص التبديل منها بالأسنان الاثنى عشرة دُون الأنياب والأضراس . وربما ألقى المهر بعضَ أسنانه ، ثم لا تنبُت ؛ وإذا قَرَح المهر اصفرّت أسنانُه ، واسودّت رءوسها وطالتْ فيبقى كذلك خمسَ سـنين ؛ فإذا جاوزت ذلك ابيضت وحَفِى رءُوسها ، ثم تنتقل فتصـير كلون العسل خمسَ سـنين ، ثم تبيض فتصير كلون الغُبَار ويزداد طولها ؛ وربما دلّس النخّاسون فنشروا أسنانها وسوّوْها .

ومما وجد فى الكتب القديمة : أنّ الفرس تتحرك ثناياه فى سبع وعشرين سنةً ؛ وتتحرك الرَّباعِيَات فى ثمان وعشرين سنة ، وتتحرك القَوارِح فى تسع وعشرين سنة ؛ ثم تسـقُط الثنايا فى ثلاثين سنة ، والرَّباعِيَات فى إحدى وثلاثين سـنة ، والقَوَارِح فى اثنتين وثلاثين سنة وهو عمر الدابة .

وأما التفرّس فى الخيل : فاعلم أن المُهْر وإن ظهرت فيه علامات النَّجابة أو العكس لا عبرة بذلك ، فإنه قد يتغير فيقبُح منه ما كان حَسَنا ، ويحسن منه ما كان قبيحا ؛ وإنما يتفرّس فيه إذا ركبه لحم العَلَف ، وذهب عنه لحمُ الرَّضاع .

وأفضل الفراسة فى المهر : أخذُه فى الجرْى ، فإنه صنعتهُ التى خلق عليها وإليها يئول ؛ فإذا أحسن الأخذ فى الجـرى فهو جَوَاد ؛ ولكنه ربمـا تغير أخذه للجرى

إذا رُكِب لضَعف فيه حينئذ، وقصور عن بلوغ مدى قوّته؛ وقد لا يجرى جَذَعا ويجرى ثنيًّا، وقد لا يجرى ثنيًّا ويجرى رباعيًّا، وقد لا يجرى رباعيًّا ويجرى قارحًا حين تجتمع له قوّته . ويعرَف ضَعف الضعيف منها بتلوّيه تحت فارسه وعَجْزه عنه وفترته إذا نزل عنه .

ومما يدل على جَوْدة الفرس وحُسن جريه : أنه يراه إذا أخذ فى الجرى سَمَا بهاديه، وأثبتَ رأسه، ولم يستعن بهما فى حُضْره واجتمعت قوائمُه، وسَبَح بيديه وضَرَح برجليه، ولها فى حُضْره، وامتدّ، وبسط ضَبْعيه حتّى لا يجد مزيدا، وتكون يداه فى قَرَن، ورجلاه فى قَرَن؛ فإذا كان الفرس كذلك فهو الجَوَاد السابق .

وقد قيل : إن خير الخيل الذى إذا مشى تكفّأ، وإذا عدا بسط يديه، وإذا أدبر جَفَا، وإذا أقبل أقعى .

الصنف الثانى

"البغال"

وفيها نوعيّة فى الخيل والحَمير، من حيث إنها تتولّد بين حِصَان وأتان، أو بين حمار وحِجْرة[1] . وفيها النفيس المختار لركوب الرؤساء من العلماء، والوُزَراء، والحكام وسائر رؤساء المتعمّمين . وإنه صلى الله عليه وسلم فى يوم أُحُد كان راكبًا بغلةً؛ ولولا شرَفُها ونَفاستُها وقيامُها مَقام الخيل لما ركبها النبيّ صلى الله عليه وسلم فى موطن الحرب . وألوانها وأسنانها على ما تقدّم فى الخيل .

---

(١) قد تكرر فى هذا المقام تأنيث الحِجر بالهاء، وفى القاموس ما نصه : والحِجر الأنثى من الخيل وبالهاء لحن؛ قال شارحه : وهو عامىّ مبتذل، ثم نقل عن الشهاب تصحيحه فتنبه .

ويستحسن فيها غالب ما يستحسن فى الخيل ؛ وقد قيل : إن خيار ما يقتنى من البِغَال ما آشـتدّت قوائمه وعظُمت قَصَرتُه، وعنُقه وهامَتُه، وصـفَتْ عيناه، ورحب جوفُه، وعَرُض كفَلُه، وَسَلم من جميع العيوب والعِلَل .

ومما يستَحْسَنُ فى البغال دون الخيل : السَّفَا ؛ وهو خفة شعر الناصية ؛ وأن يكون بيديها ورجليها خُطُوط مختلفة، جُلّ ما تكون للسّنَّور. ويقال : إن خيرما يختار للسرج والركوب البِغالُ المصرية، لأن أمّهاتها عِتاق وهُجُن ؛ وخيار ما يُحتاج إليـه للسّرايا والمواكب والرَّكْض مع الخيل : بِغالُ الجزيرة وإفريقيَة .

ومما ينبغى التنبيه عليه : أن فى البغلات منها شدّةَ محبة للدوابّ إذا ربطت معها، وفساد للدواب إذا اعتادتها حتّى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة .

ويحسن فى البغال : الخَصْى ؛ وفى البغلات : التَّخْويص . ولا يُعاب ركوب شىء منها حينئذ إذا كان نفيسا .

الصـــنف الثـالث

" الإبـــل "

ويشـتمل الغرض منهـا على معرفة أنواعها، وألوانها، وأسنانها، وما يُستَقْبح ويُستحسن من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلى نوعين .

الأوّل : البَخَاتِىُّ ؛ وهى جمـال جُفَاة القُدُود، طويلةُ الوَبَر، تجلَب من بلاد الـــترك .

الثانى : العِرَاب ؛ وهى الإبل العربية وأصنافها لا يأخذها الحَصْر . وأما ألوانها فترجع إلى ثلاثة أصول :

الأوّل : البياض، فالجملُ إذا كان خالص البياض قيل : آدمُ والأنثى أدْماء من الضدّ من بنى آدم؛ فإن خالط البياض يسيرُ شُقْرة قيل : أعْيَسُ والأنثى عيْساء .

الثانى : الحُمْرة، فإن آحمرّ وغلبت عليه الشُّقْرة قيل : أصْهَبُ والأنثى صَهْباء؛ فإن خلصت حمرتُه قيل : أحمرُ والأنثى حمراءُ؛ فإن خالط حمرته قُنُوءٌ قيل : كُمَيت؛ فإن صفتْ حمرتُه قيل : أحمر مُدَمًّى؛ فإن خالط الحمرة خُضرةٌ قيل : أحْوى؛ فإن خالطها صُفْرة قيل : أحمر رادِنِىّ بكسر الدال؛ فإن خالطها سَوادٌ قيل : أَرْمَكُ والأنثى رَمْكاءُ؛ فإن كانت حمرته كَصَدإ الحديد قيل : أَجْأَى .

الثالث : السواد، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل : أكْلَف؛ فإن خالط السواد صفرةٌ قيل : أحْوى؛ فإن عَلِق بسواده بياضٌ قيل : أوْرَق؛ فإن زادت وُرْقته حتى أظلم بياضُه قيل : أدهم؛ فإن آشتد سواده قيل : جَوْن؛ فإن كان بين الغُبْرة والحمرة قيل : خَوّار والأنثى خَوّارة .

وأما أسنانها فإنه يقال لولد الناقة عنـد الوضع قبل أن يُعرف أذكر أم أنثى : سَليل؛ فإن بان أنه ذكر قيل : سَقْب؛ وإن بان أنه أنثى قيل : حائل؛ ثم هو حُوَار حتى يُفطم؛ فإذا فُطِم وفُصِل عن أمه قيل : فصيل؛ وذلك فى آخر السنة الأولى من وضعه؛ فإذا دخل فى الثانية قيل : آبن مَخَاض؛ لأن أُمَّه فيها تكون من المخاض — وهى الحوامل — والأنثى بنت مخاض؛ فإذا دخل فى الثالثة قيل : آبن لَبُون؛ لأن أمّه فيها تكون ذات لبن والأنثى بنت لبون؛ وإذا دخل فى الرابعة قيل : حِقّ؛ لأنه يستحق أن يحمَل عليـه والأنثى حِقّة؛ فإذا دخل فى الخامسة قيل : جَذَع والأنثى جَذَعة؛ فإذا دخل فى السادسـة قيل : ثَنِىّ؛ لأنه يُلْقى فيها ثَنِيّتَه والأنثى ثَنِيّـة : فإذا دخل فى السابعة قيـل : رَبَاع — بفتح الراء — لأن فيها يلقى رَبَاعِيتَه والأنثى رَباعِيـة

بالتخفيف ، فإذا دخل فى الثامنة قيل : سَدِيس وسَدَس ، الذكر والأنثى فيه سواء ، وربمـا قيل : فى الأنثى سَدِيسة ، فإذا دخل التاسعة قيـل : بازِلٌ ، لأنه فيها يَبْزُل نابُه ، والذكر والأنثى فيه سواء ، وقد يقال فيه : فاطِر ، فإذا دخل فى العاشرة قيل : مُخْلِف ، وليس وراء ذلك للإبل ضَبْط بل يقال مُخْلِف عام ومخلِف عامين فأكثر ، فإذا علا السن بعد ذلك قيل فيه : عَوْد والأنثى عَوْدة ، فإن علا عن ذلك قيل : قَحْر ، فإن تكسرتْ أنيابه لطُول هَرَمه قيل : ثِلْب والأنثى ثِلْبة ، ويقال فى الناقة إذا كان فيها بعضُ الشباب : عَزُوم ، وربمـا قيل : شارف .

وأما ما يستحسن من صفاتها فقد رأيت فى بعض المصنّفات أن كلّ مايستحب فى الفَرَس يستحب فى البعير خلا عِرَض غارِبه ، وفتـل مِرْفَقِه ، ونَكْس جاعِرَته وهى أعلى الوَرِك ، وانْدِلاق بطنه ، وتفرّش رجليه ، فإن ذلك يسـتحب فى الإبل دون الخيل .

وقد صرّح الشعراء فى أشعارهم بعدّة أوصاف مستحسنة فى الناقة .

منها : دقة الأُذُن ، وتحديد أطرافها ، وكِبر الرّأس ، وآسـتطالة الوجه ، وعِظَم الوجنتين ، وقُنُوُّ الأنف ، وطول العُنق وغِلَظه ، ودقة المَذْبَح ، وطُول الظهر ، وعظم السَّنام — وهى : الكَوْماء — وطُول ذنبها ، وكثرةُ شعره ، غليظةُ الأطراف ، قليلة لحم القوائم ، ليست رَهِلة ، ولا مسترخيةً ، وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، مَلْساءَ الجلد ، تامّةَ الخلق ، قويّةً ، صُلْبة ، خفيفة سَريعة السير .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل : هِجَان من نِتاج مَهْرَةَ : وهى قبيلة من قُضاعةَ باليمن ، والعِيديّة منسوبة إلى بنى العِيد من قبيلة مَهْرة المذكورة ، والأَرْحَبِيّة منسوبة إلى بنى أرحَبَ ، والغُرَيرِيّة منسوبة إلى غُرَيْر ، وهو فحل كريم

مشهور فى العرب؛ والشَّذْقَمِيَّة منسوبة إلى شَذْقَم : فحل كريم أيضا ؛ والجَديليَّة منسوبة إلى جَديل : فحل كريم ؛ والدَّاعِرِيَّة منسوبة إلى داعر: فحل كريم كذلك. قال فى كفاية المتحفظ : والشَّدَنيَّة منسوبة إلى فحل أو بلد .

الصنف الرابع
"الحمير"

ومنها : النَّفيس الغالى الثمن ، وخيرها حُمُر الديار المصرية ؛ وأحسنُها ما أُتِى به من صعيدها ؛ وهى تنتهى فى الأثمان إلى ما يقارب أثمانَ أوساطِ الخيل ، وربما يميِّز العالى القدر منها على المنحط القدر من الخيل . والأحسنُ فيها ما كان غليظ القوائم ، تامّ الخَلْق ، حَديد النفس .

ولا عيبَ فى ركوب الحمار ولا وَهيصَة(١) ؛ فقد ثبت فى الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم رَكِبَ الحمار ؛ ولا عُبرة بترفُّع(٢) من تَرَفَّع عن ركوبه بعد أن ركبه النبى صلى الله عليه وسلم .

النوع الثالث
ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده ، وهو أصناف

الصنف الأوّل
"جليل الوحش"

وهو ما يتخذه الملوكُ للزِّينة وما فى معناها . ويحتاج الكاتب إليه لوصفه فى الهدايا والمواكب ، وما يجرى مجراهما .

(١) لعل مراده ولا نقص ، ولم نقف فى مادة (و هـ ص) ولا (و هـ ص) على هذا المعنى .
(٢) فى الأصل : « برفع » .

والمعول عليه من ذلك خمسة أضرب :

الأوّل "الأَسَد" ـــ ويجمع على أُسْد وأُسُد وأُسُود وآساد ـــ ويقال له أيضا : اللَّيْث والضَّيْغم ، والضِّرْغام ، والهِزَبْر ، والهَيْصَم ، والهِرْماس ، والفُرَافِصَة ، وحَيْدَرَةُ ، والقَسْوَرَةُ ؛ وله أسمـاء كثيرة سوى هـذه لا تكاد تدخل تحت الحصر ، حتّى قال ٱبن خالويه : للأسد خمسمائة ٱسم . ويقال لولده : الشِّبْل ، ولأُنْثاه : اللَّبُؤة .

قال ٱبن السندى فى كتابه "المصايد والمطارد" : وإذا تأملت أصناف الحيوان وبحثت صُوَرها وما أُعطِيتْ من الأَسْلِحة ومقادير الخَلْق ، وجدتَ الأسد أعظم خَلْقة ، وأكثر آبِدةً ، وأشد إقداما من جميعها ، ليست له غريزة فى الهَرَب البتّة .

ومن خصائصه وعجيب خَلْقه أن عَظْم عُنُقِه عظْمٌ واحد ليست له خَرَز عظام كما فى غيره من الحيوان ، بدليل أنه لا يَلْوِى عنقه ولا يلتفت ؛ ومع ذلك فهو يبتلع الشىء العظيم . ولَبُوته لا تلد إلا جرْوا واحدا ، وإنما تضعه كاللَّحْمة ليس فيه حِسٌّ ولا حركة ، فتحرُسه ثلاثةَ أيام ، ثم يأتى أبوه فينفُخ فيه المرّةَ بعد المرّة حتّى يتحرّك ، ثم تأتى أُمّه فتُرْضعه ؛ ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام ؛ ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر . وهو قليل الشرب للماء وإن كان لا يفارق الغِيَاض ؛ وله صبر على الجوع ؛ ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقُه ؛ وليس يُلْقِى رَجِيعه إلا مرّةً واحدة فى اليوم ، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب ، ويبول الى خَلْف كما تبول الجِمـال . وهو أشدّ السِّـباع ضَرَاوةً على أكل بنى آدم ؛ وإذا ٱفترس فريسةً وأكل منها لا يعـود اليها ؛ ولا يطأ أثَرَه شىء من السباع .

قال ٱبن السندى فى "المصايد والمطارد" : ولا يأكل من فريسةِ غيره من السباع . وقد قيل : إنه يهرُب من الهر ، ومن الجَرْو ، ومن الدِّيك الأبيض ؛ وإنه اذا رأى

النار عرضت له فكرة أو رثته بهتة؛ وأنه يهرب من عُوَاء الجرو اذا عُرِكَتْ أذنه .
ويقال: إن جلده اذا جعل فيما يخاف عليه السُّوس من الثياب وغيرها أمِنَ من ذلك؛
وإنه اذا عمل منه وتر قوس وأُضِيف الى أوتارٍ من فِراء ومِعًى أو غيرهما أبطل أصواتها
وعلا صوته عليها . ومن طبعه أنه لا يشرب ماء وَلَغ فيه كلب وإن مات عطشا .

الثانى "النُّمُور" — جمع نَمِر (بفتح النون وكسر الميم) ويجمع أيضا على أنمار
ونِمَار ؛ والأنثى نَمِرة . وهو حيوان مُرَقَّع اللون بسَواد وبياض ، أقربُ شيء من
خِلْقة الفَهْد؛ وهو أَخْبَثُ من الأسد؛ لا يملك نفسَه عند الغضب حتّى انه ربما قتل
نفسه من شدّة غضبه .

قال ابن السندى : وهو وَدُود لجميع الحيوان، عَدُوٌّ للنَّسْر؛ وينام ثلاثة أيام .
والحيوان يُطِيف به ويميل اليه آستحسانا لجلدته .

وهو جنسان أحدهما : عظيم الجُثَّة صغير الذَّنَب ، والثانى : صغير الجُثَّة
عظيم الذنب .

قال فى "المصايد والمطارد" : ويصاد بالخمر لأنه يحبها . قال : ومَن أراد
قتله تمسَّحَ بشحم ضَبُع ودخل عليه فقتله .

الثالث "الكَرْكَدَن" — بفتح الكافين وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة
ونون مشدّدة فى الآخر.(١)

قال الزمخشرى فى "ربيع الأبرار" : وهو وحْش يكون ببلاد الهِنْد يُسَمى
الحِمَار الهندى ، له قرن واحد فى جبهته يبلغ غِلَظُه شبرين ، وهو محدّد الرأس
إلا أنه ليس بالطويل ؛ وأنه اذا قطع ظهرت فيه صور عجيبة . وإنه رُبَّما نطح

(١) ضبطه فى القاموس بتشديد الدال (أى وتخفيف النون) ، وقال : والعامة تشدّد النون .

الفيل فبعجه بقرنه . وإن أنثاه تحمل سبع سنين ، وإنه إذا كان بأرض لم يدع شيئا من الحيوان حتى يكون بينه و بينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبة له وهربا منه .

الرابع "الفيل" — وهو حيوان يُؤتى به من بلاد الهند والحبشة .

قال الجاحظ : وهو من الحيوانات المائية وإن كان لا يسكن الماء . وهو من ذوات الخراطيم ، وخرطومه أنفه ، كما أن لكل شيء من الحيوان أنفا ، وهو يده ، وبه يتناول الطعام والشراب ، ومنه يُغَنِّى ويجرّ فيه الصوت كما يجرّه الزامر فى القصبة بالنفخ . قال : وأصحابنا يزعمون أن بينه وبين السِّنَّور عداوة ، وأن الفيلَ يهرُب منه هَرَبا شديدا .

وذكر صاحب "الحيل فى الحروب" أنه يقصُر[1] عن صوت الخنزير وأنه بذلك ينَفِّر فى الحروب . وقد ذكر الجوزى : أن للفيل إقداما على السبع .

قال الجاحظ : وهو يعادى البعوضَ لأنه يثقُب جلده بقرصه ، ومن ثم يرى الفيل دائما يحرك آذانه ليطرد عنه الناموس . وهو مخصوص بخفة وقع قوائمه على الأرض اذا مشى ، حتى لو أن إنسانا كانَ جالسا وجاء الفيل من خلفه لما شعر به .

وذكر عبد القاهر البغدادىّ[2] : أن الفِيلةَ تحمل سبعَ سنين ، وقيل : سنتين ، وقيل : ثلاث[3] قبل أن تضع ، وأن لسان الفيل مقلوب : طرَفُه داخلَ حلْقه وأصله من خارج ، على العكس من سائر الحيوان ، وأن ثدييها على كبدها ، وترضع أولادها من تحت صدرها .

---

(١) لعله يقصو بالواو بدل الراء أى يبعد .

(٢) فى حياة الحيوان : عبد اللطيف ، وسيأتى بعد صحائف على الصواب مرارا .

(٣) كذا فى الاصل ، وعبارة حياة الحيوان : «ولا ينزو عليها اذا وضعت إلا بعد ثلاث سنين» .

وقد ذكر الغزالى: أن فرجها تحت بطنها، فاذا كان وقت الضِّراب ٱرتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس "الزَّرَافة" (بفتح الزاى وضمها) وهى حيوان يؤتى به من بلاد الحبشة واليمن، طويلُ اليدين، قصيرُ الرجلين، ذَنَبه وحوافره كذَنَب البقر وحوافرها، ورقبتُه ورأسه كرقبة الجمل ورأسه، ولونه مُوَشًّى بالبياض والصُّفْرة .

قال الجاحظ : وقد زعموا أن الزرافة تتولد بين الناقة من نُوق الحبشة وبين بَقَر الوحش وبين الذِّيخ — وهو ذَكَر الضِّبَاع — وذلك أن الذيخ يعرض للناقة فيسفِدُها فتلقح بولد يجىء خلقه بين الناقة والضبع ، فإن كان الولد أنثى عَرَض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى الولد زرافةً ، وإن كان ذكرا تعرّض للمهاة فألقحها فيأتى الولد زرافة أيضا .

قال : ومنهم من يزعم أن الزَّرافة الأنثى لا تَلْقح من الزَّرافة الذكر ؛ ثم قال : وهذا مشهور باليمن والحبشة . ثم إن كانتْ أسنانها سُودا دلت على هَرَمها، وإن كانت بيضًا دلت على حَدَاثة سنِّها .

ومن أمراضها : الكَلَب — وهو كالجنون يعتريها كما يعترى الكلب فيقتلها — وكلُّ من عضته وهى على هذه الحالة قتلته إلا ابن آدم فإنه ربما عولج فسلم . ومن أمراضها أيضا : الذِّبْحة والنِّقرس .

الصنف الثانى

"مُعَلَّمات الصيد"

وقد يعبر عنها بالضَّوارى؛ وهى كل ما يقبل التعليم من الوُحُوش كائنا ما كان؛ حتَّى حكى عن السُّودانىّ القنَّاص : أنه بلغ من حذقه أنه ضرّى ذِئْبا حتَّى ٱصطاد به

الظباءَ وما دونها ، وألفه حتّى رجع إليه من ثلاثين فرسخا ؛ وضرّى أسدا حتّى آصطاد به حُمُر الوحش . ويقال : إن آبن عِرْس يُجْعَل حبل فى عنقه ويُدخَل على الثعلب فلا يخرج إلا به . وهى على ضربين :

الأوّل "الفُهودة" ـ جمع فَهِد بكسر الهاء(1) ـ وقد زعم أرسطوطاليس : أنه يتولد من أسد ونَمِرة أو من نمر ولَبُوة . وهو من السباع التى تصادُ ثم تُؤنَّس حتّى تصيد . وهو من الحيوان المحدّد الأسنان ، وأسنانه يدخل بعضها فى بعض كالكلب وغيره .

قال فى "التعريف" : وأوّل من صاد به كِسرى أنو شروان أحدُ ملوك الطبقة الأخيرة من الفُرس . قال فى "المصايد والمطارد" : و يصطادونه بضروب من الصيد :

منها : الصوت الحَسَن ، فإنه يصغى إليه إصغاء شديدا .

ومنها : كدّه و إتعابُه حتّى يحمى و يعيا و ينبهر ويحفى ؛ فإذا أخذ غُطِّيت عيناه، وأُدخِل فى وعاء ، وجعل فى بيت ما دام وحشيًّا ، و وضع عنده سراج و لازمه سائسه ليلا ونهارا ولم يدَعْه يرى الدنيا ، ويجعل له مَرْكَبًا كظهر الدابة يعوّده رُكوبَه و يطعمه على يده فلا يزال كذلك حتى يتأنّس ؛ فإذا ركب مؤخّر الدابة فقد صار داجنا وصاد .

و فى طباعه أمور :

منها : كثرة النوم حتّى يضرَب بنومه المَثَل فيقال : «أَنْوَمُ مِنْ فَهْد» ؛ وكثرةُ الحياء حتّى إنه لايُعلم أنه عاظَلَ أنثى بين يدى الإنس ، وقد عُنى بمراعاته فى ذلك فلم يوقَف عليه ، و إن كان الأسد يفعل ذلك كثيرا .

ونقل آبن السندى عن بعض الفَهّادة : أن سائسه إذا أمرّ يده عليه اطمأن إليه ومال ، فإذا وضع يده على فرجه نفر وعضّ يده .

---

(1) الذى فى معاجم اللغة "الفهد" و زان فلس و جمعه فهود .

ومنها : الغَضَب حتّى إنه إذا أُرسل على صيد فلم يحصِّلْه احتد ؛ وان لم يأخذ سائسه فى تسليته قتل نفسه أو كاد .

قال صاحب "المصايد والمطارد" : والمسنّ من الفُهُود إذا صيد كان أسرع فى الصيد من الجرو الذى يُربَّى ويؤدَّب . والأنثى أصيدُ من الذكر كعامّة إناث الجَوارح . قال : وليس شيء من الوحش فى قدر جِرْم الفهد إلا والفَهْد أفضل منه . قال فى "المصايد والمطارد" : وضدُّ الفهد الظباءُ والوعول على اختلاف أجناسها .

الثانى "الكلاب" — جمع كَلْب ويجمع على أكْلُب أيضا وعلى كَليب ، كعبد وعَبِيد . والأنثى كَلْبة ، وتجمع على كلبات بالفتح . وهو حيوان شديد الرِّياضة ، كثير الوَفاء مشتَرِك الطِّباع بين السبع والبهيمة ، لأنه لو تم له طباع السَّبُعية لما ألف الناسَ ، ولو تم له طِباع البهيمية لما أكل اللحم . ويقال : إنه يحتلم وأُنثاه تحيض ، وتحمل أنثاه ستين يوما ، وربما حملت أقلّ من ذلك . ويَسْفِد بعد سنة ، وربما تقدّم على ذلك ، ولها عند السِّفاد اشتباك عظيم . وإذا سفَدَ الأنثى كلبان مختلفان أتت عن كل واحد بلونه . وفيه من اقتفاء الآثار وشَمِّ الرائحة ما ليس لغيره من الحيوان . والمَيْتةُ أحبُّ إليه من اللحم الغَرِيض .

ومن طبعه : انه يحرُس صاحبه شاهدا أو غائبا ، ذاكرا أو غافلا ، ونائما أو يقظانَ . وهو أيقَظُ حيوان فى الليل ؛ وإذا نام كَسر أجفان عينيه ولا يُطْبقها لخفَّة نومه .

ومن عجيب شأنه أنه يكرم الرَّئيسَ من الناس فلا ينْبَحه وإنما ينبَح أوباش النـاس .

ومن طبعه أن الضبع إذا مشَتْ على ظله فى القمر رمى بنفسه بين يديها فتأكله ، وإذا ظَفِر بكلب غريب كاد يفترسه .

وقد أجاز الشارع اتخاذها للصيد ونحوه، وأباح صَيْدها مع نجاسة عينها .

قال فى "التعريف" : وأول من اتخذها للصيد دارا أحدُ ملوك الفُرْس . قال فى " المصايد والمطارد " : وإذا كسر الكلب الأرانب فهو نهاية وإن كان يُطيق فوق ذلك . والكلب يمسك لصاحبه، ولذلك لا يأكل من الصيد بخلاف سائر الجوارح . قال : وإناثها أسرع تعلّما من الذكور، وأطول أعمارا حتّى إنها تعيش عشرين سنة .

ومن خاصية الكلب : أنه إذا عاينَ الظِّباء قريبةً كانت أو بعيدة عرف منها العليلَ من غيره، والعنز من التيس؛ فيتبع التيس منها دون العَنْز وإن كان التيس أشدّ عَدْوا وأبعدَ وَثْبةً، لأنه يعلم أن التيس إذا عدا شَوْطا أو شوطين غلب عليه البولُ ولا يستطيع إرساله فى عدوه فيقلّ عند ذلك عَدْوُه ويقصر مَدَى خُطاه فيدركه الكلب؛ بخلاف العنز فإنها إذا اعتراها البول أرسلته لسَعَة مَسيله؛ والكلب يعرف ذلك كلّه طبعا، وكذلك يعرِف بِحَرة الأرانب والثّعالب، وإن ركبها الثلج والجليد بشمه فيقف عليه ويثير ما فيها من الوحش؛ وإذا صَعِد منه أرنبٌ إلى أعلى جبل شاهق كان له من التلطّف فى الارتقاء والصعود ما لا يلحقه غيره، بل لا يخفى عليه من الصيد الميتُ من المُتماوِت .

ومن خصائص الأنثى : أنها تحمل ستين يوما ويبقى جِرْوها بعد الولادة اثنَىْ عشرَ يوما أعمى؛ وأكثرُ ما تضع ثمانيةُ أجْراء، وربما وضعت واحدا فقط . ورأس الكلب كله عظمٌ واحد . والكلب يطرح مَقادِمَ أسنانه ويخلفها، ولكنه لا يظهر لكثير من الناس لأنه لا يُلقِى منها شيئا حتّى ينبت فى مكانه غيرُه . والفرق بين الذكر والأُنثى أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأنثى تبول مُقْعية وربما رفعت رجلها ؛ والذكر يَهِيج للسِّفاد فى السنة قبل الأنثى ؛ وأسنان الذكر أكثر ومَضْغه أشدّ .

قال الجاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد بين الصفرة والحمرة، ثم البيض اذا كانت عيونها سوْداء . وذكر صاحب "المصايد والمطارد" : أن الأبيض أفرهُ، والأسودَ أصبرُ على الحر والبرد .

ومن علامة النجابة والفرَاهَة فيه : أن يكون تحت حنكه طاقةُ شعر مفردةٌ غليظة، وأن يكون شعر حدّيه جافيا . ومن علامة الفرَاهَة : طُول ما بين يديه ورجليه ، وقِصَر ظهره ، وصِغَر رأسه ، وطُولُ عُنُقه ، وغضَف أُذُنيه ، وبُعْدُ ما بينهما ، وزُرْقة عينيه ، وضخامة مُقْلتيه ، ونتوءُ حدقته ، وطولُ خَطْمه وذَقَنه ، وسَعَةُ شِدْقه ، ونتو جبهته وعِرَضها .

ويستحب فيه : أن يكون قصير اليدين، طويل الرجلين، طويل الصدر غليظه، قريبَهُ من الأرض، ناتئَ الزور، غليظ العَضُدين، مستقيم اليدين، منضمَّ الأظافير، عريض ما بين مفاصل الأعطاف، عَريض ما بين عظمَيْ أصل الفخذين مع طولها وشدّة لحمهما ، دقيق الوَسط ، مستقيم الرجلين، قصير الساقين، غير مُخْنَى الركبتين، قصير الذنب إن كان ذكرا مع دقة وصلابةَ . وإن الكلبة إذا ولدت واحدا كان أفرهَ من أبويه، وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفرهَ من الأُنثى، وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى فى شَبَه الأم كانت أفره من الثلاثة ، وإن كان فى الثلاثة ذكر واحد كان أفرهها؛ وإذا أُلقيت الجراءُ وهى صغار فى مكان ندىّ فأيها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها : الكَلَب — بفتح اللام — وهو داء كالجنون يعترى الكَلْب يؤثّر فيمن عضه أنه يخرج من ذكره جِراءٌ صغار .

ومن عجيب ما يحكى فى ذلك : أن رجلا عضّه كَلْب كَلِب فتلقاه بكمه فأصابته أسنانه ولُعَابه، فشمّر كُمّه ساعةً ثم نشره فتساقط منه جِراءٌ صغار .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سَلُوقيّة (بفتح السين) وزُغَاريّة (بضم الزاى) .

فأمّا "السَّلُوقية" فمنسوبة إلى سَلُوق : بلدة من اليمن، كما قاله صاحب "المصايد والمطارد" والمؤيد صاحب حماه فى تقويم البُـلْدان، والمقرّ الشهابى آبن فضـل الله فى "التعريف" .

قال فى "التعريف" : وهى مولدة بين الثعالب والكلاب، ولذلك لاتقبل التعليم إلا فى البطن الثالث منها، قال : ولهـا سِلَاح جيد . قال فى "المَصَايد والمَطَارد" : ولهـا أنساب كأنساب الخيل، قال : وقلّ أن يَعرِض لهـا مَرَضُ الكَلَب .

وأمّا "الزُّغَاريّة" فهى ألطفُ قَدّا من السَّلُوقية، ولم أدر إلى ماذا تُنْسَب .

الصـــــنف الثـالث

ما يعتنى بصيده من الوحش، والمشهور منه عشرون ضربا

الأوّل "الحمارة العتابية" وهى حيوان فى صورة البِرْذَوْن موشّى الجلد بالبياض والسَّواد يَرُوق الناظرَ حسنُها . وقد كان أُهْدِى للظاهر برقوق — سقى الله عهده — حمارةٌ من هذا النوع، فأقامت مدّة، ثم أعطاها فقيرا من فقراء العجم فكان يركبها كما تركب الخيل والحمير ويمشى بها فى القاهرة، ثم عوّضه الناصر بن الظاهر سلطانُ العصر عنها عِوَضًا، وآعتادها منه، وأرسلها فى هديّة لآبن عثمان صاحب بلاد الروم غربىّ الخليج القُسْطنطينى .

الثـانى "البقر الوحشية" — وتعرف بالمَهَا، وهى دونَ البقر الأهلية فى المقدار، ولها قَرْنان فى رأسها، فى كل قرن منهما شُعَب، وهى من جليل الصيد، ويقال للفَتِىّ منها : المَهَا، وبها يضرَب المثل فى حُسْن العُيون وسوادِها ،

ومن طبعه : الشَّبَق وشدّة الشهوة ، ولذلك إذا حملت أنثاه هربَتْ منه خوفا من تعبّثه بها وهى حامل ؛ وربما ركب الذكرُ الذكرَ لشدّة شبقه .

قال صاحب "المصايد والمطارد" : وكل إناث الحيوان أرق صوتا من الذكور إلا البقر الوَحْشية فإن الأنثى أفخم صوتا وأظهر من الذكر . ومواضعها من البَرِّيَّه : الوَهَدات ، وما آستوى من الأرض ودنا من الماء والعُشب ، وليست مما يسكُن الجبلَ ؛ ولذلك عيب فى ذلك محمدُ بن عبد الملك الزيّاتُ كاتبُ المعتصم ووزيرُه حيث وصف ثورا من ثيرانها برَعْيِه فى الجبل .

وهى مما يُصاد بالطَّرْد على الخيل . ويقال: إن أوّل مَنْ طردها على الخيل ربيعة ابن نِزَار بن مَعَدّ بن عدنان ، فإنه أوّل من ركب الخيل على قول؛ ولما ركبها راى بقرة وحشية فطرّدها فلجأت الى مكان يمكنه أخذها منه ، فرَقَّ لها وتركها. ويقال: إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلّق بها ؛ وأقدر معين له عليها من جوارح الطير العُقاب . قال آبن السندىّ : ودمها أسرع إلى الجُمُود من دم سائر الحيوان .

الثالث "الحُمُر الوحشية" — ويقال للأنثى من حُمُر الوحش: أتانٌ، وللذكر: حِمَار وعَيْر، كما يقال فى الحُمُر الإنسية، وربما قيل : الفَرَاء؛ وهو من أشدّ الصيد عَدْوا، ولذلك يُضْرَب به المثل فيقال: « كُلّ الصَّيْد فى جَنْب الفَرَا» أو فى جَوْف الفَرا. وبه تشبّه العرب خَيْلها وإبلَها فى السُّرْعة . ويقال : إن الحمار الوحشىّ لا ينْزو إلا إذا كان له من العُمُر ثلاثون شهرا؛ وإن الأنثى لا تلقَح منه حتّى يتم له ثلاث سنين ، وقيل سنتان وستة أشهر . ويوصف بشدّة الغيرة على أُتُنه حتّى يقال: إن فيها ما إذا وُلِد له ولد ذَكَرٌ كَدَم قضيبَه وخُصَيْيه حتى يقطعهما .

قال فى "المصايد والمطارد" : وليس يتعلّق به شىء من الضَّوارِى ولا الجوارح إلا العُقاب؛ ولا شىءَ أبلغُ فى صيده من الرمى بالنُّشّاب .

الرابع "الغِزْلان" ويقال : لها الظِّباء (بكسر الظاء) واحدها ظَبْى . ثم الظِّباء على ثلاثة أضرب :

أحدُها : البِيض ، ويقال لها : الآرَام جمع رِئْم ، ومساكنُها الرمل ، ويقال : هى ضأن الظِّباء .

وثانيها : الأُدْم ، وهى ظِباءٌ سُمْر الظُّهور ، بيضُ البُطُون ، طويلةُ الأعناقِ والقوائم ، وهى أسرعُها عَدْوا ، ومساكنُها الجبال والشِّعاب .

وثالثها : العُفْر ، وهو صنف يعلوه مع البياض حُمْرة ، قِصار الأعناق ، ومسكنها صِلَاب الأرض .

ويصيد جميعَها الفَهْدُ والكلبُ والعُقَاب ، وتُصاد أيضا بالحِبَالة والشَّرَك ، وربما صِيدَت بإيقاد النار بإزائها ، لأن الظبى إذا رأى النار فى الليل تأملها وأدْمَنَ النظر إليها وعَشِى بصرُه وذَهل ، وقد يُضاف إلى النار تحريكُ جرَس ونحوه فيزداد ذُهُوله فيؤخذ ، وتصاد بأمور أخرى غير ذلك .

الخامس "الأيابيل" جمع أُيَّل (بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) . وهو حيوان قريبُ الشَّبَه من الظباء ، له قرنان فى رأسه كالظبى .

قال فى "المصايد والمطارد" : وهو معتصم بالجبل قلَّما يحُلُّ السهل ، وقُرونه مُصْمَتة لا تجويفَ فيها ، ويخلُفها فى كل عام غيرها ، ويبتدئ فى ذلك بعد مضىّ سنتين من ولادته ، وله أربع أسنان فى كل ناحية من ناحيتَىْ فيه ، وذَكَره عَصَب لا لحم فيه ولا غُضْرُوف ولا عَظْمَ ، ودمُ كل حيوان يجمُدُ إلا دمه ، وليس للأُنثى منها قرونٌ البتَّة ، وأصوات ذكورها أحمدُ من أصوات إناثها ، وهو يرتاح لسماع الغناء . وإذا

حر بشجرة الزيتون ذلّ لها ، ويأكل الحيات ولا يضره سمها . وسيأتى فى الكلام على الأحجار أن البادزهر الحيوانى من صنف منه .

ومن خواصه : أنه إذا بخر بقرنه مع كبريت أحمر هَرَبت الحيّات .

السادس "الأرانب" — جمع أرْنَب، والأرنب مؤنّثة(١)، وهى حيوان صغيرة الجُثّة قصيرة اليدين قريبٌ من لون الثعلب ، وليس شىء مما يُوصَف بقصَر اليدين أسرعَ منها .

ومن خصائصها : كثرة الشَّعَر حتّى إنه لينبت فى بطون شدقَيْها وتحت رجليها . وقضيبُ ذكر الأرنب من عَظْم ، وربما ركبت الأنثى الذكر فى السِّفَاد . ولا ينام الأرنبُ إلا مفتوح العين . ومن طبعها أنها تطأ الأرض بباطن كفها لتُعفّى أثَرَها ، إلا أن الكلب الماهر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها : ألّا تأوى إلى ساحل البحر ، وإذا طُردت لجأتْ الى الجبال واشتدّ عدْوها فيها ، والأنثى لا تسمن ، وهى عند العرب مما يحيض ، وتُسفَد وهى حبلى ، وتلد الأوّل والثانى على ما فى بطنها .

السابع " الذِّئاب " — جمع ذئب ، وهو حيوان فى صورة الكلب فى لونه تلَق بكُمُودة ، والذئبة أجْرأُ من الذئب وأشدّ عَدْوا ، وأسنانه عظم مخلوق فى فكيه ليست مغروسة فيهما كسائر الحيوان .

قال ابن السندى : وأخبرنى أبو بكر الدقيشى أن هذه الخلقة فى أسنان الضبع أيضا . والذئب صاحب خلوة وانفراد ، ومتى رأى الإنسانَ قبل أن يراه أخفى صوتَهُ ؛ وإن رآه جَزِع منه اجترأ عليه وساوره . وإذا تسافد هو وأنثاه

(١) فى المصباح : و يقع على الذكر والأنثى ، وقد يؤنث بالهاء.

التحما التحاما شـديدا حتّى يقال : إنه اذا هجم عليهما داخلٌ فى هـذه الحالة قتلهما كيف شاء ، ولذلك يبعُدان فى هـذه الحال إلى مكان لا يُريَان فيه . وإذا تهارش ذئبان فأدمى أحدهما الآخرعدا الذى أَدْمى على المُدْمَى فقتـله خوفًا من أخذ الثار؛ وإذا عجز الذئب عن الدفع عوى فاجتمع إليـه الذئاب نُصْرةً له ؛ وإذا لقى الفارسَ والأرض مثلوجة نَحَش الثلج بيديه ورمى به فى وجه الفارس ليُدْهِشه ثم يعقر دابّته فيتمكّن منـه ؛ ومتى وطئ الفرسُ أثرَالذئب رُعِد وخرج الدُّخَان من جسده كله ، ولذلك قلّ مَنْ يطرد من الفُرْسان ولايتفطّن لوطء أثره . ويصاد بالكلاب وغيرها ؛ وقد تقدّم أن السودانىّ ضرّى ذئبا حتّى آصطاد له الظباء .

الثامن "الثعالب" — جمع ثعلب ؛ وهو حيوان معروفٌ ، موصوفٌ بكثرة الرَّوَغان فى عَدْوه وبالحيل حتّى إنه يتمـاوَتُ عند رؤية الغُراب فينزل عليه الغرابُ على ظنّ موته ليأكل منه فيقبضَه هو . ومن خُبْثه وحيلته يختلط بكبار الوُحُوش وجِلّتها .

قال فى "المصايد والمطارد" : ومن فضائله تشبيههم مِشْية الخيل بمشيته التى يقال لها : الثعلبية .

ومن عجائبه : أن قضيبه فى خلقة الأنبوبة ، أوسطُه عظم فى صورة الثقب والباقى عَصَب ولحم . وهو كريم الوَبَر ، والأسود من وبره فى الغاية القُصوى ، والأبيضُ منه لا يكاد يُفرَق بينه وبين الفَنَك .

ومن خصائصه : أنه يتمرّغ فى الزرع فلا ينبُت موضعُه ، وربمـا سَفَد الكلبة فولدت كلبا فى خِلْقة السَّلُوقىّ الذى لا يُقـدر على مثله ؛ وقـد تقدّم ذكـر ذلك فى الكلام على الكلاب السَّلُوقيـة . ومواضعه الكروم والآجام . ويصيـده الفهد والكلب وجوارح الطير .

التاسع "الضِّباع" — جمع ضبع — ويقال لها : أمُّ عامر؛ وهى مما يؤكَل وإن كانت من ذوات الناب لورود النص بذلك ، وتزعُم العرب أنها تكون سـنة ذكرا وسنة أنثى .

ومن خصائصها : أنها إذا رأت الكلب فى ليلة مقمرة على سطح ووطِئت ظِلَّه وقع فأكلته . وإذا اقتحم عليها مقتحم وِجَارَها وقد سدّ جميع منافذ جحرها حتّى يمتنع منه الضوء فلا يبقى فيه خرم إبرة، ربطها بحبل وخرج بها؛ وإن بقى مايدخل منه الضوء، ولو قَدْرَ سَمِّ إبرة وثبَتْ عليه فأكلته ومن كان معه شىء من الحنظل لم تقرَبْه الضبع .

العاشر "سِنَّوْر البر" — وهو التفا . وفى حله عند الشافعية وجهان، أصحهما التحريم . وصَيدُه يحتاج إلى علاج كبير؛ وربما وثب على وجوه الناس؛ وطرده بالخيل من أعسر الطراد؛ وأولى ما يُصاد به الرمى . ومنهم من يعدّه فى السباع .

قال فى "المصايد والمطارد" : وقلّما انتُفِع به فى صيد إلا أنه يثب على الكُرْكىّ وما فى مقداره من الطيور فيصيده . أما السِّنَّور الأهلىّ، وهو الهر المعروف، فغير مأكول ولا يصيد إلا الفأر وما فى معناه من خَشَاش الأرض ؛ ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الهِرّة : "ولكنها من الطّوّافين عليكم" بمعنى أنها تطُوف على النائم فى بيته فتقبض ما لعله يسرح عليه من الخَشَاش .

الحادى عشر "الدُّب" — وهو حيوان قريب فى الصورة من السبع؛ وهو يسكن الجبال والمغاير[1]، والأنثى ترفع ولدها أياما هَرَبا به من الذر والنمل لأنها تضعه كقطعة لحم، فلا تزال تنقله وتراعيه حتّى تشتدّ أعضاؤه، وتجعله تحت شجرة الجوز وتصعدُها فتجمع الجوزَ فى كفها ثم تضربُ اليمنى على اليسرى وترمى إليـه؛ فإذا شبع نزلتْ؛

(١) «لعلها المغاور» .

وربما قطعت من الشجرة العُودَ الذى يعجز الناسُ عنه وتقبض عليه فى موضع مقبِض العصا وتشدّ به على الفارس وغيره فلا تُصيب به شيئا إلا أهلكته .

ومن خصيصته : أنه يستتر فى الشتاء فلا يظهر إلا فى الصيف بخلاف سائر الحيوان .

الثانى عشر "الخنزير" — وهو حرام بنص القرآن، نجس فى مذهب الشافعى رضى الله عنه قياسا على الكلب، بل قالوا: إنه أسوأ حالا منه لعدم حِلّ ٱقتنائه، إلا أنه مباح القَتْل فيكون فى معنى الصيد. وهو حيوان فى نحو مقدار الحمار وشعرُه كالإبر، وله نابان بارزان من فكّه الأسفلِ .

ومن خاصّته : أنه لا يُلْقِى شيئا من أسنانه، بخلاف سائر الحيوان فإنها تلقى أسنانَها خلا الأضراسَ . وهو كثير السِّفاد كثير النَّسْل ، حتّى إنه ربما بلغت عدّة خَنَانيصه[(1)]، وهى أولاده، ٱثنَىْ عشر خِنَّوْصا[(1)] .

قال فى "المصايد والمطارد" : وهو من الحيوان البرىّ الجاهل الذى لا يقبَل التأديب والتعليم، ويقبل السِّمَنَ سريعا، ويقال إنه إذا جعل بين الخيل سَمِنت .

الثالث عشر "السَّمُّور" — بفتح السين وبالميم المشدّدة المضمومة على وزن السَّفُّود والكَلُّوب، وهو حيوان برّى يشبه السِّنَّوْر، وقد يكون أكبر منه .

قال عبد اللطيف البغدادى: وهو حيوان جَرِىء ليس فى الحيوان أجرأُ منه على الانسان، لا يُصاد إلا بالحِيَل . ووقع للنووى فى "تهذيب الأسماء واللغات" : أن السَّمُّور طير، ولعله مسبق قلم منه . وأغرب ٱبن هُشام البستى فى "شرح الفصيح" فقال : إنه ضرب من الجن . والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدّم . وحكمه

(1) فى الأصل : بالسين وهو تصحيف، أنظر كتب اللغة .

حِلٌّ أكله . ومنــه يتخذ نَفيس الفِراء التى لا يلبَسُها إلا الملوك وأكابر الأعيان ممن يدانى الملوك لحُسْنها ودفائها ، وأحسنه ما كان منه شديدَ النُّعومة مائلا إلى السواد .

الرابع عشر "الفنَك" — بفتح الفاء والنون — وهو دُوَيْبَّة لطيفة لها وبَر حسَنٌ أبيض يخالطه بعضُ حمرة يُتَّخذ من جُلودِه الفراء .

قال ٱبن البيطار : وفروه أطيبُ من جميـع الفِراء ، ومزاجه أبردُ من السَّمُّور وأحر مِن السِّنْجاب ، ويصلح للأبدان المعتدلة ؛ قال : وكثيرا ما يُجلَب من بلاد الصَّقالبة

الخامس عشر "القاقُم" — بقافين الثانية منهما مضمومة — وهو دُوَيْبَّة فى قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم ، ومنه يُتَّخذُ الفراء . وهو أبرد مِزَاجا وأرطبُ من السِّنْجاب ، ولذلك كان لونُه البياضَ ، وهو أعز قيمة من السنجاب .

السادس عشر "الدَّلَق" — بفتح الدال المهـملة واللام وقاف فى الآخر — فارسىّ معرّب ، وهو دُوَيْبَّة تقرب من السَّمُّور .

قال عبداللطيف البغدادىّ : وهو يفترس فى بعض الأحايين ويكْرَع فى الدم . وذكر ٱبن فارس : أنه النِّمس . وقد ذكر الرافعىّ أنه يسمَّى : ٱبن مُقْرِض ، والمعروف أن الدَّلَق حيوان تُتخذ منه الفِراء .

السـابع عشر "السِّنجاب" — وهو حيـوان أكبر من الفأر ووبَرُه فى غاية النُّعومة وجلده فى نهاية القوّة . وحكمه الحِلُّ ، وقال بتحريمه بعض الحنابلة . ويتخذ من جلده الفِرَاء النَّفيسة التى يلبَسها أعيانُ الناس ورؤساؤُهم

ومن شأنه : أنه إذا أبصر الإنسان صَـعِد الشجر العالى ، وفيها يأْوِى ، ومنها يأكل . وهو كثير ببلاد الفرنج والصقالبة ، وأحسن ألوانه الأزرقُ ؛ ثم إنه يقـال

إنه ربمـا تبقى زُرقته(١) لأنه يُخنَق ولا يُذَكّى ، فإن صح ذلك فهو ميتـة لا يطهرُ شعره بالدباغ على أظهر القولين من مذهب الشافعى رضى الله عنه خلافا للأستاذ أبى إسحاق الاسفراينى وآبن أبى عَصْرون فإنهما يريان طهارة الشعر بالدباغ وهو رواية الربيع الجيزىّ عن الشافعى وآختاره الشيخ تقىّ الدين السبكى رحمه الله .

الثامن عشر "سنَّوْر الزَّبَاد" — وهو فى صورة السِّنَّور الأهلىّ إلا أنه أطول ذَنَبا منه وأكبرُ جثَّة ، ولونه إلى السواد أميلُ ، وربمـا كان أنمر ، وهو يُجْلَب من بلاد الهند والسند ؛ والزَّبَاد فيـه شبيه بالوسخ الأسود اللزج ، ذَفِر الرائحة ، يخالطه طِيب كطيب المسك ، ويوجد فى باطن إبطه ، وباطن أفخاذه ، وباطن ذنبه ، وحول دُبُره ؛ فيؤخذ من هذه الأماكن بملْعقة ونحوها .

التاسع عشر "السِّنَّور الأهلى" — وهو الهِرّ — ويقال فى أصل خلقه : إن أهل السفينة شكَوْا إلى نوح عليه السلام ضرر الفأر فمسح على وجه الأسد بيده فعطَس فخرج السِّنَّور من أنفه ، ولذلك هو يشبهه فى التكوين وكيفية الأعضاء . وفيه مشاركة للإنسان فى خِصال :

منها : أنه يَعْطِسُ ، ويتثاءب ، ويتناول الشىء بيده ، ويأكل اللحم ، ويمسح وجهه بلُعابه كأنه يغسله ؛ وإذا آتسخ شىء من بدنه نظَّفه ، وإذا قضى حاجته خبأ ما يخرج منـه ، ويشَمُّه حتّى تخفى رائحته . ويقال : إنه يفعل ذلك كيلا يشَمَّه الفأر فيهرُب ؛ وهو يهيج للسِّفاد فى آخر الشتاء ، ويكثُر الصياح حينئذ ، وتحمـل الأنثى منه مرة فى السنة ، وتُقيم حاملا خمسين يوما ؛ وإذا ألف منزلا منع غيره من السنانير من الدخول إليه ؛ وإذا طرده أهل البيت تملّق لهم وترقق ؛ وإذا آختطف شيئا هرب به خوفَ المعاقبة عليه .

(١) كذا بالأصل .

والهرّةُ إذا جاعت أكلت أولادها، ويقال : إنها تفعل ذلك من شدّة الحنو. وقد ذكر القَزْوينى : أن نوعا من السنانير له أجنحة كأجنحة الخفافيش متصلة من أذنها إلى ذنبها .

العشرون "النِّمْس" — قال الجوهرى: وهو دُوَيْبّة عريضة كأنها قطعة قَديد، تكون بأرض مصر تقتل الثُّعْبان . والنِّمس بمصر معروفٌ، وهو حيوان قصير اليدين والرجلين أغبَرُ اللون، طويل الذَّنَب، يصيد الدَّجاج، وإذا رأى ثعبانا قبض عليه وقتله، وربما صيد وأُنِّس فتأنّس .

فإذا علم الكاتب صفات الوحوش وخصائصها، عرف كيف يُورد الجليل منها من الأسد والفيل ونحوها مواردَه فى الوصف، وكيف يصف ضوارىَ الصيد كالفَهْد وكيف يصف وحوش الصيد كالظِّباء، وبقر الوحش، وحُمُر الوحش وغيرها؛ وكذلك ما يقع من التشبيهات بشىء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :

وتَجْتَنِبُ الأُسُودُ وُرُودَ ماءٍ * إذا كان الكلابُ يَلَغْنَ فيهِ

وكما أنشد الجاحظ :

جاءتْ مع الأفشين فى هَوْدج * تُزْجِى إلى البَصْرة أجنادَها
كأنَّها فى فِعْلها هِرّة * تُرِيد أن تأكُلَ أولادَها

مشيرا بذلك إلى ما تقدّم من أكل الهرّة أولادها، وغير ذلك مما يجرى هذا المَجْرى، وسيأتى ذكر ما فى معنى ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان فى المقالة العاشرة المعدّة لذلك إن شاء الله تعالى .

النـــوع الرابع

فيا يحتـاج إلى وصـــفه من الطيـــور

ويحتاج الكاتب إلى ذلك فى رسائل الصيد، وإهداء الجوارح، والجواب عن إهدائها، وكتابة قدم البُنْدُق، ومايجرى مجّرى ذلك؛ وهو على أربعة أصناف .

الصـــنف الأوّل

"الجـــوارح"

وهى يُصاد بها الطير والوحش؛ ويحتاج الكاتب إلى وصفها فى الرسائل الصيديّة وفى إهداء شيء من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الجُثَّة المعتبرَ فى الصيد فى جميع أجناس الجوارح هى الإناث؛ أما ذكورها فإنها ألطف فى المقدار وأضعَفُ فى الصيد على ما يأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

قال فى "التعـريف" : ويستحب فى الجوارح كِبَر هامتها، ونتوّ صدْرها، وآتساع حَمَاليقها، وقوّة إبصارها، وحدّة مَنَاسِرها، وصفاءُ ألوانها، ونُعومة رِيَاشها، وقوّة قَوَادمها ، وتكاثُف خَوَافيها ، وثِقَل محملها ، وخِفَّة وَثَبَاتها ، وآشتدادها فى الطلب، ونهمها فى الأكل؛ وقد قسمها فى "التعريف" إلى قسمين : صُقُور وبُزَاة ، وفرّق بينهما بأن الصَّقْر ما كان أسودَ العين، والبـازِىَ ما كان أصفر العين على آختلاف المسَمَّيات، ثم قال : أما العُقَاب فإنه لا يعـدّ فى الصُّقور ولا فى البُزَاة وهو معـدود فى الجوارح ، وفى الطير الجليـل . وبالجملة فالجـوارح على ثلاثة أقسـام :

القســم الأوّل

"العُــقَاب"، وهو ضربان

الضرب الأول ـ المخصوص باسم العُقَاب وهى مؤنّثـة لا تذكّر، وتجمع على عِقْبان وأعْقُب .

قال فى "المصايد والمطارد" : وهى من أعظم الجـوارح ، وليس بعـد النّسْر فى الطير أعظم منها، وأصل لونها السواد .

فمنها : سوداء دَجُوجيّة، وخُدَاريّة، وهى التى لا بَياضَ فيها .

ومنها : البَقْعاء، وهى التى يخالط سوادَها بياضٌ .

ومنها : الشَّقْراء ، وهى التى فى رأسها نُقَطُ بياض . قال أبو عبيدة ويونس : ويقال لذكر العقاب الغَرَنُ ـ بفتح الغين والراء المهملة ـ ويقال : إن ذُكور العِقْبان من طير آخر لِطاف الجرم لا تُساوى شيئا، تلعب بها الصِّبْيان . والعُقَاب من أسرع الطير طَيَرانا، فقد حُكى أن عُقَابا حملت كفَّ عبد الرحمن بن عَتّاب ابن أسيد المسمّى بيَعْسُوب قريش المقتول يوم الجمل بالكوفة، فالقتْها بمكة فأُخِذتْ فوُجِد بهـا حَلْقة فعرف أنها كفه ، وأُرِّخ ذلك الوقت فتبيّن أنها ألقتها يوم الجمل الذى قتل فيه .

وأولُ مَن صادها أهلُ المغرب ، فلمـا نظرت الرُّوم إلى شِدّة أمرها وإفراط سُلَاحها قال حكماؤهم : هذا لا يفِى خيرُه بشرِّه .

وصفة الوثيق النجيب منها : وَثَاقةُ الخـلق، وثُبُوت الأركان، وحُمْرة اللون، وغُئُور العين بالحمـاليق ، وأن تكون صَقْعاء، عَجْزاءَ، لا سيما ما كان منها من أرض تُسْتَرَ أو جبال المَغْرِب ، وهى تَصِيد الظِّباءَ والثَّعالِبَ والأرانب، وقد تصيد حُمُر

الوحش ، وطريق صيدها إيّاها أنها إذا نظرتْ حِمار الوحش رمتْ بنفسها فى المــاء حتّى يبتلّ جناحاها ثم تخرج فتقع على التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يَعْلَق بهما ، ثم تطير طَيَرانا ثقيــلا حتّى تقع على هامته فتُصفِّق على عينيه بجناحيها فيمتلئان ترابا من ذلك التراب الذى عَلِق بجناحيها ، فلا تستطيع المَسيرَ بعد ذلك فيدركها القانصُ فيأخذها و ربما كَسرت الآدمىَّ .

وممــا يحكى فى ذلك : أن قيصر ملك الرُّوم أهدى الى كسرى ملك الفُرْس عُقَابا ، وكتب إليه : إنها تعمل أ كثَرَ من عمل الصُّقُور ، فأمر بها كسرى فأُرسلتْ على ظَبْى فاقتنصته ، فأعجبــه ما رأى منها فانصرف وجوّعها ليصــيد بها فوثبت على صبىّ له فقتلته ، فقال كسرى : إن قيصر قد جعــل بيننا و بينه دما ثائرا بغير جَيْش ، ثم إن كسرى أهدى إلى قيصر نَمِـرا وكتب إليه : أن قد بعثت إليك فَهْدا يقتل الظباء وأمثالهــا من الوحش ، وكتم ما صنعت العُقَاب ، فأَعجبَ قيصرَ حسنُ النمر و وافق صفتُه ما وصف من الفهد ، وغفل عنه فافترس بعض فِتيانه فقال : صادنا كسرى .

ومن شأنها : أنها لا تطلب شــيئا من الوحش الذى تصــيده ، وهى لا تقرُب إنسانا أبدا خوفا من أن يطلب صيدها ، ولا تزال مرقبة (١) على مرقب عال ، فإذا رأت بعضَ سباع الطير قد صاد شيئا آنقضّت عليه ، فاذا أبصرها هرب وترك الصيد لها ، فإن جاعتْ لم يمتنع عليها الذئبُ فى صيدها ، و ربما آغتالت البُزَاة فقتلَتْها .

ومن خصائصها : أنها أشدّ إخفاء لِفراخها من سائر الطير .

قال غِطْريف بن قُدَامة الغسانى صاحب صَـيْد هشام بن عبد الملك : وأوّلُ مَن لعب بالعُقَاب أهلُ المغرب ، فلما عرفوا أسرارها نَقَّـذوها إلى ملك الروم

(١) لعله : مرتقبة .

فاستدعى جميع حكمائه فقال لهم : انظروا فى قوة هذا الطير وعظم سلاحه ، كيف تجب تربيته ، وتعرّفوا أسراره فى صيده وتعليمه ، وكيف ينبغى أن يكون؟ فأجابوا جميعا : بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد فى سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر سباع الطير . وعند العداوة والغضب كلُّ الأجناس عنده من سائر الحيوان على اختلاف أنواعه واحد لقوّة غضبه وشدّة بأسه فهو لا يستعظم الآدمىَّ ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثانى : "الزُّمَّج" — بضم الزاى وفتح الميم المشدّدة ثم جيم — والعامة تبدل الزاى جيما والجيم زايا ؛ وهو طائر معروف تصيد به الملوكُ الوحشَ ، وأهل البَيْزرة يُعدّونه من خِفَاف الطير الجوارح ، إلا أنهم يصِفُونه بالغَدْر وقِلّة الإلف لكثافة طبعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بطء .

ومن عادته أنه يصيد على وجه الأرض ؛ وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون .

وقال الليث : الزُّمَّج طائر دون العُقاب حمرتُه غالبة ، والعجم تسميه دُوْبَرَا دَرَان ، ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثانى

من الجوارح " البُزَاة " وهى ما اصفرّت عينُه ، وهى على خمسة أضرب :

الأوّل "البازى" — المختص فى زماننا باسم البازى ؛ وفى ضبطه ثلاثُ لغات أفصحها بازِى بكسر الزاى وتخفيف الياء فى الآخر ، والثانى بازٍ بغير ياء فى آخره ، والثالث بازىّ باثبات الياء وتشديدها حكاها ابن سيده ؛ ويقال فى التثنية : بازِيَان ، وفى الجمع : بَوَازٍ وبُزَاة ، ولفظه مشتق من البَزَوان ، وهو الوَثْب . وهو خفيف

الجَنَاح ، سريع الطَّيَرَان ؛ وهو من أشرف الطُّيور الجوارح وأحرصها على طَلَب صيده .

ففى أخبار نصر بن سيَّار أن بعض كُبَراء الدَّهَاقِين غدَا عليه بطَبَرِسْتان ومعه منديل فيه شيءٌ ملفَّف ، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه شِلْو بازٍ ودُرَّاجة ، فأطلقه عليها فأحسَّت به — وكنت قد أمرت بإحراق قَصَب قد أفسد أرضا لى — فتحاملت الدُّرَّاجة حتّى اقتحمت النارَ هاربةً من البازى ، واشتدّ طلبه لها وحرصه عليها فلم تردّه النارُ عنها واقتحمها فى أثرها ، فأسرعتُ فيهما ، فادركهما وقد احترقا ، فأحضرهما إلى الأمير ليراهما فيرى بهما ثمرةَ إفراط الحرص وإفراط الجُبْن ؛ وهو من أشدّ الحيوان كِبْرا وأضيقها خُلُقا .

قال القَزْوينىّ : ولا يكون إلا أُنثَى ، وذكرها نوع آخر من حِدَأة أو شاهين أو غيرهما ؛ ولذلك تختلف أشكالُها . والبازى قليل الصبر على العطش ومأواه مساقِطُ الشجَر .

ومن فضيلته : أن الصيد فيه طبيعةٌ لأنه يؤخذ من وَكْره فرخا من غير أن يكون يَصيد مع أبويه ، فيصيد ابتداء وقريحةً من غير تضرية ، بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ قبل أن يتصيد مع أبويه لم يَنْجُب ولم يصِدْ ، وإذا كان قد لحق أبويه وصاد معهما ثم عُوِّد أكثرَ مما يوجد عنده فى تلك الحال وجُرِّئَ على ما هو أكبر من الظباء اعتاد ذلك ومَهَر فيه .

قال صاحب "المصايد والمطارد" : وعددُ ريش جَناح البازى عشرون ريشةً : أربع قوادم ، وأربع مناكِبُ ، وأربع أباهِرُ ، وأربع كُلًى ، وأربع خَوافٍ ؛ ويقال : سبعٌ قوادمُ ، وسبعٌ خَوَافٍ ، وسائره لَغَب . والخَوَافِى أخفُّ من القوادم .

والمستحب من صفاته : صغر المِنْسَر، والرأس، وغلظ العنق، وسَعة الجبين، ودائرتى الأذنين والشِّدْقين، وسَعةُ الحَدَقة، وطُول القَوَادم، وقِصرُ الخوافى والذَّنَب، وشِدّة اللحم، وعِرَض ما بين المنكبين والزَّوْر، وسَعة الحَوْصَلاء، وسَعة ما ينتقل إليه طُعْمه، وعِرَض المَخالب، ورَزانة المَحْمَل، وغِلَظ خُطوط الصدر، وذَكاء القلب، والتشميرُ، وكثرةُ الأكل، وتتابعُ النَّهْش، وسُرعةُ الاستمراء، وشِدّة الانتفاض، وضخامة السَّلَاح، وبُعد الذَّرْق . وأن تراه كأنه مُقْعِياً[1] إذا استقبلته على يد حامله، تشبيها بالغُراب الأبْقَع .

قال صاحب "المصايد والمطارد" : والمختار من ألوانها الأحمرُ الأكثرُ سوادا، الغليظُ خطُوط الصدر، والأشهبُ الشديدُ الشُّهبة، الشَّبيه بالأبيض، والأصفر المدَبَّج الظهر . قال : وسواد لسانه أدلُّ على نجابته .

والبازى : يصيد الكلبَ، والأرنبَ، والغزالَ، والكُرْكيَّ وما فى معناه، والدُّرّاجَ، والحَجَل، وسائر الحمام، والبطَّ، وسائر طيور الماء .

ومن محاسن البازى : عدمُ الإباق، فإنه إن صاد بَقِيَ على فريسته وإن لم يصد وقف مكانه فلا يحتاج إلى كدّ ولا تعب ولا طَرْد خيل .

وأوّل من صاده من الملوك قُسطنطين ملك الروم ؛ وذلك أنه مر يوما بِلِحْف جبل فرأى بازيًا يطير ثم نزل على شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك، فأعجبته صورته، وراقه حسنُ لباسه ؛ فأمر بأن يصاد له جملةٌ من البُزاة فصيدتْ له وحملت إليه فارتبطها فى مجلسه ، فعرض لبعضها فى بعض الايام أَيِّم[2] فوثب عليه فقتله ؛ فقال هذا ملك يُغضبه ما يغضبُ الملوك فنصب له بين يديه كندرة، وكان هنالك ثعلب

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) الأيم : الحية أنظر القاموس .

داجنٌ، وهو الذى يربّى فى البيوت، فَوثَب عليه فما أُفْلت إلا جريحا؛ فقال: هـذا ملك جَبّار لا يحتمل ضيما؛ ثم مرّ به طائر فكَسَره ونهش منه؛ فقال: هـذا ملكٌ نوعه لمـا جاع أخذ طعامه بسلطان وقدرة، فحمله على يده وصاد به .

الثـانى "الزُّرّق" — بضم الزاى المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة وقاف فى الآخر — وهو ذكر البازى .

قال فى "المصايد والمطارد": وهو يصيد ما يصيد البازى من دِقّ الطير ولا ينتهى إلى صيد الكُرْكِىّ .

الثالث "الفقيمى"[(١)] — وهو بازٍ قَضيفٌ قليل الصيد ذاهلُ النفس .

الرابع "الباشَق" — بكسر الشين وفتحها — فارسى معرّب وهو طائر لطيف وصفاته المحمودة كصفات البازى المحمودة؛ وأفضلها أثقلها وزنا .

قال فى " المصايد والمطارد ": وهو يصـيد العصافير وما قاربهـا . وقال فى حياة الحيوان: إنه يصيد أكثر ما يصيده البازى، وهو الدُّرّاج والحَمَام والوَرَشان، وإذا قوىَ على صيده لا يتركه إلا أن يتلَف أحدهما .

الخامس "البَيْدق" — وهو دون الباشق، وصيدُه العصافيرُ .

القسـم الثـالث

من الجوارح " الصقور " — وهى السُّود العيون من الجوارح، وهى ضربان :

الضرب الأوّل : "الشّواهين" (واحدها شاهين) وهى صـنفان ؛ الأوّل : المشتهر باسم الشاهين، وقد ذكر العلماء بالجوارح : أن الشّواهين هى أسرع الجَوارِح

---

(١) فى حياة الحيوان : العفصى، ولم نجدهما فى القاموس .

كلها وأشجَعُها وأخفُّها وأحسنُها تقلبا ، و إقبالا ، و إدبارا ، وأشدّها ضَراوةً على الصيد ؛ إلا أنهم عابوها بالإباق وما يعتريها من شدّة الحِرْص ، حتّى إنها ربما ضربَتْ نفسها على الغَلَظ من الأرض فماتت ، وهى أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح ؛ ويقال : إن صدرها عَصَب مجدول مُلْحم ، ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تَعْلَق بكفها ، وهم يحمَدُون منها ما قَرْنص داجناً دُون ما قرنص وحشياً .

ومن كلام بعضهم : الشاهين كاسمه — يعنى كالميزان المسمّى بالشاهين — فإنها لا تحمل أيسر حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع ؛ بل حالُها معتدل كاعتدال الميزان ؛ ويقال : إن الحمام يخافها أكثرَ ممّا يخاف غيرها من الصقور .

ثم المختار من صفاتها فيما ذكره صاحب "المصايد والمطارد" : الأحمرُ اللون إذا كان عظيم الهامة ، واسع العينين حادّهما ، سائل السُّفْعتين ، تامّ المَنْسِر ، طويلَ العنُق ، رَحْب الصدر ، ممتلئ الزَّوْر ، عريض الوسَط ، جليل الفخذين ، قصير الساقين ، قريب القعدة من القفا ، طويلُ الجناحين ، قصير الذَّنَب ، سَبْط الكف ، غليظ دائرة الخَصْر ، قليل الريش ليّنه ، تام الخَوافى ، ممتلئ العكوة ، رقيق الذَّنَب ، إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شئ من ذنبه .

قال صاحب "المصايد والمطارد" : وأهل الاسكندرية يزعمون أن السود منها هى المحمودة ، وأن السواد هو أصل لونها و إنما انقلبت إلى لون البرارى لخالت ؛ قال : والحمر منها تكون فى الأرياف والمواضع السَّهْلة ؛ والشُّهُب فى الجبال والبرارى ؛ ثم قال : ولا يصيد منها الكركىَ والحَبْرجَ إلا البَحْريّة .

وأول من صادها فيما يقال قُسْطنطين ملكُ الروم أيضا ، وذلك أنه رأى شاهينا محلّقا على طير الماء يصطاده فأعجبه ما عاين من فَرَاهته وسُرْعة طيرانه وحُسْن صيده ؛

فإنه رآه يحلّق فى طيرانه حتّى يلحق بعنَان الجوّ ثم يعود فى طرفة عين فيضْرب طيرَ المـاء فيأخذُه قنَاصا، فقال: ينبغى أن يصاد هذا الطائر و يُعلّمَ، فان كان قابلا للتعليم ظهر منه أُعْجوبة فى أمر الصيد، فأمر بصيده وتعليمه، فصيد وعلم وحمله على يده .

قال فى "المصايد والمطارد": وانه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهين حائمة على رأس الملك حتّى ينزل فتقع حَوْله إلى أن ركب بها ملك منهم، فسار وهى على رأسه فطار طائر فانقضّ بعض تلك الشواهين عليه فاقتنصه، وأُعْجب الملك به فضَرّاها على الصيد وصاد بها .

وقال ٱبن عُفَير: كانت ملوك العرب إذا ركبت فى مواكبها طيّروا الشواهين فوق رءوسهم، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

الثانى من الشواهين: الأنيوه (1)، قال فى "المصايد والمطارد": وهو دونَ الشاهين فى القوة، وله سُرْعة لا تزيد على صيد العصافير .

الضرب الثانى : من الصقور ما عدا الشواهين وهى أصناف .

الأول "السُّنْقر". قال فى "التعريف" وهو أشرفُ الجَوارح وإن كان لاذِكْرَ له فى القديم . قال : والسّنَاقر تُجْلَب من البحر الشامىّ مغالًى فى أثمانها؛ ثم قال : وكان الواحد منها يبلُغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الرتبة، وٱنحط عنْ تلك الهَضْبة .

الثـانى — المخصوص فى زماننا باسم "الصَّقْر"، ويجمع على أَصْـقُر وصُقُور وصُقورَة، قال فى "التعريف": والعرب تسمى هــذا النوع الحُرّ، ويقال له : الأكدر، والأجْدل .

---

(1) لم نعثر على هذا الاسم .

قال فى "المصايد والمطارد" : ويقال لها · بغّال الطير، لأنها أصبر على الأذى، وأحمل لغليظ الغذاء، وأحسن إلفا، وأشدّ إقداما على جِلّة الطير، ومِزاجُه أبرد من البازى والشاهين .

و بسبب ذلك يُضَرَّى على الغزال والأرنب ولا يُضْرَى على الطير لأنه يفوته، وهو أهدى من البازى نَفْسا ، وأسرع آستئناسا بالناس، وأكثرها قُنعا ، وأبردُ مِزاجا ، لا يشرب ماءً وإن أقام دهرا، ونوعه يُوصف بالبَخَر ونَتْن الفم. ومسكنه المغائر والكهوف وصُدوع الجبال دون رءوس الأشجار وأعالى الجبال .

والعرب تحمَدُ من الصُّقُور ما قَرْنص وحشيًّا، وتذم ما قرنص داجناً، وتقول : إنه يتبلد ولا يكاد يفلح . وهى تصيد الكُرْكىّ وما فى معناه، والبَطّ وسائر طير الماء.

والصقور من أثبت الجوارح جَنانا فى الطيران، وأحرصها فى آتباع الصيد، حتّى يحكى أن بعض ملوك مصر أرسل صقرا على كركىّ صبيحة يوم الجمعة بمصر، فبينما الناسُ يصلُّون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركىّ بالجامع الأموىّ بدمشق ، فأخذ فوجد فيه لَوْحُ السلطان فعرف به ؛ فكتب نائب الشام إلى السلطان يخبره وأرسله إليه هو وصيده .

قال فى "المصايد والمطارد" : ومن ألوان الصقر كونه أحمر، وأبغث، وأحوى، وأبيض ، وأنْمرَ ، وهو الذى فيه نقط بيض . قال : ويستحب فى الصقر أن يكون أحمرَ اللون، عظيمَ الهامة، واسعَ العينين، تام المَنْسِر، طويلَ العُنُق، رَحب الصَّدْر ، ممتلئ الزَّوْر، عريض الوَسَط ، جليل الفَخذين، قصير الساقين، قريب القَعْدة من القفا ، طويلَ الجناحين، قصيرَ الذَّنَب ، سَبْط الكف ، غليظ الأصابع فيروزَجيها، أسود اللسان . قال : وتجمع هذه الصفاتُ الفَرَاهةَ والوَثاقةَ والسرعةَ .

قال أدهم بن محرز : وأول من لعب بالصـقر الحارثُ بن معـاوية بن كِنْدَةَ الكِنْدىّ ، خرج يوما الى الصـيد فرأى صيّادِين قد نصبوا شِبَاكا عِدّة ، فوقع فيها عصافيرُ عدّة ، فحين رآها صقر من الجو انقضّ عليها يطلبُها ، فأمر الحارث بنصْب الشباك للصقور فنُصبت لها فاصطاد منها جملةً . ويقال : إن صيد الصقر غير طبيعىّ له ؛ وإنما يستفيد ذلك بالتعليم ، بدليل أنّ فراخ الباز إذا أخذت من العُشّ وعلّمت ٱصطادت أجودَ صيد لأن صيدها طبيعىّ ، بخلاف الصقر فانه إذا أخذ من الوَكْر ثم كَبِر فانه لا يصطاد غير طُعْمه فلذلك يُنْهى عن تربية الصقر .

الثالث "الكَوْنَج" — قال فى حياة الحيوان : نسبته من الصقور كنسبة الزُّرّق إلى البازى إلا أنه أحرّ منه ، ولذلك كان أخفّ جناحا وأقلّ بَخَرا . قال : ويصيد أشياءَ من طير المـاء ويعجِز عن الغَزال لصغره .

الرابع "الكُوهيّة" — وهى موشّاة بالبياض والسواد يخالط لونَها صُفْرة . وقال فى "التعريف" : وتجلب من البحر .

الخامس "السقاوة" — وهى قريبة الشكل من الصقر .

السادس "اليُؤْيُؤ" — بضم الياء المثناة تحت وهمزة بعدها وضم الثانيـة وهمزة بعدها أيضا .

قال فى "المصايد والمطارد" : وتسميه أهل مصر والشام "الجَلَم" ، وبهذا سماه فى "التعريف" : وهو طائر صغير أسـود اللون يَضْرِب للزُّرْقة ، وهى مع صغرها يجتمع الاثنان منها على الكركىّ فيصيدانه ، وسمَّوْه الجَلَم أخذا من الجَلَم ؛ وهو المِقَصّ تشبيها به لأن له سرعةً كسُرْعة المِقَص فى قطعه ؛ ومزاجُه بالنسبة إلى الباشَق بارد رَطْب لأنه أصبر نَفْسا منـه ، وأثقل حركةً . وهو يشرب المـاء شُرْبا ضروريا كما

يشربه الباشق؛ ومزاجه بالنسبة إلى الصقر حارٌ يابس ولذلك هو أشجعُ منه . ويقال: إن أوّل من ضرّاه على الصيد واصطاد به بهْرام جور — أحدُ ملوك الفرس — وذلك أنه رأى يُؤْيُؤا يطارد قُنبُرة، ويراوغها، ويرتفع معها ثم لم يتركها حتّى صادها؛ فأمر بتأديبه والصيد به .

الصــــنف الثـانى

الطــير الجليـــل

وهو المعبر عنه بطير الواجب، وبه تعتنى رماة البندق ونحوها، وتفتخر بإصابته وصَرْعه، ويحتاج إليه فى الرسائل الصيدية، وفى كتابة قدم البندق ونحوها . وهو أربعة عشر طائرا؛ وهى على ضربين :

الضرب الأوّل "طيور الشتاء" — وهى التى يكثر وُجْدانها فيــه، وهى عشرة طيور :

الأوّل "الكُرْكِىّ" — وهو طائر أغبَرُ طويل الساقين، فى قدر الإوزّة، ويجمع على كَراكىّ؛ وفى طبعــه خَور يحمله على التحارُس، حتّى إنه إذا اجتمع جماعة من الكَراكِىّ لا بدّ لها من حارس يحرُسها بالنَّوبة بينها . ومن شأن الذى يحرُس منها أن يهتف بصوت خَفِىّ كأنه ينذر بأنه حارس، فإذا قضى نوبته، قام واحد ممن كان نائمـا يحرُس مكانَه حتّى يقضى كلٌّ منها نوبتَه من الحراســة، ولا تطير متفرقة بل صفًّا واحدا، يقْدَمها واحد منها كالرئيس لها وهى تتبعه، يكون ذلك حينا ثم يخلفه آخرُ منها مقدّما حتّى يصير الذى كان مقدّما مؤخّرا؛ وفى طبعها التناصُر والتعاضُد . ومن خاصتها أن أنثاها لا تقعد للسفاد بل يَسْفِدها وهى قائمة، ويكون سفاده سريعا كالعصفور .

وذكر جُمَيع بن عمير التيمى أن الكراكىّ تبيض فى السماء، ولا تقع فراخُها؛ وكذبه المحدّثون فى ذلك وإن كان قد روى عنه أهل السنن .

قال القزوينى فى عجائب المخلوقات: والكُرْكىُّ لا يمشى على الأرض إلا بإحدى رجليه ويعلّق الأُخرى ، وإن وضعها وضعا خفيفا مخافة أن تُخسَف به الأرضُ .

قال فى "المصايد والمطارد": وهو من أبعد الطير صَوْتا يُسمَع على أميال . قال : وإذا تقـدّم مجيئُها فى الفصل آستُدِلّ بذلك على قوّة الشتاء . ويقال : إن الكراكىّ تأتى إلى مصر من بلاد التُّرك . وفى طلبه وصيده لتغالى ملوكُ مصر تغَاليا لا يدرك حدّه، وتنفق فى ذلك الأموال الجَمّة التى لا نهاية لها، وكان لهم من علوّ الشأن بذلك ما لا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نزاع .

الثانى "الإوز" — بكسر الهمزة وفتح الواو — واحدته إوزّة وجمعه على إوزّون، والمراد هنا الإوز المعروف بالتركىّ، وهو : طير فى قدر الإوز البلدىّ أبيضُ اللون . وله تبختُر فى مشيته كالحَجَل . وهو من جملة طير المـاء مقطوع بحل أكله .

الثالث "اللَّغْلَغ" : وهو دون الإوز فى المقدار ، لونه كلون الإوز الحبشى إلى السواد، أبيض الجَفْن، أصفر العين، ويعرف فى مصر بالعِراقى، ويأتى إليها فى مبادئ طلوع زرعها فى زمن إتيـان الكراكىّ إليهـا ؛ ومن شأنها أن يتقـدّمها واحد منها كالدليل لها، ثم قد تكون صفا واحدا ممتدّا كالحبل، ودليلُها فى وسطها متقدّمٌ عليها بعضَ التقدّم ؛ وقد يصُفُّ خلفه صفين ممتدّين يلقيانه فى زاوية حادّة حتى يصـير كأنه حرف جيم بلا عراقة، متساوية الطرفين ؛ ومن خاصتها أنها إذا كَبِرت حدث فى بياض بطونها وصدورها نقطٌ سُود، والفرخ منها لا يعتريه ذلك .

الرابع "الحُبْرج" — بضم الحاء المهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجيم فى الآخر — وهو الحُبارى .

قال فى "المصايد والمطارد" : ويقع على الذكر والأنثى ويجمع على حُبارَيات؛ وذكر غيره أنّ واحده وجمعه سواء، وبعضهم يقول: إنّ الخُبْرُج هو ذكر الحبارى.

قال فى "المصايد والمطارد" : وهو طائر فى قَدْرِ الديك كثير الرِّيش، ويقال لها : دَجاجة البَرّ.

قال فى حياة الحيوان : وهى طائر طويل العُنُق، رَمَادِىّ اللون، فى منقاره بعضُ طول؛ يقال لذكر الحبارى : الخَرْب (١) — بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وباء موحدة فى الآخر — ويجمع على خِرَاب وأخراب وخِرْبان.

ومن خاصته : أنّ الجارح إذا اعتنقها أرسلت عليه ذَرْقا حاصلا معها — متى أحبت أرسلته — فيه حدّة تمعّط ريشَه، ولذلك يقال : سُلاحُها سِلاحها.

قال فى حياة الحيوان : وهى من أشدّ الطير طَيَرانا، وأبعدها شَوْطا، فإنها تُصاد بالبصرة فيوجد فى حواصلها الحبةُ الخضراء التى شجرُها البُطْم، ومنابتُها تُخوم بلاد الشام، وإذا نُتِف ريشها وأبطأ نباته ماتت كمدا؛ قال : وهى من أكثر الطير جَهْدا فى تحصيل الرزق، ومع ذلك تموت جُوعا بهذا السبب.

قال فى "المصايد والمطارد": وهى مما يُعاف لأنها تأكل كلّ شيء حتّى الخنافس؛ وقال فى حياة الحيوان : حكمها الحلُّ لأنها من الطيبات، واستشهد له بحديث الترمذى من رواية سَفِينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبارى" ويقال لولدها : اليَحْبور، وربما قيل له : نَهَار، كما يقال لولد الكَرَوان : ليل.

الخامس "التَّمّ" — بفتح التاء وتشديد الميم — وهو طائر فى قدر الإوز أبيضُ اللون، طويلُ العنق، أحمرُ المِنْقار، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرا.

---

(١) لعله وفتح الراء. أنظر القاموس.

السادس "الصوغ" - بضم الصاد المهملة(١) وغين معجمة فى الآخر - وهو طائر مختلط اللون من السواد والبياض، أحمرُ الصدر، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار.

السابع "العُنَّاز" - بضم العين المهملة وتشديد النون وزاى معجمة فى الآخر - وهو طائر أسودُ اللون، أبيضُ الصدر، أحمر الرجلين والمِنْقار.

الثامن "العُقَاب" - وقد تقدّم ذكره فى الكلام على الجوارح حيث هو معدود منها ومن طير الواجب؛ ومما يتعلق بهذا المكان أنها منها: الأسود، والخوخية، والسُّفْع، والأبيض، والأشقر؛ ومنها ما يَأْوِى الجبال، وما يَأْوِى الصحارى، وما يَأْوِى الغِياض، وما يَأْوِى حول المُدُن.

وقد تقدّم ذكر الخلاف فى أن ذَكَرَها من جنسها أو من جنس آخَر فى الكلام على الجوارح. وحكمُها تحريم الأكل لأنها من ذوات المِخْلَب من الطير، واختلف فى قتلها هل هو مستحبٌّ أم لا؟ فجزم الرافعىّ والنووىّ من أصحابنا الشافعية فى الحج باستحباب قتلها. وجزم النووىّ فى شرح المهذب بأنها من القسم الذى لا يستحب قتله ولا يكره، وهو ما يجتمع فيه نفع ومضرة؛ وبه جزم القاضى أبو الطيب رحمه الله.

التاسع "النسر" - بفتح النون - ويجمع فى القلة على أَنْسُر، وفى الكثرة على نُسُور وسمّى نَسْرًا لأنه يَنْسُر الشىء ويبتلعه.

والنَّسر ذو مَنْسِر وليس بذى مِخْلَب وإنما له أظفار حِدَاد كالمَخالب، وهو يَسْفِد كما يَسْفِد الديك. وزعم قوم أن الأنثى منه تبيض من نظر الذكر إليها وهى لا تحضُن بيضَها، وإنما تبيض فى الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيقوم حرّ الشمس للبيض مَقام الحَضْن.

---

(١) ذكره المجد وغيره فى فصل الضاد المعجمة: من باب العين المهملة وضبطه كصرد فليتنبه.

والنسر حادّ البصر يرى الجيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسّة شمه فى الغاية؛ ويقال: إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته؛ وهو أشدّ الطير طَيرانا وأقواها جناحا حتّى يقال: إنه يطير ما بين المشرق والمغرب فى يوم واحد؛ وإذا وقع على جيفة وعليها عِقْبان تأخرتْ ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو فى غاية الشَّرَه والنَّهَم فى الأكل إذا وقع على جيفة وآمتلأ منها لم يستطع الطيران حتّى يثب وَثَبات يرفع بها نفسَه طبقةً فى الهواء حتى يدخل تحت الريح؛ وربما صاده الضعيف من الناس فى هذه الحالة . والأنثى منه تخاف على بيضها وفراخها الخُفَّاش فتَفْرُش فى أوكارها ورق الدُّلب لتنفر منه الخُفَّاش؛ وهو من أشدّ الطير حزنا على فراق إلفه، حتّى اذا فارق أحدُهما الآخَرَ مات حُزْنا .

وهو من أطول الطير أعمارا حتّى يقال: إنه يُعَمَّر ألفَ سنة وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الجِيَف .

العاشر "الأَنِيسة" — قال فى حياة الحيوان: بذلك تسميه الرُّماة وإنما آسمه الأَنِيس .

قال: وهو طائر حادّ البصر، يشبه صوتُه صوتَ الجملَ، ومأواه قربَ الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة الأشجار؛ وله لونٌ حسَن، وتدبير فى معاشه .

وقال أرسطو: إنه يتولد من الشِّقِرّاق والغراب، وذلك بيّن فى لونه . ويقال: إنه يحب الأنس، ويقبل الأدب والتربية، وفى صَفِيره وقَرْقَرَته أعاجيبُ، حتّى إنه ربما أفصح بالأصوات كالقُمرىّ؛ وغذاؤه الفاكهةُ واللحم وغير ذلك . ومن شأنه أُلفة الغِياض . وحكمه الحل لأنه طيب غير مستخْبَث . فإن صح تولده من الشِّقِرّاق والغراب فينبغى تحريمه .

والأَبيسة ذات ألوان مختلفة، بدنُها يميل إلى الغُبْرة، وعنقها يشتمل على خضرة وزُرْقة؛ ويقال : إنها أشرف طيور الواجب وأعزُّها وجودا .

الضرب الثـانى : "طيور الصيف" وهى التى يكثر وجودها فيه، وهى أربعة أطيار : الأوّل "الكُى"(١) — بضم الكاف — : وهو طير أغبر اللون إلى البياض، أحمر المِنْقار والحَوْصَلَة، رجلاه تَضْربان إلى السواد .

الثـانى "الغِرْنَوْق" — بكسر الغين المعجمة وفتح النون — ويقال : فيـه غُرْنَيْق — بضم الغين وفتح النون — ويجمع على غَرانيق .

قال الجوهرى : وهو طائر أبيض من طير المـاء طويلُ العنق، وتبعه الزمخشرى على ذلك . وقال أبو خيرة : وسمى غُرْنَيْقا لبياضه .

وقال صاحب "المصايد والمطارد" : الغرنيق كُرْكىّ إلا أنه أخضرُ طويل المِنقار، وقيـل : لونه كلون الكُرْكىّ إلا أنه أسـود الصدر والرأس، وله ذُؤابتان فى رأسه . وقال : ومن خصائصها أن ريشها فى شبيبتها يكون رَمَاديًّا، فإذا كَبِرت آسودّ وليس ذلك فى سائر الطير، فإن الريش لا يحوّل بياضه إلى السواد بل يحوّل سواده إلى البياض كما فى الغِرْبان والعصافير والخَطَاطيف .

الثالث "المرزم" — وهو طير أبيضُ فى أطراف ريشه حُمْرة، طويل الرجلين والعُنُق؛ وهو حلال الأكل .

الرابع "الشُّبَيْطَر" — بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة — ويسمّى : اللَّقْلَق أيضا، ويعرف بالبلارح(٢)؛ وكنيته عند أهل العراق : أبو خَدِيج، وهو طائر

(١) لم نعثر عليه فى حياة الحيوان، ولم يذكر فى معاجم اللغة .

(٢) مصحف لم نهتد اليه، ولعله البارح .

أبيض، أسودُ طرفَيِ الجناحين، ورجلاه ومنقارُه حُمْر؛ وهو يأكل الحيّات ولكنه يوصف بالفِطْنة والذكاء .

وفى حله عند الشافعية وجهان أصحهما فى شرح المهذّب والروضة : الحرمة، وإن كان من طير الماء .

وسيأتى الكلام على ما يحمل من هذه الطيور الأربعةَ عشرَ بأعناقه وما يحمل منها بأسيافه فيما يتعلق بمصطلَح الرماة فى الكلام على كتابة قدم البندق فى موضعه إن شاء الله تعالى . وطيور الواجب كلُّها حلال إلا النسر والعقاب .

الصنف الثالث

ما عدا الطير الجليل ممّا يُصاد بالجوارح وغيرها ، وهو على ضربين :

الضرب الأوّل ما يحل أكله وهو أنواع كثيرة لا يأخذه الحصر، ونحن نقتصر على ذكر المشهور من أنواعه .

فمنها "النَّعام" — وهو اسم جنس الواحدة نعَامة؛ وهو طائر معروف مركَّب من صورتَى جَمَل وطائر، ولذلك تسميه الترك : دواقش بمعنى طير جمل؛ وتسميه الفُرْس : اشترمرك، ومعناه جمل وطائر . وتجمع النعامة على نعامات، ويسمى ذكرها : الظَّلِيمَ .

ومن المتكلمين على طبائع الحيوان من لم يجعلها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طَيَرانها؛ ومن الناس من يظنّ أنها متولدة من جمل وطير ولم يصح ذلك .

ومساكنها الرملُ، وتضع بيضها سطرا مستطيلا بحيث لو مدّ عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن الأخرى ، ثم تعطى كلَّ بيضة منها نصيبها من الحَضْن، لأنها

لا تستطيع ضم جميع البيض تحتها، وإذا خرجت للطُّعْم فوجدت بيض نعامة أخرى حضَنَتْه ونسِيَتْ بيضها، فربما حضَنتْ هذه بيض هذه، وربما حضنَت هذه بيض هذه، ولذلك توصف فى الطير بالحُمْق، ويقال : إنها تقسم بيضها أثلاثا : فمنه ما تحضنه، ومنه ماتجعله غِذاءً لها ، ومنه ماتفتحه وتجعله فى الهـواء حتّى يتولد فيه الدود فتغذّى به أفراخها إذا خرجَتْ .

وليس للنعام حاسّةُ سمع ولكنه قوىّ الشم ، يستغنى بشمّه عن سماعه حتى يقال : إنه يَشمّ رائحة القانص من بُعْد .

والعرب تقول : إن النعامة ذهبت تطلُب قَرْنَين فقطعوا أذُنَيْها . وهو لا يشرب ماء، وإن طال عليه الأمد، ولذلك يسكن البرارىّ التى لا ماء فيها . وأكثر ما يكون عَدْوُها إذا آستقبلت الريح .

ومن خصائصها أنها تبتلع العظم الصُّلْب والحجر والحديد فتذيبه معدتُها حتّى تدفعه كالماء، وتبتلع الجمر فيطفئه جوفُها، وإذا رأت فى أذنِ صغير لؤلؤةً أوحَلْقة آختطفتها . وحكمُه حِلُّ أكله إجماعا . ومن خاصته أن مرارته سمٌّ وَحِىّ .

ومنها "الإوزّ" — بكسر الهمزة وفتح الواو — وهو آسم جنس واحده إوزّة، وجمعوه على إوَزّون، وهو مما يحبُّ السّباحة فى البحر، وإذا خرج فرخه من البيضة سبح فى الحال، وإذا حضنت الأنثى قام الذكر يحرسها لا يفارقها، ويخرُج فرخها فى دون الشهر من البيضة . وهو من الطيبات ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطىء الهضم .

ومنها "البَطّ"، وهو من طيور المـاء ، واحده بَطّة للذكر والأنثى وليس بعربىّ، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها "القِرِلّى" — بكسر القاف — ويسمّى : مُلَاعِبَ ظِله . وهو طائر صغير الجرم من طيور المـاء ، سريعُ الاختطاف ، لا يزال مرفرفا على وجه المـاء على جانب كطيران الحِدَأة ، يهوى بإحدى عينيه إلى قعر المـاء طمعا ، ويرفع الأخرى حذرا ؛ فان أبصر فى المـاء ما يستقلّ بحمله من السمك أو غيره انقضّ عليه كالسهم المرسَـل فأخرجه من قعر المـاء ، وإن أبصر فى الجو جارحا مرّ فى الأرض . وبه يضرب المثـل فى الإقبالِ على الخير والإدبار عن الشرّ ، فيقال : "كأنه قِرِلّى ، إن رأى خيرا تدلّى ، أو رأى شرّا تولّى" .

ومنها "الغَطَّاس" — ويقـال له : الغوّاص ، وهو طائر أسودُ نحو الإوَزّة ، يغوص فى المـاء فيستخرج السمك فيأكله . ووَهِم فيه فى حيـاة الحيوان بجعله : القِرِلّى .

ومنها "الدجَاجُ" — بفتح الدال المهـملة وكسرها وضمها — حكاه ابن معن الدِّمشْقِىّ وابن مالك وغيرهمـا ، وأفصحها الفتح وأضعفها الضم والواحدة دجاجة ، والذكر والأنثى فيه سواء .

قال ابن سِيده : وسميت دجاجةً لإقبالها وإدبارها ، يقال : دَجَّ القوم إذا مَشَوْا بتقارب خَطْوٍ ، وقيل : إذا أقبلوا وأدبروا . والفرخ يخرج من البيضـة بالحَضْنِ ، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار ، وإذا خرج الفرخ من البيضة خرج كاسيا ظريفا سريع الحركة ، يُدْعى فيُجيب ، ثم كلمـا مرّت عليـه الأيام حَمُقَ ونقص حسنه . وممـا يعرف به الذكر من الأنثى فى حالة الصغر أن يعلق الفرخُ بمنقاره فإن اضطرب فهو ذكر ، وإلا فهو أنثى .

والدجاج يبيض فى جميع السنة ، وربما باضت الدجاجة فى اليوم مرتين ، ويتم خلق البيض فى عشرة أيام ، وتخرج لينة القشر فإذا أصابها الهواء تصلَّبت . وتشتمل

البيضة على بياض وصُفرة ويسمى : المُحّ ؛ ومن البياض يتخلق الولد ؛ والصفرة غذاء له فى البيضة يتغذاه من سُرَّتِهِ ، وربما كان للبيضة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ ، فإذا كبرت الدجاجة لم يبق لبيضها مُحٌّ وحينئذ فلا يخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن فى البيوت .

وقد ورد فى سُنَنِ ابن ماجه من رواية أبى هريرة رضى الله عنه : أمر الأغنياء باتخاذ الغنم وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . قال عبد اللطيف البغدادىّ : أمرَ كل قوم من الكسب بحسب مَقْدُرَتِهم .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تمرّ بها سائر السباع فلا تَحَاماها ، فإذا مرّ بها ابن آوى وهى على سطح رمت نفسها إليه ؛ وهى توصف بقلة النوم وسرعة الانتباه ويقال : إن ذلك لخوفها وخَوَر طباعها .

ومن الدجاج نوع يقال له : الحَبَشِىّ ؛ أرقط اللون ، متوحش ، وربما ألف البيوت . والحكم فى الجميع الحل .

ومنها " الديك " — وهو ذكر الدجاج ، ويجمع على دِيَكَةٍ ودُيُوك ، وهو أبْلَهُ الطبيعة حتى إنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلى دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالى بمعرفة الأوقات حتى رجح الرافعىّ من مذهب الشافعىّ رضى الله عنه اعتماد الديك المجرّب وِفَاقا لِلْمُتَوَلِّى والقاضى حسين .

ومن عجيب أمره أنه يُقَسِّطُ أوقات الليل تقسيطا لا يُخِلُّ فيه بشىء طال الليل أم قصر . لكن قد ورد فى معجم الطبرانىّ وغيره : إنّ لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحاه مُوَشَّيان بالزَّبَرْجَد والياقوت واللُّؤلؤ ، له جَناحٌ بالمشرق وجناح بالمغرب ، رأسه تحتَ العرش ، وقوائمه فى الهواء ، يُؤَذِّنُ كلّ سَحَر فيسمَع تلك

الصيحةَ أهلُ السموات وأهل الأرض إلا الثقلين: الجنّ والإنسَ، فعند ذلك تُجيبه ديوك الأرض ؛ وحينئذ فيكون الديك فى ذلك تابعا . وقد ورد عدّةُ أحاديثَ فى النهى عن سَبِّ الديك، ومدح الديك الأبيض، والحثّ على اتخاذه .

ومن جميد خصال الديك : أنه يسوّى بين دجاجه، ولا يُؤْثِرُ واحدة على الأخرى . ويقال : إنه يبيض فى السنة بيضة ؛ ويُفَرِّق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن بيضته أصغر من بيضة الدجاجة، وهى مدوّرة لا تحديد فى رأسها .

ومنها "القَطَا" — بفتح القاف — وهو طائر معروف واحده قطاة ويجمع على قَطَوَاتٍ وقَطَيَاتٍ، وأكثر ما يبيض ثلاث بيضات، ويسمّى قَطًا لحكاية صوته، لأنه يصيح "قطا قطا" ولذلك تصفها العرب بالصدق .

قال الجوهرىّ : وهو معدود من الحَمَام؛ وبه قال ابن قتيبة؛ وعليه جرى الرافعىّ فى الحج والأطعمة؛ قال الشيخ محب الدين الطبرىّ : والمشهور خلافه .

ثم القطا نوعان : كُدْرِىٌّ وجُونِىٌّ؛ وزاد الجوهرىّ نوعا ثالثا وهو الغَطَاط ، فالكدرىّ : غُبْر اللون ، رُقْش البطون والظهور ، صفر الحلوق، قصار الأذناب . والجُونِىٌّ : سُودُ بطون الأجنحة والقوادم، وظهورها أغبرُ أرقطُ، تعلوه صُفْرة، وهى أكبر جِرْمًا من الكُدْرِىّ ، تعـدل كلُّ جُونيّةٍ كُدْريّتين ؛ والكدرية تُفْصِح باسمها فى صياحها، والجُونيّة لا تفصح بل تُقَرْقِرُ بصوت فى حلقها .

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة . ومن طبعها أنها تبيض فى القَفْرِ على مسافة بعيدة من الماء؛ وتطلب الماء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها؛ وتخرج من أفاحيصها فى طلب الماء عند طلوع الفجر فتقطع إلى حين طلوع الشمس مسيرة سبع مراحل ، فترد الماء فتشربُ ثم تُقيمُ على الماء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود الى

المـاء ثانية . والحُونية تخرج إلى المـاء قبل الكُدْرِيَّة ، وهى توصف بالهداية فتأتى أفاحيصَها ليلا ونهارا فلا تضلّ عنها ؛ وتوصف بحُسْن المشْى و بقلة النوم .

ومنها "الكَرَوَانُ" — بفتـح الكاف والراء — وهو طائر فى قدر الدجاجة ، طويل الرجلين ، حسن الصوت ، لا ينام الليل ، و يجمع على كِرْوَان — بكسر الكاف — والأنثى : كَرَوانة .

ومنها "الحَجَلُ" — بفتح الحاء المهملة والجيم — وهو طائر على قدر الحَمَام كالقَطَا ، أحمر المِنْقَار والرجلين ؛ ويسمّى : دَجَاجَ البر ؛ ويقع على الذكر والأنثى ؛ وقد يقال له : القَبْجُ أيضا — بفتح القاف وسكون الموحدة وجيم فى الآخر — يقال للذكر والأنثى منه : قَبْجة ، ويسمّى الذكر منه : اليَعقوب . والقَبَجُ[1] — بفتح القاف والموحدة وجيم فى الآخر — ويقال فى الأنثى منه : حَجَلة ؛ وهو صِنْفان : نَجْدِىٌّ وتِهامِىٌّ ، فالنجدىّ أحمر الرجلين ، والتهامىّ فيه بياض وخضرة ؛ ومن شأنه أنه يأتى إلى مصر عنـد هَيَجان زرعها ويصيح صياحا حَسَنًا ، تقول العامّة : إنه يقول فى صياحه : "طَابَ دَقِيقُ السَّبَل" . ومن شأن الأنثى منه إذا لم تَلْقَحْ ، أنها تمرغ فى التراب وتصبه على أصول ريشها فَتَلْقَحُ ؛ ويقال : إنها تلقح بسماع صوت الذكر ، وبريح يَهُبُّ من قِبَـلِهِ ؛ وإذا باضت ميز الذكرُ الذكورَ منها فحضنها ، وتحضنُ الأنثى الإناثَ ، وكذلك فى التربية . وفرخها يخرج كاسيا بِزَغَب الريش كما فى الدَّجاج ؛

وفى "المصايد والمطارد" : أن القَبَجَ كثير السِّفاد ، وأنه إذا آشتغلت عنه الأنثى ورأى بيضها كسره .

---

(١) هذا معطوف على القبج الأوّل إشارة الى لغة أخرى ، وليس معطوفا على اليعقوب كما قد يتوهم .

قال التوحيدى : ويعيش الحجل عشر سنين ويعمل عُشَّين، يجلس الذكر فى واحد والأنثى فى واحد ؛ وهو من أشدّ الطيور غَيْرةً على أنثاه حتّى إن الذكرين ربما قتل أحدهما الآخرَ بسبب الأنثى، فمن غلب منهما دانت له .

ومن طبعه أنه يأتى عُشَّ غيره فيأخذ بيضه ويحضُنه، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التى باضتها ؛ وفيه مِنْ قوّة الطيران ما يظنه من لم يُحَقِّقْهُ عند طيرانه أنه حجر رُمِىَ بمِقْلاع لسرعته .

ومنها "القُمْرِىّ" — بضم القاف وسكون الميم — وهو طائر معروف حسن الصوت، ويجمع على قَمَارِىّ غير مصروف . قال فى "المحكم" : ويجمع على قُمْرٍ أيضا ؛ والأنثى منه قُمْرِيّة ؛ ويقال للذكر منه : الوَرَشَانُ — بفتح الواو والراء المهملة والشين المعجمة — ويقال له أيضا : سَاقُ حُرّ . قال البَطَلْيَوْسِىّ : وسُمِّى ساقَ حُرّ، حكاية لصوته كأنه يقول ذلك، ويكنى : أبا الأخضر، وأبا عِمْران، وأبا الناجية .

قال ابن السمعانىّ : والقُمْرِىّ منسوب إلى القُمْر، وهى بلدة تشبه الجِصّ لبياضها ؛ قال : وأظنها بمصر . وقال ابن سيده القُمْرِىّ طير صغير، وعدّه فى "المحكم" من الحَمَام . ويقال : إن الهوامّ تهرُب من صوت القَمارِىّ .

قال القَزْوِينى : ومن خاصية القَمارِىّ أنها إذا ماتت ذكورها لم تتزاوج إناثُها . والوَرَشَانُ الذى هو ذكر القُمْرِىّ يوصف بالحُنُوّ على أولاده حتّى إنه ربما قتل نفسه إذا رآها فى يد القانص .

قال عطاء : وهو يقول فى صياحه :

* لِدُوا للْمَوْتِ وَٱبْنُوا لِلخَرابِ *

ومنه نوع أسود حجازىّ يقال له : النوى، شجىّ الصوت جدّا .

ومنها "الفاخِتة" — بالفاء والخاء المعجمة والتاء المثناة — والجمع الفواخت — بفتح الفاء وكسر الخاء — وهى طائر من ذوات الأطواق، حِجَازِية فى قدر الحَمَام ، حَسَنة الصوت ، ويقال : إنّ الحيَّات تهرُب من صـوتها ؛ حتَّى يحكى أنّ الحيات كثُرت بأرض، فشكا أهلُها ذلك إلى بعض الحكماء، فأمرهم بنقل الفواخت إليها فانقطعت الحَيَّات عنها . وفى طبعها الأنس بالناس، وتعيش فى الدُّور، إلا أن العرب تسمها بالكَذِب ، فإن صوتها عنـدهم تقول فيه : هـذا أوان الرطب ، وهى تقول ذلك والنخل لم يُطْلِعْ بَعْدُ ، ولذلك تقول العرب فى أمثالهم : «أكْذَبُ من فَاخِتَة» .

ومنهـا "الدُّبْسِىّ" — بضم الدال — وهو طـائر صغير منسـوب إلى دِبْس الرُّطَب — بكسر الدال — وذلك أنهم يُغَيِّرُونَ فى النسب فيقولون فى النسـبة إلى الدَّهْر : دُهرِىّ ونحو ذلك، وهو ضرب من الحمام . ثم هو أصناف : مصرىّ، وحجازىّ، وعِراقىّ، وكلها متقاربة، لكن أنفرُها المصرىّ، ولونه الدُّكنة، وقيل : هو ذكر اليمام. وفى طبع الدُّبْسِىّ ألا يُرى ساقطا على وجه الأرض ، بل فى الشتاء له مَشْتًى، وفى الصيف له مَصِيفٌ، لا يعرف له وَكْرٌ .

ومنها "الشَّفْنِين" (١) — بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ثم نون — وهو الذى تسميه العامّة بمصر: اليمام، وهو دون الحمام فى المقدار، ولونُه الحمرة مع كُدُودَة ، وفى صوته ترجيع وتحزين . ومن شأنها أنها تَحْسُنُ أصواتها إذا آختلطت . ومن طبعه أنه إذا فَقَدَ أُنثاه لم يزل أَعْزَبَ إلى أن يموت، وكذلك الأنثى إذا فَقَدتْ ذكرها، وفيه أُلْفة للبيوت، وعنده آحتراس .

---

(١) الذى فى حياة الحيوان : أنه بالكسر .

ومنها "الدُّرَّاجُ"(١) — بفتح الدال — وكنيته أبو الحجّاج وأبو خَطّار، وهو طائر ظاهر جناحيه أغبرُ وباطنهما أسودُ، على خِلْقة القَطَا إلا أنه ألطفُ. وهو يطلق على الذكر والأنثى. والجاحظ يَعُـدُّه من جنس الحَمَام لأنه يجمع بيضه تحت جَنَاحه كما يفعل الحمام. والناس يُعَبِّرون عن صوته بأنه يقول: "بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَم". ويقال: إنه طائر مبارك، وهو كثير النتاج، يبشر بقُدُوم الربيع، وهو يصلح بهبوب الشَّمال، وصفاء الهواء، ويسوء حاله بهبوب الجَنُوب حتّى لا يقدر على الطيران.

ومنها "العُصْفُور" — بضم العين — وحكى ابن رَشيق فى كتاب "الغرائب": فتحَها، والأنثى: عُصْـفورة، وكنيته: أبو الصَّـفْو، وأبو مُحْرِز، وأبو مُزاحم، وأبو يعقوب.

قال حمزة: سمى عصفورا لأنه عصى وفرّ، وهو أنواع كثيرة، وأشهرها المعروف بالدُّورِىّ، ووَكْرُه العُمْران تحت السقوف خوفا من الجوارح؛ فإذا خلتْ مدينـة من أهلها ذهبت العصافير منها؛ وهو كثير السِّـفَاد حتّى إنه ربمـا سَفَدَ فى الساعة الواحدة مائة مرة؛ ولفرخه تدرّب على الطيران حتّى إنه يُدْعى فيجيب. قال الجاحظ: بلغنى أنه يرجع من فرسخ.

ومنها "الشُّحْرُور"(٢) — بفتح الشـين المعجمة وسكون الحاء المهملة — وهو طائر أسود فُوَيْق العصفور له صوت شجىّ، ويكون بأرض الشَّأْم كثيرا.

ومنها "الهَزَار" — بفتح الهاء والزاى المعجمة — طائر نحو العصفور له صوت حسن ويسمّى: العَنْدَلِيبَ أيضا، ويجمع على عَنَادِلَ.

---

(١) فى حياة الحيوان والقاموس: ضبطه بضم الدال، أما الذى بالفتح فهو القنفذ.

(٢) قال فى حياة الحيوان: إنه كسحنون، وكذلك ضبطه فى القاموس بالضم.

ومنها "البُلْبُلُ" (١) — بضم الموحدتين وسكون اللام الأولى والثانية — وهو طائر أسود فوق العصفور، والجرى منه فوق ذلك، ويقال له : النُّغَرُ — بضم النون وفتح الغين المعجمة وراء مهملة فى الآخر — والكُعَيْتُ — بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة فوقيــة فى الآخر — والجُمَيْلُ — بضم الجيم — وقد ثبت فى الصحيحين من رواية أنس رضى الله عنه أنه قال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس خُلُقا، وكان لى أخٌ لأمّى فَطِيمٌ يقال له : عُمَيْرٌ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءنا قال : "يا أبا عُمَير ما فَعَل النُّغَير ؟" لنُغَر كان يلعب به .

ومنها "السُّمَانَى" — بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدّد ميمه — وهو طائر معروف فوق العصفور ويجمع على سُمَانَيَات ، وهو من الطيور التى لا يعرف من أين تأتى، بل يأتى فى البحر المِلْح يغوص بأحد جناحيــه فى المــاء ويقيم الآخر كالقِلْع للسفينة فتدفعــه الريح حتى يأتىَ الساحل؛ وكثيرا ما يوجد ببلاد الســواحل ، وله صوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها "الحَسُّون" — وتسميه أهل الجزيرة والشأْم وحلب وتوابعها : زقيقية، وهو طائر فَطِنٌ، ويسميه الأندلسيُّون : أبو الحسن، والمصريون : أبو زقاية، وربما أبدلوا الزاى : منــه سينا ؛ وهو عصفور ذو ألوان : حُمْرة وصُفْرة وبياض وسواد وزرقة وخضرة ؛ وهو قابل للتعليم يُعَــلَّمُ أخذَ الشيء كالفَلْس ونحوه من يد الإنسان على البعد والإتيان به لصاحبه .

ومنها "أبو بَرَاقِش" — بكسر القاف وبالشين المعجمة — وهو طائر كالعصفور يتلون ألوانا، وبه يضرب المثل فى التلوّن .

(١) لعل هذا اللفظ من زيادة الناسخ .

ومنها "الزاغ" — بزاى وغين معجمتين بينهما ألف — وهو ضرب من الغربان صغير أخضرُ اللون لطيفُ الشكل حسنُ المَنْظر، وقد يكون أحمرَ المنقار والرجلين ، وهو الذى يقال له : غراب الزيتون، سمى بذلك لأنه يأكل الزيتون .

ومنها "الغُدَافُ" — بضم الغين المعجمة وبالدال المهملة والفاء فى آخره — وهو غراب الغيط[(1)]، ويجمع على غِدْفان بكسر الغين .

قال ابن فارس : هو الغراب الضخم . وقال العبدرى : هو غراب صغير أسودُ، لونه كلون الرَّماد . وقد قال النووى فى الروضة : بتحريمه وإن كان الرافعى قد جزم بحِلّه ، ورجحه صاحب المهمات .

ومنها غراب "الزرع" — وهو غراب أسودُ المنقار . وفيه وجه بالتحريم .

الضرب الثانى — ما يحرم أكله

وهو أنواع كثيرة أيضا : .

منها "الطاوس" — ويجمع على طواويس — وهو طائر فى نحو مقدار الإوَزَّة حسن اللون ، والذكر منه غايةٌ فى الحُسْن ، له فى رأسه رياش خضر قائمة كالشربوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن مَنْظَر، وليس للأنثى شىء من ذلك ، وهو فى الطير كالفرس فى الدواب عزا وحُسْنا ، وفى طبعه الزَّهْو بنفسه والخُيَلاءُ والإعجاب بريشه ، والأنثى منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها ، وفى هذا الحدّ يكمل ريش الذكر ويتم لونُه . وبيضه مرةً واحدة فى السنة ، ويكون بيضه من أثنى عشرة بيضة الى ما حولها ، ولا يبيض متتابعاً . وسِفَادُه فى أيام الربيع . وفى الخريف يُلْقى ريشه كما يُلْقِى الشجر ورقه حينئذ ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه . وهو

(١) الذى فى القاموس وحياة الحيوان : غراب القيظ .

كثير العَبَث بالأنثى إذا حَضَنَتْ وربما كسر بيضها ؛ ولذلك يُحْضَنُ بيضُه تحت الدَّجاج ؛ لكن لاتقوى الدجاجة على حَضْنِ أكثرَ من بيضتين منها ، وتُتعاهدُ الدجاجة بالطُّعْمَةِ والسقية وهى راقدة عليه ، كيلا تقومَ عنه فيفسد بالهواء ، إلا أن ما تحضُنُه الدجاجة يكون ناقصَ الجثة عما تحضُنُه أنثاه ؛ وليس له من الحسن والبهجة ما لذلك ؛ ومدّة حضنه ثلاثون يوما ؛ وفرخه يخرج من البيضة كالفرُّوج كاسيا بالريش يلقط الحب للحال .

ومنها "السَّمَنْدَل" — بفتح السين المهملة والميم وسكون النون وبفتح الدال المهملة ولام فى الآخر — وقال الجوهرى : السَّنْدل بغير ميم . وقال ابن خلِّكانَ : السَّمَنْدُ بغير لام ؛ وهو طائر يكون بأرض الصِّينِ والهند ؛ ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه حتّى يقال : إنه يبيض ويُفْرِخُ فيها ويستلذ بمكثه فيها . ويتخذ من ريشه مناديل ونحوها ، فإذا اتسخت ألقيت فى النار ، فتأكل النار وسخها ولا تتأثر هى فى نَفْسها .

قال ابن خلِّكانَ فى ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيق : رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة على هيئة حزام الدابة فى طوله وعرضه ، فألقيت فى النار فما أثَّرت فيها ، فغُمِس أحد جوانبها فى الزيت وجُعِل فى النار فاشتعل وبقى زمانا طويلا ثم أطفئ ، وهو على حاله لم يتغير . قال : ورأيت بخط عبد اللطيف البغدادى : أنه أُهْدِىَ للظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعةٌ منه عرض ذِراع فى طول ذراعين ، فغُمِست فى الزيت وقربت من النار فاشتعلَتْ حتّى فَنِىَ الزيتُ ، ثم عادت بيضاء كما كانت . وبعضهم يقول : إنه وحش كالثعلب وإن ذلك يعمل من وَبَرِه .

ومنها "البَبَّغَاء" — بباءين مفتوحتين ، الأولى منهما مخففة والثانية مشدّدة وغين معجمة بعدها ثم ألف — وهو المعبر عنه بالدُّرَّة — بدال مهملة مضمومة — وقال

ابن السمعانى فى الأنساب: هى بإسكان الباء الثانية، وهى طائر أخضرُ اللون فى قدر الحمام يحاكى ما يسمعه من اللفظ؛ ثم هى على ضربين: هِنْدِى وهى أكبر جثة ومنقارها أحمرُ، ونُوبِى وهى أدونها ومنقارها أسود؛ ويقال: إنّ منها نوعا أبيض؛ ويذكر أنه أُهْدِى لمعز الدولة ابن بُوَيْهِ بَبَّغَاء بيضاءُ اللون سوداءُ المِنْقَارِ والرجلين، على رأسها ذؤابة فُسْتُقِيَّةٌ. وهى طائر دَمِث الأخلاق، ثاقب الفهم، له قوة على حكاية الأصوات وقبول التلقين؛ تتخذه الملوك والأكابر لِيَنِمَّ بما يسمع. ومن شأنه أنه يتناول طُعْمَهُ برجله كما يتناول الإنسان بيده؛ والهندىّ منه أقرب إلى التعليم من النوبىّ.

ومنها «أبوزُرَيْق» — بزاى مضمومة ثم راء مهملة وفى آخره قاف — ويقال له: القيق — بكسر القاف — والزِّرْيَابُ — بزاى معجمة مكسورة ثم راء مهملة ساكنة ثم ياء مثناة تحت، وبعد الألف باء موحدة — وهو طائر ألوف للناس يقبل التعليم، سريع الإدراك لما يعلَّم؛ وقد يزيد على الببغاء إذا أنجب، بل إذا تعلم جاء بالحروف مُبَيَّنَةً حتّى يظن سامعُه أنه إنسان، بخلاف الببغاء فإنها لا تُفْصِحُ كلَّ الإفصاح.

ومن غريب ما يحكى فى أمره ما حكاه صاحب «مَنْطِق الطير»: أن رجلا خرج من بغداد ومعه أربعمائة درهم، لا يملك غيرها، فوجد فى طريقه عدّة من فراخه فاشتراها بما معه، ثم رجع إلى بغداد فعلقها فى أقفاص فى حانوته، فهبت عليها ريح باردة فماتت كلُّها إلا واحدا كان أضعفَها وأصغرَها، فثقل ذلك عليه وبات ليلته تلك يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء وينادى: ياغياث المستغيثين أغثنى؛ فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذى بقى يصيح بلسان فصيح: ياغياث المستغيثين أغثنى؛ فاجتمع الناس عليه يسمعون صوته؛ فاجتازت جارية للخليفة فاشترته منه بألف درهم.

ومنها "الهُدْهُدُ" — بضم الهاءين وإسكان الدال المهملة بينهما — وهو طائر معروف ذو خطوط مَوْشيَّةٍ وألوان، ويجمع على هَدَاهِدَ. ويذكر عنه أنه يرى المـاء من باطن الأرض كما يراه الإنسان فى باطن الزجاج — قُوَّةٌ ركبها الله تعالى فيـه — ولذلك عُنِيَ به سليمانُ عليه السلام مع صِغَرِه كما قاله البيهقى فى "شُعَب الإيمـان" ويقال : إنه كان دليلا لسليمانَ عليه السلام على المـاء؛ وقصته مع سليمان مذكورة فى التنزيل .

وقد ذكر الزمخشرى أن سبب تخلفه عن سليمان أنه رأى هُدْهُدا آخر، فحكى له عظيم مُلْك سليمان؛ فحكى له ذلك الهدهُد عظيمَ مُلْك بِلْقِيسَ باليمن؛ فذهب ليكشف الخبَرَ فلم يرجع إلا بعد العَصْر؛ فلما عاد إليه توعَّده؛ فأرخى رأسه وجناحيه تواضعا بين يديه، وقال : يانبىَّ الله، آذكر وقوفك بين يدى الله! فارتعد سليمان وعفا عنه .

ومنها "الخُطَّافُ" — بضم الخاء المعجمة — ويجمع على خَطَاطِيفَ وهو طائر فى قدر العصفور، أسـودُ، وباطن جناحيه إلى الحمرة؛ والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يُعْرِضُ عن أقواتهم ويقتات البعُوضَ والذُّبَابَ. ومن شأنه السكنى فى البيوت المعمورة بالنـاس فى أفاحيص يبنيها من الطين؛ ويختار منها السقوف والأماكن التى لا يصل إليه فيها أحد .

وقد ذكر الثعلبى فى تفسيره فى سـورة النمل : أن سبب قُرب الخطاطيف من الناس أن الله تعالى لمـا أَهْبط آدم إلى الأرض، آستوحش؛ فآنسه الله تعالى بالخُطَّاف وألزمه البيوت؛ فهو لا يفارق بنى آدم أُنْسًا لهم . والخُفَّاش يعاديه فلذلك إذا أفرخ جعل فى عُشّه قُضْبانَ الكَرَفْس لينفِّر الخُفَّاشَ عنها .

ومن عادته أنه لا يُفْرِخُ فى عُشٍّ عتيق حتى يُطَيِّنَهُ بطين جديد، ولا يلقى شيئا من ذَرْقِه فى عُشه بل يلقيه إلى ما شاء . وإذا سمع حس الرعد يكاد يموت . ويوجد

فى عُشّه حَجَرُ اليَرَقَانِ وهو حجر صغير فيه خطوط بين الحمرة والسواد إذا علق على من به اليَرَقَانُ أو شرب من سُحالته برِئَ ؛ وإنما يأتى بهذا الحجر إذا أصاب فِراخَه اليَرَقَانُ، ولذلك يحتال بعضُ الناس بلطخ فراخه بالزعفران ليظن أن اليَرَقَانَ قد أصابها فيأتى إليها بهذا الحجر فيُؤْخذ منه .

ومن الخطاطيف نوع آخر ألطفُ قدرا من هذا ، يَسْكُن شطُوطَ الأنهار وجوانبَ المياه . وعدّوا من أنواعه أيضا الذى يسميه أهل مصر : الخُضَيْرِى، وهو طائر أخضر دون البَبَّغَاء فى المقدار لا يزال طائرا وهو يصيح، يقتات الفَرَاش والذباب .

ومنها "الصُّرَد" — بضم الصاد وفتح المهملة ودال مهملة فى الآخر — ويجمع على صِرْدَان . قال ابن قتيبة : وسمى صُرَدًا، حكاية لصوته، ويسمّى : الواقِ — بكسر القاف — وكنيته : أبو كثير، وهو طائر فوق العصفور، نصفه أبيض ونصفه أسود، ضخم الرأس، ضخم المنقار والبراثن، لا يُرَى إلا فى شَعَفة أو شجرة بحيث لا يقْدِر عليه أحد، وله صَفِير مختلف .

ومن شأنه أنه يصيد العصافير وما فى معناها ، فيصفّر لكل طير يريد صيدَه بلغته، يدعوه إلى التقرّب منه فينب عليه فيأكله . والعرب تتشاءم به وتتفر من صياحه . وهو مما وردت الشريعة بالنهى عن قتله .

ومنها "العَقْعَق" — بعينين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ساكنة — وربما قيل فيه : القَعْقَع على القلب .

قال الجاحظ : سمى بذلك لأنه يَعُقّ فراخه فيتركُهم أياما بلا طُعْم . ويقال لصوته : العَقْعقة؛ وهو طائر على قدر الحمامة فى شكل الغُراب وجَناحاه أكبر من جناحى الحمامة، ذولونين : أبيضَ وأسودَ، طويلُ الذَّنب .

ومن شانه أنه لايأوى تحت سقف ولا يستظل به ، بل يهيئ وَكْره فى المواضع المُشْرِفة، وفى طبعه الزنا والخيانة ، ويوصف بالسرقة والخُبْث . وإذا رأى حُلِيًّا أو عِقْـدا ٱختطفه، والعرب تضرب به المَثَـل فى جميع ذلك . وإذا باضت الأنثى منـه أخفتْ بيضها بورق الدُّلْب خوفًا عليه من الخُفَّاش ، فإنه متى قَرُب من البيض مَذِرَ وتغير من ساعته . ويقال : إنه يخبأ قُوتَه كما يخبؤه الإنسان والنملة إلا أنه ينْسى ما يخبؤه . وبعضهم يعدّه فى جملة الغِرْبان . وفيه وجه عندنا بحل أكله .

ومنها "الشِّقِرّاقُ" — بفتح الشين المعجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملة والقاف الثانية — ويجوز فيه كسر الشـين أيضـا ، وربما قلبوه فقالوا : الشِّرِقْراق، ويسمّى : الأخيَلَ أيضا، وهو طائر صغير بقدر الحمام أخضرُ مُشْبَعُ الخُضْرة، حسنُ المنظر فى أجنحته سـواد . والعرب تتشاءم به .

وفى طبعه الشَّرَهُ حتّى إنه يَسْرِق فِراخَ غيره . وعدّه الجاحظ نوعا من الغِرْبان، ويكثر ببلاد الشـام والروم وخُرَاسَانَ، ولا يزال متباعدا من الإنس ، يألف الرَّوابِى ورُءوس الجبال، إلا أنه يَحْضُنُ بيضـه فى عوالى العُمْران التى لا تنالهـا الأيدى . وعُشُّه شديد البُنْيان، وله مَشْتًى ومَصيف .

قال الجاحظ : وهو كثير الٱستغاثة، إذا مر به طائر ضربه بجناحه وصاح كأنه هو المضروب . وفيه وجه بحِلِّ أكله .

ومنها " الغُـرَابُ الأبقع " قال الجوهرىّ : وهو الذى فيـه بياض وسَواد، ويسمّى : غراب البين أيضا، قال صاحب "المجالسة" : سمى بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حينَ أرسله لينظر المـاء فذهب ولم يرجع ، قال ٱبن قتيبة : وجعل فاسقا لأجل ذلك . ويسمّى : الأعور . إمّا لانه يُغْمِضُ إحدى عينيه لقوّة بصره، وإما لصفاء عينيه وحدّة بصره من باب الأضداد .

ومن طبعه الخيانة والسرقة، والعرب تتشاءم به وتكره صوته؛ وقد سبق القول على ذلك فى أوابد العرب من هذه المقالة .

ومن طبع الغراب الاستتار عند السِّفاد وأنه يَسْفِدُها مواجهةً مُلْقاة على ظهرها؛ والأنثى تبيض أربع بيضات وخمسا؛ وإذا خرجت الفراخ من البيض نفر عنها الأبوان لبشاعة مَنْظرِها، حينئذ فتغتذى من البعوض والذباب الكائن فى عُشّها حتّى ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها؛ وعلى الأنثى الحَضْنُ وعلى الذكر أن يأتيها بالطُّعْم . وفيه حَذَر شديد وتناصُر، حتّى إنه إذا صاح الغراب مستنصرا اجتمع إليه عدّة من الغربان .

ومنها "الغُراب الأسود الكبير" وهو الجَبَلِيّ . وفيه وجه بحاله .

ومنها "الحِدَأَةُ" — بكسر الحاء، والهمز — الطائر المعروف، ويجمع على حِدًا وحِدْءَانٍ . ومن ألوانها السُّودُ والرُّمْدُ . وهى لا تصيد بل تخطَف؛

ومن طبعها أنها تَصُفُّ فى الطيران وليس ذلك لشيء من الكواسر غيرها. وزعم ابن وحشية وابن زهر: أن الحِدَأَةَ والعُقَابَ يتبدّلان، فتصير الحِدأةُ عُقابا والعُقابُ حدأةً، وربما قيل: الغراب بدل العُقاب . ويقال: إنها تصير سنةً ذكرا وسنة أنثى. ويقال: إنها أحسن الطير مجاورة لما جاورها من الطير حتّى لو ماتت جوعا لا تعدو على فرخ جارتها .

وفى طبعها أنها إنما تختطف ممن تختطف منه من يده اليمنى دون اليسرى حتّى يقال: إنها عسراء . وقد ثبت فى الصحيحين حل قتلها فى الحل والحرم .

ومنها "الرَّخَمة" — بفتح الراء المهملة والخاء المعجمة — وكنيتها: أم جِعْرانَ، وأم رِسَالَةَ وأم عَجِيبة، وأم قيس، وأم كثير[1] . ويقال لها: الأَنُوقُ — بفتح الهمزة —

(١) الذى فى حياة الحيوان "أم كبير" .

وهى طائر أبقع ببياض وسواد، فوقَ الحِدَأةِ فى المقدار تأكل الجِيفَ . وهى معدودة فى بُغَاثِ الطـير . وهى تسكُن رءوس الجبال العاليـة وأبعدَها من أماكن أعدائه؛ ولذلك تضرب العرب المثـل ببيضه فيقولون : « أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الأَنُوقِ » والأنثى لا تمكن من نفسها غيرَ ذكرها وتَبِيض بيضة واحدة وربمـا باضت بيضتين .

ومنها "البُومة" — بضم الباء الموحدة وفتح الميم — للذكر والأنثى؛ وهو طائر من طير الليل فى قَدْر الإوزَّة، لها وجه مستدير بالريش النابت حوله، يشبه وجه الآدمىّ، فى صفرة عينين وتوقُّدهما . ويقال للذكر منها : الصَّدى والضُّوَعُ — بضم الضاد المعجمة — والفَيَّادُ — بالفاء وتشـديد المثناة تحت — ويقال للأنثى : الهـامَةُ . وكنية الأنثى : أُمُّ الخَرَاب، وأُمُّ الصِّبيان؛ ولهـا فى الليل قوّةُ سلطان لا يحتملها شىءٌ من الطير؛ تدخُل على كل طائر فى وَكْرِه فى الليل فتُخْرِجه منه وتأكل فِراخَه وبَيْضه، ولا تنام الليلَ؛ والطير بجملته يُعاديها من أجل ذلك؛ فإذا رأوها فى النهار (١) قتلوها ونَتَفُوا ريشها؛ ومن ثم يجعلها الصـيَّادون فى شِباكهم ليقع عليهـا الطير فيَقْتَنِصُونها ؛ فهى لا تظهر بالنهار لذلك .

ونقل المسعودىّ فى مروج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تمتنِـع من ظُهُورها فى النهار خَوفًا من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها، لأنها تصوّر فى نفسها أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنى الخراب دون العامر .

ومن غريب ما يُحكى ما ذكره الطرطوشى فى "سراج الملوك" : أن عبدالملك بن مروان أرِقَ ليلةً فاستدعى سَمِيرا يحدّثه، فكان مما حدّثه أن قال : ياأمير المؤمنين كان بالبصرة بُومة وبالمَوْصل بُومة، فخطبت بُومة الموصل الى بُومة البصرة بنتها لابنها؛

(١) عبارة حياة الحيوان فاذا رآها الطير قتلنها ونتفن ريشها... الخ، وهى أصوب .

فقالت بومة البصرة : لا أفعل حتى تجعل فى صداقها مائة ضيعة خراب ؛ فقالت بومة الموصل : لا أقدر على ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلّمه الله علينا سنة واحدة فعلت ؛ فاستيقظ لها وجلس للظالم .

ومنها "البُؤة" [1] — بضم الباء وفتح الهمزة — قال الجوهرى : وهو طائر يشبه البُومة ، إلا أنه أصغر منها . وذكر ابن قتيبة فى أدب الكاتب نحوه ، ويقال له : البُوهة أيضا ؛ وهى من طير الليل أيضا . ولايخفى أنها التى يسميها الناس فى زماننا المَصّاصة ، و يزعمون أنها تنزل على الأطفال فتمَصّ أُنُوفَهم .

ومنها "الخُفّاش" — بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء و بالشين المعجمة ، ويجمع على خَفَافِيش — وهو طائر غريب الشَّكل والوصف لا ريش عليه ؛ وأجنحته جلدة لاصقة بيديه ، وقيل لا صسقة بجنبه . وسمى خُفّاشا لأنه لا يبصر نهارا ، و به سمى الرجل : أخفش ؛ والعامة تسميه الوَطْواط ، وقيل : الخُفّاش الصغير ، والوَطْواط الكبير ، و يقال : إن الوطواط هو الخُطّاف لا الخُفّاش . وليس هو من الطير فى شىء ، فإن له أسنانا وخُصيتين ، و يحيض و يضحك كما يضحك الإنسان ، و يبول كما تبول ذوات الأربع ، و يرضع ولده من ثديه .

ولما كان لا يبصر نهارا التمس وقتا يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس ، لأنه وقت هَيَجان البعوض ، فالبعوض يخرج فى ذلك الوقت يطلب قُوته من دماء الحيوان ، والخُفّاش يخرج لطلب الطُّعْم فيقع طالبُ رزق على طالب رزْق . ويقال : إنه هو الذى خلقه المسيح عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله . قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مباينا لغيره من الطيور ،

(١) لم يهمزه أحد من اللغويين بل ذكروه فى باب الهاء ، وقد رسم فى الصحاح بالواو ، وكذا فى القاموس وقال بالضم .

ولذلك سائر الطيور مُبْغِضَةٌ له وتسطو عليه ، فما كان منها يأكل اللحم أكله ، وما كان منها لا يأكل اللحم قتله ، وهو شديد الطَّيَران ، سريع التقلب ، يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه . وهو موصوف بطول العمر حتّى يقال : إنه أطول عمرا من النَّسْر ، وتلد الأنثى ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيرا ما يَسْفِدُ وهو طائر فى الهواء . وهو يحمل ولده معه اذا طار تحت جناحه ، وربما قبض عليه بفيه حُنُوًّا عليه ، وربما أرضعت الأنثى ولدها وهى طائرة . وفى طباعه أنه متى أصابه ورق الدلْب خَدِرَ ولم يطر . وقد ورد النهى عن قتله .

فإذا عرف الكاتب أحوال الطير وخواصّها ، تصرف فيها بحسب ما يحتاج إليه فى نظمه ونثره ، كما فى قول الشاعر :

وإذا السعادةُ لاحَظَتْكَ عيونُها * نَمْ ، فالمَخَاوِفُ كلُّهنّ أمانُ
واصْطَدْ بها العنقاءَ فهى حبائلٌ * واقْتَدْ بها الجَوْزاءَ فهى عِنانُ

إشارةٌ إلى عِظَم العنقاء وعدمِ القدرة على مقاومتها ، ومع ذلك تنقاد بالسعد . وكما فى قول أبى الفتح كُشَاجِم ، مخاطبا لولده يطلب البرّ منه :

اِتّخِذْ فِىَّ خَلّةً فى الكَرَاكِى * أتّخِذْ فيك خُلّةَ الوَطْوَاط
أنا إن لم تَبَرَّنِى فى عناء * فَبِرِى ترجو جَوَازَ السراط

يشير إلى ما تقدّم من أنّ فى طبع الكُرْكِىّ بِرَّ والديه إذا كَبِرا ، كما أن فى طبع الوَطْوَاط برّ أولاده بحيث يحملها معه إلى حيث توجه ، وكما فى قول الشاعر :

مثل النهار يَزِيدُ إبصارَ الورى * نُورا ويُعْمِى أعيُنَ الخُفَّاشِ

إشارة إلى أن الخُفّاش لا يُبْصِر نهارا ، بخلاف سائر أرباب الأبصار ، وكما قيل فى وصف شارد عن القتال :

وهُمْ تركُوه أسلَحَ مِنْ حُبَارى (١) * رأى صقرا ، وأشْرَدَ من نَعَامِ

يريد ما تقدّم ممـا يَعْرِضُ للحبارى من إرسالهـا سَلْحَهَا على الجارح عند آقتناصه لهـا ، وأنّ النعام فى غاية مايكون فى البرية من الشِّراد والنُّفار، ونحو ذلك ممـا يجرى هذا المجرى .

الصـــــنف الرابع
الحمـام

وقد اختلف فى الحمـام فى أصل اللغة ، فنقل الأزهرىّ عن الشافعىّ رضى الله عنه أن الحمام يطلق على كل ما عَبّ وهدر و إن تفرقت أسماؤه، فيدخل فيه الحمام، واليَمَام، والدُّباسىّ، والقَمَارِى، والفواخت وغيرها. وذهب الأَصْمَعِىّ إلى أن الحمام يطلق على كل ذات طوق كالفواخت والقمارىّ وأشباهها . ونقـل أبو عُبَيد عن الكسائىّ سماعا منه أن الحَمَام هو الذى لا يألف البيوت، وأن اليمام هو الذى يألَفُ البيوت، لكن الذى غلب عليه إطلاق الحمـام هذا النوع المخصوص المعروف .

ثم هو على قسمين :

أحدهما ما ليس له آهتـداءٌ فى الطيران من المسافة البعيدة .

والثـانى ما له آهتداء، و يعرف بالحمام الهدى وهو المراد هنا . وقد آعتنى الناس بشأنه فى القديم والحديث، وآهتمّ بأمره الخلفاء، كالمهدىّ ثالث خلفاء بنى العباس، والواثق، والناصر، وتنافس فيه رؤساء النـاس بالعراق، لا سيما بالبَصْرَة .

فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" : أنهم تنافسوا فى آقتنائه، ولَهِجُوا بذكره، وبالغوا فى أثمانه حتّى بلغ ثمنُ الطائر الفاره منها سَبْعَمائة دينـار، ويقال : إنه بلغ ثمن

---

(١) ورد هذا البيت فى حياة الحيوان هكذا : وهم تركوك ... ... * رأت ... الخ .

طائر منها جاء من خليج القسطنطينية أَلْفَ دينار، وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا . وإنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب . وإنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العَدْلُ من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والإخبارِ عنها، والوصف لأثرها والنعتِ لمشهورها؛ حتّى وجه أهل البصرة إلى بكار بن قتيبة البكرانى، قاضى مصر -- وكان فى فضله وعقله ودينه ووَرَعه ما لم يكن عليه قاض -- بحمامات لهم مع ثِقَات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولّى إرسالها بنفسه، وكان الحمام عندهم مَتْجَرًا من المتاجر لا يَرَوْنَ بذلك بأسا .

وذكر المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف": أن الحمام أوّل ما نشأ -- يعنى فى الديار المصرية والبلاد الشامية -- من المَوْصِلِ وأنّ أوّل مَن اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل: الشهيدُ نور الدين بن زنكى صاحب الشام رحمه الله فى سنة خمس وستين وخمسمائة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر، وبالغوا حتّى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وقد اعتنى بعض المصنفين بأمره، حتّى صَنَّفَ فيه أبو الحسن بن ملاعب القوّاس البغدادىّ كتابا للناصر لدين الله العباسى، ذكر فيه أسماء أعضاء الطائر، وريَاشِه، والوشومِ التى توشم فى كل عُضْوٍ، وألوانَ الطيور، وما يستحسن من صفاتها، وكيفيةَ إفراخها، وبعضَ المسافات التى أُرْسِلَتْ منها؛ وذكر شىء من نوادرها وحكاياتها وما يجرى مجرى ذلك .

وذكر فى "التعريف" : أن القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر صنف فيها كتابا سماه "تمائم الحمائم" ويتعلق الغرض منها بأمور ،

الأمر الأوّل

ذكر ألوانها

قال أبو الحسن القوّاس : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ، ويرجع القصد فيها الى ذكر ألوان ستة :

اللون الأوّل "البياض" ومنه الأبيض الصافى، والأشقر ، وهو ما كان يعلوه حمرة ، فإن كان الغالب فى شُقْرته البياض قيل : فِضّىٌّ ، فإن زاد قيل : أشقر .

اللون الثانى "الخضرة" إن كانت خضرته مُشْبَعَة الى السواد قيل : أخضر مسنىٌّ ، فإن كان دون ذلك قيل : نَبْتِىٌّ الخضرة ، فإن كان دون ذلك قيل : صافى الخضرة ، فان تكدّرت خضرته بأن لم يكن صافى الخضرة قيل : أسمر .

اللون الثالث "الصُّفْرة" وهى عبارة عن أن تكون خضرته تميل الى البياض ، فإن كان صافيا قيل : أصفر قرطاسىّ .

اللون الرابع "الحمرة" إذا كان شـديدَ الحمرة قيل : عُنَّابىّ ، فإن كان دون ذلك قيل : تمْرى ، فإن كان دون ذلك قيـل : خَلُوقىٌّ ، فإن كانت حُمْرته تضرب الى الخضرة قيل : أكْفَأ ، فإن كانت حمرته تضرب الى البياض قيل : أحمر صَدَفىّ .

اللون الخامس "السـواد" إذا كان شـديد السواد لابياض فيه قيل : أسود مُطْبق ، فإن كان لون سواده ناقصا قيل : أسود أخْلَس ، فإن كان سوادُه يضرب الى الخضرة قيل : أسود رَمادِىّ ، فإن كان فى سوادم مائية قيل : أسود بَرّاق ، فإن كان ساقاه أيضا أسودين قيل : أسود حالك ، وأسود زِنْجىّ .

اللون السادس "النَّمِرىّ" وهو أن يكون فى الطائر نقط يخالف بعضُها بعضا ، ويختلف الحال فيه باختلاف كِبر النُّقط وصغرها ، فتارة يقال : مدنَّر ، وتارة يقال :

ملَمّع، وتارة يقال : أبْرَش، وتارة يقـال: مُوشَّح، وتارة يقال: أبْقع، وتارة يقال: أبْلَق، وتارة يقال : دَبَاسيّ، وتارة يقال: مُدَرَّع، إلى غير ذلك مما لا يُستوفى كثرةً .

ثم إن كان الطائر أكحَل العينين وحَول عينيه حمرةٌ قيل : فقيع؛ فإن كان أصفر العين قيل : أصفَرُ زِرْنيخى؛ فإن كان أبيض العنق قيل : هلالىّ، وهو أحسنها، والأصفرُ العينِ بعده؛ فإن كانت العين بيضاء وفيها حمرة قيل : رُمّانى العين .

الأمـــــــر الثـانى

فى عدد ريش الجناحين والذنب المعتدّ به وأسمائها

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة، فى كل جناح منهما عشرُ ريشات؛ الأولى منها وهى التى فى طرف الجناح تسمّى : الصمة؛ والثانية وهى التى بعدها تسمّى : المُضَافة الرئيسية؛ والثالثة وهى التى بعدها تُسمّى : الواسطية؛ والرابعة وهى التى بعدها تسمّى : المُضَافة؛ والخامسة وهى التى بعدها تسمّى : المِنْظفة؛ والسادسة وهى التى بعدها تسمّى : المُنْحدرة؛ والسابعة وهى التى بعدها تسمّى : الناقصة؛ والثامنة وهى التى بعدها تسمّى المُؤْنسة؛ والتاسعة وهى التى بعدها تسمّى: الزّاملة؛ والعاشرة وهى التى بعدها تسمّى : المُعِينة .

وبعضهم يسمى الأولى: الصغيرة، والثانية : الرقيقة، والثالثة: الموفية، والرابعة الباحلة، والخامسة : الحيرة، والسادسة : الصرافة، والسابعة: ممسكة الرمى، والثامنة والتاسعة : الحافظتين، والعاشرة : المَلِكة .

وربمـا كان فى كل جناح إحدى عشرة ريشةً، فيسمّى الطائر حينئذ : أعلم .

ولهذه الريشات العشر عشرُ ريشـات مع كل واحدة منها رادفةٌ، وهى الريش الصِّغَارُ التى تغطّى قصَب الجَنَاح من ظاهره؛ ولكل ريشة من هـذه الريشات العشر ريشة صغيرة تغطى قصبتها؛ لكل واحدة منها اسم يخصها .

ومن ريش الجناح أيضا : الخَوَافِي ، وهي الريش المستَّر مع العشر ريشات الطِّوال المنقلبُ برءوسه إلى مؤخّر الجناح ، وهي تسع ريشات ، الأولى منها تسمّى : الحدقة ، والثانية : الرّتمة ، والثالثة : الفترة ، والرابعة : الحز ، والخامسة : الجائزة ، والسادسة : المسلّمة ، والسابعة : الملازمة ، والثامنة : الشعثة ، والتاسعة : اللامعة ؛ وبعضهم يسمّى الأولى : بنت الملكة ، والثانية : الإبرة ، والثالثة : المقشعرة ، والرابعة : الصافية ، والخامسة : المصفية ، والسادسة : المصفرة ، والسابعة : الزرقاء ، والثامنة : السوداء ، والتاسعة : المزرقّة ؛ وعدّ فيها غاشرة تسمّى : المخضّرة ؛ ولكل ريشة من الريشات التّسع ريشةٌ صغيرة تغطى قصبتها لها اسم يخصها أيضا .

وبعد الخوافى : الغفار ، ولكل ريشة من الغفّار ريشة صغيرة من باطنها تغطّى قصبتها .

ومن ريش الجناحين : المُقَوِّمات ؛ وهي ثلاث ريشات فى طَرَف الجناح ، تسمّى : الزوائد ، ومن فوقها ثلاثُ ريشات صغارٌ تغطّى قصبتها ، تسمّى : القَواشى ، وأصلها مع أصلُ[1] أيضا .

وأما الذَّنَبُ ، فالمعتبر فيه اثنتا عشرة ريشةً من كل جانب : منه ست ريشات تسمّى الأولى منها : الغزالة ، والثانية : العَرُوس ، والثالثة : الباشقة ، والرابعة الباقية ، والخامسة : المجاورة ، والسادسة : العمود ، ومن الجانب الآخَر كذلك .

الأمـــــر الثـالث

الفرق بين الذكر والأنثى

وقد ذكروا بينهما فروقا ، منهـا أن الأنثى إذا مشت قدّمت الرِّجْل اليسرى ، والذكرُ يقـدّم الرِّجل اليُمنى ، ومنها أن يُرى الذكر مُقتَـدِرًا فى الأرض مُسْتَشبطا ،

(١) لعله مع أصل الزوائد أيضا كما يقتضيه المقام تأمل .

والأنثى بالضـد من ذلك ، ومنها أن ريش الذكر أعرض وأطول وأحسن آستواء من الأنثى ، ومنها أن مَذْبَح الذكر يكون عريضا ومذبح الأنثى دقيقا ، ومنها أن يكون وجه الذكر عريض الخـد والأنثى بالضـد من ذلك ، ومنها أن الأنثى إذا طارت فتحت جناحيها والذكر إذا طار أخرج عَشَرَيه .

الأمــــــر الرابع

فى بيان صـــفة الطائر الفـارِهِ

قال أبو الحسن القوّاس : علامته أن يكون رأسه مكعبا ، وعينه معتدلةً ، غيرَ ناتئة ولا غائرة ، ولا فاترة ، ولا قلقة منزعجة ؛ وأن يكون منقاره غليظا قصيرا ، وأن يكون وسط المَنخَرَين ، مُكَلْثَمَ القِرطِمَتَين ، أَهْرَتَ الشِّدْقَين ، واسعَ الصدر ، نَقِيَّ الريش ، طويلَ الفَخِذين ، قصيرَ الساقين ، غليظَ الأصابع ، شَثْنَ البراثن ، طويلَ القَوادِم من غير إفراط .

ويستحب فيـه قِصَرُ الذنب ودِقَّتُـه ، واجتماع ريشه من غير تفرّق ، وأن يكون ظهره معتدلا وإلى القِصَر أقرب ، وأن يكون جُؤْجُؤُه ، وهو جانب الصـدر طويلا ممتدّا ، وعنُقُه طويلا منتصبا ، وريش قَوَادِمه وخوافيه مَبْنِياً متطابقا بعضُه مع بعض من غير تفرّق ولا تَمَعُّط ؛ وأن يكون شديدَ اللحم مكتنزا ، غير رِخوٍ ولا رَهِلٍ .

ويستحب فيه أيضا أن يكون قليـلَ الرِّعدة عند الفزع ، سريع اللَّقْطِ للحب ، خفيفَ الحركة والنُّهوض ، والنزول من غير طَيْش ولا آختلاط ، وأن يكون ظهره مسَطَّحًا لا أحدبَ ولا أوقصَ ؛ ويستحب فيـه إذا وقف أن ينصب صـدره ، ويرفع عُنُقَه ، ويفتح ما بين فَخِذَيه شبه البازى .

ومن علامة فَرَاهتــه أنه إذا طال عليــه الطَّيران (١) وأراد النزول على سطحه ألا يُدَلِّىَ رِجليــه حتّى يقع صــدره على سطحه لأنه إذا دلّى ساقيه كان عيبا عظيما، يقولون : قد انحلت سراويله بمعنى أنه قد أدّى جميع ما عنــده من القوّة والطاقة ؛ ويكره فيه دقة المَغْرِز، وطولُ الذَّنَب، وتفرّق الريش .

الأمـــــر الخـامس

الفِرَاسة فى الطائر من حال صغره قبل الطيران

قالوا من علامة الطائر الفاره فى صِغَرِه : أن يكون حديدَ النظر، شديدَ الحذر، خفيف اللحم ، قليلَ الريش ، سريعَ النَّهضــة ، كثيرَ التَّلَفُّت فى الجو ، ممتدَّ العظم ، مستو يا ، لطيفَ الذَّنَب، خارجَ العُنُق، قصيرَ الساقين، طو يل الفَخذَينَ، مُحَجَّلا ، مذيَل المُنقار، مدوّرَ القَرَاطم، مضاعفَ المَحَاجر، يلزم موضعا واحدا من صغره، إلى ازدواجه ؛ فإذا آزدوج على السَّطح يكون حريصا على طائرته، حسنَ الأخلاق معها لا يَطْرُدُهَا طردَ الكلاب ، ولا يغتالُ غِيلَةَ الذئاب ، قليــلَ الذَّرق ، كثيرَ الدهن ؛ مُدِلًّا بنفسه ؛ كأنه يعلم أنه فاره . فإن كان فيه بعضُ هذه الخصال كانت فراهته على قدر ما فيه من ذلك .

قال أبو الحسن الكاتب : ومن علامة شهامة الفرخ أن تكون فيه الحركة وهو تحت أبيه وأمه ، وكلما جمعته لتضمّه تحتها ، خرج من تحتها و يعتلق بالخروج ؛ وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جلحا ، وريشُ جسده وجناحه مستطيلا عنــد نَبْعه من جسده ؛ وأن يطول ريشُه حتّى يغطّىَ ظهره ولا ينتشر إلا بعــد ذلك ؛ وأن يكون من جؤجؤ الصدر إلى مَغْرِزه أقصر من بطنه إلى رأس بِرَانِته .

(١) لعل الجار ومجروره من زيادة الناسخ .

وفى الحمام طائر يقال له : الأندم ، وصفته أن يكون أسود المِنْقار ليس فيه بياض ، ورأس مِنْقاره وأصله سواء ، لا تحديد فى رأسه ، عريضَ القَرَاطم ، غليظَ الشِّدقين ، منتشر المَنْخِرَين ، جَهْوَرِىَّ الصوت ، غائرَ العين ، قال أبو الحسن القوّاس : ولا تكون هذه الصفة إلا فى الطائر الفاره الأصيل ، الكريم الأب والأم .

الأمــــــر السادس

بيان الزمان والمكان اللائقين بالإفراخ

أما الزمان فأصلح أوقات التأليف : أيلول ، وتشرين الأوّل ، وتشرين الثانى ، وأذار ، ونيسان ، وأيار ، فإذا وقع الإفراخ فى شىء من هذه الأوقات كانت الفراخ أقوياء ، نُجَباء ، أذكياءَ ، ونُهوا عن الإفراخ فى كانون الأوّل ، وكانون الثانى ، وشباط ، وآب ، وتموز ، وحزيران ؛ فإن الذى يُفْرِخ فيه لا يزال ناقصَ البدن ، قليلَ الفطْنة ، يلقى ريشه فى السنة مرتين فيضعف .

وأما المكان فقد حكى عن إقليمن الهندى : أن أولى ما أفرخ الحمامُ بالسُّطوح . وذلك أنّ الفرخ يخرج من القشر فيلقى خشونةَ الهواء وحَرَّ الموضع فيصير له عادة ثم لا ينهض حتّى يعرف وطنه وينقلب إليه أبوه وأمه بالزَّقّ والعَلَف فيعرف السَّطح حقَّ المعرفة ، وينتقل خلفهما فيعلمانه الصُّعود والهُبُوط ، وربما أخذه إلى الرَّعْى بالصحراء فلا يكمل حتّى يصير شهما عارفا بأمور الطيران ؛ بخلاف ما إذا أفرخ بالسُّفْل فإنه يتربّى جسده على برودة الفَىْء ولين الهواء ، فإذا كمل وترقّى إلى السطح لقيه خشونة الهواء وقوّة الحرّ ، فيُحْدث له الحرّ الجامد بفؤاده الكُبَادَ والدِّقّ

الأمــــــر السـابع

فى مسافة الطيران

قد تقدّم أنّ طائرا طار من الخليج القُسْطنطينىّ إلى البَصْرة ؛ وأن الحمـام كان يُرَسـل من مصر إلى البصرة أيضا .

وذكر ابن سعيد فى كتابه "جنى المحـل وجنى النحل": أنّ العزيز ثانىَ خلفـاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القَرَاصِيَة البعلبكية، وأنه يحب أن يراها ، وكان بدمشق حمامٌ من مصر وبمصر حَمَام من الشام؛ فكتب الوزير بطاقةً يأمر فيها مَنْ بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرى ويعلق فى كل طائر حَبَّاتٍ من القَرَاصِيَة البعلبكية وتُرسَل ففعل ذلك ؛ فلم يمض النهار إلا وعنده قدر كثير من القَرَاصِية ، فطلع بها إلى العزيز من يومه؛ وذكر أيضا فى كتابه " المُغْرب فى أخبار المَغْرِب " : أن الوزير اليازورى المغربى وزير المستنصر الفاطمى وجه الحمام من مدينـة تونس من إفريقيَـة من بلاد المغرب إلى مصر فجاء إلى مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القوّاس فى كتابه فى الحمام : أنَّ حماما طار من عَبَّادانَ إلى الكُوفة ،وأن حماما طار من التُّرنَاوَذ إلى الأُبُلَّة ونحو ذلك . وسيأتى الكلام على أبراج الحمام بالديار المصرية فى المقالة العاشرة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

النــوع الخـامس

ما يحتاج إلى وصــــفه من نفائس الأحجار

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث مخالطةُ الملوك ، فلا بدّ أن يكون عارفا بصفات الجواهر وأثمانها والنَّفيس منها وخواصّها ، لأنه ربما جرى

ذكر شيء من ذلك بحضرة ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة فى رفعة محله ، وعلو مقداره ؛ وهذا هو الذى عوّل عليه صاحب "موادّ البيان" فى ٱحتياج الكاتب إلى ذلك .

والثانى: أن يحتاج إلى وصف شيء من ذلك مع هدية تصدُر عن ملكه أو هدية تصل إليه، مع مايحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبيهات والاستعارات التى هى عمودُ البلاغة ؛ فمن لم يكن عارفا بأوصاف الأحجار، ونفائس الجواهر لايُحسِن التعبير عنها ؛ ألا ترى إلى تشبيهات ٱبن المعتز ووصفه للجواهر كيف تقعُ فى نهاية الحُسْن ، وغاية الكمال لمعرفته بالمشاهدة فهو يقول عن علم، و يتكلم عن معرفة «وليس الخبرُ كالمعاينة» وقد ٱعتنى الناس بالتصنيف فى الأحجار فى القديم والحديث .

فممن صنّف فيه فى القديم من حكماء الفلاسفة : أرسطوطاليس، و بلينوس ، و ياقوس الأنطاكى .

وممن صنَّف فيـه من الإسلاميين : أحمد بن أبى خالد المعروف بابن الجزار، و يعقوب بن إسحاق الكِنْدىّ وغيرهما . وأحسن مصنَّف فيه مصنَّف أبى العباس أحمد بن يوسف التِّيفاشِىّ .

والذى يتعلق الغرض منه بذلك ٱثنا عشر صنفا .

الصـــــنف الأوّل

اللـــؤلـــؤ

وهو يتكوّن فى باطن الصَّـدَف ؛ وهو حيوانٌ من حَيَوان البحر المِلْح له جِلْد عَظْمِىٌّ كالحَلَزون، و يغوص عليه الغوّاصُون ،فيستخرِجُونه من قعر البحر، و يصْعَدُون به فيستخرجُونه منه . وله مَغَاصات كثيرة ، إلا أن مَظَانَّ النفيس منه بسَرَنْديب

من الهند ؛ وبكيش ، وعُمَـانَ ، والبحرين من أرض فارس ؛ وأنفره لؤلؤ جزيرة خارَكَ، بين كيش والبحرين .

أمّا ما يوجد منه ببحر القُلْزم وسائر بحار الحجاز فردىء ولو كانت الدُّرّة منه فى نهاية الكبر ؛ لأنه لا يكون لهـا طائل ثمن . وجيِّد اللؤلؤ فى الجملة هو الشَّفَّاف الشديد البياض، الكبيرُ الجرم، الكثيرُ الوزْن، المسـتدير الشكل، الذى لا تَضْرِيس فيه ، ولا تَفَرْطُحَ، ولا أعوجاجَ . ومن عيوبه أن يكون فى الحبة تفَرْطُح، أو أعوجاجٌ، أو يلصق بها قِشْر أو دودة، أو تكون مجوّفة غير مصمتة، أو يكون ثقبها متسعا .

ثم من مصطلح الجوهريين أنه اذا آجتمع فى الدرّة أوصاف الجَوْدة، فمـا زاد على وزن درهمين ، ولو حبة يسمّى درّا ؛ فإن نقصت عن الدرهمين ولو حبة سُمِّيتْ حَبَّـة لؤلؤ ؛ وإذا كانت زنتها أكثر من درهمين وفيهـا عيب من العيوب فإنها تسمّى حبَّـة أيضا ؛ ولاعبرة بوزنها مع عدم آجتماع أوصاف الجَوْدة فيها . وتسمّى الحبة المستديرةُ الشكلِ عند الجوهريين : النارة، وفى عرف العامّة : المُدَحْرَجة . ومن طبع الجوهر أنه يتكوّن قشورا رقاقا طبقـةً على طبقة حتّى لو لم يكن كذلك فليس على أصل الخلقة بل مصنوع

ومن خواصه أنه إذا سُحِق وسُقى مع سَمْن البقر نفع من السُّمُوم .

وقال أرسطوطاليس : من وقف على حل اللؤلؤ من كباره وصغاره حتّى يصير ماء رَجْراجا ثم طَلَى به البرص أذهبـه . وقيمة الدرة التى زنتُها درهمـان وحبة مثـلا أو وحبتان مع اجتماع شَرائط الجَوْدة فيها سبعمائة دينار ؛ فإن كان اثنتان على هـذه الصفة كانت قيمتهما ألفى دينار، كل واحدة ألف دينار لآتفاقهما فى النظم ؛ والتى زنتها مثقال وهى بصفة الجودة قيمتها ثلثمائة دينار ، فإن كان اثنتان زنتهما مثقال وهما

بهذه الصفة على شكل واحد لا تفريق بينهما فى الشكل والصورة : كانت قيمتهما أكثر من سبعمائة دينار .

وقد ذكر ابن الطوير فى تاريخ الدولة الفاطمية : أنه كان عند خلفائهم دُرّة تسمّى اليتيمة زنتها سبعة دراهم تجعل على جبهة الخليفة بين عينيه عنـد ركوبه فى المواكب العظام على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب دولتهم فى المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ويضُرّه جميع الأدهان، والحُموضات بأسرها لاسيما الليمون، ووهج النار، والعرَق، وذَفَر الرائحة ، والاحتكاك بالأشياء الخشنة ؛ ويجلوه ماء حماض الأترج إلا أنه إذا أُلِحّ عليه به قشّره ونقّص وزنه ؛ فإن كانت صفرته من أصل تكوّنه فى البحر فلا سبيل الى جلائها .

الصـــنف الثـــانى
اليـاقـــوت

قال بلينوس : وهو حجر ذهبىٌّ، وهو حصًى يتكوّن بجزيرة خلف سَرَنْديبَ من بلاد الهند بنحو أربعين فرسخا ، دورها نحو ستين فرسخا فى مثلها ، وفيها جبل عظيم يقال له : جبل الرّاهُون تُحْدِر منه الرياحُ والسيولُ الياقوتَ فيُلْتَقَط ، والياقوتُ حصباؤه ؛ — وهو الجبل الذى أهبط الله تعالى عليه آدم عليه السلام — فإذا لم تُحْدِر السيولُ منه شيئا عمـد أهلُ ذلك الموضع الى حيوان فذبحوه وسلَخُوا جلده وقطّعوه قِطَعا كبارا وتركوه فى سفح ذلك الجبل فيختطفه نُسُور تأوِى الى ذلك الجبل فتصعَد باللحم الى أعلاه فيلصق بها الياقوت، ثم تأخذه النسور وتنزل به الى أسفل فيسقط منه ما علِق به من الياقوت ؛ فإذا أخذ كان لونه مظلما ثم يشف بملاقاة الشمس ويظهر لونه على أىّ لون كان .

ثم هو على أربعة أضرب :

الضرب الأول " الأحمر " — ومنه البَهْرَمان، ولونه كلون العُصْفُر الشديد الحمرة الناصع فى القوّة الذى لا يشوب حمرته شائبة، ويسمّى : الرُّمّانىّ لمشابهته حبّ الرُّمّان الرائق الحب، وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمنا .

ومنه : الخِيرىُّ، وهو شبيه بلون الخِيرىّ، وهو المنثور، ويتفاضل فى قوّة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الوَرْدىُّ : وهو كلون الورد ويتفاضل فى شدّة الصبغ وضعفه حتّى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الوردىُّ الذى يضرب الى البياض ، والسُّمّاقىّ الذى يضرب الى السّواد .

الضرب الثانى " الأصفر " — وأعلاه الجُلَّنارىُّ ، وهو أشدّه صفرة ، وأكثره شُعاعا ومائيّة ، ودونه الخَلُوقىّ ، وهو أقلُّ صُفْرةً منه ، ودونه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشُّعاع . وأردأ الأصفر ما نقص لونه ومال الى البياض .

الضرب الثالث " الأبيض " — ومنه المهانِىُّ : وهو أشدّها وأكثرها ماءً وأقواها شُعاعا ، ومنه الذكر ، وهو أثقلُ من المهانىّ وأقلُّ شُعاعا وأصلبُ حَجَرًا ، وهو أَدْوَنُ أصناف الياقوت وأقلها ثمنا . وأجود الياقوت الأحمرُ البهرمانىّ والرمانىّ والوردىّ النيِّر المشرقُ اللون الشفَّافُ الذى لا يَنْفُذُه البصر بسرعة . وعيوبه الشَّعْرةُ ، وهى شبه تشقيق يُرى فيه ، والسُّوس ، وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شىء من ترابية المَعْدِن .

ومن أردأ صفاته قبح الشكل .

ومن خواصّ الياقوت : أنه يقطع كل الحجارة كما يقطعها المَاسُ ؛ وليس يقطعه هو على أيّ لون كان غيرُ المَاس .

ومن خواصه أيضا : أنه لا يَحُكّ على خشب العُشَر الذى تجلى به جميعُ الأحجار؛ بل طريق جلائه أن يُكَسَّر الجَزْعُ اليمانى ويحرق حتَّى يصير كالنُّورة ثم يسحق بالماء حتَّى يصير كأنه الغِرَاءُ ثم يحك على وجه صفيحة من نحاس حجرُ الياقوت ؛ فينجلى ويصيرُ من أشدّ الجواهر صَقَالَةً .

ومن خواصه : أنه ليس لشىء من الأحجار المُشِفَّة شعاعٌ مثله ، وأنه أثقل من سائر الأحجار المساوية له فى المقدار، وأنه يصبر على النار فلا يَتَكَلَّس بها كما يتكلس غيره من الحجارة النفيسة ؛ واذا خرج من النار بَرَدَ بسرعة حتَّى إنّ الإنسانَ يضعه فى فيه عَقِبَ إخراجه من النار فلا يتأثر به ؛ إلا أن لون غير الأحمر منه كالصفرة وغيرها يتحول الى البياض ؛ أمّا الحمرة فإنها تَقْوى بالنار، بل اذا كان فى الفص نُكْتَةٌ حمراء؛ فإنها تَتَّسِعُ بالنار وتَنبسط فى الحجر بخلاف النكتة السوداء فيه ، فإنها تنقُص بالنار ، فما ذهبت حمرته بالنار فليس بياقوتٍ بل ياقوت أبيضُ مصبوغ أو حجر يشبه الياقوت .

ومن منافعه ما ذكره أرْطاطاليس : أن التختم به يمنع صاحبَه أن يصيبه الطاعونُ اذا ظهر فى بلد هو فيه، وأنه يعظم لابسه فى عيون الناس، ويسهلُ عليه قضاء الحوائج، وتتيسر له أسباب المعاش، ويقوّى قلبه ويشجعه، وأن الصاعقة لا تقع على من تختم به . وإذا وضع تحت اللسان، قطع العطشَ . وآمتحانه أن يُحَكَّ به ما يشبهه من الأحجار، فإنه يَجْرَحُها بأسرها ولا تؤثر هى فيه .

قال التيفاشىّ : وقيمة الأحمر الخالص على ما جرى عليه العُرْف بمصرَ والعراق أنّ الحجرَ إذا كان زنتُه نصفَ درهم كانت قيمته ستةَ مثاقيل من الذهب الخالص؛

والحجر الذى زنته درهمٌ قيمته ستة عشر دينارا ، والحجر الذى زنته مثقالٌ قيمته بدينارين القيراط ، والحجر الذى زنته مثقال وثلثٌ قيمته ثلاثة دنانيرَ القيراط إلى ثلاثة ونصف ، ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائيته وكبر جرمه ، حتّى ربما بلغ ما زنته مثقال من جيده مائةَ مثقال من الذهب إذا كان بهرمانا نهايةً فى الصِّبْغ والمائية والشعاع ، قد نقص منه بالحك كثيرٌ من جرمه ، وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم بدينارين ، وقيمة الأزرق والماهانىّ كل درهم بأربعة دنانير ، وقيمة الأبيض على النصف من الأصفر . ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص فى الصِّبْغ والمائية مع القرب من المَعْدِن والبعد عنه .

وقد ذكر ابن الطوير فى ترتيب مملكة الفاطميين : أنه كان عندهم حجرُ ياقوت أحمر فى صورة هلال زنته أحد عشر مثقالا يُعْرَفُ بالحافر، يجعل على جبين الخليفة بين عينيه مع الدّرّة المتقدّمة الذكر عند ركوبه .

الصنف الثالث

البَلَخْشُ

قال فى مسالك الأبصار : ويسمّى اللَّعْل .

قال بلينوس : وانعقاده فى الأصل ليكون ياقوتا إلا أنه أبعده عن الياقوتية عِلَلٌ من اليُبْس والرطوبة وغيرهما ، وكذلك سائر الأحجار الحُمْر . ومعدن البَلَخْش الذى يتكوّن فيه بنواحى بَلَخْشَان . والعجمُ تقول : بَذَخْشَان بذال معجمة وهى من بلاد الترك تتاخم الصين[1] .

(١) فى ياقوت : أنها فى أعلى طخارستان متاخمة لبلاد الترك .

قال التيفاشي : وأخبرنى من رأى مَعْدنَه من التُّجّار أنه وجد منه فى المعدن حجرا وفى باطنه ما لم يكمل طبخه وآنعقاده بعد . والحجر مجتمع عليه؛ وهو على ثلاثة أضرب: أحمر مُعَقْرَبٌ، وأخضر زَبَرْجَدِىٌّ، وأصفر؛ والأحمر أجوده .

قال التيفاشي : وليس لجميعه شيء من خواص الياقوت ومنافعه؛ وإنما فضيلته تشبهه به فى الصِّبْغ والمـائية والشعاع لا غير . قال : وقيمته فى الجمـلة غالبا على النصف من قيمة الياقوت الجيد .

قال فى مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من مَعْدِنه إلا بتعب كثير وإنفـاق زائد، وقد لا يوجد بعد التعب والإنفاق، ولهـذا عز وجودُه، وغَلَتْ قيمتُه، وكثر طالبُـه، والتفتت الأعناق إلى التحلى به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلى بلادنا من البَلَخْش قطعة وصلت مع تاجر فى أيام العادل كتبغا وأُحضرت اليه وهو بدِمَشْقَ، وكانت قطعةً جليـلةً مثلثة على هيئة المُشْط العُودىّ . وهى فى نهـاية الحسن وغاية الجَوْدَةِ، زنتها خمسون درهما، كاد المجلس يُضىء منها، فأحضر الصاحبُ نجمَ الدين الحنفىَّ الجوهرىَّ وساله عن قيمتها ، فقال له نجمُ الدين الجوهرىُّ : إنمـا يعرف قيمتَها من رأى مثلها، وأنا وأنت والسلطان ومن حضر لم نر مثلها فكيف نعرف قيمتها؟ فأُعْجِب بكلامه، وصالح عليها صاحبها .

الصـــنف الرابع
عَيْنُ الهِــرّ

قال التيفاشي : وهو فى معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتصرةَ به أقعـدته عن الياقوتيـة، ولذلك إنما يوجد فى مَعْدن الياقوت المتقدّم ذكره؛ وتخرجه الرياح والسيول كما تُخْرِجُ الياقوتَ على ما تقدّم، قال : ولم أجده فى كتب الأحجار، وكأنه

مُحْدَثُ الظهور بأيدى الناس، والغالب على لونه البياض بإشراق عظيم ومائية رقيقة شفافة، إلا أنه تُرى فى باطنه نُكْتة على قدر ناظر الهر الحامل للنور المتحرك فى فَصّه، وعلى لونه — على السواد — وإذا تحرك الفَصُّ الى جهة، تحركت تلك النكتة بخلاف جهته؛ فإن مال إلى جهة اليمين، مالت النكتة إلى جهة اليسار وبالعكس، وكذلك الأعلى والأسفل؛ وإن كسر الحجر أو قطع على أقل جزء، ظهرت تلك النكتة فى كل جزء من أجزائه، ولذلك يسمّى «عين الهر».

وأجوده ما آشتدّ بياض أبيضه وشفيفُه، وكثرت مائية النكتة التى فيه مع سرعة حركتها وظهور نورها وإشراقها؛ ولا يخفى أن حُسْنَ الشكل وكِبَرَ الجرم يزيدان فى قيمته كسائر الأحجار.

قال التيفاشى: والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحفظ حامله من أعين السوء. ونقل عن بعض ثقات الجَوْهَرِيِّين: أنه يجمع سائر الخواصّ التى فى الياقوت البهرمانىّ فى منافعه، ويزيد عليه بألا يَنْقُصَ مالُ حامله ولا تعتريه الآفات، وأنه إذا كان فى يد رجل وحصر مَصافّ حرب وهُزِم حزبه فالقى نفسه بين القتلى رآه كل من يمر به من أعدائه كأنه مقتول متشحط فى دمه؛ وان ثمنه بالهند مع قُرْب معدنه أغلى من ثمنه ببلاد المغرب بكثير، لعلمهم بخواصه؛ وقيمته تختلف بحسب الرغبة فيه؛ وإذا وقع ببلاد المغرب بيع المثقال منه بخمسة دنانير، ويزيد على ذلك بحسب الغرض.

وذكر التيفاشى عن بعض التجار أن حجرا منه بيعَ فى المَعْبَر من بلاد الهند بمائة وخمسين دينارا؛ وأنه بيع منه حجر ببلاد الفُرْس بسبعمائة دينار.

الصـــنف الخـــامس
المَـاسُ

قال بلينوس فى كتاب الأحجار: وٱبتدأ فى مَعْدِنه لينعقد ذهبا، فأبعدته العوارض عن ذلك، وهو يتكوّن فى مَعْدِنِ الياقوت المقـدّم ذكره، وتخرجه الرياح والسيول من معدنه كما تخرج الياقوت، وهو ضربان : أحدهما أبيض شـديد البياض يشبه البِلَّوْرَ يسـمّى البِلَّوْرِىَّ لذلك ، والثـانى يخالط بياضَــه صفرةٌ فيصير كلون الزُّجَاج الفرعونى، ويعبر عنه : بالزيتى .

قال الكندىّ : والذى عاينته من هــذا الحجر ما بين الخردلة الى الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه : أنه يقطع كل حجر يمرّ عليه، واذا وضع على سندال حديد ودُقَّ بالمِطْرَقَةِ لم ينكسر، وغاص فى وجه السـندال والمِطْرَقَةِ وكسرهما، ولا يلتصق بشىء من الأجساد إلا هُشِمَ، ويمحو النقوشَ التى فى الأحجار كلّها، وإنمـا يكسر بأحد طريقين: أحدهما أن يُجْعَلَ داخلَ شىء من الشمع ويدخل فى أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمُه الحـديد، فينكسر حينئذ؛ أو يجعـل فى أُسْرُبٍّ وهو الرَّصَاصُ ويفعل به ذلك فيكسر أيضا .

ومن خواصه : أن الذباب يشتهى أكلَه فما سقطت منه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذبابُ وٱبتلعها أو طار بها، ومتى ٱبتلع منه الإنسانُ قطعةً، ولو أصغر ما يكون خَرَقَتْ أمعاءه وقتلته على الفور .

قال أرسطوطاليس : و بينـه وبين الذهب محبة يَتَشَبَّثُ به حيث كان .

ومن خاصته : أن كلّ قطعة تؤخذ منه تكون ذاتَ زوايا قائمةِ الرأس : ستُّ زوايا وثمـان زوايا وأكثر، وأقله : ثلاث زوايا، واذا كسر لا ينكسر إلا مثلثا،

وبه يثقب الدر والياقوت والزُّمُرُّد وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يثقب الحديد الخشب، بأن يُرَكَّب فى رأس منقار حديد منه قطعةٌ بقدر ما يراد من سعةِ الثَّقْب وضيقه ثم يثقب به، فيثقب بسرعة .

ومن منفعته فيما ذكره أرسطوطاليس : أن مَنْ كان به الحصاة الحادثة فى المثانة فى مجرى البول إذا أخذ حبة من هذا الحجر وألصقها فى مِرْوَدِ نُحَاس بِمُصْطَكى إلصاقا مُحْكَمًا ثم أدخل المِرْوَدَ إلى الحصاة فإنها تثقبها .

قال أحمد بن أبى خالد : وبذلك عالجت وصيفا الخادمَ من حصاة أصابته وآمتنع من الشق عليها بالحديد .

وقال آبن بوسطر : وإذا عُلِّقَ على البطن من الخارج نفع من المَغْس الشديد، ومن فساد المعدة . وقيمته الوُسْطى فيما ذكره التيفاشى أن زنة قيراط منه بدينارين . ونقل عن الكِنْدِىّ : أن أغلى ماشاهد منه ببغداد المثقال بثمانين دينارا، وأرخصَ ما شاهد منه ببغداد أيضا المثقال بخمسة عشر دينارا؛ وأنه إذا بدرت منه قطعة كبيرة تصلح لفَصٍّ قدرِ نصف مثقال يضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلفلة ثلاثةَ أضعاف وأربعةً وخمسةً .

الصنف السادس

الزُّمُرُّد

يقال — بالذال المعجمة والمهملة — قال بلينوس : والزُّمُرُّدُ ابتدأ لينعقد ياقوتا، وكان لونه أحمرَ إلا أنه لشِدّة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عَرَضَ له السوادُ، وآمتزجت الحمرة والسواد فصار لونه أخضرَ . ومَعْدِنُه الذى يتكوّن فيه فى التخوم

بين بلاد مصر والسودان خلف أســوان من بلاد الديار المصرية ، يوجد فى جبل هناك ممتدٍّ كالجِسْر فيه معادن .

قال فى مسالك الأبصار : وبينه وبين قُوص ثمانية أيام بالسير المعتدل ، ولا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه ، والمــاء عنده على مسيرة نصف يوم أو أكثر فى موضع يعرف بغَدِير أعيَنَ . فمنه ما يوجد قِطَعًا صغارا كالحصى منبثّةً فى تراب المعْدِن وهى الفصوص ، وربما أصيب العِرْقُ منه متصلا فيُقْطَع وهو القصب ، وهو أجوده .

قال فى مسالك الأبصار : وتلك العُروق منبثّةٌ فى حَجَرٍ أبيضَ تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشى : ويوجد على بعضه تُرْبة كالكُحْل الشديد السواد ، وهو أشدّه خضرة وأكثره ماء . وقد ذكر المؤيد صاحبُ حَمَاه فى تاريخه : أن السلطان صلاحَ الدين يوسفَ بن أيُّوب رحمه الله لمــا استولى على قصر الفاطميين بعد موت العاضــد ، وجد فيه قصبة من زُمُرُّدٍ طولها أربعة أذرع أو نحوُها . وهو على ثلاثة أضرب :

الأوّل "الذُّبَابِى" ـــ وهو شديد الخُضْرة ، لا يشوب خضرتَه شىء آخرُ من الألوان من صفرة ولا سواد ولا غيرهما ، حسنُ الصِّبغ ، جيدُ المــائية ، شــديدُ الشُّعاع ، ويسمَّى : ذبابيا ، لمشابهة لونه فى الخضرة لونَ كِبَار الذُّباب الأخضر الربيعىّ ، وهو من أحسن الألوان خُضْرةً وبصيصا .

قال فى مسالك الأبصار : وهو أقلُّ من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثانى "الرَّيْحَانِىُّ" ـــ وهو مفتوح اللون ، شبيه بلون ورق الرَّيْحَان

الثالث "السِّــلْقِىّ" ـــ وخضرته أشبه شىء بلون السِّلْق .

الرابع "الصابونى" ـــ ولونه كلون الصابون الاخضر .

قال فى "مسالك الأبصار" : وإذا ٱستخرج الزُّمُرُّدُ من المَعْدِن جُعِل فى زيت الكَتَّان ثم لُفَّ فى قطن وصرّ فى خرقة كتّان ونحوها ولم يزل العمل فى هـذا المعدن إلى أثناء الدَّوْلَة الناصرية محمد بن قلاوون فتُرِكَ لكثرة كُلْفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها : الذبابىّ ، و يزداد حسنه بكبر الجرم ، وٱستواء القصبة ، وعدم الأعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابىّ : ٱختلافُ الصّبغ بحيث يكون موضع منـه مخالفا للوضع الآخر ، وعدمُ الأسـتواء فى الشكل ، والتشعيرُ ، وهو شِبْه شقوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرَّخَاوة ، وخفة الوزن ، وشـدة المَلَاسة والصَّقّال والنُّعومة ، وزيادةُ الخضرة والمائية إذا ركب على البطانة ؛ وهو ينحل بالنار ويتكلس فيها ولا يثبت ثباتَ الياقوت .

ومن خاصِّيّة الذبابىّ التى ٱمتاز بها عن سائر الأحجار : أن الأفاعىَ إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليـه ٱنفقأتْ عيونُها ؛ قال التيفاشى : وقـد جربت ذلك فى قطعة زُمُرُّدٍ ذبابىّ خالص فحصّلتُ أفعى وجعلتهـا فى طشْتٍ وألصـقته بشمع فى رأس سهم وقرّبته من عينها فسمعت قعقعة خفية كما فى فَتْل صُؤابة ، فنظرت الى عينيها فاذا هما قد بَرَزَتا على وجهها وضُعُفت حركتها وبهذه الخاصّة يُمتَحَن الزُّمُرُّدُ الخالص من غيره كما يُمْتحن الياقوت بالصّبر على النار .

ومن منافعه : أن من أدْمن نظَرَه أذهب عن بصره الكَلَال ؛ ومن تختّم به دفع عنـه داء الصَّرْع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ؛ ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه على أولادها ؛ واذا كان فى موضع لم تقربه ذوات السموم ؛ واذا سُحِل منـه وزن ثمـان شعيرات وسُقِيَه شارب السمّ قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منـه ؛ واذا تختّم به من به نَفْث الدم أو إسهاله منع من ذلك ؛ واذا عُلِّق على المعـدة من خارج نفع من وَجَعِها ؛ وشُربُ حُكَاكته ينفع من الجُذَام .

وقيمة الذبابىّ الخالص فى الحجـر الذى زِنَتُه درهم : أربعـةُ دنانير القيراط ، ويتضاعف بحسب كِبَره ، وينقص بحسب صِغَره ؛ إلا أنه لا ينقص بالصِّغَر نقصَ غيرِه من الأحجـار لوجود خاصيته فى الكبير والصغير والمُمَوَّجِ والمستقيم . أما بقية أصناف الزُّمُرُّدِ فانه لا قيمة لها يعتدّ بها لعدم المنافع الموجودة فى الذبابىّ .

الصــــنف السابع

الزَّبَرْجَدُ

وهو حجر أخضرُ يتكوّن فى مَعْـدِنِ الزُّمُرُّدِ ؛ ولذلك يظنه كثير من الناس نوعا منه إلا أنه أقلّ وجودا من الزُّمُرُّدِ .

قال التِّيفاشى : أما فى هذا الزمان فإنه لا يوجد فى المَعْدِن أصلا ، وإنما الموجود منه بأيدى الناس فصوص تستخرج بالنبش من الآثار القديمة بالإسكَنْدرية ؛ وذكر أنه رأى منه فَصًّا فى يد رجل أخبره أنه استخرجه من هنالك ، زِنته درهم ، لا يكاد البصر يُقْلِعُ عنه لرقة مائه وحسن صفائه .

وأجوده : الأخضر المعتدل الخُضرةِ ، الحسن المائية ، الرقيق المستشَفّ ، الذى ينفذه البصر بسرعة ؛ ودونه الأخضر المفتوح اللون ؛ وليس فيه شىء من خواص الزُّمُرُّدِ إلا أن إدمان النظر إليه يجلو البصر . وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصــــنف الثـامن

الفَيْرُوزَجُ

وهو حجر نحاسىّ يتكوّن فى مَعَادن النُّحَاس من الأبخرة الصاعدة منها ، إلا أنه لا يوجد فى جميع معادن النُّحَاس ؛ ومعدنه الذى يوجد فيـه بِنَيْسَابُورَ ، ومنه يجلب الى سائر البُلْدَان ؛ ومنه نوع آخر يوجد فى نشاور إلا أن النيسابورىّ خير منه .

وهو ضربان : بسحاقىّ وخَلَنْجىّ(١)، والخالص منه العتيق هو البسحاقىّ ؛

وأجوده : الأزرق الصافى اللون، المشرق الصفاء، الشديد الصّقالة، المستوى الصّبغ؛ وأكثر ما يكون فصوصا؛ وذكر الكندىّ أنه رأى منه حجرا زنته أوقية ونصف .

ومن خاصته : أنه يصفو بصفاء الجو ويكدُر بكُدْرَته ؛ وإذا مسه الدُّهن أذهب حسنه وغيّر لونه ؛ والعَرَقُ يطفئ لونَه، والمسك اذا باشره أفسده وأذهب حسنه ؛ وإذا وضع الفَصُّ الجيد منه إلى جانب ما هو دونه فى الجَوْدَة أذهب بهجته ؛ وإذا وضع إلى جانب الدَّهْنَج غلب الدهنج على لونه فأذهب بهجته، ولو كان الفَصُّ الفَيْرُوزَجُ فى غاية الحسن والجَوْدَة .

ومن منافعه : أنه يجلو البصرَ بالنظر إليه؛ وإذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب . وقيمته تختلف باختلاف الجَوْدَة آختلافا كثيرا فربما كان الفَصَّان منه زنتهما واحدة وثمن أحدهما دينار وثمن الآخر درهم .

وبالجملة : فالخَلَنْجىّ الجيد على النصف من البسحاقى الجيد .

قال التيفاشى : وأهل المَغْرب أكثر الناس له طلبا وأشدّهم فى ثمنه مغالاة ، وربّما بلغوا بالفَصّ منه عشرةَ دنانيرَ مَغْرِبية، ويَحْرِصون على التختم به، وربما زعموا أنه يدخل فى أعمال الكيمياء .

(١) فى مفردات ابن البيطار : سنجابى، ولعل ما فى الأصل تصحيف .

الصـــنف التـاســع
الدَّهْنَـــج

وقد ذكر أرَسْطوطاليس : أنه أيضا حجر نُحَاسيّ يتكوّن فى معادن النحاس يرتفع من أبخرتها وينعقد، لكنه لايوجد فى جميع معادن كَرْمَانَ وسِجِسْتَانَ من بلاد فارس. قال : ومنه ما يؤتى به من غار بنى سُلَيْم من برية المغرب، فى مواضع أخرى كثيرة.

وأجود أنواعه أربعة :وهى الافرنديّ،والهنديّ،والكَرْمَانيّ،والكركيّ ؛وأجوده فى الجملة الأخضر المُشْبَع الخضرة، الشبيه اللون بالزُّمُرُّد، معرّق بخضرة حسنة، فيه أهلّةٌ وعيونٌ بعضها من بعض حسان؛ وأن يكون صُلْباً أملس يقبل الصَّقالة .

ومن خاصته فى نفسه : أن فيه رخاوةً بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نُصُبٌ للسكاكين ومرت عليه أعداد سنين ، ذهب نُوره لرخاوته وآنحل، ولذلك إذا حُكَّ آنحك سريعا ، وإذا خرط خرزا أو أوانى أو غير ذلك كان فى خرطه سهولة، وإذا نقع فى الزيت آشتدّت خضرته وحَسُن ، فإن غُفِلَ عنه حتّى يطول لُبْثُه فى الزيت مال إلى السواد .

ومن منافعه : أنه إذا مسح به على مواضع لدغ العقرب سكنه بعض السكون؛ وإذا سحق منه شيء وأذيب بالخل وذلك به موضعُ القوبة الحادثة من المِرَّة السوداء أذهبها .

ومن عجيب : خواصّه أنه إذا سُقِى من سُحَالته شارب سمٍّ نفعه بعضَ النفع؛ وإن شرب منه من لم يشرب سمـا كان سمـا مفرطا يَنْقُط الأمعاء ، ويُلْهب البدن، ويحدث فيه سما لا يبرأ[1] سريعا، لا سما إذا حُكَّ بحديدة؛ ومن أمسكه فى فيه ومصه

(١) فى مفردات ابن البيطار «يبرأ» وهى أوضح .

أضرّ به . وقيمته أن الأفريدىّ الخالص منه كل مثقال بمثقالين من الذهب، ويوجد منه فصوص وغيرها . وقد ذكر يعقوبُ بن إسحاق الكندىّ: أنه رأى منه صحيفةً تسع ثلاثين رِطلا .

الصنف العاشر
البِلّوْرُ

قال بلينوس : وهو حجر بُورَقِىٌّ وأصله اليوقوتية إلا أنه قعدتْ به أعراضٌ عن بلوغ رتبة الياقوت؛ وقد آختلف أصحابنا الشافعيةُ رحمهم الله فى نفاسته على وجهين : أصحهما أنه من الجوهر النفيس كالياقوت ونحوه؛ والثانى أنه ليس بنفيس لأن نفاسته فى صنعته لا فى جوهره .

ويوجد بأماكن، منها برّية العرب من أرض الحجاز وهو أجوده، ومنه ما يؤتى به من الصين وهو دونه ، ومنه ما يكون ببلاد الفرنجة وهو فى غاية الجَوْدَةِ، ومنه معادن توجد بأرمِينِيَةَ تميل الى الصفرة الزجاجية .

وقد ذكر التيفاشى : أنه ظهر فى زمنه مَعْدِنٌ منه بالقرب من مَرّاكُش من المغرب الأقصى الا أن فيه تشعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلسٌ كبير، أرضا وحيطانا . ونقل عن بعض التُّجّار : أن بالقرب من غَزْنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوما منها بينها وبين كاشْغَر جبلين من بلور خالص مطلّين على وادٍ بينهما، وأنه يُقْطَعُ فى الليل لتأثير شُعاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار فى الأعين .

وأجوده : أصفاه وأنقاه وأشفُّه وأبيضه وأسلمُه من التشعير، فإن كان مع ذلك كبيرَ الجِرْمِ — آنية أو غيرها — كان غاية فى نوعه .

وقد ذكر الكندى : أن فى البلور قطعا تخرج كل قطعة منه من المَعْدِن أكبرَ من مائة منّ ، ونقل التيفاشى : أنه كان بقصر شهاب الدين الغورى صاحب غزنة أربعُ خوابٍ للماء كل خابية تسع ثلاث رَوَايَا ماء على محاملَ من بلور ، كل محمل ما بين ثلاثة قناطير الى أربعة ؛ وذكر أيضا أنه رأى منه صورة ديك مخروط من صنعة الفرنج اذا صبّ فيه الشراب ظهر لونه فى أظفار الديك .

ومن خاصّيته : ماذكره آوفرسطس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصِّبْغ .

ومن خاصته أيضا : أنه اذا آستقبل به الشمس ووجه موضع الشعاع الذى يخرج منه الى خِرْقَة سوداء آحترقت وظهر فيها النار .

ومن منافعه: أن من تختم به أو علقه عليه لم يرمنام سوء . وقيمته تختلف بحسب كِبَرِ آنيته وصغرها وإحكام صنعتها .

قال التيفاشى : وبالجملة فالقطعة التى تحمل(١) منه رطلا إذا كانت شديدة الصّفاء سالمة من التشعير، تساوى عشرة دنانير مصرية .

الصنف الحادى عشر
المَرْجَانُ

وهو حَجَر أحمرُ فى صورة الأشجار المتشعبة الأغصان؛ ومَعْدِنه الذى يتكوّن فيه بموضع من بحر القُلْزُم بساحل إفريقيّة، يعرف بمرسى الخرز، ينبت بِقاعه كما ينبت النبات، وتُعْمَل له شِباك قوية مُثقّلة بالرّصاص، وتدار عليه حتّى يَلْتَف فيها، ويجذب

---

(١) مراده : تزن ولكنه كثيرا ما يستعمل بعض لغات العامة .

جذبا عنيفا فيطلُعُ فيها المَرْجان . وربما وجد ببعض بلاد الفرنجة إلا أن الاكبر والأكثر والأحسن بمرسى الخرز، ومنه يجلب الى بلاد المشرق .

ولأهل الهند فيه رغبةٌ عظيمة ، واذا استخرج حك على مِسَنّ الماء ، ويجلى بالسُّنْبَاذَج المعجونِ بالماء على رُخَامَة فيظهر لونه ويحسن ،ويثقب بالفولاذ أو الحديد المسقى .

وأجوده ماعظم جِرْمه ، وآستوت قَصَبَاته ، وآشتدت حَمْرته ، وسَلِمَ من التسويس — وهو نخروق توجد فى باطنه حتّى ربما كان منه شيءٌ خاوٍ كالعَظْم — وأردؤه : ما مال منه إلى البياض أو كثرت عُقَدُه وكان فيه تشطيب ، ولا سبيل الى سلامته من العُقَد لوجود التشعب فيه ، فإن اتفق أن تقعَ منه قطعة مُصْمَتَة مستوية لا عُقَدَ فيها ولا تَشْطيبَ كانت فى نهاية الجَوْدَة .

وقد يوجد منه قِطَع كِبَار فتحمَل الى صاحب إفريقيّة فيعمل له منها دُوِىٌّ وأنصبةٌ سكاكينَ .

قال التيفاشى : رأيت منها مَخْبَرة طول شبر ونصف ، فى عرض ثلاث أصابع ، وارتفاع مثلها بغطائها فى غاية الحمرة وصفاء اللون . وقد ذكر آبن الطوير فى تاريخ الدّولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها : أنه كان لخلفاء الفاطميين دَوَاة من المَرْجان تُحمل مع الخليفة إذا ركب فى المواكب العظام أمامَ راكب على فرس ، كما سيأتى ذكره فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ومن خاصته فى نفسه : أنه إذا ألقى فى الخل لانَ وآبيضّ ، وإن طال مكثه فيه آنحلّ ، وإذا آتخذ منه خاتَم أو غيرُه ولُبِّس جميعه بالشمع ثم نقش فى الشمع بإبرة بحيث ينكشف جِرْم المَرْجان وجعل فى خل الخمر الحاذق يوما وليلة أو يومين

وبليلتين ثم أخرج وأزيل عنه الشمع ظهرت الكتابة فيه حَفْرا بتأثير الخل فيه، وبقية الخاتم على حاله لم يتغير .

قال التيفاشى : وقـد جربنا ذلك مرارا . ومتى ألقى فى الدهن ظهرت حُمْرته وأشرق لونها .

ومن منافعه فيما ذكره الاسكندرُ : أنه إذا علق على المصروع أو مَنْ به النِّقرِسُ نفعه؛ وإن أحرق وٱسْتُنَّ به زاد فى بياض الأسـنان وقلع الحفر منها وقوّى اللِّثَـة؛ وطريق إحراقه أن يجعلَ فى كوز فخار ويُطيَّنَ رأسه ويوضع فى تَنُّور ليلة . وإذا سحق وشَرِبَه من به عسر البول نفعه ذلك؛ ويحلل أورام الطحال بشربه؛ وإذا علق على المَعِـدَة نفع من جميـع عللها كما فى الزُّمُرُّد؛ وإذا أحرق على ما تقدّم وشرب منـه ثلاثة دوانق مع دانِق ونصف صمغ عربىّ ببياض البيض وشرب بمـاء بارد نفع من نَفْث الدم .

قال التيفاشى : وقيمته بإفريقيّة غشيا الرطل المصرىّ من خمسة دنانيرَ إلى سبعة مَغْربية، وهى بقدر دينارين إلى ما يقاربهما من الذهب المصرى، وبالاسكندرية على ضِعْفَىْ ذلك وثلاثةِ أضعافه؛ ومن اسكندرية يحمل الى سائر البـلاد؛ ويختلف سعره بحسَب قرب البلاد وبعدها، وقلتِه، وكثرته، وصغره، وجَوْدَته، ورداءته، وحسنِ صَنعته .

الصـــنف الثـانى عشر

البادزهر الحيوانىّ

وهو حجر خفيف هَشّ . وأصل تكوّنه فى الحيوان المعروف بالأَيِّل بتخوم الصين؛ وإنّ هذا الحيوان هناك يأكل الحيات، قد ٱعتاد ذلك غذاء له، فيحدث عن ذلك وجود هذا الحجر منه على ماسيأتى بيانه؛ وقد ٱختلف النـاس فى أىّ موضع يكون

من هذا الحيوان، فقيل : إنه يتكوّن فى مآقى عينيه من الدموع التى تسقط من عينيه عند أكل الحيات، ويتربّى الحجر حتّى يكبر فيحتكّ فيسقط عنه ؛ وقيل : يكون فى قلبه فيصاد لأجله ويذبح ويستخرج منه؛ وقيل : فى مرارته .

قال أرسطاطاليس : وله ألوان كثيرة منها : الأصفر والأغبر المُشْرَبُ بالحمرة والمشرب بالبياض . وأعظم مايوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل .

وأجوده : الخالص الأصفر الخفيف الهَشّ ؛ ويستدلّ على خلوصه بكونه ذا طبقات رِقاق متراكبة كما فى اللؤلؤ ؛ وبه نقط خفية سُود؛ وأن يكون أبيض المَحَكّ مُرّ المذاق .

قال التيفاشى : وكثيرا ما يُغَشّ فتصنع حجارة صغار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل البادزهر الحيوانىّ ، ولكنها تُميز عن البادزهر الحقيقىّ بأن المصنوع أغبر كَمِدُ اللون ساذَج غير منقط ، والبادزهر الحقيقىّ الخالص : أصفر أو أغبر بصفرة فيه نقط صغار كالنَّمَش ، وطبقاته أرقّ من طبقات المصنوع بكثير ، وهو أحسن من المصنوع ،وأهش ومَحَكّه أبيض .

ومن خاصته فى نفسه : أن احتكاكه بالأجسام الخشنة يخشّنه ويغيّر لونه وسائرَ صفاته حتّى لا يكاد يعرف . وقد ذكر التيفاشى : أنه كان معه حجر منه ، بجعله مع ذهب فى كيس وسافر به فاحتك بالذهب فتغير لونُه ونقص وزنُه حتّى ظَن أنه غير عليه، وأنه ربطه بعد ذلك فى خرقة وتركه أياما فعاد فى الصفة إلى ما كان، إلا أنه بقىَ على نقص ما ذهب منه .

ومن منافعه : دفع السموم القاتلة وغير القاتلة ، حارّةً كانت أو باردةً ،من حيوان كانت أو من نبات ، وأنه ينفع من عضّ الهوام ونهشها ولدغها ؛ وليس فى جميع

الأحجار ما يقوم مقامه فى دفع السموم . وقد قيل : إن معنى لفظ بادزهر : النافى السم ؛ فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى اثنتى عشرة شعيرة مسحوقة أو مسحولة أو محكوكة على المبرد بزيت الزيتون أو بالماء أخرج السم من جسده بالعرق ، وخلصه من الموت . وإذا سحق وذُرّ على موضع النهشة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله .

قال ابن جمع : وإن حكّ منه على مسنّ فى كل يوم وزن نصف دانق وسقيته الصحيح على طريق الاستعداد والاحتياط قاوم السموم القتّالة ولم تخش له غائلة ولا إثارة خلط . ومن تختم منه بوزن اثنتى عشرة شعيرة فى فصّ خاتم ثم وُضع ذلك الفص على موضع اللدغة من العقارب وسائر الهوام ذوات السموم نفع منها نفعا بينا ؛ وإن وضع على فم الملدوغ أو من سُقى سما نفعه .

قلت : هذه هى الأحجار النفيسة الملوكية التى تلتفت الملوك إليها وتعتنى بشأنها ؛ أما غيرها من الأحجار كالبنفش ، والعقيق ، والجزع ، والمغناطيس ، واليشم ، والسبج ، واللازورد ، وغيرها مما ذكره المصنفون فى الأحجار فلا اعتداد به ولا نظر إليه وذلك أهملت ذكره .

النـــوع السادس

نفيس الطيب

ويحتاج الكاتب إلى وصفه عند وصوله فى هديّة وما يجرى مجرى ذلك ؛ والمعتبر منه أربعة أصناف :

الصـــنف الأوّل

المسْـــــك

وهو أجلُّها . قال محمد بن أحمدَ التميميّ المقدسي فى كتابه "طيب العروس" : وأصل المسك من دابة ذات أربع، أشبه شيء بالظبي الصغير، قيل : لها قرن واحد، وقيل: قرنان، غير أن له نابين رقيقين أبيضين فى فكه الأسفل خارجين من فيه قائمين فى وجهه كالخنزير .

قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضلٌ دمويّ يجتمع من جسمها إلى سرتها، بمنزلة المواد التى تنْصَبُّ إلى الأعضاء فى كل سنة فى وقت معلوم، فيقع الوَرَمُ فى سُرّتِها ويجتمع اليها دم غليظ أسودُ فيشتدّ وجعها حتّى تُمسك عن الرّعْيِ وورود المياه حتّى يسقط عنها .

ثم قيل : إن تلك الظباءَ تصاد وتذبح وتؤخذ سُرَرُها بما عليها من الشعر، والمسك فيها دم عَبِيط، وهى النوافج ؛ فإن كانت النافجة كثيرة الدم اكتفى بما فيها، وإن كانت واسعة قليلة الدم زِيدَ فيها من غيرها، ويصب فيها الرصاص المذاب وتخاط بالخوص وتعلق فى حلق مستراح أربعين يوما، ثم تخرج وتعلق فى موضع آخر حتّى يتكامل جفافها وتشتد رائحتها، ثم تُصَيَّر النوافج فى مزاودَ صغَار وتخيطها التُّجَّار وتحملها، وقيل : انه يبنى لهذه الظباء حين يَعْرِض لها هذا العارض بناءٌ كالمنارة فى طول عَظْم الذراع لتأتىَ الظباء فتحك سُرَرَها بذلك البناء فتسقط النوافج، حتّى إنه يوجد فى تلك المراغة ألوف من النوافج ما بين رَطْب وجامد .

ثم قيل : إن هذه الظباء توجد بمفازات بين الصين و بين التُّبَّت والصُّغْد من بلاد الترك ؛ و إن أهل التُّبَّت يلتقطون ماقرب اليهم، وقد قيل : إن المسك يحمل الى التُّبَّت من أرض بينها و بين التُّبَّت مسيرة شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه باختلاف الأماكن التى ينسب اليها؛ إما باعتبار أصل وجوده فيها، وإما باعتبار مصيره اليها .

وأجوده فى الجملة : ما طاب مرعى ظبيه، ومرعى ظِبائه النباتُ الذى يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه ؛ ولا يخفى أن بعض نبات الطيب أطيبُ رائحةً من بعض، حتّى يقال إن منه ما رائحته كرائحة المِسْك . وقيل أجوده : ما كَمُل فى الظبى قبل بينونته عنه .

وقال أحمد بن يعقوبَ : وأجود المسك فى الرائحة والنظر ما كان تُفَّاحيًّا تشبه رائحتُه رائحةَ التفاح اللُّبْنَانِىّ، وكان لونه يغلب عليه الصُّفْرة، ومقاديره وسطا بين الجِلَال والرِّقَاق، ثم ما هو أشدُّ سوادا منه إلا أنه يقاربه فى الرأى والمَنْظَر، ثم ما هو أشدّ سوادا منه، وهو أدناه قدرا وقيمةً . قال وبلغنى عن تُجّار الهند : أن من المسك صِنْفَين آخرين يُتَّخذان من نبات أرض : أحدهما لا يفسد بطول المُكْث، والثانى يفسد بطول المُكْث؛ والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نوردها على ترتيبها فى الفضل مقدّما منها فى الذكر الأفضلُ فالأفضل على ما رتبه أحمد :

الأوّل : التُّبَّتِى ــ وهو ما حمله التجّار من التُّبَّت إلى خُرَاسانَ على الظهر لطيب مَرْعاه وحمله فى البر دون البحر .

الثانى : الصُّغْدِىّ ــ وهو ما حمل من الصُّغْد من بلاد التُّرْك على الظهر إلى خُراسانَ .

الثالث : الصِّينىّ ــ وإنما نقصت رتبته لأن مَرْعاه فى الطِّيب دون مرعى التُّبَّتِىّ، ولما يلحَقُه من عُفُونة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصينىّ : ما يؤتى به من خانفو؛ وهى مدينة الصين العظمى، وبها ترسو مراكب تجار المسلمين، ومنها

يحمل فى البحر إلى بحر فارس؛ فإذا قرب من بلد الأُبلّة ٱرتفعت رائحتـه؛ وإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الرابع: الهندى ـ وهو ما يحمل من التُّبَّت إلى الهند ثم يحمل من الهند إلى الدَّيبل ثم يحمل فى البحر إلى سِيرافَ من بلاد العجم، وعُمَان من البحْرَيْن ، وعدَنَ من اليمن، وغيرها من النواحى؛ وسبب ٱنحطاط رتبته عن الصينىّ وإن كان من جنس التُّبَّتى مع أنه أقربُ مسافةً من الصينىّ ماذكره المسعودىّ : أنه إذا حمل إلى الهند أخذه كَفَرة الهـند فلطّخوه على أصنامهم من العام إلى العام ثم يبدِّلونه بغيره؛ ويبيعه سدنةُ الأصنام، فيطولُ مُكْثه على الأصنام تضعف رائحته؛ على أن محمد بن العباس قد فضَّل الهندىّ على الصينى لقرب مسافة حمله فى البحر .

الخامس : القنبارى ـ ويؤتى به من بلد تسمَّى قنبار بين الصين والتُّبَّت .

قال أحمد بن يعقوب : وهو مِسْك جيـد إلا أنه دون التبتى فى القِيمة، والجوهر، واللون، والرائحة . قال : وربمـا غالطوا به فنسبوه إلى التبتى .

السادس : الطُّغْرغزىّ ـ وهو مِسْك رَزين يضرب إلى السَّواد، يؤتى به من أرض الترك الطغرغز ـ وهم التتر ـ وهو بطىء السحق، ولايسلم من الخشونة إلا أنهم ربمـا غالطوا به أيضا .

السابع : القصارى ـ ويؤتى به من بلد يقال لها القصار بين الهند والصين .

قال ابن يعقوب : وقد يلحق بالصينىّ إلا أنه دونه فى الجوهر والرائحة والقيمة .

الثامن : الجَزيرىّ ـ وهو مِسْك أصفرُ حسن الرائحـة، يشابه التبتىّ إلا أن فيه زَعَارة .

التاسع : الجبلىّ — وهو مسك يؤتى به من السِّنْد من أرض المولْيان، وهو كبير النوافج حسن اللّون إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر : العصارى — وهو أضعف أصناف المسك كلها وأدناها قيمة، يخرج من النافجة التى زنتها أوقية زنةُ درهم واحد من المِسْك .

قلت : أمّا المسك الدّارىّ فإنه منسوب إلى دارِينَ، وهى جزيرة فى بحر فارس معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تُجّار الهند، ويحمل منها إلى الأقطار وليست بمعدِن المسك .

الصـــنف الثـانى

العنـــبر

قال محمد بن أحمد التميمى : والأصل الصحيح فيه أنه ينبعُ من صُخُور وعُيُون فى الأرض ، يجتمع فى قَرار البحر، فإذا تكاثف اجتذبته الدُّهانة التى هى فيه على اقتطافه من موضعه الذى تعلّق به ، وطَفَا على وجه الماء وهو حارّ ذائب فتقطّعه الريحُ وأمواج البحر قطعا كبارا وصغارا فترمى به الريح إلى السواحل ، لا يستطيع أحد أن يدنو منه لشدّة حره وفوَرانه ، فإذا أقام أياما وضربه الهواء جمد ، فيجمعه أهلُ السواحل .

قال أحمد بن يعقوب : وربما ابتلعته سمكة عظيمة يقال لها : اكبال وهو فائر فلا يستقر فى جوفها حتّى تموت فتطفُو ويطرحُها البحر إلى الساحل فيُشَقّ جوفُها ويُستخرَج منها، ويسمّى : العنبر السَّمَكىّ ، والعنبر المَبلوع .

قال التميمى : وهو فى لونه شبيه بالنار، ردىء فى الطيب للسُّهوكة التى يكتسبها من السمك . قال : وربما طرح البحر القطعة العنبر فيبصرُها طائر أسود كالخُطّاف

فيرفرف عليها بجناحيه ، فإذا سقط عليها ليختطف بمقاره منها تعلّق منقاره ومخاليبه بها فيموت ويبلَى ويبقَى منقاره ومخاليبه فيها، ويعرف : بالعنبر المَناقيرى .

قال التميمى : ولأهل سواحل البحر التى يوجد بها العنبر نُجُب يركبونها مؤدّبةٌ تعرف العنبر، يسيرون عليها فى ليالى القَمَر على شاطئ البحر ، فإذا رأت العنبر وقد نام راكبُها أو غفَلَ بركت بصاحبها حتّى ينزل عنها فيأخُذَه .

قال التميمى : وألوان العنبر مختلفةٌ، منها : الأبيض؛ وهو الأشهب، والأزرق، والرّمادى ، والخزازى ؛ وهو الأبرش ، والصفايح وهو الأحمر؛ وهما أدنى العنبر قَدْرا . قال : وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوّةَ رائحة وذكاءً بغير زعارة .

قال أحمد بن يعقوبَ : وأنواع العنبر كثيرة، وأصنافه مختلفة، ومعادنه متباينة؛ وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره؛ والذى وقفت على ذكره منه ستة أضرب :

الأوّل : الشَّحْرِىُّ — وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشَّحْرِ من أرض اليمن . قال : وهو أجود أنواع العنبر، وأرفعه ، وأفضله وأحسنه لونًا ، وأصفاه جوهرًا وأغلاه قيمةً .

الثانى : الزَّنْجِىُّ — وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذُ من بحر الهند فى جهة الجنوب إلى سواحل الزَّنج وما والاها .

قال التميمى : وزعم الحسين بن يزيدَ السيرافىّ أنه أجود العنبر وأنفضله؛ ويؤتى به منها إلى عدن، ولونه البياضُ .

الثالث : السلاهطى — قال التميمى : وأجوده الأزرق الدَّسِمُ الكثير الدُّهْن، وهو الذى يستعمل فى الغَوالى .

الرابع : القَاقُلِّىّ — وهو ما يؤتَى به من بحر قَاقُلَّةَ من بلاد الهند إلى عَدَن من بلاد اليمن ، وهو أشهبُ جيد الريح ، حسن المَنْظَرِ خفيف ، وفيه يبس يسير ؛ وهو دون السلاهطى لايصلح للغوالى إلا عن ضرورة ؛ وهو صالح للذرائر والمُكَلَّسات .

الخامس : الهِنْدى — وهو ما يؤتَى به من سواحل الهند الداخلة ، ويحمل إلى البَصْرَة وغيرها ؛ ومنه نوع يؤتَى به من الهند يسمَّى : الكرك بالوس ، يأتون به إلى قرب عُمَانَ تشتريه منهم اصحاب المراكب .

السادس : المَغْرِبىُّ — وهو ما يؤتَى به من بحر الأَنْدَلُس فتحمله التُّجار إلى مصرَ ؛ وهو اردأ الأنواع كلِّها ، وهو شبيه فى لونه بالعنبر الشَّحْرِىّ . قال التيمى . ويغالط به فيه .

قال التيمى : ومن العنبر صنف يعرف بالنَّدّ ؛ ونقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهةً ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو لَيِّن يمتدُّ ، فما كان منه عَذْبَ الرائحة حسنَ الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصناف : أحدها الشَّحْرِىُّ وهو أسودُ فيه صفرة ، يَخْضِبُ اليَد إذا لُمِس ، ورائحته كرائحة العنبر اليابس ، إلا أنه لا بقاء له على النار ، وإنما يستعمل فى الغوالى إذا عزَّ العنبر السلاهطىّ . ومنه : الزَّنْجِىُّ وهو نظير الشَّحْرِىّ فى المَنْظَرِ ودونه فى الرائحة ؛ وهو أسودُ بغير صُفْرَة . ومنه : الخمرىُّ وهو يَخْضِبُ اليد وأصولَ الشعر خَضْبا جيدا ، ولا ينفع فى الطيب .

قلت : أمّا المعروف فى زماننا بالعنبر مما يلبسه(١) النساء فإنما يقال له : النَّدّ ، وفيه جزء من العنبر . قال فى نهاية الأرب : وهو على ثلاثة أضرب :

---

(١) مراده باللبس : الاستعمال .

الأول : المُثَلَّث — وهو أجودها وأعطرها؛ وهو يركَّب من ثلاثة أجزاء : جزء من العنبر الطيِّب، وجزء من العود الهندىّ الطيب، وجزء من المسك الطيِّب .

الثانى — وهو دونه أن يجعل فيه من العنبر الخام الطيِّب عشرةُ مثاقيلَ، ومن النَّدِّ العتيق الجيد عشرةُ مثاقيل، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .

الثالث — وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيلَ من الخام عشرةُ مثاقيلَ من النَّدِّ العتيق وثلاثون مثقالا من العود، ومن المسك ما أحب .

الصنف الثالث

العود

قال التميمىّ : أخبرنى أبى عن جماعة من أهل المعرفة أنه شجرٌ عظامٌ تنبت ببلاد الهند ، فمنه ما يجلب من أرض قِشْمير الداخلة ؛ من أرض سَرَنْدِيبَ ، ومن قَمَارِ، وما اتصل بتلك النواحى، وأنه لا تصيرُ له رائحة إلا بعد أن يُعتَق ويُقَشَّرَ؛ فاذا قشر وجفف حمل الى النواحى حينئذ .

قال : وأخبرنى بعضُ العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشجرة، بخلاف ما قارب القِشْرَكما فى الآبَنُوس والعُنَّاب ونحوهما من الأشجار التى داخلها فيه دَهَانَةٌ، وما فى خارجها خشب أبيض ؛ وأنه يقطع ويقلع ظاهره من الخشب الأبيض ، ويدفن فى التراب سنينَ حتى تأكل الأرض ما داخله من الخشب ويبقى العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكى محمد بن العباس : أنه يكون فى أودية بين جبال شاهقة ، لا وصولَ لأحد إليها لصعوبة مَسْلَكها ؛ فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفن بكثرة السيول لِمَمَرّ الأزمان، فتأكل الأرض ما فيه من الخشب ويبقى صممُ العود وخالصُه فتجره السيول

وتُخرِجُه من الأودية إلى البحر فتقذفُه الأمواج إلى السواحل ، فيلتقطه أهلُ السواحل ويجمعونه فيبيعونه .

ويقال : إنه يأتى به قوم فى المراكب الى ساحل الهند فيقفون على البعد بحيث لا ترى أشخاصهم ، ثم يطْلُعُون ليلا فيضعونه بفرضة تلك البلاد ، ويخرج أهل البلد نهارا فيضعون بإزائه بضائعَ ويتركونها الى الليل ، فيأتى أصحابُ العود فمن أعجبه ما بإزاء متاعه أخذه وإلا تركه ؛ فيزيدونه حتّى يُعْجِبَه فيأخذه ؛ كما يحكى فى السَّمُّور وغيره فى ساكنى أقصى الشّمال .

وأجود العود ما كان صُلْباً ، رزينا ، ظاهرَ الرُّطوبة ، كثير المائية والدُّهْنية ، الذى له صبر على النار ، وغَلَيَانٌ ، وبقاء فى الثياب .

أمّا اللون فأفضله : الأسود ، والأزرق الذى لا بياض فيه ؛ ثم منهم من يفضل الأسود على الأزرق ؛ ومنهم من يفضل الأزرق على الأسود .

وهو على ثمـانية عشر ضربا :

الأوّل : المَنْدَلُّ — نسـبة الى مَعْدنه ؛ وهو مكان يقال له : المَنْدَل من بلاد الهند .

قال محمد بن العباس الخشيكى : وهو أرفع أنواع العُود وأفضلُها وأجودُها وأبقاها على النار وأعبقها بالثياب ؛ على أن التُّجَّار لم تكن تَجْلُبُـه فى الجاهلية والى آخر الدولة الأُمَوِيَّة ، ولا ترغب فى حمله للرارة فى رائحته (١) الى أن دخل الحسين بن بَرْمك الى بلاد الهند هاربا من بنى أمية ، ورأى العود المندلى فاستجاده ورغَّب التجارَ فى حمـله ؛ فلما غلب بنو العباس على بنى أمية ، وحضر بنو برمك إليهم وقرَّبوهم ؛ دخل الحسين

(١) هكذا بالأصل .

ابن برمك يوما على المنصور فرآه يتبخر بالعود القَمَارِىّ، فأعلمه أن عنده ما هو أطيب منه ، فأمره بإحضاره، فأحضره إليه فاستحسنه ، وأمر أن يكتب الى الهند بحمل الكثير منه ، فاشتهر بين الناس وعز من يومئذ . واحتمل ما فيه من مرارة الرائحة وزعارتها ، لأنها تقتل القمل وتمنع من تكوّنه[(1)] فى الثياب .

الثانى : القَامَرُونِىّ — وهو ما يجلب من القامَرُون ، وهو مكان مرتفع من الهند . وقيل القامَرُون : اسم لشجر من شجر العود ، وهو أغلى العود ثمنا وأرفعه قدرا .

قال التميمى : وهو قليل لا يكاد يُجْلَب إلا فى بعض الحين ، وهو عود رطب جدا ، شديد سواد اللون ، رزين ، كثير الماء .

وذكر الحسين بن يزيد السيرافى : أنه ربما ختم عليه فانطبع وقَبِل الختم للينه . قال . ويكون فيه ما قيمة المنّ منه مائتا دينار .

الثالث : السَّمَنْدُورِىّ — وهو ما يجلب من بلاد سَمَنْدُور ، وهى بلد سُفالة الهند ، ويسمّى لطيب رائحته : رَيْحَانَ العود ، وبعضه يفضُل بعضا . قال التميمى : وتكون القطعة الضخمة منه منًّا واحدا .

الرابع : القِمَارِىّ — وهو ما يجلب من قِمَار ، وهى أرض سُفالة الهند ، وبعضه يفضل بعضا أيضا ، وتكون القطعة منه نصفَ رطل الى ما دون ذلك .

الخامس : القَاقُلِّىّ — وهو ما يجلب من جزائر بحر قَاقُلَّة ، وهو عود حسن اللون ، شديد الصلابة دسم ، فيه رَيْحَانِيَّة تُخْرَة ، وله بقاء فى الثياب إلا أن قُتَارَه ربما تغير على النار فينبغى ألا يُستقصَى الى آخره .

(١) فى الأصل : تلونه وهو تصحيف .

السادس : الصَّنْفِىُّ — وهو ما يجلب من بلد يقال لها، الصَّنْفُ ببلاد الصين: وهو من أحلى[1] الأعواد وأبقاها فى الثياب .

قال التميمى : ومنهم من يفضله على القاقُلّى ويَرى أنه أطيب وأعبق وآمن من القُتَار ، وربما قدّموه على القَمَارِىّ أيضا . قالوا : وأجود الصَّنْفِىّ الأسودُ الكثير الماء، وتكون القطعة منه منّاً وأكثر وأقلّ . ويقال : إن شجره أعظم من شجر الهندىّ والقَمارىّ .

السابع : الصندفورى — وهو ما يجلب من بلاد الصندفور من بلاد الصين؛ وهو دون الصَّنْفِىّ، ويقال : إنه صِنْفٌ منه ولذلك كانت قيمته لاحقةً بقيمته ، وفيه حسن لون وحلاوة رائحة، ورَزَانة، وصَلَابة؛ إلا أنه ليس بالقِطَع الكبار .

الثامن : الصِّينِىّ — ويؤتى به من الصِّين؛ وهو عود حسن اللون ، أوّل رائحته تشاكل رائحة الهندىّ إلا أن قُتَارَهُ غير محمود ؛ وتكون القطعة منه نصف رطل وأكثر وأقلّ .

التاسع : القطعى — وهو عود رطب حلو طيب الرائحة، وهو نوع من الصَّينىّ .

العاشر : القسور — وهو عود رطب حُلْوٌ طيِّب الرائحة؛ وهو أعذب رائحةً من القطعىّ إلا أنه دونه فى القيمة .

الحادى عشر : الكلهى — وهو عود رطب يمضغ ، وفيه زَعَارَةٌ ، وشدّة مرارة للدّهانة التى فيه؛ وهو من أعبق الأعواد فى الثياب وأبقاها .

الثانى عشر : العولاتى — وهو عود يجلب من جزيرة العولات بنواحى قمار من أرض الهند .

(١) فى ياقوت؛ . وهو من أردأ العود لافرق بينه وبين الخشب الا اليسير .

الثالث عشر : اللوقينى — وهو ما يجلب من لوقين، وهى طرف من أطراف الهند وله خُمْرَةٌ فى الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد فى الرائحة والقيمة .

الرابع عشر : المانطائى — وهو ما يجلب من جزيرة ما نطاء، وقيمته مثل قيمة اللوقينى، وهو خفيف ليس بالحسن اللون .

قال أحمد بن العباس : وهو قطع كبار مُلْسٌ لا عُقَدَ فيها، إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنما يَصْلُح للأدوية .

الخامس عشر : القندغلى — ويؤتى به من ناحية كَلَه(١) وهى ساحل الزنج — وهو يشبه القَمَارِى إلا أنه لا طِيبَ لرائحته .

السادس عشر : السمولى — وهو عود حسن المنظر، فيه خُمْرَةٌ وله بقاء فى الثياب .

السابع عشر: الرانجىُّ — وهو عود يشبه قرون الثيران، لا ذَكَاءَ له، ولا بقاءَ فى الثياب .

الثامن عشر : المُحَرَّم — سمى بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشكَّ الناس فى أمره، فحرّمه السلطان ومنعه فسمى المحرّم، وهو من أدنى أصناف العود .

وجعل بعضهم بين الصَّنْفِىِّ والقَاقُلِّىِّ صِنفا يقال له : العطلى يؤتى به من الصِّينِ، وهو عود صُلْبٌ خفيف حسن المَنْظَر إلا أنه قليل الصبر على النار . وقد ذكر أحمد ابن العباس بعد ذلك أصنافا من العود ليست بذات طائل .

منها : الأفليق — وهو عود يؤتى به من أرض الصِّينِ، يكون فى العِظَم مثل الخَشَب الرانجى الغِلاظ يباع المَنّ منه بدينار وأقل وأكثر، والعود الطيب الريح

(١) الذى فى معجم البلدان لياقوت : أنها كَلَوة، وأما كَلَه فقد قال : إنها فرضة بالهند اهـ .

فى قشوره ، وداخلهُ خشب خفيف مثـل الخلاف، وإذا وضع على الجمر وجد له فى أوّله رائحــة حُلْوَةٌ طيبة ؛ فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحــة رديئة كرائحة الشــعر .

الصـــــنف الرابع

الصَّـــنْدَل

وهو خشب شجر يؤتى به من سُفَالة الهند؛ وهو على سبعة أضرب :

الأوّل : المَقَاصِـيرى — وهو الأصفر، الدَّسِْم ، الرَّزِين ، الذى كأنه مُسِحَ بالزَّعْفران الذّكى الرائحة .

وآختلف فى سبب تسميته بالمقاصيرىّ فقيل : نسبة إلى بلد تسمّى : مقاصير؛ وقيــل : إن بعض خلفاء بنى العباس آتخذ لبعض أمهات أولاده ومَحَاظِيّه مقاصير منــه؛ وهو شجر عظام يُقْطع رطبا ؛ وأجوده ما آصفرّ لونه وذكت رائحته ولم يكن فيه زَعَارة .

قال التميمى : وهو يدخل فى طيب النساء الرطب واليابس ؛ وفى البرمكيات ، والمثلثات ، والذّرائر؛ ويتخذ منه قلائد، ويدخل فى الأدوية؛ ويقال : إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأَسِرَّةُ، وإنه يأمر بقطع ما يحمل منــه من اليمن الى غيرها من البلاد قطَعا صغارا حتّى لا يكون منها ما يعمل سريرا لغيره من الملوك

الثـانى : الأبيض منــه الطيب الريح — وهو من جلس المقاصيرى المتقدّم ذكره لا يخالفه فى شىء إلا فى البياض؛ ويقال : إنّ المَقاصيرى هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره .

الثالث : الجوزى — وهو صُلْب العود أبيض، يَضرب لونُه الى السُّمْرة، ويؤتى به من موضع يقال له : الجَوْزُ، وهو طيب الرائحة إلا أنه أضعف رائحة من الذى قبله.

الرابع : الساوس ويقال : الكاوس — وهو صندل أصفرُ طيب الرائحة إلا أنّ فى رائحته زعارةً، ويستعمل فى الذرائر، والمثلثات، فى الطيب والبَخُورات .

الخامس : يضرب لونه الى الحمرة — وهو على نحو من الذى قبله .

السادس : صندل جعد الشعرة — لا بَسَاطةَ فيه اذا شقق بل يكون فيه تجعيد كما فى خشب الزيتون ، وهو أذكى أصناف الصندل إلا أنه لا يستعمل فى شىء سوى البَخُورات والمثلثات .

السابع : أحمر اللون — وهو خشب حسن اللون ، ثقيل الوزن لا رائحة له ، إلا أنه تُتخذ منه المنجورات والمخروطات كالدُّوِىّ وقِطَع الشِّطْرَنْج ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمال الطيبة .

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب الى وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدى أو يرد هدية، ويجرى ذكره فى مكاتبات الملوك؛ أما ما عدا ذلك من أصناف الطيب كالسُّنْبُل، والقَرَنفل، والكافور، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع

مما يحتاج الى وصفه من الآلات، وهى أصناف :

الصنف الأوّل

الآلات الملوكية

ويحتاج الكاتب الى وصفها عند وصف المواكب الحفيلة التى يركب فيها السلطان، وهى عدّة آلات :

منها : الخاتَمُ — بفتح التاء وكسرها — وحكى فيه آبن قتيبةُ والجوهرىُّ وغيرهما خَيْتام وخَاتَام، وهو ما يجعل فى الإصبع من الحلىّ، وهو مأخوذ من الختم، وهو الطبع، سمى بذلك لأنه يختم بنقشه على الكتب الصادرة عن الملوك . وسيأتى فى الكلام على خَتْم الكتب : أن النبى صلى الله عليه وسلم أرادَ أن يكتُبَ الى بعض ملوك الأعاجم فقيل له : إنهم لا يَقْرءُون كتابا غيرَ مختوم ، فأتخذ خاتَمًا من وَرِقٍ وجعل نقشه "محمد رسول الله" وآقتدى به فى ذلك الخلفاء بعده ، ثم توسعوا فيه الى أن جعلوا للكتب طَابَعا مخصوصا وأفردوا له ديوانا سموه "ديوان الخاتم" وآقتفى الملوك أثَرَهم فى ذلك، ثم غلب بمملكتنا وما ناهزها الاكتفاءُ فى المكاتبات باللّصاق، وصار آسم الخاتم مقصورا على ما يجعل فى الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا ؛ وصارت الملوك إنما تَلْبَسُ الخواتم بفصوص الجواهر من اليواقيت ونحوها تجمُّلًا ، وربما بَعَثَتْ بها فى تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وآقترفه .

ومنها : المِنْديل بكسر الميم ، وهو مِنْديل يُجعل فى المِنْطَقَة المشدودة فى الوسط مع الصولق وغيره ، ثم جرى آصطلاح الملوك على البَعْثِ به فى الأمانات كما تقدم فى الخاتَم .

والمِنْديل : آلة قديمة للملوك ، فقد حكى أنه كان للأفضل بن أمير الجيوش أحدِ وزراء الفاطميين مائةُ بَدْلة معلقة على أوتاد من ذهب ، على كل بَدْلة منها مِنْديل من لونها ، ولم يكن المنديل من آلات الخلافة بل إنما كان من آلاتها البُرْدَةُ على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها : التَّخْتُ ، ويقال له : السرير ، وهو ما يجلِسُ عليه الملوك فى المواكب ؛ ولم يزل من رسوم الملوك قديما وحديثا ، رفعةً لمكان الملك فى الجلوس عن غيره حتّى لا يساويه غيرُه من جُلسَائه ، وقد أخبر تعالى فى كتابه العزيز أنه كان لسليمان عليه

السلام كرسى بقوله : ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ ورأيتُ فى بعض التواريخ أنه كان له كرسىٌّ من عاج مُغَشًّى بالذهب .

ثم هذه الأسِرَّة تختلف باختلاف حال الملوك ، فتارة تكون من أبنية رُخام ونحوه ، وتارة تكون من خشب ، وتارة من فُرُش محشوّة متراكبة ، وقد حكى أنه كان لملوك الفُرْس سريرٌ من ذهب يجلسون عليه ، وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو أمير مِصْرَ يجلس مع قومه على الأرض غيرَ مرتفع عليهم ، ويأتيه المُقَوْقِسُ ومعه سرير من ذهب ، يحمل معه على الأيادى ، فيجلس عليه فلا يمنعه عمرو من ذلك ، إجراءً له على عادته فى المُلْك فيما قبل ، لما عقده له من الذمة واتخذه معه من العهد .

ومنها : المِظَلَّةُ ، واسمها بالفارسية : الجتر — بنون بين الجيم والزاى المعجمة — و يعبر عنها العامة الآن بالقُبَّة والطَّيْر ، وهى قبة من حرير أصفر ، تحمل على رأس الملك ، على رأس رمح بيد أمير يكون راكبا بحذاء الملك ، يُظِلُّهُ بها حالةَ الركوب من الشمس فى المواكب العظام ، وسيأتى ذكرها فى الكلام على ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية . وهذه الدولة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها : الرَّقَبَةُ ، وهى لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر ، قد طُرِزت بالذهب الزَّرْكَش حتّى غلب عليها وصار الحرير غيرَ مرئىّ فيها ، تشدّ على رقبة فرس المَلِك فى المواكب العظام لتكون مضاهيـة لما يركب به من الكنبوش الزركش المغطِّى لظهر الفرس وكَفَله .

ومنها : الغاشية ، وهى غاشية سَرْج من أديم مخروزةٌ بالذهب ، يظنها الناظر كلَّها ذهبا ، يلقيها على يديه يمينا وشمالا .

ومنها : الجفتاه ، وهى فَرَسان أشهبان قريبا الشبه ، برقبتين من زركش ، وعدّة تضاهى عدّة مركوب السلطان كأنهما مُعَدَّان لأن يركبهما السلطان ، يعلوهما مملوكان

من الممـاليك السلطانية قريبي الشبه أيضـا ، على رأس كل منهما قُبَّعَةٌ من زَرْكَش مشابه للآخر .

ومنها : المِنْطَقَةُ — بكسر الميم — وهي ما يشدّ فى الوسط ، وعنها يعبِّر أهل زماننا بالحِيَاصة ، وهى من الآلات القديمة ؛ فقد روى : أن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه كان له مِنْطَقَةٌ . وهذه الآلة قد ذكرها فى "التعريف" فى الآلات الملوكية ؛ على أن ملوك الزمان لم تجرِ لهم عادةٌ بشدّ مِنْطَقَة ، وإنما يُلْبِسها الملكُ للأمراء عند إلباسهم الخِلَع والتشاريف ؛ وهى تختلف بحسب اختلاف الرتب ، فمنها ما يكون من ذهب مرصّع بالفُصُوص ، ومنها ما ليس كذلك .

ومنها : الأعلام ، وهى الرايات التى تُحْمل خلف السلطان عند ركوبه ؛ وهى من شعار المُلْك القديمة ؛ وقد ورد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْقِدُ لأمراء سراياه الراياتِ عنـد بَعْثها ؛ ثم قد يعبَّر عن بعضها بالعصائب جمع عِصَابة ؛ وهى الألوية ، أخذا من عصابة الرأس ؛ لأن الراية تَعْصِبُ رأس الرمح من أعلاه ؛ وقد يعبر عنها بالسَّناجق جمع سَنْجَق ، والسَّنْجَق باللغـة التركية معناه الطعن ؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون فى أعلى الرمح ، والرمح هو آلة الطعن يسمّى بذلك مجازا .

ومنها : الطُّبُول ، ويقال لها : الدَّبَادِبُ ، والبُوقَاتُ ، والزمر المعروف بالصهان الذى يُضْرَبُ به عشيّة كل ليلة بباب الملك وخلْفَه إذا ركب فى المواكب ونحوها ، وهى المعبر عنها بالطَّبْلخَانَاه ؛ وهى من شعار المُلْك القديم .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصـار" : أن الطبل فى بلاد المَغْرِب يختص ضربه بالسلطان دون غيره من كل أحد كما سيأتى ذكره فى الكلام على مملكة المغرب فى المسالك والممـالك إن شاء الله تعالى .

والسر فيها إرهابُ العدوّ وتخذيلُه كما كتب به أرسطو فى كتاب " السياسة " للإسكندر ، أو تقويةُ النفوس وتشجيعُها على الحرب كما قاله الغزالى رحمه الله فى " الإحياء "، وكلما كثرت أعدادها كان أفخم لشأن المَلك وأبلغ فى رفعة شأنه . وقد حكى أن ديادب الإسكندر كانت أربعين حملا .

قلت : وقد ذكر فى " التعريف " من جملة الالات الملوكية الدواةُ، والقلمُ، والمِرْمَلةُ ؛ ولا يخفى أنها بآلات الكُتّاب أليق وإن كان السلطان لا يستغنى عنها ؛ وسيأتى الكلام عليها فى الكلام على آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالى .

الصنف الثانى

آلات الركوب، وهى عدّة آلات

منها : السرج — وهو ما يقعُد فيه الراكب على ظهر الفرس، وأشكال قوالبه مختلفة، ثم من السرج ما يكون مُغَشَّى بالذهب، وهو مما يصلح للملوك .

ومنها : ما يكون مغشّى بالفضة البيضاء، وكل منها قد يكون منقوشا وقد يكون غير منقوش، ومنها ما يكون بأطراف فضة، ومنها ما يكون ساذَجا .

ومنها : اللّجام — وهو الذى يكون فى فَكّ الفرس يمنعه من الجِمَاح، وقوالبه أيضا مختلفة، ثم منها ما يكون مطليًّا بالذهب، ومنها ما يكون مطليًّا بالفضة ، ومنها ما يكون ساذَجا، ومنها ما يكون رأسه وجنباه محلًّى بالفضة، ومنها ما يكون غير محلًّى .

ومنها : الكنبوش — وهو ما يستر به مؤخرُ ظهر الفرس وكَفَلُه ؛ وهو تارةً يكون من الذهب الزركش، وتارةً يكون من المخايش، وهى الفضة المُلَبَّسَةُ بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم ؛ وبه يركب القضاةُ وأهلُ العلم .

ومنها : العباءة بالمدّ — وهى التى تقوم مقام الكنبوش ،

ومنها : المِهْمَازُ — وهو آلة من حديد تكون فى رِجْل الفارس ، فوق كعبـه ، فوق الخف وما فى معناه ، ومؤخره إصبع محدَّدُ الرأس اذا أصاب جانب الفرس تحرَّكت وأسرعت فى المشى أو جدّت فى العَدْوِ ، وهو تارة يكون من ذهب محض ، وتارة يكون من فضّة ، وتارة يكون من حديد مَطْلِىٍّ بالذهب أو الفضة ، وقد آعتاد القضاة والعلماء فى زماننا تركَهُ .

ومنها : الكُور — وهو ما يقْعُد فيه الراكب فى ظهر النجيب ، وهو الهَجِين ، والعرب تسميه : الرَّحْلَ ، ثم قد يكون مقـدّمه ومؤخره مغشًّى بالذهب أو الفضة ، وقد يكون غير مغشًّى .

ومنها : الزِّمَام — وهو ما يُقاد به النَّجيب ، ويَضْبِطُه به الراكب كما يَضْبِطُ الفارس الفرس بالعِنَان .

ومنها : الرِّكَابُ — وهو ما تجعل فيه الرِّجْلُ عند الركوب ، وكانت العرب تعتاده من الجلد والخشب ، ثم عُدِل عن ذلك إلى الحديد .

قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : وأوّل من آتخذه من الحـديد المُهَلَّبُ بنُ أبى صُفْرَة ، وكانت رُكُبُ العرب من خَشَب فكان الفارس يصُكُّ الراكب (١) بركابه فيوهن مِرْفَقَه .

ومنها : السَّوْط — وهو ما يكون بيد الراكب يَضْرِبُ به الفرسَ أو النجيب ، وأهل زماننا يعبرون عنه بالمِقْرعة لأنه يُقْرَع به المركوب إذا تقاعس ، وهو بدل من القضيب الذى كان للخلفاء على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

(١) لعله : المركوب

الصـــــنف الثـالث

آلات السـفر، وهى عدّة آلات

منها : المِحَفَّةُ — بكسر الميم — وهى مَحْمِلٌ على أعلاه قُبَّةٌ، وله أربعة سواعد : ساعدان أمامَها وساعدان خلفَها، تكون مغطاة بالجوخ تارة وبالحرير أخرى، تُحْمَل على بغلين أو بعيرين يكون أحدهما فى مقدّمتها والآخر فى مؤخرتها، إذا رَكِبَ فيها الراكب صار كأنه قاعد على سرير، لا يلحقه انزعاج ؛ وقد جرتْ عادة الملوك والأكابر باستصحابها فى السفر خشية ما يَعرِضُ من المرض .

ومنها : المِحْمَلُ [1] — بكسر الميم الأولى وفتح الثانية — وهو آلة كالمِحَفَّة إلا أنه يحمل على أعلى ظهر الجمل بخلاف المِحَفَّة فانها تحمل بين جملين أو بغلين .

ومنها : الفَوَانِيس — جمع فانُوس — وهى آلة كُرِيَّةٌ ذات أضلاع من حديد، مغشّاةٌ بخرقة من رقيق الكتّان الصافى البياض، يتخذ للاستضاءة بغرز الشمعة فى أسفل باطنه فيشفّ عن ضوئها؛ ومن شأنها أن يحمل منها اثنان أمامَ السلطان أو الأمير فى السفر فى الليل .

ومنها : المَشَاعل، جمع مَشْعَل، وهى آلة من حديد كالقَفَصِ مفتوحُ الأعلى، وفى أسفله خرقة لطيفة، توقد فيه النار بالحطب فيسطع ضوءها، يحمل أمام السلطان ونحوه فى السفر ليلا أيضا .

ومنها : الخِيَام، جمع خَيْمَة، ويقال لها : الفُسْطَاطُ والقُبَّة أيضا، وهى بيوت تتخذ من خِرَق القطن الغليظ ونحوه، تحمل فى السفر لوقاية الحرّ والبرد ؛ وكانت العرب تتخذها من الأديم، وقد امتنّ الله تعالى عليهم بذلك فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ .

(١) ضبطه فى القاموس والصحاح : كمجلس ؛ ولعل ما فى الأصل لغة ثانية نظرا لكونه آلة .

والملوك تتناهى فى سَعَتِها، وتتباهى بكبرها . وسيأتى فى الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية أنه كان لبعض خلفائهم خَيْمَةٌ تسمَّى : القاتول سميت بذلك لأن فَرّاشًا من الفَرّاشِين وقع من أعلى عمودها فمات لطوله .

ومنها : الخركاه، وهى بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه، تحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للبيت فى الشتاء لوقاية البرد .

ومنها : القُدُور، جمع قِدْرٍ، وهى الآلة التى يطبخ فيها وتكون من نُحَاس غالبا ، وربما كانت من بِرَام .

والملوك تتباهى بكثرتها وعظمها، لأنها من دلائل كرم الملك وكثرة رجاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن سليمان عليه السلام بعظيم قَدْرِ ما كانت الجن تعمله له من القُدُور بقوله : (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ).

ومنها : الأَثَافِىّ، وهى الآلة المثلثة التى تعلّق عليها القدر عند الطبخ، وتكون من حديد .

ومنها : النار التى يوقد بها للطبخ ونحوه؛ وقد تقدّم فى الكلام على نيران العرب ذكرُ نار القِرى؛ وهى نار كانت تُرْفَعُ ليلا ليراها الضيف فيهتدىَ بها الى الحىّ .

ومنها : الجِفَانُ، جمع جَفْنَةٍ، وهى الآنية التى يوضع فيها الطعام ؛ وقد تقدّم فى الكلام على القدور أنها مما كانت الجن تعمله لسليمان عليه السلام أيضا . وقد كانت العرب تفتخر بِكِبَرِ الجِفَانِ لدلالتها على الكرم، وفى ذلك يقول الأعشى فى مدح المُحَلَّق ليلةَ بات عليه :

نفى الذَّامَ عَنْ آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ * كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقِىِّ تَفْهَقُ

قيل : أراد بالشيخ العراقىّ كسرى، فشبه جفنته بجفنته .

ومنها : حِيَاضُ المـاء؛ وهى حياض من جلد تحمل فى السفر ليبقى المـاء فيهـا لسقى الدَّوابّ ونحوها؛ وكِبَر قَدْرها دليـل على رِفْعة قدر صاحبها ونخامته لدلالتهـا على كثرة دوابه، واتساع عَسْكره .

الصـــنف الرابع

آلات السلاح ؛ وهى عدّة آلات

منها : السَّيف ؛ وهو معروف . وسيأتى فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هَلَك لأنه به يقع الهُلْكُ .

واعلم أن السيف إن كان من حديد ذَكَرٍ — وهو المعبَّر عنه بالفُولاذ — قيل : سيف فُولاذ، وإن كان من حديد أنثى — وهو المعبر عنه فى زماننا بالحديد — قيل : سيف أَنِيث ؛ فإن كان متنُـه من حديد أنثى وحدّاه من حديد ذكر كما فى سيوف الفِرِنْجَة، قيل : سيف مُذَكَّر . ويقال : إن الصاعقة إذا نزلت الى الأرض وردّت(1) صارت حديدا، وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفا، فتجىء فى غاية الحُسْن والمَضَاء. ثم إن كان عريض الصَّفِيح قيـل له : صَفِيحة ؛ وإن كان محدقا(2) لطيفا قيـل له : قَضِيب؛ فإن كان قصيرا قيل : أَبْتَر؛ فإن كان قِصَرُه بحيث يحمل تحت الثياب ويُشتمَل عليـه قيل : مِشْمَلٌ — بكسر الميم — فإن كان له حدّ واحد وجانبه الآخر جاف قيل فيه : صَمْصامه — وبهذا كان يُوصَفُ سيفُ عمرو بن معدى كرب فارس العرب ، فإن كان فيـه حُزُوز مستطيلة(3) قيل فيه : فَقَارات — وبذلك سمى سيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذا الفَقَار" يروَى أنه كان فيه سبعَ عشرةَ فَقَارة .

---

(1) هكذا فى الأصل ولعلها : مصحفة عن بردت .

(2) لعله : مدققا . (3) كذا بالأصل ؛ وصوابه مطمئنة كما فى المخصص واللسان .

ثم تارة ينسب السيف الى الموضع الذى طبع فيه، فيقال فيما طبع بالهند: هِنْدِىٌّ ومُهَنَّد، وفيما طبع باليمن: يَمَـانٍ، وفيما طبع بالمَشَارف — وهى قُرًى من قُرَى العرب قريبة من رِيف العِراق — قيل له: مَشْرَفِىٌّ؛ فإن كان من المعدن المسمّى بقُسَاس؛ وهو معْدِن موصوف بجَوْدة الحديد قيل له: قُسَاسىّ .

وتارة ينسب السيفَ الى صاحبه كالسيف السُّرَيْجِىّ نسـبة الى قَيْن من قُيُون العرب اسمه: سُرَيج معروف عندهم بحُسْن الصنعة . ويوصف السيف بالحُسَام؛ وهو القاطع؛ أخذا من الحَسْم؛ وهو القطع، وبالصارِم؛ وهو الذى لا ينبو عن الضَّريبـة .

والناس يبالغون فى تحلية السُّيوف فتارة تُرَصَّع بالجواهر، وتارة يُحَلُّونها بالذهب، وتارة يحلونها بالفضة؛ وإن كان الاعتبار إنمـا هو بالسيف لا بالحِلْية .

ومنها: الرُّمْح: وهو آلة الطعن . والرماح ضربان:

أحدهما: متَّخَذ من القَنَا؛ وهو قَصَب مسـدود الداخل، ينبَت ببلاد الهنـد يقال للواحدة منه: قَنَاة، ويقال لمَفَاصلها: أنابيبُ، ولعُقَدها: كُعُوب؛ فإن كان قد نشأ فى نباته مستقيما بحيثُ لا يحتاج الى تثقيف قيل له: الصَّعْدة — بفتح الصاد وسكون العين المهملتين — وان احتاج الى تقويم مقوّم قيل له: مثقَّف .

ويُوصَف القنا: بالخطِّىّ — بفتح الخاء المعجمة — نسبة الى الخَطّ؛ وهى بلده بالبحرين تجلَبُ اليها الرِّماح من الهنـد، وتنقل منها الى بلاد العرب؛ وليست تُنْبِت القَنا كما توَهَّمه ابن أصبغ فى أرجوزته المذهبة .

الثانى: ما يُتَّخذ من الخشب كالزان ونحوه، ويسمّى: الذابِل — بالذال المعجمة وكسر الموحدة — .

ويقال للحديد الذى فى أعلى الرُّمْح : السِّنان، وللذى فى أسفله : الزُّجُّ والعَقِب .
ويُوصف الرُّمْح : بالأسمر، لأن لون القَنَا السُّمْرةُ، وبالعَسَّال، وهو الذى يضطرب فى هزه، وباللَّدْن، وهو اللين، وبالسَّمْهرىّ، نسبة الى بلدة يقال لها سَمْهَرة من بلاد الحبشة، وقيل الى السَّمْهرة، وهى الصَّلَابة .

ومنها : الطَّبَر، وهو باللغة الفارسية الفأس، ولذلك يسمّى السُّكَّر الصُّلب : بالطَّبَرْزَذ يعنى الذى يكسر بالفاس . والى الطَّبَر تنسب الطَّبَرْدارِيَّة — وهم الذين يحملون الأطبار حولَ السلطان — على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب المملكة فى المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ومنها : السِّكِّين، وسيأتى ذكرها فى آلات الدَّواة فى الكلام على آلات الكتابة، وانما سميت سِكِّينا لأنها تُسَكِّن حركة الحيوان، وتسمّى : المُدْيَة أيضا لأنها تقطع مَدَى الأجَل . وهذه الاشتقاقات أولَى بآلة الحرب من آلة الكتابة .

وحاصل الأمر أن السكين تختلفُ أحوالُها بحسب الحاجة اليها، فتكون لكل شىء بحسب ما يناسبه .

ومنها : القَوْس، وهى مؤنثة . والقِسِىّ على ضربين .

أحدهما : العربية، وهى التى من خشب فقط، ثم إن كانت من عُودٍ واحد قيل لها : قَضِيب، وان كانت من فلْقَين قيل لها : فِلْق .

الثانى : الفارسية، وهى التى تُرَكَّب من أجزاء من الخشب والقَرْن والعَقَب والغِراء، ولأجزائها أسماء يخص كلَّ جزء منها اسمٌ، فموضع إمساك الرامى من القوس يسمّى : المَقْبِض، ومجرى السهم فوق قَبْض الرامى يسمّى : كَبِد القوس، وما يُعْطَف من القوس يسمّى : سِيَةَ القوس، وما فوق المَقْبِض من القوس، وهو ما على

يمين الرامى يسمّى : رأسَ القوس ؛ وما أسفله ؛ وهو ما على يسار الرامى يسمّى : رِجْل القوس .

ومنهـا : النُّشاب ، والنَّبل ؛ فالنَّبلُ ما يرمى به عن القِسِىّ العربية ؛ والنُّشاب ما يرمى به عن القِسِىّ الفارسيَّة حكاه الأزهرى .

ومَجْرى الوَتَر من السَّهم يسـمّى : الفُوق ؛ حديدُه يسمّى : النَّصْل ؛ والريشُ يسمّى : القُذَذ ؛ والسهم قبل تركيب الريش يسمّى : القِدْح — بكسر القاف وسكون الدال المهملة — .

ومنها : الكِنَانةُ ، ويقال لها ، الجَعْبَةُ ؛ وهى بكسر الكاف ، وهى ظَرْف السهام ، وتكون تارةً من جلد وتارةً من خَشَب .

ومنها : الدَّبُّوسُ ، ويسمَّى : العامودَ ؛ وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة ومَنْ فى معناه ؛ ويقال إن خالد بن الوليد رضى الله عنه : به كان يقاتل .

ومنها : العصا ؛ وهى آلة من خشب تفيد فى القتال نحو إفادة الدبُّوس .

ومنها : البَيْضَةُ ؛ وهى آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيه ما يرسل على القفا والآذان ؛ وربمـا كان ذلك من زَرَد .

ومنها : المِغْفَر — بكسر الميم ؛ وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافا مسدولة على قفا اللابس وأذنيه ، وربمـا جعل منها وقايةً لأنفه أيضا ؛ وقد تكون من زَرَدٍ أيضا .

ومنهـا : الدِّرْعُ ؛ وهو جُبَّة من الزَّرَدِ المنسوج يلبَسها المقاتل لوقاية السيوف والسهام ؛ وهى تذكر وتؤنث ؛ وقد أخبر الله تعـالى عن داود عليه السلام أنه أُلِين له الحديد فكان يعمل منه الدورع بقوله تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ

وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ . وقوله : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ولذلك تنسب الدروعُ الفائقةُ إلى نَسْجِ داودَ عليه السلام .

ومن الدروع مايقال لها : السَّلُوقِيَّةُ، نِسبةٌ الى سَلُوقَ — قريةٌ من قُرى اليمن ؛ وربما قيل : دُرُوع حطوميةٌ[1] — بضم الحاء المهملة — نسبة لحطوم رجل من عَبْدِ القَيْسِ .

واعلم أن لِبْسَ العرب فى الحرب كان الزردَ، أما الآن فقد غلب عمل القَرْقَلَاتِ من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها ببعض .

ومنها : التُّرْس ؛ وهو الآلة التى يتقى بها الضرب والرمى عن الوجه ونحوه، وتسمَّى : الجُنَّةَ أيضا بضم الجيم أخذا من الاجتنان وهو الاختفاء؛ وربما قيل لها : الجَحَفَةُ — بفتح الحاء المهملة والجيم — ثم هى تارة تكون من خشب، وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيدان مضموم بعضُها الى بعض بخيط القطن ونحوه ؛ فإن كانت من جلد قيل لها : دَرَقَةٌ — بفتح الدال والراء المهملتين — .

الصنف الخامس

آلات الحصار؛ وهى عدة آلات

منها : المَنْجَنِيقُ — بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقاف فى الآخر — وحكى ابن الجَوَاليق فيه كسرَ الميم، وحكى فيه منجنوق بالواو ومَنْجَميق بإبدال النون الثانية ميما ؛ وهو اسم أعجمىّ ، فإن الجيم والقاف لا يجتمعان فى كلمة عربية، ويجمع على مجانيق ومناجيق .

---

(١) لعل زيادة الواو من تحريف النساخ . والصواب حطمية نسبة الى حُطَم رجل الخ ؛ أنظر اللسان والقاموس .

قال الجوهرىّ : فأصـله مَنْ جِى نيك وتفسيره بالعربية : ما أجودنى . قال ابن خلكان : تفسير من وتفسير جى : ايش ، وتفسير نيك : جيد .

قال ابن قتيبة فى كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكرىّ فى "الأوائل" : وهو آلة من خشب لهـا دَفَّتَانِ قائمتان بينهما سهم طويلٌ رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كِفَّةُ المَنْجَنِيقِ التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتّى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسَل فيرتفع ذنبُه الذى فيه الكِفَّةُ فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه .

وأوّل من وضع المَنْجَنِيقَ : جَذِيمةُ الأبرشُ مَلِكُ الحِيرَةِ على العرب . وذكر الواحدىّ فى تفسير سورة الأنبياء : أن الكفارَ لمـا أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يَقْدِروا على القرب من النار ليُلْقوه فيها ، فجاءهم اللّعين إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعملوه وألْقَوْهُ فيه فقذفوا به فى النار ، فكان أوّل مَنْجَنِيقٍ عُمِلَ .

ومما يلتحق بالمنجنيق : الزيارات وهى اللَّوالب والحبال التى يجذب بها المنجنيق حتّى ينحط أعلاه ليرمَى به الحجر .

ومنها : السِّهام الخطاية (١) ، وهى سهام عِظَامٌ يرمَى بها عن قِسِيٍّ عِظَام توتر بلَوَالِبَ يجرّ بها و يرمى عنها فتكاد تَخْرِقُ الحجر .

ومنها : مَكَاحل البارود ، وهى المدافع التى يرمى عنها بالنِّفْطِ ، وحالها مختلف : فبعضها يرمَى عنه بأسهم عِظَام تكاد تَخْرِقُ الحجر ، و بعضها يرمَى عنه ببُنْدُقٍ من حديد من زِنَةِ عشرة أرطال بالمصرىّ الى ما يزيد على مائة رِطْل ، وقد رأيت بالإسْكَنْدَرِيَّةِ فى الدَّولة الأشرفية — شَعْبَانَ بن حُسَين ، فى نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرَّام رحمه الله — بها مدفعا قد صُنِع من نُحَاس ورَصاص وقُيِّد بأطراف الحديد رُمِيَ عنه

(١) لعلّه مصحف والذى يؤخذ من المخصص أن السهم الخاطى هو السهم الغليظ الحادر فلعل هذا منه كما يفيده التفسير بعد ، تأمل .

من المَيْدَانِ بِبُنْدُقةٍ من حديد عظيمة مُحْمَاة، فوقعتْ في بحر السلسلة خارج باب البحر، وهي مسافة بعيدة .

ومنها قوارير النِّفْط ، وهي قدور ونحوها يجعل فيها النِّفْطُ ويرمَى بها على الحصون والقِلاع للإحراق، على أن القوارير في اللغة آسم للزُّجاج وإنما آستعيرت في آلات النِّفْط مجازا .

ومنها الستائر، وهي آلات الوقاية من الطوارق وما في معناها ممّا يستر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك

الصنف السادس

آلات الصيد، وهي عدّة آلات

منها قوس البُنْدُق — ويسمَّى الجُلَاهِق — قوس يتخذ من القَنَا ويلفّ عليه الحرير ويغرّى ، وفي وسط وَتَرِه قطعةٌ دائرة تسمَّى الجوزة توضع فيها البُنْدُقة عند الرَّمْي .

ومنها الجراوة ، وهي آلة من جلد يجعل فيها البُنْدُقُ الطِّين الذى يرمَى به عن القوس المقدّم ذكره .

ومنها الشِّبَاكُ ، وهي آلة تتخذ تعقد من خيطانٍ وتنصب لاقتناص الصيد، وكذلك تطرح في الماء فيصاد بها السمك .

ومنها الزَّبَطَانَةُ[1] ، وهي آلة من خشب مستطيلةٌ كالرمح مجوّفةُ الداخل يجعل الصائد بُنْدُقةً من طين صغيرةً في فِيه ، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحدّة فتصيب الطير فترميه، وهي كثيرة الإصابة .

(١) في الأصل : الزبربطانة؛ والتصحيح عن القاموس .

ومنهـا الفَخُّ ؛ وهو آلة مُقَوَّسةٌ لهـا دَفَّتَانِ تفتحان قسرا ، وتعاقان فى طرف شَظاة ونحوها ، إذا أصابها الصيد آنطبقت عليه .

ومنها الصَّنَانيرُ ، جمع صِنَّارة ؛ وهى حديدة مُعَقَّفَةٌ محدّدة الرأس يصاد بهـا السمك .

الصنف السـابع

آلات المعاملة ؛ وهى عدّة آلات

منها الميزان ، وهو أحد الآلات التى يقع بها تقدير المقدّرات ، فالموازين قديمة الوضع قال تعـالى : ﴿والسَّماءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِى المِيزَانِ وأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ وأمر شعيب عليه السـلام قومه بإقامة القِسط بالوَزْن كما أخبر تعالى عنه بقوله : ﴿وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ﴾ .

قال أبو هلال العسكرىّ : وأوّل مَن آتخـذ الموازينَ من الحديد عبـد الله بن عامر . قال : وأوّل من وضع الأوزانَ سمـير اليهودىّ ، وذلك أن الحجّاجَ ضرب الدراهم بأمر عبـد الملك بن مَرْوَانَ ونهى أن يضربها أحدٌ غيره ؛ فضربها سمير ، فأمر الحجاجُ بقتـله لاجترائه عليه . فقال سمير : أنا أدُلُّك على ماهو خير للسلمين من قتلى ، فوضع الأوزانَ ؛ وِزنَ ألف وخمسماية وثلثمائة الى وزن رُبْع قيراط ، وجعلها حديدا فعفا عنه .

وكان الناس قبل ذلك انمـا يأخذون الدرهم الوازن فَيَزِنُونَ به غيره ، وأكثرُها يؤخذ عددا .

ومنها : الذراع ، مؤنثة ، وهى إحدى الآلات التى تقدّر بها المقاديرُ أيضا ، بها تقدّر الأرضون ، و يقاس البَزُّ وما فى معناه ؛ ولم يزل الناس قديمًا وحديثًا يتعاملون بها

على آختلافها ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ . وقد ذكر المَـاوَرْدى فى الأحكام السلطانية سبعَ أذرع :

إحداها العُمَرِيَّةُ ، وهى الذراع التى قدرها أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه لمسح سَوَاد العراق . قال موسى بن طلحة : وطولها ذراع وقبضة وإبهام . قال الحكم بن عتيبة : عَمَد عمرُ رضى الله عنه الى أطولهـا ذراعا وأقصرها ذراعا ، فجمع منها ثلاثة وأخذ الثُّلُثَ منها وزاد عليها قبضةً وإبهاما قائمةً ، ثم ختم فى طَرَفيها بالرَّصاص ، وبعث بذلك الى حُذَيْفَةَ وعثمانَ بن حُنَيْف فمسحا بها السَّوادَ .

الثانية الهـاشمية ، وتسمّى الزِّيَادِيَّة .

قال : وهى أربع وعشرون إصبعا ، كل إصـبع سبع شعيرات مُعْتَدلات معترضات ظَهْرًا لبطنٍ ؛ كل شعيرة عرض سبع شَعَرَات من شعر البِرْذَوْن ؛ وهـذه الذراع التى يعتمدها الفقهاء فى الشرعيات ، وبها قدروا البريد المعتبَر فى مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربمـا عَبَّروا عنها بذراع الملك ؛ وسميت بالهـاشمية لأن أبا جعفر المنصورَ ثانىَ خلفـاء بنى العباس آعتـبرها وعَمِل بمقتضاها فى المساحة وتَبِعَـه سائرُ خلفائهم على ذلك ، وبنـو العباس من بنى هاشم ؛ فنسبت الى بنى هاشم مباينةً لِمَنْ تقدّمهم من خلفاء بنى أُمَيَّةَ .

قال المَـاوَرْدِىُّ : وتسمّى الزِّيَادِيَّةَ ، لأن زيادا مسح بها السَّواد أيضا .

الثالثـة البِلَالِيَّةُ ، وهى أنقص من الهاشمية المقدّم ذكرها ثلاثةَ أرباع عُشْرِها ، وإنمـا سميت البِلَالِيَّةَ لأن بلال بن أبى بُرْدَةَ بن أبى موسى الأشعرى هو الذى وضعها ، وذكر أنها ذراعُ جدّه أبى موسى

الرابعـة السَّوْدَاءُ ، وهى دون البلالية بإصبعين وثلثى أصبع ؛ وأوّل من وضعها الرشيد ، قدّرها بذراع خادم أسود كان قائما على رأسه .

قال المـاوردى : وهى التى يتعامل بهـا الناس فى ذرع البَزّ والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

الخامسة اليُوسُـفِيّة ؛ وهى دون الذراع السوداء بثلثى إصـبع ؛ وأوّل من وضعها أبو يوسف صاحبُ أبى حنيفة .

قال المَـاوَرْدِىّ : وبها يَذْرَعُ القضاةُ الدُّورَ ببَغْدَادَ .

السادسة القصبة ؛ وهى أنقصُ من الذراع السوداء بإصبع وثلثى إصـبع ، وأوّل من وضعها آبن أبى ليلى القاضى .

قال المَـاوَرْدى : وبها يتعامل أهل كَاوَاذى .

السابعة المَهْرانية ؛ قال المـاوَرْدى : وهى بالذراع السوداء ذراعان وثلثا ذراع ، وأوّل من وضعها المأمونُ ؛ وهى التى يُتَعامل بها فى حفر الأنهار ونحوها

ومنها : المِقَصُّ — بكسر الميم — وهو الآلة المعروفة ، ويُنْتَفع به فى أمور مختلفة .

الصنف الثـامن

آلاتُ اللَّعِب ؛ وهى عدّة آلات

منها : النَّرْد — بفتح النون وسكون الراء المهملة — وهو من حِكَم الفُرْس ، وضعه أردَشيرُ بن بَابَك أوّلُ طبقة الأكاسرة ، من ملوكهم ، ولذلك قيل له : نَرْدَشِير ، وضعه مثالا للدنيا وأهلها ، فرتب الرقعة آثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة ، والمهاركَ ثلاثين قِطْعَةً بعدد أيام الشهر ؛ وجعـل الفصوصَ بمثـابة الأفلاك ، ورميَها مثـلَ تقلّبها ودَوَرانها ، والنُّقَطَ فيها بعـدد الكواكب السيارة ، كلّ وجهين منها سـبعة : وهى الشش ويقابله اليـكّ ، والبنج ويقابله الدو ، والجهار ويقابله الثـا ؛ وجعـل

ما يأتى به اللاعبُ من النقوش كالقضاء والقَـدَر تارة له وتارة عليـه، وهو يصرف المهارك على ما جاءت به النقوش، إلا أنه اذا كان عنـده حُسْن نظر عرف كيف يتـالى، وكيف يتحيل على الغَلَب وقهر خَصْمِه، مع الوقوف عنـد ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشـاعرة، لكن قد وردت الشريعـة بذمّه، قال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَشِير فكأنمـا غَمَسَ يده فى لحم خنزير" وفى رواية: "ملعونٌ مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدشير". وفى تحريمه عند أصحابنا الشافعية وجهان : أصحهما التحريم، والثانى الكراهة . واذا قلنا : حرام فالأصح أنه صغيرة، وقيل : كبيرة.

ومنها: الشِّطْرَنْجُ(١) — بفتح الشين المعجمة أو السين المهملة لغتان، والأولى منهما أفصح — وهو فارسىّ معرّب، وأصله بالفارسية شش رنك، ومعناه ستة ألوان وهى الشاه — والمراد بها المَلِكُ — والفرزان، والفيل، والفرس، والرُّخّ، والبيدق .

ثم الشِّطْرَنْجُ من أوضاع حكماء الهند وحِكَمِهِم . وضعه صصه بن داهر الهندى لبلهيب مَلك الهند مساواة لأردشـير بن بَابَك فى وضعه النرد، وعرضه على حكماء زمانه فقضَوْا بتفضيله، ثم عرضه على الملك وعرّفه أمره، فقال : آحتكم علىّ، فتمنّى عليـه عددَ تضعيف بيوته من قمحة الى نهاية البيوت، فاستصغر همته وأنكر عليه مواجهته بطلب نَزْرٍ يسير، فقال : هذه طَلِبَتِى، فأمر له بذلك، فَحَسَبَهُ أربابُ دواوينه فقالوا للملك : إنه لم يكن عندنا ما يقارب القليل من ذلك، فأنكر ذلك فأوضحوه له بالبرهان، فكان إعجابه بالأمر الثانى أكثرَ من الأول .

قال آبن خلّكانَ : ولقد كان فى نفسى من هـذه المبالغة شىء حتّى آجتمع بى بعضُ حُسّاب الإسكندرية، فأوضح لى ذلك وبينه، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف

(١) الذى فى القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أوّله، وفى لسان العرب أن الكسر فيه أجود ليكون من باب جِرْدَحْل .

الأعداد الى البيت السادس عشر ، فأثبت فيه آثنين وثلاثين ألفا وسبعمائة وثمانية وستين حبةً ، وقال : تجعل هذه الجملة مقدار قَدَح ؛ ثم ضاعف السابع عشر الى البيت العشرين فكان فيه ويبة ؛ ثم انتقل من الويبات الى الأردب ، ولم يزل يُضَعِّفُها حتّى آنتهى فى البيت الأربعين الى مِائة ألف إردب وأربعة وسبعين ألف إردب وسبعمائة وآثنين وستين إردبا وثلثى إردب ، وقال : هذا المقدار شونة ، ثم ضاعف الشُّوَن الى بيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعة وعشرين شونة ، وقال : هذا المقدار مدينة ، ثم انه ضاعف ذلك البيت الى الرابع والستين ، وهو نهايتها ؛ فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعا وثمانين مدينة ، وقال : تعلم أنه ليس فى الدنيا مدن أكثر من هذا العدد .

قال الصلاح الصَّفَدى فى شرح اللامية : وآخر ما آقتضاه تضعيف رقعة الشِّطْرَنْج ثمانية عشر ألف ألف ست مرات ، وأربعمائة وستةٌ وأربعون ألفا خمس مرات ، وسبعمائة وأربعةٌ وأربعون ألفا أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفا ثلاث مرات ، وسبعمائة وتسعة آلاف مرتين ، وخمسمائة وأحد وخمسون ألفا ، وستمائة وخمس عشرة حبة عددا .

قال الشيخ شمس الدين الأنصارى : إذا جمع هذا العدد هَرَمًا واحدا مُكَعَّبا ، كان طوله ستين ميلًا ، وعرضُه كذلك ، وآرتفاعه كذلك ؛ بالميل الذى هو أربعة آلاف ذراع .

واللعب بالشِّطْرَنْج مباح ؛ وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازى رحمه الله فى "المهذب" : أن سعيد بن جُبَيْر الإمامَ الكبيرَ التابعى المشهور كان يلعب الشِّطْرَنْج عن آستدبار . وممن يضرب به المثل فى لَعِب الشِّطْرَنْج الصُّولِى ؛ وهو أبو بكر محمد آبن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول تكين الكاتب . ويقال : إن المأمون كان

لا يجيد لَعِبَ الشِّطْرَنج، فكان يقول : عجبًا منى كيف أدبّرُ مُلْكِ الأرض من الشرق الى الغرب ولا أُحْسِن تدبير رقعة ذراعين فى ذراعين . ثم فى حِلّه عند أصحابنا الشافعية ثلاثة أوجه أصحها أنه مكروه، والثانى أنه مباح، والثالث حرام؛ فإن اقترن به رهن من الجانبين أو أحدهما فإنه محرّم بلا نزاع .

الصنف التاسع

آلات الطرب، وهى عدّة آلات

منها العُودُ، وهو آلة من خشب مخرقةٌ، له عنق ورأسه مُمَال الى خلفه، وهو آلة قديمة وتسميه العرب المِزْهَرَ — بكسر الميم — وهو أفخر آلات الطرب وأرفعُها قدرا وأطيبُها سماعا، حتّى يقال إنه قيل له : هل يُسْمَع أحسن منك؟ فقال : لا، وأمال رأسه الى خلفه فهى ممالة لأجل ذلك

ومنها الجنك، قال فى "التعريف" : وهو آلة مُحْدَثةٌ طيبة النَّغْمة، لذيذ السماع يقارب العود فى حسنه، وشكلُه مباين لشكل العود ، ورأسه ممال الى أسفل؛ يقال إنه قيل له : هل يُسْمَع أحسنُ منك ؟ فقال : نعم، يريد العود .

ومنها الرَّبَابُ — بفتح الراء — وهى آلة مجوّفة مركب عليها خُصْلَةٌ لطيفة من شعر تُمَرّ عليها بقوس وَتَرُه من شعر فيسمع لها حِسٌّ طَيِّبٌ، وأكثر من يعانيها العربُ

ومن أنواعها نوع يعبر عنه بالكَمَنْجة لطيف القدر فى تدوير، أطيب حسًّا وأشجى من الرَّبَاب

ومنها الدُّفُّ — بضم الدال — وهو معروف، ثم إن كان بغير صُنُوج — وهى المعبّر عنها فى زمننا بالصراصير — حلَّ سماعه، أو بصُنُوج فالأصح كذلك .

ومنها : الشَّبَّابَةُ — بفتح الشين — وهي الآلة المتخذة من القَصَب المجوّف ، ويقال لها : اليَرَاع أيضا تسمية لها باسم ما اتخذت منه ، وهو اليراع يعنى القصب ، وربما عُبِّر عنها بالمزمار العراقىّ ، وتصحيح مذهب الشافعى رضى الله عنه يختلف فيها ، فالرافعى رحمه الله يجيز سَمَاعها والنَّوَوىّ يمنع من ذلك .

الصـنف العاشر

المسكرات وآلاتها ، وهى عدة أشياء

منها الخَمْــرُ ، وهى ما اتخذ من عصير العنَب خاصّة ، وهى مُحَرَّمَةٌ بنصّ القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ وأبو حنيفةَ يبيحها للتداوى والعطش ، ولم تُبَحْ عند الشافعية إلا لاساغة لقمة المغصوص خاصّــة ، وشاربها يحــدّ بالاتفاق ، وحكمُ بنجاستها تغليظا فى الزجر عنها ، وأباح أبو حنيفةَ المُثَلَّثَ : وهو ما ذهب ثلثاه وبقى ثلثــه ، وقال بطهارته ، وجرى عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة .

أما المتخذ من الزبيب والتمر وماشاكله فإنمــا يقال له نبيذ ، وقد ذهب الشافعىّ رضى الله عنه الى القول بتنجيسه والحدّ بشربه وإن لم يأتِ منه الى قدر يحصل منه سُكْر . ومنع أبو حنيفةَ الحدّ فى القدر الذى لا يُسْكر .

ثم للخمر أسماء كثيرة باعتبار أحوال ، فتسمّى الخمــرَ لأنها تُخَمِّرُ العقلَ أى تغطّيه ، والحُمَيَّا لأنها تُحْمِي الجسد ، والعُقَارَ لأنها تعاقر الدَّنّ أى تطول مدّتها فيه الى غير ذلك من الأسماء التى تكاد تجاوز مائةً .

ومنها الإبريق ، وهو الإناء الذى يُصَبّ منــه ، والإبريق فى أصل اللغة ما له خرطوم يصبُّ منه .

ومنها القَدَحُ ، وهو إناء من زجاج ونحوه يصبُّ فيه من الإبريق المقدّم ذكره .

ومنها الكَأْسُ ، وهو القَدَحُ بعد امتلائه ، ولا يسمّى كأسًا اذا كان فارغا بل قدحًا كما تقدّم .

ومنها الكُوبُ — بالباء الموحدة — وهو الذى لا عُرْوَةَ له يُمسك بها ، أما إذا كانت له عروة فإنه يقال له كوز بالزاى المعجمة .

قلت : والعَجَبُ ممن يُذْهِب طيّباته فى حياته الدّنيا ، ويفوز بما وَصْفُه المرارة وطبعه إزالة العقل الذى به تُدْرَكُ اللذة ، ويفوت النعيمُ المقيمُ فى دار البقاء ! فقد ورد "أن من شَرِب الخمر فى الدُّنيا لم يَطْعَمْهَا فى الآخرة"

قال العلماء : إذا رآها ، لا يشتهيها ولم تطلبها نفسُه ، وقد وصف الله تعالى حال خمر الجنة بقوله : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ وأتبع ذلك بكمال النعمة فى قوله : ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾

اللهم لا عيشَ إلّا عيش الآخرة ! فلا تحرِمنا خير ما عندك بشرِّ ما عندنا .

ومنها : الحَشِيشَةُ التى يأكلها سَفِلَةُ الناس وأراذلهم ، وتسميها الأطباء بالشَّهْدَانِج ، وعبر عنها ابن البيطار فى مفرداته بالقِنّب الهنْدِىّ ؛ وهى مذمومة شرعا ، مضرة طبعا ، تُفسِد المِزاج ، وتؤثر فيه الجَفافَ وغلبةَ السوداء ، وتفسد الذهن ، وتورث مَسَاءة الأخلاق ، وتَحُطُّ قدرَ متعاطيها عند الناس ؛ الى غير ذلك من الصفات الذميمة المتكاثرة . وكلام القاضى حُسَيْن يدل على أنه لا يحدّ متعاطيها وإن فُسِّق ، فإنه قال : وغير الخمر مثل البَنْج وجوزِ ماثِل والأفيون لا يحدّ متعاطيه بحال ؛ بل إن تعمد

تناوُلَه فُسِّقَ به، وإن تناوله غَلَطًا أو للتداوى لم يُفَسَّق؛ وقد أفرد ٱبن القسطلانى الحشيشة بتصنيف سماه "تكرِمَة المَعِيشة، فى ذمّ الحشيشة" ذكر الكثيرَ من معانيها ومساوى متعاطيها، أعاذنا الله تعالى من ذلك .

النـــوع الثامن

مما يحتاج الى وصفه الأفلاك والكواكب، وفيه مقصدان :

المقصـــد الأوّل

فى بيان ما يقع عليه ٱسم الفَلَك وعددِ أُكَرِهِ[1]، وما بين كل كُرَتَيْنِ وحركة الأفلاك فى اليوم والليلة

أما ما يقع عليه ٱسم الفلك فالمراد بالأفلاك السموات . قال صاحب "مناهج الفكر" : تواطأت الأمم على تسمية أجرام السموات أفلاكا ، وقال ٱبن قُتَيْبَة فى "أدب الكاتب" : الفلك مَدَار النجوم الذى يضمها ، وٱحتج بقوله تعالى بعد ذكر النجوم : "وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" قال : وسمى فَلَكًا لٱستدارته ، ومنه قيل : فَلْكَةُ المِغْزَل لٱستدارتها .

وأما شكل الفلك وهيئتُه، فقد ٱختلف علماء الهيئة فى ذلك : فذكر الأكثرون منهم أنها كُرِيَّةٌ لا مسطَّحة ، لأن أسرع الأشياء حركةُ السموات وأسرعَ الأشكال حركة الكُرَة لأنها لا تثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أُكَرِه ، فقد ذكر الجمهور من علمـاء الهيئة أن الفلك عبارة عن تسع أُكَرٍ متسقة ، ملتفة بعضها فوق بعض التفافَ طبقات البصلة ، بحيث يماسّ محدّب

(١) فى القاموس الأُكرة لغية فى الكرة . وقد جمعها المؤلف على هذه اللغة ، وفى اللسان : أن أكرا جمع كرة مقلوب اللام الى موضع الفاء فانظره .

كلِّ كُرَةٍ سُفلى مقعر كُرَةٍ أخرى عُليا اذ لا خَلَاء بينهما عندهم . قالوا : وأقربُ هذه الأُكَرِ الى الأرض كُرَةُ القَـمَرِ ، ثم كُرَةُ عُطَارِدَ ، ثم كرة الزُّهَرَةِ ، ثم كرة الشَّمس ، ثم كرة المِرِّيخ ، ثم كُرَة المُشْـتَرِى ، ثم كرة زُحَلَ ، ثم كرة الكواكب الثابتة ، ثم كرة الفَلَكِ الأطلس ؛ وسمى بالأطْلَس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفَلَكُ المحيط . ويسمّى فَلَكَ الكل ، وفلكَ الأفلاك ، والفلَكَ الأعلى ، والفلك الأعظم ، وحكى النوبختى(١) فى "كتاب الآراء والديانات" أن بعض القـدماء ذهب الى أن كُرَةَ الشمس أعلى من سائر كُرَات الكواكب ، وبعدها كرة القمر ، وبعدها كُرَة الكواكب المتحيرة ، ثم كرة الكواكب الثابتة . والمتفلسفون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاقتصار على ذكر سبع سموات ، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعة هو الكُرْسِىّ ، والفلَكَ التاسع هو العرشُ . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة الى أنّ فوق الكُرَة التاسعة كُرَةً عاشرة هى المحرّكة لسائر الأُكَرِ . وذهب آخرون الى أن وراء نهاية الأجرام السماوية خَلَاءً لا نهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة الى أن وراءها عالَم الصورة ، ثم عالَم النفس ، ثم عالَم السياسة ، ثم عالَم العِلّة الأولى ، ويعنون به البارى تعالى عن الجهة . والصابئة يسمون هذه العوالم أفلاكا

وأما ما بينَ كل كُرَتين ، فذهب أهل الهيئة الى أنها متراصّة لا خلاء بينها لكن قد ورد الشرع بما يخالف ذلك ، فأطبق القُصّاصُ من أهل الأثر على أن بين كلّ سماء وسماء خمسمائة سنة ؛ وفى سُنَنِ التِّرمِذِىّ أن "بين كل سماء وسماء واحدة أو اثنتان أو ثلاثٌ وسبعون سنة"

---

(١) أهمله فى الأصل ولم نعثر عليه بعد البحث

وأما حركة الأفلاك اليوميةُ، فإن الفَلَكَ الأطلسَ المقدّم ذكره يتحرك بما فى ضمنه فى اليوم والليلة حركةً واحدة دَوْريّةً على قُطْبَيْنِ مائلين يسمّيان قُطْبَي العالم أحدهما (١) عظمى تقطع هذا الفَلَكَ نصفين تسمّى دائرة مُعَدِّلِ النهار، لأن الشمس متى حلّتْ بها آعتدل النهار فى سائر الأقطار، وتُقَاطِع هذه الدائرةَ دائرةٌ أخرى متوهّمة تقسم هذا الفَلَكَ نصفين على نقطتين متقابلتين، يصير نصفها فى شَمَالِيّ مُعَدِّلِ النهار ونصفها الآخر فى جَنُوبيِّه، ويسمّى مَنْطَقَةَ البروج، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصة فى السنة الشمسية، ومن ثَمَّ قسمت آثنى عشر قسما ويسمّى كلُّ قسم منها برجا .

المقصـــد الثـانى

فى ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك؛ وهى على ضربين

الضـــرب الأوّل

الكواكب الســـبعة السيّارة

وهى زُحَلُ، والمُشْتَرِى، والمِرِّيخُ، والشَّمْسُ، والزُّهَرَةُ، وعُطَارِدٌ، والقمر .

ويتعلق القول بها من جهة مراتبها، وآشتقاقِ أسمائها، ومقاديرِ أبعادها من الأرض، وقدر مَحَطّ كل كوكب منها .

فأما القمر، فمأخوذ من القُمْرَةِ وهى البياض، سمى بذلك لبياضه؛ وقد تقدّم أنّ فَلَكَه أقرب الأفلاك الى الأرض؛ وهو المعبر عنه بالسماء الدّنيا، ودَوْرُه ألف ومائة وخمسةٌ وثمانون ميلا؛ وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءا من الأرض؛ وبُعْدُه

---

(١) فى المواعظ للقريزى . «ويقسم الفلك خط من دائرة تقسمة نصفين ... ... وتسمى هذه الدائرة دائرة معدل النهار» . فلعل فى عبارة الأصل سقطا من الناسخ وحرر .

عن الأرض مائة ألف وسبعة آلاف وخمسمائة وتسعون ميلا . وهو يسمى هلالا الليلة الأولى والثانية والثالثة؛ ثم هو قمر الى آخر الشهر . ويسمى فى ليلة أربع عشرة : بالبدر ، قيل لمبادرته الشمس قبل الغروب(١)، وقيل : لتمامه وامتلائه ، كما قيل لعشرة آلاف : بَدْرة لأنها تمام العدد ومنتهاه . ويَسْتَسِر ليلة فى آخر الشهر ، وربما استسر ليلتين فلا يُرى بمعنى أنه يختفى فلا يُرى ؛ ويسمى هذا الاختفاء السِّرار .

وأما عُطَارِدٌ فمعناه النافذ فى الأمور ، ولذلك سمى الكاتب ؛ وهو فى الفلك الثانى بعد فلك القمر ، ودَوْرُ قُرْصه سبعمائة وعشرون ميلا ، وهو جزء من اثنين وعشرين جزءا من الأرض ، وبُعْدُ ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسة آلاف وثمانمائة ميل .

وأما الزُّهَرَةُ فمأخوذة من الزاهر وهو الأبيض ، سميت بذلك لبياضها ؛ وهى فى الفلك الثالث من القمر ، ودَوْرُ قرصها ستة آلاف وسبعة وأربعون ميلا ، وهى جزء من ستة وثلاثين جزءا من الأرض ؛ وبعدها عن الأرض خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألفا وستمائة وأربعة عشر ميلا .

وأما الشمس فسميت بذلك لشبهها بالشمسة وهى الواسطة التى فى المِخْنَقة ، لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكب سُفْلِيّة ، وهى القمر وعُطَارِدُ والزُّهَرَةُ ؛ وبين ثلاثة عُلْوِيّة ، وهى المِرِّيخُ والمُشْتَرِى وزُحَلُ ، وذلك أنها فى الفَلَك الرابع من القمر ؛ ودور قرصها مائة ألف وثمانمائة وثمانون ميلا ؛ وهى مثل الأرض مائة وست وستون مرة وربع وثمن مرة ، وبُعْدُها عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وخمسة آلاف واثنان وتسعون ألفا ومائة وثلاثة وأربعون ميلا

(١) أى بطلوعه قبل غروب الشمس

وأما المِرِّيخُ فمأخوذ من المَرْخ، وهو شجر تَحْتَكُّ أغصانه فتورى النارَ، فسمى بذلك لشبهه بالنار فى آحمراره، وقيل : المِرِّيخُ فى اللغة هو السهم الذى لا ريشَ له، والسهم الذى لا ريشَ له يلتوى فى سيره، فسمّى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه فى سيره ؛ وهو فى الفَلَك الخامس من القمر؛ وهو مثل الأرض مَرَّةً ونصفا ؛ وبُعْده عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وتسعُمائة ألف وآثنا عشر ألفا وثمانمائة وستة وستون ميلًا .

وأما المُشْتَرِى فسمى بذلك لحسنه كأنه آشترى الحسنَ لنفسه ، وقيل : لأنه نجم الشّراء والبيع عندهم ؛ وهو فى الفلك السادس من القمر؛ ودَوْرُ قرصه أحدٌ وتسعون ألفا وتسْعُمائة وتسعةٌ وسبعون ميلا ؛ وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرة ونصف وثمنُ مَرّةٍ؛ وبُعْدُه عن الأرض ثمانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانيةٌ وستون ألفا ومائتا ميل .

وأما زُحَلُ فمأخوذ من زَحَلَ اذا أبطأ ، سمى بذلك لبطئه فى سيره ؛ وقد فَسَّر به بعض المفسرين قولَه تعالى « النَّجْمُ الثَّاقِبُ » ودَوْرُ قرصه تسعون ألفا وسبعُمائة وتسعة عشر ميلًا ؛ وبُعْدُه عن الأرض ستة وأربعون ألفَ ألفٍ ومائتا ألفٍ وسبعُمائة وسبعةٌ وسبعون ميلًا ؛ وأهل المغرب يسمون زُحَلَ المُقَاتِلَ ، ويسمون المِرِّيخَ الأحمرَ، ويُسَمُّون عُطَارِدَ الكاتبَ .

والفُرْسُ يسمون الكواكب السبعةَ بأسماء بلغتهم ، فيسمون زحلَ كِيوَانَ، والمُشْتَرِىَ تير، والمِرِّيخَ بهرامَ، والشمسَ مِهْر، والزُّهَرَةَ أناهيد، وعُطَارد هرمس، والقمر ماه .

وآعلم أن لكلٍّ من هذه الكواكب السبعة حركتين :

إحداهما قَسْرِيَّةٌ ، وهى حركته بحركة فلكِ الكل فى اليوم والليلة حركةً تامةً ، وتُسمَّى الحركةَ السريعة .

والثانيــة حركة ذاتية يتحرك فيها هو بنفسه من المغرب ألى المشرق وتسمَّى الحركةَ البطيئة .

و يختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب ، فلكل واحد منها سيرٌ يخصُّه ، وهذه الحركة فى القمر أبينُ لسرعة سـيره ، إذ يقطع الفَلَكَ بالسـير من المغرب الى المشرق فى كل ثمـانية وعشرين يوما مرة . وقد مثَّل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمثالين .

أحدهما بحركة السفينة براكبها الى جهة جريان المـاء، وتحرك الراكب فيها الى خلاف تلك الجهة .

والشـانى تحرك نملة تدبُّ على دُولاب الى ذات الشِّمال ، والدُّولاب يدور الى ذات اليمين .

الضرب الثـانى

الكواكـب الثـابتـــة

وهى الكواكب التى فى الفَلَكِ الثامن على رأى علماء الهيئة ، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفَلَكِ لا تتحرك من المَغْرِب الى المَشْرِق ، كما تتحرك السبعة السيارة ، إلا حركة يسـيرة جدًا ، وإنمـا تتحرك بحسب حركة فَلَكِ الكل بها من المشرق الى المغرب فى اليوم والليلة ؛ والذى يُحتاج الى ذكره منها الكواكبُ المشهورة مما تُتَعرَّف به الأزمنة على ما تقدّم ذكره ، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه .

وهى ثلاثة أصناف :

الصِّـــنْفُ الأوّل

نجوم البروج التى تنتقل فيها الشمس فى فصول السنة

وهى آثنتا عشرة صورة فى آثنى عشر برجا، بعضها من منازل القمر، وبعضها من صور أخرى جَنُوبيةٍ وشَمَاليةٍ، وبعضها من كواكبَ متفرقةٍ لا تنسب الى صورة .

الأول الحَمَـلُ وهو الكَبْشُ ، وهو صورة كبش على خط وسط السماء مُقَدَّمُهُ فى المغرب ومؤخره للشرق، وأوّل ما يطلُعُ منه فَمُهُ ، وهو الكوكبُ الجنوبىّ المنفرد من الكوكبين الشماليين من مَفْصِـلِ اليد من الشَّرَطَيْنِ ، وعلى قَرْنيه الكوكبان الجنوبيان المقتربان من الشَّرَطَيْنِ ، وعلى عينـه اليمنى الكوكبُ الشمالىّ المضىء من الشَّرَطين ، وعلى عينه اليسرى كوكبٌ خفىّ بقرب الشمالىّ من الشَّرطين ، وعلى لَحْيَيْهِ آخرُ مثلُه ، وعلى مَفْصِل يده الكوكبان الشماليان اللذان على عَقِبِ الرِّجل اليسرى مـن الثريا ، وهو الذى يقال له البُطَيْنُ ، ويده وساقاه ممتدان الى الشمال ، وكأنه إنمـا يظهر منه يد واحدة ورِجْلٌ واحدة ، والثريا على طرف أَلْيَتِهِ .

الثانى الثَّوْرُ وهو صورة ثور على خط وسط السماء ، مُقَدَّمُه الى المشرق ومؤخره الى المغرب ، وظهره الى الشمال ، ويداه ورجلاه الى الجنوب ، وعلى مؤخره أربعـة كواكب تسمَّى القَطَعَ أى هى موضع ذنبه المقطوع ، والدَّبَرَانُ وجهُهُ ، وركن الدَّبَرَانِ فَمُهُ ، والكوكب المضىء الذى فى الدَّبَرَانِ عينُهُ ، وكوكبان خارجان عن الدَّبَرَانِ قَرْدة قَرْنِه ، وقرنه الآخر كوكبٌ متباعد عن الدُّبَرَانِ نفسه الى الشمال ، وليس وجهه مستويا ولكنه شبيه بالمقطوع الذى جُعِل خدّه على رأس عُنُقه ويداه منحطتان الى الجَنُوب ، ويظهر منه رِجْل واحدة ويدان ، وذَنَبُهُ أبتر ، والثريا خارجة عنه الى الشمال وكذلك اللَّطْخة ، وهى ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والدَّبَرَانِ وليستا من صورته .

الثالث التَّوْءَمُ : وهو المعبَّر عنه فى أَلْسِنَةِ الناس بالجوزاء . قال الحسين بن يونس الحاسبُ فى كتابه فى "هيئة الصُّوَر الفلكية" : والناس مخطئون فى ذلك وإنما الجوزاء هى الصورة المعروفة بالجَبَّار فى الصور الجنوبية (١) ، وقدم التوءم الأيمن بعض كواكب الجَبَّار التى على تاجه . قال : والتوءم على خط وسط السماء جَسَدان ملتصقان برأسين ، يظهر لكل واحد منهما يد واحدة و رِجْل واحدة ، والرأسان فى جهة المشرق ، و رجلاهما فى جهة المغرب ، والذراع الشامىّ هو الرأسان ، ويده اليمنَى وهى التى فى جهة الشَّمال هى الذراع اليمانى ، والمضىء من الذِّراع اليمانىّ يسمَّى الشِّعْرَى الغُمَيْصَاء ، ويده اليسرى ممتدّة الى التوابع .

الرابع السَّرَطَانُ : وهو صورة سَرَطَانٍ على وسط السماء ، رأسه الى الشَّمال ومؤخره الى الجنوب ؛ والنَّثْرَةُ على صدره ، وعيناه كوكبان خفيَّان تحت النثرة يُدْعَيَانِ بالحمارين وزُبَاناه كوكبان فيهما خفاء ، وأحدهما أضوأ من الآخر ، يكونان شَمَالِيين من التوءم ومؤخّره كفُّ الأسد .

الخامس الأسد ، فى وسط السماء ، فَمُهُ مفتوح الى النَّثْرة ، وعلى رأسه كواكب مضيئة ، والطَّرْف على عنقه ، والجبهة على صدره وقلبه الكوكب الجنوبىّ المضىء من النَّثْرة ، وهو عظيم النور ، وكاهله كواكب خفية خارجة عن الطَّرْفِ والجبهةِ الى الشَّمال والخراتان خاصرته ، والصَّرفة ذنبه ، وكَفُّه المتقدّمة فى آخر السَّرَطَان ، وكفه الأخرى بعد هذه الكف الى المشرق ، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبلىّ من الخَرَاتين الى الجنوب ، والأخرى تحت هذه للشرق ، وكبده كوكب يتوسط مع الجبهة شمالىّ منها ، وسائر فقاراته الى المشرق .

---

(١) لعل الصواب اليمنى

السادس العَــذْراء فى وسط السماء . قال حسين بن يونس : والعرب تسميها السُّنْبُلَةَ وهو خطأ ، وإنمـا هى حاملة السنبلة ، ورأسها فى الشَّمال بميلة الى المغرب ورِجْلاها فى الجنوب ؛ وهى مستقبلة المَشرق وظهرها الى المغرب . قال : ورأسها كواكبُ صغار مستديرة كاستدارة رأس الإنسان تكون جنوبيه من كوكبي الخَرَاتين ومَنْكِبَاها أربعـة كواكب تحت هــذه الى الشرق؛ وجَنَاحها الأيمن سـتة كواكبَ كهيئة الجَنَاح .

السابع الميزان، وهو صورة ميزان ؛ كِفَّتاها(١) الى جهة المشرق وقَبَّها الى جهة المغرب، والسماك الأعزل على قَبِّها من الجهــة اليمنَى ومقابله كوكب آخرُ على قَبِّهـا من الجهة الشّماليـة، وكوكب آخر خارج من وسطها الى المغرب على علاقتها، وهو على قصبة السُّنبُلَة؛ وكوكبان من الغَفْرِ على محامله مع كواكبَ أُخَر؛ وزُبَانيا العقرب كِفَّتاه .

الثامن العقرب، وهو صورة عَقْرَب على وسط السماء، رأسه فى المغرب، وذنبه فى المشرق، وإحدى رِجْليه فى الجنوب، والأخرى فى الشَّمال، والغَفْرُ على رأسه، والزُّبَانيان اللذان هما كِفَّتَا الميزان زُبَانياه، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإكليل، والإكليل على صــدره، والقلب هو قلبه، ونِيَاط القلب كوكبان خفيان والقلب فى وسطهما، وهو خارج عنهما الى الشَّمال، والشَّوْلة ذَنَبه، والكواكب التى على طرفها جبهته، وإبرته لَطْخة مستطيلة فيما بين الشَّوْلة والنَّعائم الصادرة؛ ففيه من منازل القمر خمسُ منازلَ، وهى الغَفْر، والزُّبَانيان، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة؛ وأظهرُ ماتكون صورةُ العقرب وهو على الأنف عند الغروب؛ ففيه من منازل القمر ثلاثُ منازلَ : الإكليلُ والقلبُ والشولةُ .

---

(١) فى المصباح « الميزان مذكر » فلعل تأنيث المؤلف له باعتبار أنه صورة .

التاسع القَوْس، ويسمَّى الرامى، ونجوم هـذا البرج نصفه شـبه فرس، وهو مؤخره الى جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان تقوس وهو فى جهة المشرق، ورأسه فى الشَّمال ورجلاه فى الجنوب؛ والنَّعائم الواردة على وسطه، وهو على الجسد الذى يشبه بدن القوس، وذنبه يشـبه لَطْخة مستطيلة مع كوكب صغير تحتها والكواكب دعبان (١) أى النعائم، والبَلْدة على مقْبِض القوس ويده اليمنَى قابضة على رأس السهم، وهى كواكب تكون تحت لطخة صغيرة قريبة منها

العاشر الجَدْىُ: وهو صورة جَدْيٍ مستلقٍ على ظهره، مُقَدَّمه فى المغرب، ومؤخَّره فى المشرق، وظهره للجنوب ويداه ورجلاه الى الشَّمال، وهو شبيه بالمنقلب الى القوس وقرناه الى بطنه، وفمه الى القوس، وليس له إلا يد واحدة، والكوكب الشَّمالىّ من سَعْد الذابح أحدُ قَرْنَيْه، والجنوبىّ منه قرنه الآخر، وكوكب آخر خفىّ تحت سهم القوس غربىّ سَعْد الذابح فَمُه، وعلى كَتِفه سعد بُلَـعَ، وعلى وَرِكه سَعْد السُّعود، والمضىء من سـعد السعود حُقُّ وَرِكه وشق الحوت الجنوبىّ على ظهره، وطَرَف يده ثلاثة كواكب مضيئة بقرب اللامع فيها خفاء، وطرف رجله الكوكبُ المسمَّى رأس الدلو.

الحادى عشر الدَّلْو، وهو صورة رَجُل قائم بيده دَلْوٌ؛ رأسه الى الشَّمال ورجلاه الى الجنوب، وظهره الى المشرق، ووجهه الى المغرب، والكواكب التى تسمَّى الخِبَاءَ من سعد الأخبية رأسُــه، ويده اليسرى من فوق رأسه حتَّى تنزل إلى الدَّلْو الذى عن يمينه، وسعد الأخبية مِرْفَقُه الأيسر، و بطنه يسمَّى الجرة، ودلوه أربعة سعود من السُّعود السبعة التى ليست من منازل القمر، هى سعد نَاشِرَةَ، وسَعد المَلِك، وسعد البِهَام وسعد الماتح؛ وكل سعد منها كوكبان، وعلى رِجْله اليسرى كوكب عظيم النور،

(١) كذا فى المخطوط ولم نهتد الى إيضاحه.

وعلى رِجْله اليمنى كوكب أبيض يقرب فى العِظَم من الذى قبله ، والفَرْع المقدّم خارج عن صورته الى الشّمال .

الثانى عشر الحَوت : وهو صورة سمكتين إحداهما المنزلة التى تسميها أصحاب المنازل بطن الحُوت وهى شمـالية ؛ والثانية جنوبية عنها وهى أطول منها وأخفى الكواكب ؛ والكواكب السبعةُ السيارةُ ترسُم الجنوبيةَ منهما بمسيرهن ، وشق السمكة الجنوبية ثلاثة من السُّعود السبعة التى من غير منازل القمر هى سعد الهُمَام وسعد البارِع وسعد المـاطر(١) ، وليس الفَرْغ المؤخّر فى جسم الحوت بل خارج عنه الى الشّمال والمغرب .

الصـــنف الثـانى

نجوم منازل القمر التى ينتقل فيها القمر من أوّل الشهر الى الثامن والعشرين منه وهى ثمان وعشرون منزلة يداخل أكثرُها صورَ البروج الاثنى عشر المتقدّمة .

الأولى الشَّرَطانِ، والشَّرَطان تثنية شَرَط، وهو العلامة، كأنه سمى بذلك لكونه علامةً على طلوع الفجر عند طلوعه، وتسمّى أيضا النَّطْحَ والناطحَ لأنها عند أصحاب الصور قرْنا الحَمَل، وهما كوكبان نيّران بينهما قابُ قوْسين، أحدهما فى الشّمال والآخر فى الجنوب الى الجانب الجنوبىّ ، ومنها كوكب ألطف منه يعدّ معه أحيانا ولذلك يسمّى بعضهم هذه المنزلةَ الأشراطَ على الجمع لا علىْ التثنية، وهذه الثلاثة الكواكب إذا ظهـرت فى المشرق ظهرت كأنهـا مقلوبة منكّسة ، وواحد منها أحمرُ مضىء وتحته آخر خفىّ، والثالث فى الشّمال وهو أحمرُ مضىء .

---

(١) الذى فى القاموس سعد مطر .

الثانية البُطَيْنُ، تصغير بطن، وانما صُغِّر فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتى ذكره فى جملة المنازل، والبُطَيْنُ ثلاثة كواكب مثل أثافى القِدْر : وهى الشكل المُثلَّث الذى ينصب عليه القِدْر عند الطبخ، وهى على القرب منها فى موضع بطن الحَمَل من الصورة، وواحد منها مضىء وآثنان خفيان، والخفيان يَطْلُعان قبل المضىء .

الثالثة الثُّرَيَّا، ويسمَّى النجم عَلَما عليها، وبه فسر قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ وهى ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعةَ أنجم، وهى فى شكل مثلث متساوى الساقين، وبين نجومها نجومٌ صغار جدّا كالرشاش، ومطلَعُها الى الشمال عن مطلع الشَّرَطَيْنِ والبُطَيْنِ، وأوّل ما يطلُع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الأفخاذ منها، وهى عند أصحاب الصور بالقرب من محل ذَنَب الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور، وبعضهم يسميها أَلْيَةَ الحمل لقربها منه .

الرابعة الدَّبَرَانُ، ويسمّى تَالِيَ النجم لكونه يطلع تِلْوَ الثريا، وربما سمى حادِيَ النجم لذلك، ويسمّى أيضا المِجْدَحَ وعين الثور، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال، واحد منها مضىء أحمرُ عظيم النُّور، واسم الدَّبَرَان واقع عليه فى الأصل ثم غلب عليه وعلى باقى المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هى رأس الثّور، وأوّل ما يطلع منه طرف الدال، ويكون رميها الى الجنوب وفتحها الى الشّمال، والكوكب الأحمر المضىء هو آخر ما يطلع منها، والعرب تقول للكوكبين القريبين منه : كَلْباه، والباقى غَنَمهُ، وربما قالوا : قِلَاصه، ويقولون فى خرافاتهم : إن الدَّبَرَان خطب الثريا الى القمر فقالت : ما أصنع بِسُبْرُوتٍ ؟ فساق اليها الكواكبَ المسماة بالقلَاص مهرا، فهربت منه فهو يطلبها أبدا، ولا يزال تابعا لها، ومن ثَمّ قالوا فى أمثالهم : «أوْفى من الحَادِي (١) وأغدر من الثريَّا» .

(١) المراد بالحادى الدبران كما تقدم فى كلامه وكما يشير اليه قول الشاعر * كما وفى بقلاص النجم حاديها * ووقع فى الأصل الجارى وهو تصحيف .

الخامسة الهَقْعَةَ ، سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون فى عُنُق الفرس، وقـد مر القول عليها فى الكلام على أوصاف الخيل ؛ وهى ثلاثة كواكبَ محابية صغار تسمّى الأثافىّ، وهى على أعلى القدم اليسرى من التوءم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة الهَنْعَةُ ، وهى خمسة أنجم على شكل الصَّوْلجَان، أربعة منها على خط مستقيم، الثالث منها يسمّى قوسَ الجَـوْزَاءِ ، والخامس منعطف الى جهة الجنوب مقدارَ شبرٍ فى رأى العين، وسميت هَنْعَةً لانعطافها أخذا من قولهم : هنعتُ الشيءَ إذا عطفتَـه ، وبعضهم يسميها التحية (١) ، وهى عنـد أصحاب الصُّوَر خلاف لأحد التوءمين المعبر عنهما بالجوزاء، ويقال : الهنعة قوس الجوزاء يرمى بها ذراع الأسد؛ وقائل ذلك يزعم أنها ثمـانية أنجم فى صـورة قوس من مقبضها النجمان اللذان يقال لها : الهنعة، وبعضهم يقول: إن الهَنْعَةَ كوكبان مقترنان، الشَّمالىّ منهما أضوؤهما وحذاءَهما ثلاثة كواكبَ تسمّى التَّحَايِى وربمـا عدل القمر فنزل بها .

السابعة الذِّراع : وهى كوكبان: أحدهما نيِّروالآخر مظلم، بينهما قدر سوط فى رأى العين، وفيما بينهما كواكبُ صِغَار تسميها العرب الأظفار، وسميت هذه المنزلة بالذراع لأنهـا عندهم ذراع الأسد وللأسد ذراعان ، مقبوضـةٌ وفيها ينزل القمر وهى جنوبية، وسميت مقبوضةً لأن الأخرى أرفع منها فى السماء، ولهذا سميت مبسوطةً، وهى مثلها فى الصورة، وأصحاب الصور يجعلون هذه الذراع فى صورة الكلب الأصغر، وربمـا عدل القمر عن المقبوضة فنزل بها .

الثامنة النَّثْرة ، وهى لَطْخة كقِطْعـة سحاب يجعلها أصحاب الصُّوَر على صـدر السَّرَطَان ، وسميت نثْرة لأن الى جانبها نجمين صغيرين همـا عند العرب على مَنْخِرى

(١) الذى فى القاموس واللسان فى مادة (هـ ن ع) أنها تحياة وجمعها تحاتى .

الآسد، وتسميهما الحمارين، وقيل إنها لما كانت أمامَ جبهة الأسد شبهت بشيء نثره من أنفه، ويقال إنها فم الأسد ومنخراه، وتسمَّى اللَّهاةَ أيضا وتشبَّه بالمَغْلَف .

التاسعة الطُّرْفُ ، وهى كوكبان خفيان مقترنان بين يدى الجَبْهَة، سميا بذلك لموقعهما موقع عينى الأسد، وقدامهما ستة كواكبَ صغار تسميها العرب الأشفار اثنان منها فى نَسَق الطَّرْف، والأربعة البواقى بين يديه .

العاشرة الجَبْهَـةُ، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها الى الشرق، فهى لذلك على شكل مُثَلَّث مستطيل القاعدة قصير الساقين، والى الجنوب عنها نجم أحمرُ مضىء جدا يسمَّى قلبَ الأسد يرسمه المنجمون فى الأسطرلاب، وأصحاب الصور يجعلون الجبهة على كَتِف الأسد .

الحادية عشرة الخراتان، وتسمَّى الزُّبْرَةَ وعُرف الأسد والزبرتين، وهما كوكبان نيِّرَان بينهما فى رأى العين مقدارُ ذراعين، وهما معترضان ما بين المشرق والمغرب، يمتدان عند التوسط مع خط الآستواء، وسميا الخراتين تشبيها بثُقْبين فى السماء، ومنه خَرْتُ الإبْرَة ، وتحتَ هذين النجمين تسعةُ أَنْجُم صغار . وسميت الزُّبْرَة لشعر يكون فوق ظهر الأســد ممــا يلى خاصرته ، وعدّوا الجميع أحد عشر كوكبا منها نجمان همــا الخراتان والتسعة الشعر .

الثانية عشرة الصَّرْفَةُ،وهى كوكب نيِّر، وهو عند أصحاب الصور قُنُبُ الأسد، والقُنْبُ : وعاء القضيب ، وبالقُرْب من هــذا الكوكب سبعة أنجم صغار طُمْس ملاصقةٌ له ، وسمى هذا الكوكبُ بالصَّرْفَة لآنصراف الحَرِّ عند طلوعه مع الفجر من المشرق، وآنصراف البرد إذا غرب مع الشمس، ويقال الصَّرْفَةُ نابُ الدَّهْر لأنَّهــا تفْتَرّ عن فَصْل الزمانين، ويشكل مع الخَرَاتين مثلثا له زاوية قائمة وإحدى ساقيــه أطولُ من الأخرى وفى قاعدته قِصَر .

الثالثة عشرة العَوّاء، وهى خمسة كواكبَ نيِّرةٌ[1] على شكل لام، كان اعتبُر ابتداؤها من الشَّمال وعطفها من جهة الجنوب لكن المصطف منها أربعة والمنعطف واحد، ويقال لهـا أيضا وَرِكَا الأسد، وتشبهها العرب بكلاب تعْوِى خلف الأسد لأنها وراءه، ولذلك سميت العَوّا، وأصحاب الصور يجعلونها فى السُّنْبُلَة على صدرها.

الرابعة عشرة السِّمَاكُ، وهو السِّمَاكُ الأعزل: وهو كوكب نيِّر يميل لونه الى الزُّرْقة، وسمى سِمَاكًا لكونه قريبا من سَمْتِ الرأس، وسَمْتُ الرأس أعلى ما يكون من الفَلَك وسمَّته العربُ الأعزلَ لأنه يطلُع الى جانبه نجمٌ مضىء يسمونه السِّماكَ الرامحَ لكوكب صغير بين يديه، والأعزلُ لا شىء بين يديه ففرق بينهما، وأحدهما جنوبىّ، وهو المنزلة، وأصحاب الصُّوَر يثبتون السماكين: الأعزلَ والرامحَ فى صورة العذراء، وهى السنبلة، والعرب تجعلهما ساق الأسد، وربما عدل القمرُ فنزل بعَجُزِ الأسد، وهو أربعة كواكبَ بين يدى السِّماك الأعزل يقال لهـا عرش السِّماك، وتسمَّى أيضا الخِبَاء، والأحمال، والغُراب؛ وهذه المنزلة حدّ مابين المنازل اليمانية والمنازل الشامية، فما كان أسفل من مَطْلَعه فهو يمـانى وهو بشــق الجنوب، وما كان فوقه فهو شامى وهو بشِقّ الشَّمال.

الخامسة عشرة الغَفْر، ثلاثة كواكب خفية على خَطٍّ فيه تقويس، وسميت بذلك لخفائها مأخوذة من المِغْفَرَة التى تسترُ الذنبَ وتخفيه يوم القيامة، ومنــه المِغْفَر الذى فوق الرأس، وقيل لأنهـا زُبَانَى العقرب، وقيـل مأخوذة من الغَفَرَة وهى الشعر الذى فى طرف ذَنَب الأسد؛ وأصحاب الصور يجعلونها بين ساقَى الأسد.

(١) فى لسان العرب: كأنها كتابة ألف ... ويقال كأنها نون.

السادسة عشرة الزُّبَانَان، وهما كوكبان نَيِّران همـا عند العرب يد العقرب يترس بهما: أى يدفع عن نفسه، وأصحاب الصُّوَر يجعلونهما كِفَّتَى الميزان، وبينهما فى رأى العين قدرُ قامة الرجل .

السابعة عشرة الإِكْليـلُ، وهو ثلاثة كواكبَ مجتمعةٌ فى خفاء الغَفْرِ مصطفَّةٌ معترضة، بين كل كوكب وكوكب منها قدرُ ذراع فى رأى العين، سميت بذلك لأنها فوق جبهة العقرب كالتاج، وهى عند أصحاب الصُّوَر على عمود الميزان .

الثامنة عشرة القَلْبُ، وهو كوكب أحمرُ نَيِّرٌ مضطرب قريب من الجبهة بين كوكبين خفيين تسميهما العرب نِيَاطَى القلب أى عِلاَقتيه؛ وسَمَّتْه أصحاب الصُّوَر قلبا لوقوعه موضع القلب من صورة العقرب؛ والقلوب أربعة هذا أحدها، والثانى قلب السمكة، والثالث قلب الثور، والرابع قلب الأسد . وحيثُ ذكر القلب على الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب العقرب هذا .

التاسعة عشرة الشَّوْلَةُ، وهى كواكبُ متقاطرة على تقويس فى بُرْج العقرب أشبه شىء بذَنَب العقرب اذا شالتـه، ولذلك سميت الشَّوْلَةَ، وفى الشولة كوكبان خفيَّان ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإِبْرَةَ والحُمَةَ، وخلفهما نجم صـغير لا يزايلهما يقال له التابع . وقال قوم : إنمـا ينزل القمر الشَّوْلة على المحاذاة ولا يحط إليها لأنها منحدرة عن طريقه، وربما نزل بالسفار فيما بين القلب والشَّوله، وهى ستة كواكبَ بيض منعطفة .

العشرون النَّعَائم، وكواكبها ثمـانية، منها أربعة يمـانية نَيِّرة تشكل مربَّعا فيـه أطراف تسمى الواردة وهى المنزلة، وسميت واردة: لأنها لمـا كانت قريبة من المَجَرَّة شبهت بنَعَام وردت نهرا، والأربعة الأخرى تسمَّى النعائم الصادرة لأنها لمـا كانت

بعيدة من المجرّة شبهت بنَعَام وردت ثم صدرت ، والواردة التى هى المنزلة عند أصحاب الصُّوَر واقعة فى يد الرامى الذى يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البَـلْدَةُ ، وهى فُرْجَةٌ فى السماء مستديرة شبه الرُّقعة ليس فيها كواكبُ ، والبـلدة فى كلام العرب الفُرْجَةُ من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان : البَـلْدة لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستةُ كواكبَ مستديرةٌ صغار خفية تشبه القوسَ ، وبعضهم يسميها الأُدْحِيَّ لأن بالقرب منها كواكب تسميها العرب البَيْضَ لقربها من النعائم ، وربمـا عدل القمر فنزل بالأُدْحِيّ ، وأصحـاب الصور يجعلون البلدة على جبهة الرامى .

الثانية والعشرون سعدُ الذَّابحُ ، وهو كوكبان صغيران بينهما فى رَأْيِ العين أقلُّ من قدر ذراع ، أحدهمـا مرتفع فى ناحية الشَّمال والآخر منخفض فى ناحية الجَنُوب سمى سـعدا لانهمال الأمطار فى أيام طلوعه ، وسمى ذَابِحًا لقوة البرد فى إبَّانِ طلوعه فتموت المواشى ببرده ، وقيل سمى ذابحا لأن بالقرب من نجمه الشَّمالىِّ نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شَاتُه التى تُذْبح ، ولذلك جعـلوا الذابحَ صفةً لسعد بخلاف سائر السعود ، فإنها يضاف إليها ما بعـدها كما قاله الزجاج فى مقدّمة أدب الكاتب ، وأصحاب الصُّور يثبتون هذا السعد فى موضع قَرْنَى الجَدْى من الصورة .

الثالثة والعشرون سعد بُلَعَ ، وهو نجمان أيضا يشبهان سعدا الذابحَ فى المسافة التى بينهما لكن أحد الكوكبين خَفِىّ وهو الذى بَلِعه ، وهذا السعد عند أصحاب الصُّوَر على كَعْب ساكب المـاء القريب من صورة الدَّلْوِ ، وسمى بُلَـعَ لأنه فى أيام طلوعه تغيض الأنهار وتزيد الآبار ، فكأن الأرض ٱبتلعت ماءها ، وقيل لأنه يطلُع فى الوقت الذى قيل فيه "يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى" زمن نوح (عليه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السُّعُود، وعدّته كوكبان أيضا على ما تقدّم فى السعدين من البُعْد، وقيل هو ثلاثة كواكبَ أحدها نَيِّر والآخران دونَه فى النور، وأصحاب الصُّوَر يثبتونه على صدر ساكب الماء القريب من صورة الدَّلْو، وربما قصر القمر فنزل سعدَ نَاشِرَة، وهو أسفل من سعد السعود، ويسمِّى أصحاب الصور نجميه بالمُجَبَّيْن، وهما فى مؤخر الجَدْى، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأخْبِيَة، والناس مختلفون فيه؛ فمنهم من يقول : إنه كوكبٌ واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رِجْلَ بَطَّةٍ والكوكب هو السعد والثلاثة الخباء، ومنهم من يجعل الكوكب الذى فى وسط الثلاثة عمودَ الخباء، وهو عند أصحاب الصُّوَر على الكَتِف الشرقية من جسد ساكب الماء، وسمى سعدَ الأخبية لخروج المخبَّآت فيه من الثمار والحشرات، وكانت العرب تتبرك به لاخضرار العود فيه .

السادسة والعشرون الفَرْغ المقدم، ويقال فيه مقدّم الدَّلْو والفرغ الأوّل والفرغ الأعلى وعَرْقوةَ الدَّلْو العُلْيا، وهو كوكبان نَيِّران بينهما فى رأى العين نحوٌ من خمسة أذرع؛ وأصحاب الصُّوَر يزعمون أن الشَّمالىَّ منهما على متن الفرس .

السابعة والعشرون الفَرْغ المؤخَّر، ويقال له مؤخر الدَّلْو السفلى، وهو كوكبان يشبهان ما تقدّم، أحدهما شَمالىٌّ والآخر جنوبىٌّ، وهما عند أصحاب الصُّوَر على مؤخر الفرس، وربما قصر القمر فنزل فى الكَرَب الذى فى وسط العَرَاقِى، وربما نزل ببَلْدة الثعلب .

الثامنة والعشرون الحُوتُ، وهو آخر المنازل، ويقال لها السَّمَكة، وتسمى الرِّشَاء أيضا، وهى ثمانية عشر كوكبا تشكل شكلَ سمكة رأسها فى جهة الشَّمال

وذَنَبُها فى جهة الجنوب ، وفى الشرقىّ منها كوكب نَيّر يسمى سُرَّة الحُوت ، وبطنَ الحوت ، وبطنَ السمكة ، وقلبَ السمكة ، وربما عدل القمر فنزل بالسمكة الصُّغرى ، وهى من السمكة الكبرى فى الشّمال مثل صورتها إلا أنها أعرضُ منهـا وأقصرُ ؛ وأصحاب الصُّوَر يجعلون الكوكب النَّيّرَ من الحوت فى حدّ المرأة المسلسلة ، ورأسها هو الشّمالى من الفَرْغ المؤخَّر .

الصنف الثالث

من النجوم الثوابت ما ليس داخلا فى شىء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرتْه العرب فى شعرها وشبهت به وضربت به الأمثال

وهى عدّة نجوم :

منها بنات نَعْش وهى سبعة أنجم على القرب من القُطْب الشّمالىّ ، منها أربعة فى صورة نَعْش وثلاثةٌ أمامه مستطيلةٌ وهى المعبّر عنها بالبنات ، وتُعرَف هذه ببنات نعش الكُبرى ، وبالقرب منها سبعةُ أنجم على شكلها .

ومنها الجَدْىُ الذى تعرف به القِبْلة ، وهو نجم صغير على القرب من القُطْب الشّمالىّ يستدلّ به على موضع القُطْب ، ويقال له جَدْى بنات نعش الصغرى .

ومنها الفَرْقَدَانِ ، وهما كوكبان متقاربان معدودان فى بنات نَعْش .

ومنها السُّهَا ، وهو كوكب خفىّ فى بنات نَعْش الكبرى ؛ والناس يَمْتَحِنُون به أبصارَهم لخفائه .

ومنها السِّماك الرامحُ ، وهو غير الأعْزَلِ المقدّم ذكره فى منازل القمر ، سمى رامحا لكوكب يقْدُمه ، تقول العرب : هو رُمْحُه بخلاف الأعزل فإنه الذى لا رُمْح معه .

ومنها النَّسْرُ الواقع، وهو ثلاثة أنجم كأنها أثافى، سمى الواقعَ لأنهم يجعلون آثنين منه جَنَاحيه ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائر وقع .

ومنها النَّسْر الطائر، سمى بذلك لأنهم يجعلون آثنين منه جَنَاحيه ويقولون : قد بسطهما كأنه طائر، والعامّة تسميه الميزانَ .

ومنها الكَفُّ الخَضِيب، وهو كف الثُّرَيَّا المبسوطةُ، ولها كف أخرى يقال لها الجَذْماء، وهى أسفل من الشَّرَطين .

ومنها العَيُّوقُ، وهو فى طَرَف المَجَرّة الأيمن، وعلى أثره ثلاثةُ كواكبَ بَيِّنَةٌ يقال لها الأقلام، وهى من مواقع العَيُّوق .

ومنها سُهَيْلٌ، وهو كوكب أحمرُ منفرد عن الكواكب ولقربه من الأُفُقِ كأنه أبدًا يضطرب ، وهو من الكواكب اليمانية ، قال آبن قُتَيْبَةَ : ومطْلَعه عن يسار مُسْتَقْبِل قبلة العراق . قال : وهو يُرى فى جميع أرض العرب ، ولا يرى فى شىء من بلاد أَرْمِينِيَةَ .

ومنها الشِّعْرَيَانِ : العَبُورُ، وكانت تعبد فى الجاهلية لقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ وهى فى الجوزاء ، والشِّعْرى الغُمَيْصَاء، ومع كل واحدة منهما كوكب يقال له المِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشرةَ، وسعد المَلِكِ، وسعد البِهَامِ ، وسعد الهُمَامِ، وسعد البارع، وسعد مَطَر ، وكل سعد منها كوكبان ، بين كل كوكبين فى رَأْىِ العين قَدْرُ ذراع فهى متناسقة ، وهذه السعود الستة غير السعود الأربعة المتقدّمة فى منازل القمر، تكون جملةُ السعود عشرةً .

فإذا عَرَفَ الكاتب أحوالَ الأفلاكِ والكواكب وأسماءَها وصفاتها ، عرف كيف يصفها عند آحتياجه الى وصفها، وكيف يعبّر عنها عند جَرَيان ذكرها

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلْتَ تَبقى وتَرْقى للعُـلَا أبدًا * ما دام للسبعةِ الأفلاكِ أحكامُ
مَهْرٌ ومَاهٌ وَكِيوَانٌ وتِيرُ معـا * وهِرْمِسٌ وأناهيــدٌ وبَهْــرَام

مشيرا بذلك الى ذكر الأفلاك السبعة، وما لهـا من الكواكب السبعة السيارة بالأسماء الفارسية المقدّم ذكرُها .

وكما قال الطُّغْرَائى فى لامية العجم :

وإن عَلَانِىَ مَنْ دُونِى فلا عَجَبٌ * لِى أُسْوَةٌ بانحطاطِ الشمس عن زُحَلِ

مشيرا الى كون فَلَك زُحَلَ أعلى من فَلَك الشمس لمـا تقدّم أنها فى الرابع، وهو فى السابــع .

وكما قال بعضهم يَصف خُضْرة السماء وما لهـا من الكواكب :

كأنّ سَمَاءَنا والشُّهْبُ فيهـا * وأَصْغَرُهَا لأكبرها مُزَاحِم
بِسَاطُ زُمُرُّدٍ نُثِرتْ عليـه * دنانيرٌ يخالِطُهـا دَرَاهِــمْ

وكما قال ذو الرُّمّة وقد ذكر الثريّا :

يَدِفُّ على آثارهـا دَبَرَانُهـا * فلا هو مَسْبُوقٌ ولَا هو يَلْحَقُ
بعشرين من صُغْرى النجومِ كأنها * وإيّاه فى الخَضْراء لو كان يَنْطِقُ
قِلَاصٌ حَدَاها راكبٌ متعمّمٌ * إلى الماء من جَوْزِ التَّنُوفة مُطْلَقُ

مشيرا إلى ما تقدّم من خِطْبَةِ الدَّبَرَانِ الثريّا وهَرَبِها منه و إمهارِه إياها بالقلائص يهى النجوم التى حولها .

وكما قال أبو الفرَج الببَّغا ذاكرا حال مختفٍ يُرْجى له الظهورُ :

سَتَخْلُصُ من هــذا السِّرارِ وأيّما * هلالٌ توارى فى السِّرار فما خلص

مشيرا بذلك إلى حالة توارِى القمر حالة السِّرار ثم خلوصه عند إهلاله .

النـــوع التاســع

ممـا يحتاج الكاتبُ إلى وصفه العُلْويّات ممـا بين السماء والأرض، وهى على أصـــناف

الصـــنف الأوّل

الـــريح

وهى مؤنثة، يقال هبت الريح تَهُبُّ هبوبا، وتجمع على رياح، وقد دل الاستقراء على أنها حيث وردتْ فى القرءان الكريم فى مَعْرِض العذاب، كانت بلفظ الإفراد وحيث وردت فى معرض الرحمة كانت بلفظ الجمع. قال تعالى فى جانب العذاب: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ﴾ وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وقال فى جانب الرحمة: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ وقال جلت قدرته: ﴿اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ الى غير ذلك من الآيات. ومن ثَمَّ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آشتدّت الريح قال: «اللّهمّ اجْعَلْها رِيَاحًا ولا تجْعَلْها رِيحًا» وقد ورد القرءان الكريم بأن الله تعالى هو الذى يرسلها، قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾

وذهبت الفلاسفة إلى أنها تَحْدُثُ عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دُخَان يرتفع من الارض فيضربه البرد فى آرتفـاعه فيتنكّس ويتحامل على الهواء ويحرّكه الهواء بشدّة فيحصل الريح.

وأصول الرياح أربعة:

الاولى "الصَّبَا" وهى التى تأتى من المَشْرِق، وتسمّى القَبُول أيضا، لأنها فى مقابلة مُسْتَقْبِل المشرق.

قال فى صناعة الكُتّاب : وأهل مِصْر يسمونها الشرقية، لأنها تأتى من مَشْرِق الشمس؛ وهى التى نُصِر بها النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : "نُصِرْتُ بالصَّبَا" .

الثانية "الدَّبُور" : ومَهَبُّها من مغرب الشمس إلى حدّ القطب الجنوبى"، وسميت الدَّبُورَ لأن مستقبِل المشرق يستدبرها ، وتسمَّى الغربيةَ لهبوبها من جهة المغرب؛ وبها هلَكَتْ عاد كما أخبر عليه السلام بقوله : "وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور" .

الثالثة "الشَّمَالُ" : ويقال فيها شَمَال وشَمْأَلٌ وشَامَلٌ وشَأْمَلٌ مهموزا وغير مهموز؛ ومَهَبُّها من حدّ القطب الشمالىّ إلى مغرب الشمس، وسميت شَمَالًا لأنها على شِمَال من آستقبل المشرق .

قال فى صناعة الكُتّاب : وتسمى البَحرية لأنها يُسَار بها فى البحر على كل حال .

الرابعة "الجَنُوبية" : ومَهَبُّها من حدّ القطب الأسفل إلى مطلع الشمس وتسمَّى بالديار المصرية : القِبْلِيَّةَ لأنها تأتى من القبلة فيها، وتسمَّى بها أيضا المَرِيسيَّة لأن فى الجهة القبلية بلاد المَرِيس، وهم صِرب من السُّودان؛ وهى أردأ الرياح عند اهل مصرَ . وقال النحاس : وكل ريح جاءت من مَهَبَّىْ ريحين تسمَّى النَّكْباء، سميت بذلك لأنها نَكَبَتْ عن مَهَابِّ هذه الرياح وعَدَلت عنها .

قال فى "فقه اللغة" : وإذا جاءت بنَفَس ضعيف ورَوْح فهى النسيم؛ وإن آبتدأت بشِدّة قيل لها : النابجة؛ فإن حركت الأغصانَ تحريكا شديدا وقلعت الأشجار قيل : زَعْزَع ؛ فإن جاءت بالحَصْباء قيل : حاصبة؛ فإذا هَبَّتْ من الأرض كالعمود نحو السماء قيل لها : إِعْصار . وقد ورد بها القرءان فى قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ والعامّة تسميها : الزَّوْبَعَة، ويزعمون أن الشيطان هو

الذى يثيرها، ومن ثمّ سماها الترك نعيم بك يعنى الشيطان؛ فإذا كانت باردة، فهى : الصَّرْصَر . وقد وقع ذكرها فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ فإذا لم تُلْقِح شجرا ولم تحمل مَطَرا، فهى العَقِيم . وقد قال تعالى فى قصة عاد : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ كانت لا مطر فيها .

الصنف الثانى

السحاب

وهو الأجرام التى تحمل المطر بين السماء والأرض يُنْشِئُها الله سبحانه وتعالى كما أخبر بقوله : ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ويسوقها إلى حيث يشاء كما ثبت فى الصحيح "أنّ رجلا سمع صوتا من سحابة : اَسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ" .

وذهب الحكماء إلى أنه بُخَار متصاعد من الأرض مرتفع من الطبقة الحارّة إلى الطبقة الباردة فيثقُل ويتكاثف وينعقِد فيصير سحابا .

قال الثعالبىّ فى "فقه اللغة" : وأوّل ما ينشأ يقال له : النَّشْء؛ فإذا آنسحب فى الهواء، قيل له : سَحَاب؛ فإذا تغيرت به السماء، قيل له : غَمَام، فإن سُمِع صوت رعده من بعيد قيل فيه : عَقْر؛ فإذا أظل، قيل : عارِضٌ .

وقد أخبر تعالى عن قوم عاد بقوله : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾؛ فإن كان بحيث إذا رُؤِى ظُنّ أنّ فيه مطرا قيل له : مُخِيلَةٌ؛ فإن كان السحاب أبيضَ قيل له : مُزْنٌ؛ فإذا هراق ما فيه قيل : جَهَامٌ، وقيل الجَهَامُ : هو الذى لا مَطَر فيه .

وقد أُولِع أهل النظم والنثر بوصفه وتشبيهه .

الصـــنف الثـالث

الرعــد

وهو صوت هائل يُسمَع من السحاب ، وقد آختلف فى حقيقتـه فروى أنه صوت مَلَكٍ يزجُرُ به السحابَ ،وقيل : غير ذلك ، والنصيرية من الشّيعة يزعمون أنه صوت أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه حيث زعموا أنّ مسكنه السحابُ ، وذهبت الفلاسفة إلى أنه دُخَان يتصاعد من الأرض ويرتفع حتّى يتصل بالسحاب ويدخُل فى تضاعيفه ويَبْرُدَ فيصيرَ ريحا فى وسط الغيم ، فيتحرّك فيه بشدّة فيحصل منه صوت الرعد ، ويقال منه : رَعَدت السماء ، فإذا زاد صوتها ، قيل : آرتجست ، فإذا زاد قيل : أرْزَمَتْ ودَوَّتْ ، فإذا آشتدّ قيل : قصَفَت وقعقَعَتْ ، فإذا بلغ النهاية قيل : جَلْجلت وهَدْهَدتْ .

الصـــنف الرابع

الـبرق

وهو ضوء يُرى من جوانب السَّحاب ، وقد آختلف فيه أيضا فروى أنّ الرعدَ صوت مَلَكٍ يزجُرُ به السحابَ وأنّ البرق ضَحِكُه ، والنصيرية من الشّيعة يزعمون أنه ضَحِكُ أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه أيضا ، والفلاسفة يقولون : إنه دُخَان يرتفع من الأرض حتّى يتصل بالسحاب كما تقدّم فى الرعد ، ثم تَقْوى حركته فيشتعل من حرارة الحركة الهواءُ والدخانُ فيصير نارا مضيئة وهو البرق ، ويقال : وَمَضَ البرق إذا لمع لَمَعَانا قويًّا ، وأومض إذا لمع لَمَعَانا خفيًّا ، فإن أطمع فى المطر ثم ظهر أن لا مطر فيه قيل : خُلَّبٌ .

الصـــنف الخامس

المطــر

وهو الماء الذى يخلقه الله تعالى فى السحاب ويسوقه إلى حيث يشاء وقد ذهب الحكماء إلى أنه بُخَـار يتصاعد من الأرض أيضا فيه أو فى حرارة الشمس أو فيهما[(١)] فيجتمع، وربما أعانت الريحُ على جمعه بأن تسوق البعض إلى البعض حتّى يتلاحق؛ فإذا آنتهى إلى الطبقة البـاردة تكاثف وصار ماء وتقاطر كالبخار الذى يتصاعد من القِدْرِ وينتهى إلى غِطاء القدر، وعند أدنى برودة ينعقد قَطَرات .

ثم للطر زمان يكثر فيـه ، وزمان يَقِلُّ فيه ؛ وقد رتب العرب ذلك على أنواء الكواكب التى هى منازل القمر، وجعلوا لكل منها نَوْءاً ينسب إليه . .

قال أبو حنيفةَ الدِّيَنَوَرِىُّ "فى كتاب الأنواء الكبير" : كانت العـرب تقول : لابد لكل نَوْءِ كوكبٍ من أن يكون فيـه مطر، أو ريح، أو غيم، أو حر، أو برد . ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه ؛ وقد آختلف فى معنى النَّوْءِ فذهب ذاهبون إلى أنّ النَّوْءَ فى اللغــة : النُّهوضُ ،وذهب الفرّاء إلى أنه : السُّقوط والمَيَلَان، وذهب آخرون إلى أنه يطلق على النهوض والسقوط جميعـا ، على أنهم متفقون أنّ العرب كانت ترى الأمر للسقوط دون الطلوع، فمن ذهب إلى أنّ المراد بالنَّوْءِ : السقوطُ يجريه على بابه، ومن ذهب إلى أنّ المراد بالنوء : النهوضُ يقول : إنمـا سمى نوءاً طلوع الكوكب لا لسقوط الساقط ، ومنهم من يطلق النَّوْءَ على السقوط وإن كان موضوعه فى اللغة النهوض من باب التفاؤل، كما يقال للديغ : سَلِيم، ولِلْمَهْلَكَة : مفازة، على أنّ بعضهم قد ذهب إلى أنّ الكوكب ينوء بمعنى يَنْهَضُ ثم يسقط، فإذا سقط فقد مضى نَوْءُهُ ودخل نوء الكوكب الذى بعده .

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب من الأرض أيضا أو من حرارة الشمس أو منهما .

قال أبو حنيفة الدِّينَوَرِى : وهو التأويل المشهور الذى لا ينازع فيه لأنّ الكوكب إذا سقط النجم الذى بين يديه أطَلّ هو على السُّقوط، وكان أشبه حالا بحال الناهض . وقد عدّها أبو حنيفة ثمانيةً وعشرين نوءًا بعدد منازل القمر المتقدّمة الذكر، وذكر أن بعضها أجهرُ وأشهر من بعض .

الأوّل — "نوء الشَّرَطَيْنِ"، وهو ثلاث ليال، وأثره محمود عندهم .

الثانى — "نوء البُطَيْنِ"، وهو ثلاث ليال، وليس بمذكور عندهم ولا محمود.

قال ابن الأعرابى : يقال إنه ماناء البُطَين والدَّبَرَان أو أحدهما فكان له نظر، إلا كاد ذلك العام يكون جَدْبا .

الثالث — "نوء الثريّا"، وهو خمس ليال وقيل سبع، وأثره محمود عندهم مشهور.

الرابع — "نوء الدَّبَرَان"، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة، وليس بمحمود عندهم، ولم يسمع فى أشعارهم له ذكر .

الخامس — "نوء الهَقْعَة"، وهو ست ليال، ولا يذكرون نَوْءَها إلا بنوء الجوزاء التى الهقعةُ رأسها، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة .

السادس — "نوء الهَنْعَةِ"، وهو ثلاث ليال لا يكاد ينفرد عن نَوْءِ الجوزاء .

السابع — "نوء الذِّراع المقبوضة" وهى خمس ليال وقال ابن كُناسة : ثلاث ليال، وهو أوّل أنواء الأسد، وأثره محمود عندهم موصوف، وربما نسب إلى المِرْزَمِ، وهو أحد كوكبى الذراع المذكورة، وربما نسب إلى الشِّعْرى الغُمَيْصَاءِ، وهو كوكبها الآخر الذى هو أنور من المِرْزَمِ، وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراعَ المبسوطة فتجمعُهما معا فى النوء، وهما لا ينوءان معا بل ولا يطلعان معا، لكن لكثرة

صحبة إحداهمـا للأخرى فى الذكر واجتماعهما فى اسم واحد مع تجاورهما وكونهما عُضْوَىْ صورة واحدة، وهى صورة الأسد .

الثـامن — "نوء النَّثْرَة"، وهو سبع ليال، وله عندهم ذكرمشهور .

التـاسع — "نوء الطَّرْفَة"، وهو ست ليال، ولم يسمع به مفردا لغلبة الجبهة الآتية الذكر عليه .

العـاشر — "نوء الجبهة"، وهو سبع ليال، وذكره مشهور لديهم .

الحادى عشر — "نوء الزُّبْرَة"، ونوءها أربع ليال، وقلما تنفرد لغلبة الجبهة عليها أيضا .

الثـانى عشر— "نوء الصَّرْفَة"، وهو ثلاث ليال، ولا يكاد يوجد لهـا ذكر عندهم فى أشعارهم .

الثالث عشر — "نوء العوّاء"، وهو ليلة واحدة، وليس من الأنواء المشهورة.

الرابع عشر — "نوء السِّماك الأعزل"،وهو أربع ليال،وله ذكر مشهور،وكثيرا ما يذكر معه السِّماك الرامح،وليس له نوء معه ولكنهما متقاربان فى الطلوع، وحينئذ فإفراد السِّماك الرامح بالنوء خطأ .

الخامس عشر — "نوء الغَفْر"، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة، وما بينه وبين نوء الهنعة المتقدّمة الذكر من أنواء الأسد، وهى ثمانية أنواء : أوّلها الذراع، وآخرها نوء السماك، وليس له فى السماء نظير فى كثرة الأنواء .

السادس عشر "نوء الزُّبانى"، وهو ثلاث ليال .

السابع عشر "نوء الإكليل"، وهو أربع ليال .

الثامن عشر — "نوء القلب"، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .

التاسع عشر "نوء الشَّوْلَةِ"، وهو ثلاث ليال، وقلما يذكر .

العشرون "نوء النعائم"، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .

الحادى والعشرون "نوء البَلْدَة"، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .

الثانى والعشرون "نوء سعدِ الذابح"، وهو ليلة واحدة .

الثالث والعشرون "نوء سعدِ بُلَع"، وهو ليلة واحدة .

الرابع والعشرون "نوء سعد السعود"، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور.

الخامس والعشرون "نوء سعد الأخبية"، وهو ليلة واحدة .

السادس والعشرون "نوء الفَرْغ المقدّم"، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .

السابع والعشرون "نوء الفرغ المؤخر"، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .

الثامن والعشرون "نوء الحُوت"، وهو ليلة واحدة، وليس بالمذكور من حيث إنه يغلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر .

قال أبو حنيفة الدِّينَوَرِىُّ : والأيام فى هذه الأنواء تابعة لليالى لتقدّم الليل عليها، قال : وإنما جعلوا لهذه النجوم أنواءً موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مَظِنَّةَ الأمطار، لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مَطَر .

وقال ابْنُ قُتَيْبَةَ : أوّل المَطَر الوَسْمِىُّ، سمى بذلك لأنه يَسِمُ الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم .

قال الثعالبى عن أبى عمرو : إقبال الشتاء الخريف، ثم الوَسْمِىُّ، ثم الربيع، ثم الصيف[1]، ثم الحميم .

---

(١) فى فقه اللغة : الصيم .

الصنف السادس

الثلج

وهو شئ ينزل من الهواء كالقطن المندوف فيقع على الجبال وعلى سطح الأرض فتُذيب الشمسُ منه ما لاقته شدّةُ حرارتها ، ويبقى فى أماكنَ مخصوصةٍ من أعالى الجبال بالأمكنة الباردة جميعَ السنة ؛ وقد ذكر الحكماء أنه بُخَار يتصاعد من الأرض إلى الهواء كما يتصاعد المطر فيصيبه برد شديد قبل أن ينعقد قطرات فيتساقط أجزاء لطيفة ، ثم ينعقد بالأرض إذا نزل إليها ؛ ويوصف بشدّة البرد وشدّة البياض وسيأتى الكلام على ما ينقل منه من الشأم إلى ملوك الديار المصرية فى خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى .

الصنف السابع

البَرَد بفتح الراء

وهو حب يسقط من الجوّ؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخار يتصاعد من الأرض أيضا و يرتفع فى الهواء فلا تدركه البرودة حتّى يجتمع قطرات ، ثم تدركه حرارة من الجوانب فتنهزم برودتها إلى مواطنها فتنعقد؛ وحَبُّ هذا البَرَد متفاوت المقادير، منه ما هو قدر الحِمَّص فما دونه، ومنه ما هو فوق ذلك؛ ويذكر أنه يقع منه ما هو بقدر بيض الحمام والدّجاج .

قال الحكماء : ولا يتصوّر وقوعه إلا فى الخريف والربيع و يوصف بما يوصف به الثلج من شدّة البرد وشدّة البياض، ويُشَبَّهُ به أسنانُ الانسان الناصعة البياض .

الصـــــنف الثـامن

قوس قُزَح

وهو قوس يظهر فى الجو من حُمرة وخضرَة، وقد ورد النهى عن تسميته قوسَ قُزَحَ، وتسميتُه قوسُ الله، لأن قزح اسم للشيطان .

قال الحكماء : والسبب فيـه أن الهواء إذا صار رطبا بالمطر مع أدنى صـقالة صار كالمرآة، والمحاذى له إذا كان الشمس فى قفاه يرى الشمس فى الهواء كما يرى فى الشمس المرآة، ويشتبك ذلك الضوء بالبخار الرطب فيتولد منه هذا القوس .

قال الحكماء : ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حُمْرَةً بين خضرتين أو خضرةً بين حمرتين، وربما لا يكون اللون المتوسط، ويكون مرتفعا ارتفاعا قريبا من الأرض؛ فان كان قبل الزوال رُؤى ذلك القوس فى المغرب، وإن كان بعـد الزوال رؤى فى المشرق، وإن كانت الشمس فى وسط السماء، فلا يمكن أن يُرى الا قوسا صغيرا فى الشتاء إن اتفق .

وفيه تشبيهات للشعراء يأتى ذكرها فى آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالى .

الصـــــنف التـاسع

الهَـالَة

وهى الدائرة التى تكون حول القمر . قال الحكماء : والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البَصَر وبين القمر صقيل رَطْبٌ، فيُرى القمر فى جزء منه، وهو الجزء الذى لو كان فيـه مرآة لرؤى القمر فيها ، ثم الشىء الذى يُرى فى مرآة من موضع لو كانت فيـه مَرَاءٍ كثيرةٌ محيطة بالبصر، وكانتْ موضوعةً على تلك النسـبة فيُرى

الشئ فى كل واحدة من المَرائى ، فاذا تواصلت المرائى رؤى فى الكل ، فتُرى حينئذ دائرة .

ولأهل النظم والنثر فيها وصف وتشبيه .

الصنف العاشر
الحَرُّ

وسُلطانه أواخرَ فصل الربيع وأوائلَ فصل الصيف ، والسبب فيه مسامتة الشمس للرءُوس ، فتشتد ثائرةً فى الهواء وجِرْمِ الأرض ، لاسيما الحجازُ وما فى معناه .

وأهل النظم والنثر مُولَعون بوصف شدّة حره .

الصنف الحادى عشر
البَرْدُ

وسلطانه أواخرَ فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء .

وأهل النظم والنثر مُكثِرون من ذكره ووصفه ، حتى إنه ربما أفرد بعض الناس ما قيل فيه وفى وصفه بالتصنيف .

الصنف الثانى عشر
الهَبَاءُ

وهو الذى يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كَوَّةً يدخل منها الضوء ، فيكون شبه عمود ممتدّ من الكَوّة إلى حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيه أجزاء لطيفة متفاوتة تُحَسّ بالنظر دون اللمس ؛ وقد شبه الله تعالى به أعمال الكُفّار

فى القيامة فقال جل من قائل : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾؛ ومن النـاس من يزعم أن الواحدةَ من أجزائه هى المراد بالذَّرّة المذكورة فى القرءان بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ .

ولأهل النظم والنثر أيضا فيه الوصف والتشبيه .

النـــوع العــاشر

ممـا يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،

وهى على أصناف

الصـــنف الأوّل

الجبـال ، والأودية ، والقِـفار

فأما "الجبَال" فهى أوتاد الأرض ، أرسى الله تعالى بها الأرض حيث مادتْ لمّا دحاها الله تعالى على المـاء . وقد روى أنّ الكعبة كانت رابيةً حمراء طافيةً على وجه المـاء قبل أن يدحو الله الأرض، وأنّ الأرض منها دُحيتْ ، فلما مادتْ وأُرْسيت بالجبال كان أوّلُ جبل أُرْسِىَ منها جبل أبى قُبَيْس بمكة المشرَّفة ، فلذلك هو أقرب الجبال من الكعبة مكانا . وقد نقل ان قاف جبـلٌ محيط بالدنيا عنه تتفرّع جميع جبال الأرض ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصف الجبال بالعَظَمة فى القَدْر والعُلُوّ وصعوبةِ المَسْلك ، وما يجرى مجرى ذلك .

وأما "الأودية" فهى وِهَاد فى خلال الجبال جعلها الله تعالى مجارى للسيل ونبات الزرع ومدارج الطُّرق وغيرذلك . وتوصف بالاتساع وبُعْد المسافة والعُمق ، وربما وصفت بخلاف ذلك .

وأما "القفار" فهى : البرارى المتسعةُ الأرجاء الخاليةُ من الساكن . وتوصف بالسَّعَةِ وبُعْد المسافة وقلة الماء والإيحاش وصعوبة المَسْلَك، وما يجرى مجرى ذلك .

الصنف الثانى

المياه الأرضية ، وهى على ضربين

الضرب الأول

الماء الملح

ووقع فى لغة الامام الشافعى رضى الله عنه الماء المالح ؛ وهو أحد العناصر الأربعة، وسيأتى فى الكلام على الأرض فى المقالة الثانية أنه محيط بالأرض من جميع جهاتها إلا ما اقتضته الحكمة الالهية لعمارة الدنيا من كشف بعض ظاهرها الأعلى وأنه تفرعت منه بحار منبثّة فى جهات الأرض لتجرىَ السفنُ فيها بما ينفع الناس .

وقد ذكر الحكماء أن فى الماء الملح كثافةً لا توجد فى الماء العَذْب، ومن أجل ذلك لا ترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب فى الماء العذب، حتّى يقال : ان السفن التى تَغْرَقُ فى البحر المِلْح لا تبلُغُ أرضَه بخلاف التى تَغْرَقُ فى الأنهار فانها تنزل إلى قعورها . وشاهد ذلك أنك اذا طرحتَ فى الماء العذب بيضةَ دَجاجة ونحوها غرِقت فيه ، فاذا أذبتَ فى ذلك الماء ملحا بحيثُ يغلب على الماء وطرحت فيه البيضة علمت . وقد اختلف فى الماء المِلْح هل هو كذلك من أصل الخلقة أو عرضت له الملوحة بسبب ما لاقاه من سَبَخ الأرض على مذهبين . ومن خصائص البحر الملح أنه فى غاية الصَّفاء حتّى إنه يُرى ما فى قعره على القرب من شَطِّه .
ويوصف البحرُ بالسَّعة والطول والعرض وكثرة العجائب حتّى يقال فى المثل : "حَدِّثْ عَنِ الْبَحْرِ ولا حَرَجَ" .

الضـــــرب الثـانى

المـاء العـــذب

قالت الحكماء : والسبب فيه أن الأبخرة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل فى الجبال وتحتبس فيها ولاتزال تتكامل و يتحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها. وهو على ثلاثة أنمـاط :

النَّمط الأوّل — "ماء الأنهـار"، وهى ما بين صغار وكبار وقريبة المَدى وبعيدته؛ وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار، وهى : سَيْحون، وجَيْحون، والدِّجلة ، والفُرات، ونيل مِصْرَ ؛ والنيل أفضـل الخمسة وأعذبها وأخفُّها ماء على ماسيأتى ذكره فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى . وفى الأنهار الكبار تسير السفن .

النمط الثانى — " العيون "، وهى مياه تَنْبُعُ من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح فى قُنِيٍّ قد حُفِرت لها، وهى منبثة فى كثير من الأقطار .

النمط الثالث — " البِئار " ، وهى حفائرُ تحفر حتّى ينبعُ المـاء من أسفلها و يرتفع فيها آرتفاعا لايبلغ أعلاها . وقد آختلف فى المـاء الذى نبع من الأرض هل هو الذى نزل من السماء أو غيره، فذهب ذاهبون إلى أنه هو الذى نزل من السماء محتجين لذلك بقوله تعـالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ الآية . وذهب آخرون إلى أن الذى نبع من الأرض غير الذى نزل من السماء محتجين بقوله تعالى : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَـاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ و يوصف المـاء للآستحسان بالعذوبة ، والصـفاء، والرقة، والخِفَّة، وشدّة البرد؛ وفى معناه الشَّبِم . و يشَـبَّه فى شدّة البرد بالزُّلال وهو ما يتربَّى داخل الثَّلج فى تجاويف توجد فيه فيكون من أشدّ المـاء بَرْدا.

الصنف الثالث

النبات ، وفيه ثلاثة مقاصد

المقصد الأوّل

فى أصل النبات

قد ذكر المسعودىّ فى مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لمّا هبط إلى الأرض خرج من الجنة ومعه ثلاثون قضيبا مودعةً أصناف الثمر، منها عشرة لها قِشْر وهى الجَوْز، واللَّوز، والجِلَّوْز، والفُسْتُق، والبَلُّوط، والشاه بَلُّوط، والصَّنَوْبر، والنَّارَنْج، والرُّمَّان، والخَشْخَاش؛ ومنها عشرة لثمرها نَوًى وهى الزَّيتُون، والرُّطَب، والمِشْمِش، والخَوْخُ، والإجَّاص، والغُبَيراء، والنَّبِق، والعُنَّاب، والمُخَيْطى(١)، والزُّعْرُور؛ ومنها عشرة ليس لها قِشْر ولا نَوًى وهى التُّفَّاح، والسَّفَرْجل، والكُمَّثْرى، والعِنَب، والتِّين، والأُتْرُجّ، والخُرنُوب، والتُّوت، والقِثَّاء، والبِطِّيخ .

المقصد الثانى

فيما تختص به أرض دونَ أرض من أنواع النبات

إعلم أن النبات منه ما يوجد فى كثير من الآفاق، ومنه ما يختصّ ببعض الأماكن دُونَ بعض؛ وقد حكى أبو بكر بن وحشيّة فى كتاب الفلاحة النبطيّة : أن ببلاد سِجِلْماسة من بَجنو بى بلاد المغرب الأقصى شجرةً ترتفع نصف قامة أو أرجح ، وورقها كورق الغار ، إذا عُمِل منها إكليل ولبسه الرجلُ على رأسه ومشى أو عدا أو عَمِل عملًا لم يَنَم مادام ذلك الإكليل على رأسه، ولا يناله من ضرر السَّهر وضَعْف القوّة ما ينال من سَهر وعَمل .

(١) كذا فى المفردات لابن البيطار أيضا ولكن فى القاموس : وكثمامة وجميز ، فعلم به لغة ثالثة .

وفى بلاد إفْرِنجة شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصفَ ساعة مات، وإن مسّها ماسٌّ أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هَزَّها مات .

قلت : وممـا يختصُّ بأرض دونَ أرض البَلَسانُ وهو : شجرة لطيفة على نحو ذراع تتفرّع فروعا، لا تنبُت فى سائر الدنيا إلا فى الديار المِصْرية بموضع مخصوص من بَلْدة يقال لها المَطَرية، على القُرْب من مدينة عَيْن شمس، وتسقى من بئرٍ هنالك؛ ويقال : إنه اغتسل فيها المسيحُ عليـه السلام، ولذلك النصارى يعظمون البَلَسانَ ويتبرَّكُون به .

المقصـــد الثـالث

فى ذكر أصناف النبات التى أُولِـع الكُتَّاب والشعراءُ بوصفها وتشبيهها ، وهى على أضرب

الضـــرب الأوّل

ماله سـاقٌ

وهو الشجَر، وأكثر ما أُولِـع أهلُ النظم والنثر بثمـارها أو نَوْرها فى الوصف والتشبيه نثرا ونظما ؛ كاللَّوْز، والفُسْتُق، والجِلَّوز وهو البُنْـدق ؛ والشاه بَلُّوط وهو القَصْطَل، والصَّنَوْبر، والرُّمان، والجُلَّنار ، والإجَّاص، والقَرَاصـيا ، والزُّعْرور والخَوْخ ، والمِشْمِش ، والعُنَّاب ، والنَّبِق ، والعِنَب ، والتِّينُ، والتُّوت ، والتُّفَّاح ، والسَّفَرْجَل، والكُمَّثْرى ، واللُّفَّاح ، والخَرُّوب ، والأُتْرُجُّ ، والنارَنْج ، واللَّيْمُون ، والطَّلْع، والبَـلَح ، والبُسْر، والتمـر، والرَّانَج وهو جوز الهنـد ؛ والتُّجّار يسـمُّونه النارَجِيل . وربمـا وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر، كالنخل والكرم وغيرهـا .

الضـــرب الثـانى

ما ليس له ساق

وقد أُولِعوا بالوصف والتشبيه منه؛ فمن ذلك الزرع: من البُرّ والشعير ونحوهما ويتبعُ ذلك نَوْر الباقِلاء، وكذلك الخَشْخاش، والكَتّان، والبِطِّيخ الهنــدىّ وهو الأخضر، والخُراسانى وهو العَبْدلى؛ نسبة إلى عبد الله بن طاهر، فانه أوّل من نقله من خُراسان إلى مصر، والبِطِّيخ الصينى وهو الأصفر؛ والرسنيتو وهو المعروف باللُّفَّاح، والقِثَّاء، والخيار، والباذنجان؛ والسَّلْجم وهو اللِّفْت، والجَزَر، والثُّوم، والبَصَل، والكُرّاث، والرِّيباس، والهِلْيَوْن، والنَّعناع، وغير ذلك.

الضـــرب الثـالث

الفواكه المشمومة

والذى أولِـع بوصفه وتشبيهه منه الوردُ على ٱختلاف ألوانه: من أحمرَ، وأبيضَ، وأصفرَ، وأزرقَ، وأسودَ؛ والنِّسْرِينُ، والبانُ، والخلاف، والنَّيْلوفر، والبَنَفْسج، والنَّرجس، والياسَمين، والآس، والزَّعْفران، والرَّيحان.

الضـــرب الرابع

الأزهـار

والذى وقع الوَلُوع بوصـفه وتشبيهه من ذلك الخِـيرِىّ وهو المنثور من أصفرَ أو أزرق، والسَّوْسَن؛ والآذَرْيون وهو ورد أصفر له ريح؛ والخُزَم وهو الخُزامى، والشَّقيق. ويسمَّى: الشقَاق[1]، ويقال له: شَقائقُ النُّعمان، لأن النُّعمان بن المنذر حمى ظهر الكوفة وبه هـذا النبات فعُرِف به، والبَهار وهو نَوْر أحمـر والأُقْحُوان، وغير ذلك.

(١) لعله والشقيقة، ففى اللسان: أن الشقائق لا واحد له أو واحدته شقيقة، وعلى لذلك فأنظره.

الضـــرب الخـامس

الرياض

وهى الأماكن المشتملة على الأشجار، والأزهار، والمياه الجارية ونحو ذلك .

وقد اتفق جَوّابُو الأرض على أن منترهات[1] الأرض أربعةُ مواضعَ وهى : سُغْد سَمَرْقَنْدَ، وشِعْب بَوّانَ، ونهر الأُبُلَّة، وغُوطة دِمَشْقَ .

وقد أكثر الشعراء فى وصف الرياض ووَلِع الكُتّاب بمثل ذلك .

الطرف الثالث من الباب الأوّل من المقالة الأولى

فى صنعة الكلام، ومعرفة كيفية إنشائه، ونظمه، وتأليفه، وفيه مقصدان

المقصـــد الأوّل

فى الأصول التى ينبنى الكلام عليها وهى سبعة أصول

الأصـــل الأوّل .

المعرفة بالمعانى ، والنظر فيه من وجهين

الوجه الأوّل

فى شرف المعـانى، وفضـــلها

إعلم أن المَعانِىَ من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثِّياب؛ فالألفاظ تابعة، والمعانى متبوعة؛ وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعانى؛ بل المعانى أرواح الألفاظ وغايتها التى لأجلها وُضِعت، وعليها بُنِيتْ؛ فاْحتياج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشدّ من اْحتياجه إلى تحسين اللفظ، لأنه إذا كان المعنى صوابا واللفظ منحطًّا ساقطا

---

(١) كذا وقع بالأصـــل ولم نجد فى كتب اللغة التى بأيدينا « انتزه » أو « منتزها » والصـــواب « متنزّهات » بتقديم التاء على النون .

عن أُسْلُوب الفَصاحة كان الكلام كالإنسان المشوّه الصورةِ مع وجود الرُّوح فيه ، وإذا كان المعنى خطأ كان الكلام بمنزلة الإنسان الميِّت الذى لا رُوحَ فيه ، ولو كان على أحسن الصُّور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" : ومما رأيته من المدّعين لهذا الفن الذين حَصّلوا منه على القُشُور ، وقَصَروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغَثَّة ، التى لا حاصلَ وراءها ، أنهم إذا أُنْكِرَتْ هذه الحالةُ عليهم ، وقيل لهم : إن الكلام المسجوعَ ليس عبارةً عن تواطُؤ الفِقَر على حرف واحد فقط ، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثَرَ الناس أن يأتُوا به من غير كُلْفة ، وإنما هو أمر وراء هذا ، وله شروط متعدّدة ، فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوّهم عن معرفته ، وإذا أُنْكِر عليهم الاقتصارُ على الألفاظ المسجوعة ، وهُدُوا إلى طريق المعانى ، يقولون : لنا أُسْوة بالعرب الذين هم أربابُ الفصاحة ، فإنهم إنما ٱعتَنَوْا بالألفاظ ، ولم يعتَنوا بالمعانى ٱعتناءهم بالألفاظ . فلم يكفِهم جهلُهم فيما ٱرتكبوه حتّى ٱدّعَوُا الأُسْوة بالعرب فيه فصارت جَهالتُهم جَهَالتين . قال : ولم يعلموا أن العرب ، وإن كانت تعتنى بالألفاظ فتُصْلِحها وتهذِّبها فإن المعانى أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قَدْرا فى نُفُوسها .

ولما كانت الألفاظ عُنوانَ المعانى وطريقَها إلى إظهار أغراضها أصلَحُوها ، وزيَّنُوها وبالغوا فى تحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها فى النفس ، وأذهب بها فى الدَّلالة على القصد . ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا لَذَّ لسامعه فحفظه ، وإذا لم يكن مسجوعا لم يَأْنَس به أُنْسَه فى حالة السجع ؛ فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسَّنوها ورقَّقُوا حواشيَها وصقَلُوا أطرافها ، فلا تظُنَّ أن العناية إذ ذاك إنما هى بالألفاظ فقط ، بل هى خدمة منهم للمعانى ، فصار ذلك كإبراز صورة الحسْناء

فى الحُلَل الموَشَّاة والأثواب المحبَّرة ؛ فإنا قد نجد من المعانى الفاخرة ما شوّه من حسنه بَذَاذة لفظه وسوءُ العبارة عنه .

قال أبو هلال العسكرى رحمه الله : ومَنْ عرف ترتيب المعانى وآستعمل الألفاظ على وجوهها بلُغة من اللُّغات ثم آنتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيهـا من صَنْعة الكلام ما تهيا له فى الأُولى . ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب آستخرج أمثلةَ الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسىّ ، وحوّلها إلى اللسان العربىّ . فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من تَكَمَّل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال .

قال فى "المثل السائر" : وآعلم أن المعانى الخطّابية قد حُصِرت أصولُها ، وأوّل من تكلم فى ذلك حكماء اليونان ؛ غير أن الحصر كلىّ لا جزئىّ ، ومُحَـال أن تُحصَر جزئيات المعانى وما يتفرّع عليها من التفريعات التى لا نهايةَ لهـا ، لا جَرَمَ أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحبُ هذا العلم ، ولا يفتقر إليه ؛ فإن البدوىّ البادىَ راعىَ الإبل ما كان يمرّ شىء من ذلك بفهمه ، ولا يخطُر بباله ، ومع هذا ، فإنه كان يأتى بالسِّحر الحلال إن قال شعرا أو تكلم نثرا .

قال : ولقد فاوَضَنى بعضُ المتفلسفين فى هذا ، وآنساق الكلام إلى شىء ذكره لأبى علىّ بن سينا فى الخطّابة والشِّعر ، وذكر ضَرْبا من ضُروب الشعر اليونانىّ يقال له اللوغاذيا ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبى علىّ ووقفنى على ماذكره ، فلما وقفت عليه آستجهلته ؛ فإنه طوّل فيه وعرّض كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل هذا الذى ذكره لغو لا يسـتفيد به صاحب الكلام العربىّ شيئا ، ثم مع هذا جميعه فإن معوَّل القوم فيما يذكر من الكلام الخطّابىّ أنه يُورَد على مقدّمتين ونتيجة ؛ وهذا مما لم يخطُر لأبى علىّ بن سينا ببال فيما صاغه من شـعر او كلام مسجوع عمله وعنـد إفاضته

فى صَوْغ مصاغه لم تخطُر المقدمتان والنتيجة له ببال؛ ولو أنه فكّر أوّلا فى المقدمتين والنتيجة ، ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك ، لما أتى بشىء يُنْتفع به ، ولطال الخَطْب عليـــه .

قال : بل إن اليونان أنفسَهم لما نظموا مانظموه من أشعارهم، لم ينظموه فى وقت نظمه وعنـدهم فكرة فى مقدمتين ولا نتيجة. وإنما هذه أوضاع توضَع وتطول بها مصنَّفات كتبهم فى الخَطابة والشعر، وهى كما يقال :

قَماقِعُ لَيْس لهـا طائِلٌ * كأنَّها شِعْرُ الأَبِيوَرْدِى

الوجــــه الثـانى

فى تحقيق المعانى، ومعرفة صوابها من خَطَئها، وحُسْنها من قبحها .

وقد قسم صاحب الصناعتين المعانى على خمسة أصناف

الصــــنف الأوّل

ما كان من المعانى مستقيما حسنا، كقولك رأيت زيدا

وهو أعلى الأنواع الخمسة وأشرفها

قال فى "الصناعتيـــن" : والمعنى الصحيح الثابت ينادى على نفسه بالصحة، ولا يحوج إلى التكلُّف لصحته حتَّى يوجد المعنى فيه خطيبا .

فأما المعنى المســتقيم الجَزْل من النظم ؛ فمن الوعظ قول النَّمِر بن تَوْلَب يذم طول الحياة :

يَوَدُّ الفتى طُولَ السَّلامةِ والغِنى * فكيف ترى طُولَ السلامة يَفْعَلُ؟
يَكادُ الفَتى بَعْدَ آعْتِـدالٍ وصِحَّةٍ * يَنُـوء إذا رام القِيـامَ ويُحْمَـل

وقول أبى العتاهِيَة فى الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وكانتْ فى حَياتِكَ لِى عِظَاتٌ * وأنتَ اليومَ أوْعظُ منك حَيًّا !

وفى وصف الأيام قول أبى تمّـام :

على أنهـا الأيامُ قد صِرْنَ كُلُّها * عجائبَ حتّى ليس فيهـا عجائبُ

ومن المدح قول أُمَيّة بنِ أبى الصَّلْت :

عَطَاؤُكَ زيْنٌ لامرِئٍ إن حَبَوْتَه * بنَيْـلٍ وما كُلُّ العَطَـاءِ يَزِينُ

وليس بشَيْنٍ لامْرِئٍ بَذْلُ وَجْهِه * إليـكَ كما بعضُ السُّؤال يَشِينُ

وقول أبى تمّـام :

يَسْتَعْذِبُونَ مَنَايَاهُمْ كأنَّهُمُ * لا يَيْئَسُونَ من الدُّنْيا إذا قُتِلوا

وقول الآخر :

هم الأُلى وهَبُوا للمَجْدِ أنْفُسَهُم * فمـا يُبالُون ما نالُوا إذا حُمِدُوا

ومن الفخر قول مَعْن بن أوْس .

لَعَمْرُك ما أهْدَيْتُ كَفِّى لِرِيبـةٍ * ولا حَمَلَتْنِى نحوَ فاحِشـةٍ رِجْلِى !

ولا قادَنِى سَمْعِى ولا بَصَرِى لها * ولا دَلَّنِى رأيِى عَلَيْهـا ولا عَقْلِى !

وأعْـلَمُ أنّى لم تُصِبْنِى مُصيبـةٌ * من الدَّهْرِ إلا قد أصابَتْ فَتًى قبْلِى !

ولَسْتُ بمـاشٍ ما حَيِيتُ لمُنْكَرٍ * من الأمرِ لا يَمْشِى إلى مِثْلِه مِثْلِى !

ولا مُؤْثِرٍ نَفْسِى على ذِى قَرَابَةٍ * وأُوثِرُ ضَيْفِى ما أقام ، على أهْلِى !

وقول الآخر :

ولَسْتُ بنظّارٍ إلى جانِبِ الغِنى * إذا كانَت العَلْياءُ فى جانِبِ الفَقْرِ

وقول الشنفرى :

أطيلُ مِطَالَ الجُوعِ حتَّى أُمِيتَه * وأَضْرِبُ عنه القَلْبَ صَفْحا فيَذْهَلُ

ولولا اجتنابُ العارِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ * يُعاشُ بِهِ إلا لَدىَّ ومَأْكَلُ

ومن الغزل قول جرير :

إن العُيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ * قَتَلْنَنا ثم لَمْ يُحيِينَ قَتلانَا

يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتَّى لا حَرَاكَ بِهِ * وهُنَّ أضْعفُ خَلْقِ اللهِ أرْكانَا

وقول النظام :

تَوَهَّمَه طَرْفِى فآلَمَ خَدَّه * فصار مَكانَ الوهْم من نَظَرِى أَثَرُ

وصافَحَهُ قَلْبِي فآلَمَ كَفَّه * فَمِنْ صَفْحِ قَلْبِي في أنامِله حَفَرُ.

ومَرَّ بِفِكْرِى خاطِرًا فجَرَحْتُه * ولم أرَ خَلْقا قَطُّ يَجْرَحُه الفِكَرُ

ومن التشبيب قول القائل :

ومِنْ عَجَبٍ أنِّى أَحِنُّ إليهِمُ * وأسألُ عَنْهُمْ مَنْ أرى وهُمُ مَعِى

وتَطْلُبُهم عَيْنِي وهُمْ في سَوَادِها * ويَشْتاقُهُمْ قلبِي وهُمْ بينَ أضْلُعِى

وقول الآخر:

إن لم أزُرْ رَبْعَكُمْ سَعْيا على حَدَقِى * فإنَّ وُدِّىَ مَنْسوبٌ الى المَلَقِ

تَبَّتْ يَدِى إن ثَنَتْنِي عن زِيَارَتِكُمْ * بِيضُ الصِّفاحِ ولو سُدَّتْ بها طُرُقِى

ومن الحكمة قول المتنبي :

والظُّلم من شِيَمِ النُّفُوس فإن تَجِدْ * ذا عِفَّةٍ فلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

وقول الآخر : -

إذا أنت لم تَشْرَبْ مِرَارا على القَذَى * ظَمِئْتَ وأىُّ الناس تَصْفُو مَشارِبُهْ؟

وقول الآخر :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّــــه * على شَـعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المُهَـذَّبُ؟

ومن الهجو قول الطِّرِمَّاح فى تميم :

تَمِيمٌ بِطُرْق اللُّؤم أهْدى من القَطا * ولو سلَكَتْ سُبْلَ المَكارِمِ ضَلَّتِ

وقول الآخر :

لَوِ اطَّلَعَ الغُـــرابُ على تميم * وما فيها من السَّوْءاتِ شابَا

إلى غير ذلك من معانى الشعر الحسنة البهيجة الرائقة .

ومما يخرط فى هذا السلك من النثر ما يُحْكَى أن أعرابيا وقف على عبد الملك بن مَرْوان برملة اللِّوى فقال : رحم الله امرأً لم تَمُجَّ أُذُناه كلامى، وقدّم مَعَاذه من سوء مُقامى، فإن البلاد مُجْدِبة ، والحال مُسْغِبة، والحياءُ زاجر، يمنع من كلامكم، والفقر عاذِر، يدعو إلى إخبـاركم، والدعاء إحدى الصـدَقتين، فرحم الله امرأً أمر بِمَيْرٍ، أو دعا بخَيْرٍ .

ومعانى القاضى الفاضل هى التى ترقُص لها القلوب، وتطرَبُ لهـا الألباب، ويهجُم قَبولُها على النفوس من غير حاجب ولا بَوَّاب، فمن ذلك قوله :

"يابنى أيُّوبَ، لو ملكتُم الدهرَ لامتطيتُمْ لياليَــه أداهِم، وقلَّدتم أيامه صَوَارِم، وأفنيتم شموســه وأقمـاره فى الهِباتِ دنانيرَ ودَراهِم، وأيَّامُكم أعراسٌ وما ثَمَّ فيها على الأموال مآتِم، والجُود فى أيديكم خاتَم، ونفس حاتِم فى نقش ذلك الخاتَم" .

فهذا هو السِّحر الحلال، والمعانى التى تخضع لها شُمُّ الجبال، ولا يقال فيه قيل ولا قال .

الصـــنف الثـانى

ما كان مستقبحا قبيحا كقولك قد زيدا رأيت

قال فى "الصناعتين" : و إنما قَبُح لأنك أفسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير ، وهـذا النوع يسميه علماء المعانى : التعقيد . وسمـاه آبن الأثير فى "المثل السائر" المُعاظَلة المعنوية ، وهو تقديم ما الأَوْلى به التأخير، كتقديم الصفة أو ما يتعلّق بها على الموصوف، وتقديم الصِّلة على الموصول ونحو ذلك ؛ وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة ، لأن المعنى يختلُّ به ويَضْطرب . قال فى "المثل السائر" : وهو ضدّ الفصاحة ، لأن الفَصَاحة هى الظُّهور والبيان ، وهـذا عارٍ عن هذا الوصف ؛ فمن ذلك قول بعضهم :

فأصبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجتِها * كأنّ قَفْرا رُسُـومَهَا قَلَمـا

يريد فأصبحت بعدَ بهجتها قَفْرا كأنّ قلَمًـا خط رسومَها فقدّم خبر كأنّ ، وهو خَطَّ عليها فجاء مختلا مضطربا ؛ وأقبح منه وأكثر آختلالا قول الفرزدق :

إلى مَلِكٍ ما أُمُّهُ مِن مُحارِبٍ * أبُوه ، ولا كانتْ كُلَيبٌ تُصاهِرُه

يريد إلى ملك أبوه ما أُمُّه من محارب ، والمعنى ما أم أبيه من محارب ؛ يمدحه بذلك ذماً لمحارب . وكذلك قوله ، يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مِثْلُه فى الناس إلا مملَّكا * أبُو أُمِّـه حَىٌّ أبوهُ يُقَـارِبُه

يريد وما مثله فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مُمَلَّكا أبو أمه أبوه ؛ وهو خاله ، فلما آستعمل فيه التقديم والتأخير فى غير موضعه جاء مشوّها رثًّا كما تراه . قال الوزير "ضياء الدين آبن الأثير" : وقد آستعمل الفرزدق من التعاظل كثيرا كأنه يقصد ذلك ويتعمّده لأن مثله لا يجىء إلا متكلَّفا مقصودا ، و إلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسَه تجرى

على سجيتها وطبعها فى الاسترسال لم يعرض له شىء من هذا التعقيد، ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم فى هذا النوع، إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى، فاذا ذهب هذا الوصف المقصودُ من الكلام ذهب المراد به. ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الصنف الثالث

ما كان مستقيما ولكنه كَذِب كقولك حمَلْت الجبلَ ، وشربت ماءَ البحر، وما أشبه ذلك

وآعلم أن المعانى المستعملةَ فى الشعر والكتابة أكثرُها جارٍ على هـذا الأُسْلُوب خصوصا المعانىَ الشعريّة، فإنه مقدّمات تخييلية تُوجب فى النفس آنقباضًا وآنبساطا على ماهو مقرّر فى علم المنطق . وقد قال فى "الصناعتين": إن أكثر الشعر مبنى على الكذب والآستحالة من الصفات الممتنعة ، والنعوت الخارجة عن العادة ، والألفاظ الكاذبة من قـذف المُحْصَنات، وشهادة الزُّور، وقول البهتان ، ولا سيما الشعر الجاهلىّ الذى هو أقوى الشعر وأفحله . قال : وليس يراد منـه إلا حُسْن اللفظ وجَوْدة المعنى فهذا الذى سوّغ آستعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه . وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب فى شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يُراد من الأنبياء عليهم السلام .

قال الشيخ زكى الدين بن أبى الأصبع رحمه الله فى كتابه "تحرير التحبير" : وأنا أقول قد آختُلف فى المبالغة، فقوم يرون أن أجود الشعر أكذبه ، وخير الكلام ما بُولِغ فيه ، ويحتجُّون بما جرى للنابغة الذُّبيانىّ مع حسان بن ثابت رضى الله عنه فى استدراك النابغة عليه تلك المواقع الجمية فى قوله :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمَعْنَ بالضُّحى * وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا

فإن النابغة إنما عاب على حسان تركَ المبالغة والقصة مشهورة . قال : والصواب مع حسان و إن رُوِى عنه انقطاعه فى يد النابغة ؛ وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون محاسنه إلا ما خرج مَخْرَجَ الصدق ، وجاء على مَنْهَج الحق ؛ و يزعمون أن المبالغة من ضَعْف المتكلم وعَجْزه عن أن يخترع معنًى ، أو يفرّع معنًى من معنًى ؛ أو يحلى كلامه شيئا من البديع ، أو ينتخبَ ألفاظا موصوفة بصفات الحسن ، ويجيد تركيبها ، فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلى المبالغة يسدّ بها خَلَله و يتم نقصه ؛ لما فيها من التهو يل على السامع ، ويدَّعون أنها ربما أحالت المعانى فأخرجتها عن حدّ الإمكان إلى حدّ الامتناع . قال : وعندى أن هذين المذهبين مردودان ؛ أما الأوّل فلقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيه ، وهذا قول من لا نظَر له ، لأنا نرى كثيرا من الكلام والأشعار جاريا على الصدق المحض خارجا مخرج البحث ، وهو فى غاية الجَوْدة ، ونهاية الحسن ، وتمام القوة ؛ وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن ، والمحاسن لا تُحصر ضروبُها ؛ فكيف يقال : إن هذا الضرب على انفراده يفضُل سائر ضروب المحاسن على كثرتها ! وهذا شعر زُهَير والحطيئة وحسان ، ومَنْ كان مذهبُه توخِّى الصدق فى شعره غالبا ؛ ليس فوق أشعارهم غايةٌ لمترقٍّ ؛ ألا ترى إلى قول زهير :

وَمَهما يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ من خَلِيقةٍ * وإن خالهَا تَخْفَى على الناس تُعْلَمِ

و إلى قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أخطأ الفتى * لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ فى اليَدِ

و إلى قوله :

ستُبْدِى لكَ الأيّامُ ما كُنتَ جاهِلًا * ويَأْتِيكَ بالأخْبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ

وإلى قول الحطيئة :

مَنْ يفعَلِ الخيْرَ لا يَعْـدَم جَوَازِيَهُ * لا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناسِ

فإنك تجد هـذه الأشعار فى الطبقة العُلْيا من البلاغة، وإن خلَتْ من المبالغة؛ والذى يدل على أن مذهب أكثر الفُحول ترجيح الصِّدق فى أشعارهم على الكذب ما رُوِى عن الحَرُورية آمرأة عِمرانَ بن حِطَّانَ قاضى الصُّفْرِيَّةِ من الخوارج أنها قالت له يوما : أنت أعطيتَ الله تعالى عهـدا ألّا تكذب فى شـعرك ، فكيف قلت :

فهُنَـاك مَجْـزَأَةُ بنُ ثَوْ * رٍ كان أشجَعَ من أُسامه ؟

فقال : يا هذه، إن هـذا الرجل فتح مدينةً وحده وما سمعت باسد فتح مدينة قط ، وهذا حسان يقول :

وإنمـا الشعر لُبُّ المرء يَعْرِضُه * على المَجَالس إن كَيْسًا وإن حمقا

وإنَّ أشْـعَرَ بيتٍ أنت قائلُه * بيتٌ يقال إذا أنشدتَه صَـدَقا

على أن هؤلاء الفحولَ وإن رَجَّحوا هذا المذهب لا يكرهون ضدّه، ولا يجْحَدُون فضله ، وقلّمـا تخلو بعض أشعارهم منه إلا أن توخِّىَ الصدق كان الغالبَ عليهم ، وكانوا يكثرون منه ، ومَنْ أكثر من شيء عُرِفَ به؛ كما أن النابغـة ومن تابعه على مذهبـه لا يكرهون ضدّ المبالغة، وإلا فكل آحتجاج جاء به على النُّعْمان فى الآعتذار جار مجرى الحقيقة، كقوله :

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسك رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للمـرء مَذْهَبُ

فعائب الكلام الحَسَنِ بترك المبالغة فقط مخطئ، وعائب المبالغـة على الإطلاق غير مصيب ، وخير الأمور أوساطها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حدّ الإمكان، ولم تجرِ مجرى الكذب المحض، فإنها لا تُذم بحال، كقول قيس بن الخطيم :

طعنتُ ابنَ عبدالقيس طعْنةَ ثائرٍ * لهـا نفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءَها

ملكتُ بها كفّى فأنهرتُ فتقَها * يرى قائمٌ مِن دونِها مَنْ وراءَها(١)

فإن ذلك من جيد المبالغة، إذ لم يكن خارجا مَخْرَج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية فى وصف الطعنة؛ وكذلك قول أبى تمّـام :

تكاد تَنْتقِلُ الأرواحُ لو تُرِكتْ * من الجُسُوم إليها حين تَنْتقِـلُ

فإنه لم يقنع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضلا عن الجواز بتقديم كادَ، حتّى قال : لو تُرِكت، قال : وهذا أصح بيت سمعته فى المبالغة وأحسنه؛ وعلى حدّه ورد قول شاعر الحَماسة، وقد بالغ فى مدح ممدوحه فقال :

رهَنتُ يَدِى بالعَجْزِ عن شُكرِ بِرّه * وما فوقَ شُكْرِى للشَّكُورِ مزيدُ

ولو كان مما يُسْتَطاعُ استطعتُـه * ولكنّ ما لا يُسْتطاعُ شـديدُ

فإن هـذا الشاعر الذى بيـده وأظهر عجزه، واعترف بقصوره عن شكر برّ هذا الممدوح، وفَطِنَ أنه لو اقتصر على ذلك، لاحتمل أن يقـال له : عجزك عن شكره لا يدل على كثرة برّه، لاحتمال أن يكون لضعف مادّتك عن الشكر، إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شىء تعظيم ذلك الشىء، ولا بُدَّ لاحتمال أن يكون العجز لضعف الإنسان، فاحترز عن ذلك بقوله :

* وما فَوْقَ شُكْرِى للشَّكُورِ مَزِيدُ *

---

(١) فى اللسان ما . ولعلها رواية .

ثم تمم المعنى بأن قال للشُّكُور، للمبالغة فى الشكر، فإنّ شكورا معدول عن شاكر للمبالغة كما تقدّم، ثم أظهر عذرَه فى عجزه بأن قال فى البيت الذى يليه :

* ولو كان ممـا يُستطاع ٱستطعته *

ثم ذيل هـذا المعنى بإخراج بقيـة البيت مُخْرَجَ المثل السائر ليكثر دَوَرانُه على الألسنة فيحصل تجديد مدح الممدوح كل حين، والتنويهُ بذكره فى كل زمان، حيث قال :

* ولكنّ مالا يُسْتَطَاعُ شَديدُ *

أما إذا خرجت المبالغة عن حدّ الإمكان، وجرت مجرى الكذب المحض، فإنها مذمومة فى الشرع وإن كان الشـعراء يستبيحون مثـل ذلك ولا يتحاشَوْنَ الوقوع فيه . وقد أخبر تعالى عنهم بالكذب بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وفى قوله صلى الله عليه وسلم : "أَصْدَقُ كلمةٍ قالها شاعِرٌ كلمةُ لَبِيد : * أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلَا اللهَ بَاطِلُ" *
إشارةٌ لذلك أيضا .

فمن المبالغة فى الشعر المنتهية إلى حدّ الكذب قول البُحْتُرِىّ :

ولو قِسْتَ يومًا حِجْلَهَـا بحِقابِهـا * لكانا سـواءً لا بل الحِجْلُ أوسعُ

وَصَفَها بِرِقَّةِ الخَصْرِ وغِلَظِ الساق حتّى جعل حِجْلَها الذى يدور على ساقها أوسعَ من حِقَابِهَا الذى يدور على خَصْرِها ؛ وأبلغ منه قول الآخر :

من الهِيفِ لو أنّ الخَلَاخِيلَ صُيِّرتْ * لهـا وُشُحًا جَالَتْ عليهـا الخَلَاخِلُ

بجعل الخَلْخَال يجول فى بَدَنها ، لكنه ليس من المدح فى شىء لأن الخَلْخَالَ لو صار وُشَاحًا للمرأة لكانت فى غاية الدَّمامة حتّى تصير فى خِلْقَةِ الجِرْوِ[1] والهِرّ .

(١) الجرو مثلث الجيم وهو ولد الكلب والسباع .

وأبلغ منه قول الآخر :

ورَحْبُ صَدْرٍ لو آنَّ الأرضَ واسعةٌ * كَوُسْعِهِ لم يضِقْ عن أهله بَلَدُ

بجعل صدره في السّعَة والرُّحْب أوسع من الأرض ، ونحوُه قول الآخر :

ويوم كطُولِ الدّهر فى عَرْض مِثْله * وَوَجْدِىَ من هـذا وهَاذَاك أطولُ

إلا أنه آستعمل العَرْضَ فى غير موضعه ، إذ الدهر يوصف بالطول لا بالعَرْض ، وهو قد جعل له طولا وعَرْضا ؛ ويقرب منه قول أبى الطَّيِّب :

كفى بِجِسْمِى نُحُولًا أنّنِى رجلٌ * لولا مخاطَبَتِى إيّاك لم أَبِن (١)

بجعل كلامه هو الذى يدل عليه من شدّة النُّحُول .

قال الشيخ زكىّ الدين بن أبى الأصبع : ومما يجرى به التمثيل فى باب المبالغة قولُ بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تَكُونُ له الحاجةُ فيَغْضَبُ قبل أن يطلُبَها ، وتكون اليه فيردُّها قبل أن يفهمَها . وقول بعض بلغاء الكُتّاب : إن من النعمة على المُثْنِى عليك ألّا يخلوَ من مساعد ولا يخشى من معاند ، ولا تلحقه نقيصة المُكَذِّب ، ولا يُكْرِهُه عَوَزُ الأوصاف بالتطاب ، ولا ينتهي من القول إلى منتهًى إلا وجد بعده مقتضًى ووراءه منحًى . وسيأتى من المبالغة فى أوصاف الخيل والسلاح ، وغيرها فى قسم الأوصاف من ذلك ما فيه مَقْنَعٌ إن شاء الله تعالى .

الصنف الرابع

ما كان محالا ، وهو مالا يمكن كونه البتة ، كقولك آتيك أمس ، وأتيتك غدا ، وما أشبه ذلك

قال فى "الصناعتين" : فان آتصل الكذب بمحال صار كذبا محالا ، كقولك : رأيت قاعدا قائما ، ومررت بيقظانَ نائم ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع ، ومحال

(١) المشهور فى الرواية : لم ترنى ، وهى التى شرح عليها العكبرى .

لعدم إمكان الجمع بين النقيضين ؛ وقد تقدّم فى النوع الثالث أن أكثر الشـعر مبنى على الكذب، والاستحالة من الصفات الممتنعة والنعوت الخارجة عن العادة، وذلك فى الكذب مما لا نزاع فى كثرته فى الشعر كما تقدّم .

أما المحال فانه قليل الوقوع، نادر فى النظم والنثر، معدود من المعايب، محكوم عليه بالردّ .

فمن ذلك قول عبد الرحمن بن عبد الله القَسّ :

وإنّى إذا ما الموتُ حَلَّ بنفْسها * يُزَالُ بنفسِى قبْـلَ ذاك فَأُقْبَرُ

قال العسكرىّ : هذا من المحال الذى لاوجه له ، قال : وهو شبيه بقول القائل : إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين المحال الممتنع الذى لا يجوز يريد أنه قـد توقف كل من الأمرين على الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم الدَّوْر، وهو محال فيحكم فيه بالبطلان وقطع الدَّوْر .

ومـا يلتحق بالمحال وينخرط فى سِلكه تناقض المعانى واضطرابها .

فمن ذلك قول المُسَيَّب بن عَلَس فى وصف ناقة :

فتَسُلّ حاجتها اذا هى أعرضَتْ * بخَمِيصَةٍ سُرُحِ اليدين وَسَاعِ
فكأنّ قَنْطَرَةً بموضع كُورِهَا * ملساءَ بينَ غَوَامِضِ الأنْسَاعِ
وإذا أطفتَ بها أطفتَ بِكَلْكَلٍ * نِيضِ الفَرَائِصِ مُجْفَرِ الأضْلاَعِ

قال فى "الصناعتين" : وهـذا من المتناقض لأنه قال بخميصة، ثم قال موضع كُورِهَا قَنْطَرَةٌ، وهى مُجْفَرة الأضلاع فكيف تكون خَمِيصة وهذه صفتها !

وقريب منه قول الحُطَيْئَة :

جَرِيج يُلاوذُ بالكِثَاس كأنّهُ * متطوّفٌ حتّى الصـباح يدُور

حتّى إذا ما الصُّبحُ شَقّ عمودَه ٭ وعلاه أسْـطَعُ من سَـنَاه مُنِير
وحَصى الكَثِيبِ بصَفْحتيْه كأنَّهُ ٭ خَبَثُ الحديدِ أطارَهُنَّ الكِيرُ

زعم أنه لم يزل يطوف حتّى أصبح وأشرف على الكثيب، فمن أين صار الحصى بصفحتيه ! . وقول المُرَقِّش الأصغر :

صَحَا قلبُـه عنها على أنّ ذُكْرَةً ٭ إذا خطرتْ دارتْ به الأرضُ قائمـا

وكيف صحا عنها مَنْ إذا ذكرت دارت به الأرض !

الصـنف الخامس

ما كان غَلَطًا، وهو أن تريد الكلام بشئ فيَسْبِقَ لسانك إلى خلافه، كقولك : ضَرَبَني زيدٌ وأنت تريد ضربتُ زيدًا

قال فى "الصناعتين" : فإن تعمدْت ذلك، صار كذبا، وهذا النوع أكثر وقوعا من الذى قبله، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط فى المعانى كثيرة، فمن ذلك الغلط فى الأوصاف، وهى على وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكره بما ينافيه .

فمن غريب هذا النوع قول الراعى فى وصف المِسْك :

يَكْسُو المَفَارِقَ واللَّبّـاتِ ذا أَرَجٍ ٭ من قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافُورِ درّاجِ

فجعل المِسْكَ من قُصْبِ الظَّبْي، وهو مِعَاهُ وجعل الظَّبْيَ يعتلف الكافورَ فيتولد منه المسك، وهذا من طرائف الغَلَط . وقريبٌ منه قولُ زُهَير يصف الضَّفادعَ :

يَخْرُجْنَ من شَرَبَاتٍ ماؤها طَحِلٌ ٭ على الجُذُوعِ تخافُ[1] الغَمَّ والغَرَقَا

(١) فى اللسان يخفن، فما فى الأصل رواية له .

ظن أن الضفادع يخرجن من المـاء مخافة الغرق، ونشوءها فيه . وقريب منـه قولُ ذى الرُّمَّة :

إذا ٱنجابت الظَّلْمَـاء أضحتْ رءُوسها * عليهن من جَهْـدِ الكَرَى وهى ضُـلَّعُ

فوصـف الرءوس بالضَّلَع . قال ٱبن أبى فروة : ما أغفلتُ هـذا، ولقد قلت لذى الرمة : ما علمتُ أحدا أَضْلَعَ الرءُوسَ غيرَك، قال : أَجَلْ .

قال فى "الصناعتين" : ومما لم يُسمع مثلُه قط قول عَدِىّ بن زيد فى الخمر :

والمُشْرِفُ الهَيْدَبُ يسعى بها * أخضرَ مطموثاً بماء الخَرِيص

فوصف الخمر بالخضرة، والخريصُ: السحابة تَخْرِصُ وجه الأرض أى تَقْشُرُها، ومنه سميت إحدى الشِّجَاج فى الرأس الخارصة لأنها تشق الجلد .

ومنها وصف الشيء على خلاف المعهود والعادة المعروفة .

فمن ذلك قول المَرَّار :

وخَالٍ على خَدَّيْكَ يبـدُو كأنه * سنَا البدرِ فى دَعْجَاءَ بادٍ دُجُونُها

والمعروف أن الخِيلَانَ سُودٌ أو سُمْرٌ، والخدود الحسان إنمـا هى البيض، فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى؛ ومثله قول الآخر :

كأنمـا الخِيلانُ فى وجْهه * كواكبٌ أَحْدَقْنَ بالبَـدْرِ

قال أبو هلال العسكرىّ : ويمكن أنـ يُحْتَجَّ لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه الخِيلَانِ بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون .

ومن ذلك قول ٱمرئ القيس فى وصف الفرس أيضا :

وللسوط أُلْهُـوبٌ وللساق دِرَّة * وللزَّجْر منه وَقْعُ أَخْرَجَ مُهْذِب

قال أبو هلال العسكرىّ : فلو وصف أخسَّ حمارٍ وأضعفه، مازاد على ذلك، وقول القائل :

صبَبْنَا عليها ظالمِينَ سِيَاطَنَا * فطارتْ بها أيدٍ سراعٌ وأرجُلُ

فجعل ضربها بالسوط من باب الظلم لأنها لا تحوجه إلى ذلك، ومن ذلك قول امرئ القيس :

وأَرْكَبُ فى الرَّوْعِ خَيْفَانَةً * كَسَا وجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِر

شبه ناصية الفرس بسَعَفِ النخلة لطُولها، وإذا غطّى الشعر عين الفرس لم يكن كريما .

ومثله قول طَرَفَةَ يصف ذَنَبَ البعير :

كأنَّ جَنَاحَىْ مَضْرَحِىٍّ تكنَّفَا * حِفَافَيْه، شُكَّا فى العَسِيبِ بِمِسْرَدِ

فجعل ذَنَبَه كثيفا، طويلا عريضا؛ وإنما توصف النجائب بخفة الذَّنَبِ ورِقّة الشعر .

ومنها أن يجرىَ فى مقاصد المعانى على خلاف المألوف المعروف، وذلك قول جُنَادة :

مِن حبها أتمنَّى أن يُلاقِيَنِى * من نَحْوِ بَلْدتها ناعٍ فينعاها
لكَىْ يكونَ فراقٌ لا لِقَاءَ لَه * وتُضمِرَ النفسُ يأسًا ثم تَسْلَاها

فإذا تمنَّى المحب للحبيب الموتَ فماذا عسى أن يتمنَّى البغيضُ لبغيضه ؟ وقول الآخر :

وَلَقَدْ هَمَمْتُ بقتلها من حُبّها * كيما تكونَ خَصِيمتى فى المَحْشَر

فذكر أن شدّة الحبّ حملته على قتل محبوبته حتّى تخاصمه فى الحشر لطلب حقها، وشـدّةُ الحب لاتحمل إلا على الإكرام والبرّ، على أنها قد تكون تكرهه، فتترك حقّها له حتّى لا يطول وقوفها معه للخصام؛ وقول نُصَيْب :

فإن تَصِلِي أَصِلْك وإن تعودى * بهَجْــرٍ بعـد ذاك فلا أُبَالِي

والعاشق يلاطف قلبَ محبوبه ولا يُحَاجُّه، ويلاينه ولا يُلَاجُّه .

الأصـــل الثـانى

من صناعة إنشاء الكلام النظر فى الألفاظ ؛ والنظر فيها من وجهين

الوجـــه الأوّل

فى فضـــل الألفـاظ وشـــرفهـا

قد تقدّم فى الكلام على المعانى أن الألفاظ من المعانى بمنزلة الثياب من الأبدان فالوجه الصبيح يزداد حسنا بالحُلَل الفاخرة والملابس البهيّـة ، والقبيح يزول عنـه بعض القُبْح، كما أن الحَسَنَ ينقص حُسْنُه برَثَاثة ثيابه وعدم بهجة ملبوسه ؛ والقبيح يزداد قبحا إلى قُبْحه . فالألفاظ ظواهر المعـانى، تَحْسُنُ بحسنها، وتَقْبُحُ بِقُبْحِها ؛ وقد قال أبو هلالٍ العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين" : ليس الشأْنُ فى إيراد المعانى؛ لأن المَعانِىَ يعرفها العربىّ والعجمىّ والقَرَوِىّ والبدوىّ وإنما هو فى جَوْدَةِ اللفظ ، وصَفَائه ، وحسنه وبهائه، ونزاهتـه ونقائه، وكثرة طَلَاوَته ومائه، مع صحة السَّبْك والتركيب، والخلوّ من أَوَدِ النظم والتأليف .

قال : وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يُقْنَعُ من اللفظ بذلك حتّى يكون على ماتقدّم من نعوته؛ ثم قال : ومن الدليل على أن مَدَار البلاغة تحسينُ اللفظ أن الخُطَبَ الرائعة، والأشعار الرائقة، ماعملت لإفهام المعانى فقط، لأن

الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام ، وإنما يدل حسنُ الكلام وإحكام صنعته ، و رونق ألفاظه ، وجَوْدَةُ مَقَاطعه ، وبديع مباديه ، وغريب مبانيه ، على فضل قائله ، وفهم مُنْشِئِه ، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعانى ، وتَوَخّى صوابِ المعانى أحسنُ من توخّى هذه الأمور فى الألفاظ ، فلهذا يَتَأَنَّقُ الكاتبُ فى الرسالة ، والخطيبُ فى الخُطْبَة ، والشاعرُ فى القصيدة ، ويبالغون فى تجويدها ، ويغْلُونَ فى ترتيبها ، ليدُلُّوا على براعتهم ، وحِذْقِهم بصناعتهم ؛ ولو كان الأمر فى المعانى لطَرَحُوا أكثر ذلك فَرَبِحُوا كدًّا كثيرا ، وأسقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا ؛ وأيضا فإن الكلام إذا كان لفظه حُلْوًا عذبا ، وسَلِسًا سهلا ، ومعناه وَسَطًا ، دخل فى جملة الجيِّد ، وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر :

ولما قَضَيْنَا من مِنًى كُلَّ حاجة * ومَسَّحَ بالأركان مَنْ هو مَاسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهَارى رِحَالُنا * ولم يَنْظُرِ الغَادِى الذى هو رَائِحُ
أخَذْنا بأطراف الأحاديث بيننا * وسَالَتْ بأعناق المطِىِّ الأباطِحُ

وليس تحت هذه الألفاظ كثيرُ معنًى ، وهى رائقة مُعْجِبَةٌ ، وإنما هى : ولما قَضَيْنَا الحَجَّ ، ومَسَّحْنَا بالأركان ، وشُدَّتْ رِحَالُنا على مَهَازِيل الإبِل ، ولم ينتظر بعضُنا بعضا ، جعلنا نتحدث وتسير بنا الإبِلُ فى بطون الأودية ؛ وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا كان مستهجنا مَلْفُوظًا ، ومذموما مردودا ، كقول أبى العَتَاهِيَة فى أبى عثمان سعيد بن وَهْب :

مَاتَ وَاللهِ سعيدُ بنُ وَهْب * رَحِمَ اللهُ سَعيدَ بنَ وَهْبِ
يا أبا عثمانَ أبْكَيْتَ عينى * يا أبا عُثْمَانَ أوجعتَ قلْبِى

الوجـــــه الثـانى

الألفاظ المفردة، و بيان ماينبغى آستعماله منها، وما يجب تركه

اعلم أن الذى ينبغى أن يستعمـل فى النظم والنثر من الألفاظ هو الرائق البهج الذى تقبله النفس، ويميل إليه الطبع، وهو الفصيح من الألفاظ دون غيره .

والفصيح فى أصل اللغة هو الظاهر البيّن، يقال : أفصح الصبح إذا ظهر و بان ضوءه ، وأفصح اللبن إذا تجلت عنـه رغوته وطهر، وأفصح الأعجمىّ وفَصُحَ إذا أبان بعد أن لم يكن يُبِينُ، وأفصح الرجل عما فى نفسه إذا أظهره .

قال فى "المَثَل السائر" : وأهل البيان يَقِفُونَ عند هذا التفسير، ولا يكشفون عن السر فيه . قال : وبهذا القول لا تتبين حقيقةُ الفصاحة، لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا جَيِّدًا، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحا؛ على أنه قد يكون اللفظ ظاهرا لزيد ولا يكون ظاهرا لعمرو، فيكون فصيحا عند واحد دون آخرَ، وليس كذلك؛ بل الفصيح مالم يُخْتَلَفْ فى فصاحته، لأنه إذا تحقق حدّ الفصاحة وعُرِفَ ماهى لم يبق فى اللفظ المختص بها خلاف؛ وأيضا فإنه لو جىء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع، وهو مع ذلك ظاهر بيّن فينبغى أن يكون فصيحا، وليس كذلك لأن الفَصَاحة وصفُ حُسْنِ اللفظ لا وصفُ قُبْحه .

قال : وتحقيق القول فى ذلك أن يقـال : الكلام الفصيح هو الظاهر البَيِّنُ، والظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج فى فهمها إلى آستخراج من كتب لغة؛ و إنمـا كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفةَ الاستعمال بين أرباب النظم والنثر، دائرةً فى كلامهم؛ و إنما كانت مألوفة الآستعمال دائرة فى الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنها ، وذلك أن أرباب النظم والنثر غَرْبَلُوا اللغة باعتبار ألفاظهـا، وسَبَرُوا

وقسّموا فاختاروا الحَسَن من الألفاظ فاستعملوه، ونَفَوْا القبيحَ منها فلم يستعملوه؛ فحُسْنُ الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالُها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها؛ فالفصيح إذًا من الألفاظ هو الحَسَنُ . ثم قال : والمرجع فى تحسين الألفاظ وقبحها الى حاسة السمع، فما يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحَسَن، وما يكرهه وينفِر عنه هو القبيح ، بدليل أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشُّحْرُورِ ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب وينفِر عنه، وكذلك يكره نَهِيقَ الحِمَارِ ولا يجد ذلك فى صهيل الفرس؛ والألفاظ جارية هذا المجرى؛ فإنه لا خلاف فى أن لفظة المُزْنَة والدِّيمة يستلذهما السمع، ولفظة البُعَاق قبيحة يكرهها السمع، والألفاظ الثلاثة من صفة المطر ومعناها واحد؛ وأنت ترى لفظتى المُزنةِ والدِّيمَةِ وما جرى مجراهما مالوفةَ الاستعمال، وترى لفظَ البُعَاقِ وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو مَن ذَوْقُه غير سليم؛ لاجَرَمَ أنه ذم وقدح فيه، ولم يلتفت إليه، وإن كان عَرَبِيًّا محضا من الجاهلية الأقدمين؛ فإن حقيقة الشيء إذا علمت وجب الوقوف عندها ولم يُعَرَّجْ على ما خرج عنها .

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحُسْنِ حتّى يتصف بأربع صفات :

الصفة الأولى

ألّا يكون غريبا؛ وهو ماليس مانوسَ الاستعمال ولا ظاهرَ المعنى .

ويسمّى : الوحشىَّ أيضا نسبة إلى الوحش لِنفَاره وعدم تأنُّسه وتألُّفه ، وربما قُلِب فقيل : الحُوشى نسبة إلى الحوش، وهو النِّفار . (١)

قال الجوهرى : وزعم قوم أن الحُوش بلاد الجن وراء رمل يَبْرِين لا يسكنها أحد من الناس، فالغريب والوحْشىُّ والحُوشىُّ كله بمعنى .

(١) كذا فى الضوء أيضا ، وفيه تساهل لان النِفار معنًى لاالحاش لاالحاش، انظر القاموس .

ثم الغريب على ضربين :

الضرب الأول — ما يُعاب آستعماله مطلقا، وهو ما يُحتاج فى فهمه الى بحث وتنقيب، وكَشْف من كتُب اللغة ؛ كقول آبن جَحْدَر .

حَلَفْتُ بمـا أرْقَلَتْ حوْلَهُ * هَمَرْجَلَةٌ خَلْقُهـا شَـيْظَمْ
وما شَبْرَقَتْ مِن تَنُوفِيَّةٍ * بها من وحى الجن زِيزِيزَم

فالإرقال : ضرب من السير، وهو نوع من الخَبَب، يقال منه : أرقلت الناقةُ تُرْقِل إرقالا ، والهَمَرْجلةُ : الناقة السريعـة ، وقال أبو زيد : الهمَرْجَلة : النـاقة النَّجيبة الراحلة . والشَّيْظَمُ : الشديد الطويل، وهو من صفات الإبل والخيل والأنثى شَيْظمةٌ . والشَّبْرقة : القَطْع، يقـال : شَبْرقت الثوب أُشَبرقه شَبْرقة إذا قطعته، وشبرقت الطريق إذا قطعتها . والتَّنُوفة : المفازة، ويقال فيها : تَنُوفِيَّة أيضا . والوَحى هنا : الصوت الخفِيّ، يقال : سمعت وَحَاةَ الرعد، وهو صوته الممتدّ الخفى . وقوله زِيزِيزَم : حكاية لأصوات الجن إذا قالت : زِى زِى ؛ وحاصله أنه يقول : حلَفت هذه الحلفة بما سارت هذه الناقة الشديدة السير العظيمة الخَلْق، وما قطعت من مَفَازة لا يُسمع فيها إلا أصواتُ الجنّ ؛ وهذا مما لا يوقف على معناه إلا بكدّ وتعب فى كشفه وتَتَبُّعه من كتب اللغة .

الضرب الثانى — مايحتاج إلى تدقيق النظر فى التصريف وتخريج اللفظ على وجه بعد، كلفظ مسرّج من قول العجاج .

ومُقْلةً وحاجِبًا مُزَجَّجا * وفاحِمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجا

فالُمقلة : شحمة العين . والحاجب معروف . والمزجج : المُقَوس مع طُولٍ ودقّةٍ فى طَرَفه . والفاحم : الشَّعر الأسود الذى لونُه كلون الفَحْم . والمَرْسِنُ : الأنف ؛

وصفه بكونه مُسَرَّجا إما أنه كالسيف السُّرَيْجِيّ فى الدِّقَّة والاستواء، والسُّرَيْجِيُّ نسبة إلى قَيْن يسمَّى سُرَيْجا تنسب إليه السُّيوفُ؛ و إما أنه كالسِّراج فى البَرِيق واللَّمعان؛ أو من قولهم سَرَّج الله وجهَه إذا بَهَّجه وحسَّنه . فهذا ومثله مما لا يقف على معناه إلا من عرف التصريف وأتقنه .

إذا تقرر ذلك فآعلم أن اللفظ يختلف فى الغَرابة وعدمها باختلاف النِّسَب والإضافات ؛ فقد يكون اللفظ مألوفا متداوَلَ الاستعمال عند كل قوم فى كل زمن، وقد يكون غريبا متوحِّشا فى زمن دون زمن، وقد يكون غريبا متوحشا عند قوم، مستعملا مألوفا عند آخرين .

وهو أربعة أصناف :

الصــــنف الأوّل

المألوف المتداوَلُ الاستعمال عند كل قوم فى كل زمن

وهو ما تداول آستعمالَه الأوَّلُ والآخِرُ من الزمان القديم والى زماننا كالسماء والأرض، والليــل والنهار، والحرّ والبرد، وما أشــبه ذلك ؛ وهو أحسنِ الألفاظ وأعذَبُها، وأعلاها درجةً، وأغلاها قيمةً ؛ إذ أحسن اللفظ ما كان مألوفا متداوَلا كما تقدّم ؛ وهذا لا يقع عليه آسم الوحشيّ بحال .

قال فى "المثــل السائر" وأنت إذا نظرت إلى كتاب الله العزيز الذى هو أفصحُ الكلامِ وجدتَهُ سهلا سَلِسا، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جدًا . هذا وقد أنزل فى زمن العرب العَرْباء، وألفاظه كلُّها من أسهل الألفاظ وأقربها آستعمالا وكفى بالقرآن الكريم قُدْوة . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : "ما أُنْزِلَ فى التَّوراةِ ولا فى الإنجيل مثلُ أمِّ القُرْآن وهى السَّبْعُ المَثَانِى" يريد فاتحة الكتاب . وإذا نظرت إلى

ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدتها سَهْلة قريبة يَفْهَمُها كل أحد حتى صبيانُ المكاتب وعوامُّ السُّوقة وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة، فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصةُ فضْلَه، وفهم العامّة معناه؛ وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملةُ فى سهولة فهمها وقُرب متناوَلها؛ والمقتدى بألفاظ القرآن يكتفى بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة؛ وقد كانت العرب الأُوَل فى الزمن القديم تحاشى اللفظَ الغريب فى نظمها ونثرها، وتميل إلى السهل وتستعذبه؛ ويكفى من ذلك كلام قبيصةَ بن نُعَيْم لما قدم على آمرئ القيس فى أشياخ بَنِى أسد يسألونه العفوَ عن دم أبيه، فقال له: "إنك فى المحلّ والقَدْر من المعرفة بتصرُّف الدَّهْر وما تُحدِثه أيّامُه، وتنتقل به أحوالُه بحيث لاتحتاجُ إلى تذكيرٍ من واعظ، ولا تبصيرٍ من مجرّب؛ ولك من سُودَد مَنْصِبك، وشَرَف أعْراقك، وكَرَم أصْلك فى العرب مَحْتِدٌ يحتمل ما حُمِّل عليه من إقالة العَثْرة ورُجوعٍ عن الهَفْوة؛ ولا تجاوزُ الهِمَم الى غاية إلا رجعتْ إليك فوجدتْ عندك من فضيلة الرأى، وبصيرة الفَهْم، وكرم الصَّفْح ما يطوِّلُ رَغَباتها، ويستغرِق طَلِباتها، وقد كان الذى كان من الخَطْب الجليل، الذى عمَّتْ رزيَّتُه نِزَارا واليَمَن، ولم تُخَصِّص بذلك كِنْدةُ دُونَنا للشرف البارع الذى كان لحُجْر؛ ولو كان يُفْدى هالكٌ بالأنفس الباقية بعده لما بَخِلت كَرَائمنا بها على مثله، ولكنه مضى به سبيلٌ لا يَرْجِعُ أُخْراه على أُولاه؛ ولا يَلْحَقُ أقصاه أدْناه؛ فأحمدُ الحالاتِ فى ذلك أن تَعْرِف الواجبَ عليك فى إحدى خِلالٍ ثلاث: إما أن اخترتَ من بنى أسدٍ أشرفَها بيتا، وأعلاها فى بناء المَكْرُمات صوتا، فقُدْناه إليك بنسعة تذهب مع شَفَرات حُسامك بباقى قَصَرته فنقول: رجل امتُحِن بهالكٍ عزيز فلم يستلَّ سَخِيمتَه إلا تمكينُه من الانتقام؛ أو فداء بما يَرُوح على بنى أسد من نَعَمِها، فهى أُلُوف تجاوز الحِسْبَة، فكان ذلك فداءً رجعتْ به القُضُب إلى أجفانها، لم يرددها تسليط

الإحَن على البرءاء، و إما أن وادّعْتنا إلى أن تضعَ الحواملُ فتُسدل الأُزُر وتعْقد الخُمر فوق الرايات " .

فبكى آمرُؤ القيس ساعةً، ثم رفع رأسه فقال :

"لقد علِمَت العربُ أنه لا كُفءَ لِحُجْر فى دم، وأنى لن أعتاضَ به جملا ولا ناقةً، فأكتسبَ به سُبَّة الأبد، وفتَّ العَضُد، وأما النَّظرة فقد أوجبتها الأجنَّة فى بطون أمهاتها، ولن أكونَ لعَطَبها سببا، وستعرفون طلائع كنـدة من بعد ذلك، تحمل فى القلوب حَنَقا، وفوق الأسنَّة عَلَقا .

إذا جالَت الحرْبُ فى مَأْزِق * تُصافِحُ فيه المَنَايَا النُّفوسـا

أتقيمون أم تنصرفون؟" قالوا : بل ننصرف بأسـوإ الاختيار وأبلى الاجترار، بمكروه وأذيَّة، وحَرْب وبليَّة .

ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لَعَلَّك أن تستَوخِمَ الوِرْدَ إن غدَتْ * كتائبُنـا فى مازِق الحـرب تُمْطِر

فقال آمرؤ القيس : لا والله! ولكن أستعذبه، فرويدا ينفرج لك دُجاها عن فُرْسان كِندةَ وكتائب حِمْير . ولقد كان ذِكر غير هذا بى أولى إذ كنت نازلا بربعى، ولكنك قلت فأوجبت .

فقال قبيصة : ما يُتوقَّع فوق قدر المعاتبـة والإعتاب، فقال آمرؤ القيس : هو ذاك .

قال فى "المثل السائر" : فلينْظر الى هـذا الكلام من الرجلين : قبيصةَ وآمرئ القيس حتّى يدَع المتعمقون تعمُّقهم فى آستعمال الوحشىّ من الألفاظ، فإن هـذا الكلام قد كان فى الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله، وكذلك هو كلام كل فصيح

من العرب مشهور، وما عداه فليس بشيء . قال : وهـذا المشار إليـه هاهنا هو من جَزْل كلامهم ، وهو على ما تراه من السَّلاسة والعُذُوبة ؛ وإذا تصفَّحت أشعارَهم أيضا وجدت الوحشى من الألفاظ قليلا بالنسـبة إلى المسلسَل فى الفم والسمع ؛ وعلى هذا المنهج فى الجزالة والسُّهولة يجرى من النظم قولُ امرئ القيس :

فَلَوْ أنّ ما أسْعى لِأَدْنَى مَعِيشةٍ * كَفَانِى ولم أطْلُبْ قليلٌ من المَالِ
ولكِنَّما أسْعى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ * وقد يُدْرِكُ المَجْدَ المؤثَّل أمْثَالى

فانظر إلى هـذين البيتين ليس فيهما لفظةٌ غريبة ، ولا كره مع ما فيهما من الجزالة ؛ وكذلك أبيات السَّمَوْءل المشهورة وهى :

إذا المَرْءُ لم يَدْنَسْ من اللُّؤم عِرْضُه * فكُلُّ رِداءٍ يَرْتَديه جَميلُ
وإنْ هُو لم يَحْمِل على النَّفْسِ ضَيْمَها * فلَيْس إلى حُسْنِ الثَّناء سَبيلُ
تُعَيِّرُنا أنَّا قَليلٌ عَديدُنا * فقُلْتُ لها إنَّ الكِرَام قَليلُ
وما ضَرَّنَا أنا قليلٌ وجارُنَا * عَزِيزٌ وَجارُ الأكْثرين ذَليلُ
يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالَنَا لَنَا * وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتَطُولُ
وما ماتَ مِنَّا سيِّدٌ فى فِرَاشِهِ * ولا طُلَّ مِنَّا حيثُ كان قَتِيلُ
وأسْيافُنا فى كُلِّ غَرْبٍ ومَشْرِقٍ * بها مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعَوَّدَةٌ ألّا تُسَلَّ نِصالُها * فتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

فإذا نظرت ما تضمنته هذه الأبيات من الجَزَالة ، خِلْتَها زُبَرا من الحديد مع ما هى عليه من السُّهولة والعُذُوبة ، وأنها غير فَظَّة ولا غليظة . وقد ورد للعرب فى جانب الرِّقة من الأشعار ما يكاد تَذُوب لرِقَّته القلوبُ ؛ كقول عروة بن أُذَينة :

إنّ التى زَعَمَتْ فؤادَكَ مَلَّها * خُلِقَتْ هَوَاكَ كما خُلِقْتَ هَوًى لها
بَيْضَاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فصَاغَهَا * بلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وأَجَلَّها

تَجَنَّبْتُ تحيّتَهـا فقلتُ لصاحِبي * ما كانَ أكثرها لنـا وأقلّها!

وإذا وجَدْتُ لها وَساوِسَ سَلْوَةٍ * شَفَعَ الضميرُ إلى الفؤادِ فسَلَّهـا

وقول يزيد بن الطَّثَرِيَّة في محبوبته من بني جَرْم :

بنَفْسِيَ مَن لو مرّ بَرْدُ بنَانِه * على كَبِدِي كانت شفاءً أنامِلُه

وإذا كان هذا قول ساكن الفَلاة، لا يرى إلا شيحة أو قيصومة، ولا يأكل إلا ضبا أو يَرْبُوعًا، فما بالُ قوم سكنوا الحَضَر، ووجدوا رِقّة العيش يتعاطَوْنَ وَحْشِيّ الألفاظ وشَظِفَ العبارات! ولا يُخْلِدُ إلى ذلك إلا جاهلٌ بأسرار الفصاحة، أو عاجزٌ عن سلوك طريقها، فإن كل أحد ممن حصل على نُبْذَةٍ من علم الأدب يمكنه أن يأتيَ بالوَحْشِيّ من الكلام، إما بأن يلتقطه من كتب اللغة، أو يتلقفه من أربابها . وأما الفصيح المُتَّصِفُ بصفة الملاحة، فإنه لا يَقْدِر عليه ولو قَدَرَ عليه لما علم أين يضع يده في تأليفه وسَبْكه .

قال : وإن مارَى في ذلك مُمَارٍ فلينظر إلى أشعار علماء الأدب ممن كان يُشَار إليه حتّى يعلم صحة ذلك، فإن ابن دُرَيْد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب وإذا نظرتَ إلى شعره وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين مُنْحَطًّا، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عُشْرَ مِعْشَار ما علمه، وأين شعره من شعر العباس ابن الأحنف! وهو من أوائل الشعراء المُحْدَثِينَ، وشعره كنَز نسيم على عَذَبَات أغصان، أو كلؤلؤات طَلّ على طُرَرِ رَيْحَان، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلى استخراجها من كتاب من كتب اللغة ، كقوله :

وإنّي لَيُرْضِيني قليـلُ نوالِكم * وإن كنتُ لا أَرْضَى لكم بقليل

بحُرمة ما قد كانَ بيني وبينَكُمْ * من الوُدّ إلا عُدْتُمُو بجميل

وقوله فى محبوبته فَوْز :

يا فَـوْزُ يا مُنْيَـةَ عَبَّاسِ * قلبي يُفَـدِّى قلبَك القـاسِى

أساتُ إذ أحسنتُ ظَنِّى بكم * والحَـزْمُ سُوءُ الظنِّ بالنـاسِ

يُقْلِقُنى شَـوْقِى فآتيـكُمُ * والقلبُ مملوءٌ من اليـاسِ

وهل أعذبُ من هذه الأبيات؟ وأعلقُ بالخاطر، وأسرى فى السمع؟ ولمثلها تسهر راقدات الأجفان ، وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرِّهان، ومن الذى يستطيع أن يسلك هذه الطريقَ التى هى سَهْلَةٌ وَعْرَة، قريبة بعيـدة؟ . وقد كان أبو العتاهية أيضـا فى غُرَّة الدولة العباسية، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيرا، و إذا تأملت شعره وجدته كالمـاء الجارى، رقَّةَ ألفاظ، ولَطافَةَ سـبك، وليس بركيك ولا واهٍ، وانظر إلى قصيدته التى يمدح بها المهدىَّ ويشبب بجاريته عتب وهى :

ألَا مَا لِسَـيِّدَتِي مالَهَـا * تُدِلُّ فأحْمِـلُ إدْلَالَهَـا

ألا إنَّ جاريةً للإما * م قد أُسْكِنَ الحُسْنُ سِرْبَالَهَا

لقد أَتْعَبَ اللهُ قَلْبِي بهـا * وأَتْعَبَ فى اللَّوْمِ عُذَّالَهَـا

كأنَّ بعينىَّ فِي حَيثُ ما * سلكت من الأرض تِمْثَالَهَا

فلما وصل إلى المديح قال من جملته :

أتتـه الخـلافة منقادةً * إليــه تُجَـرِّرُ أذيالَهَـا

فـلم تَكُ تَصْلُحُ إلَّا لَهُ * ولم يَكُ يَصْلُـح إلا لَهَـا

ولو رامهـا أحدٌ غيرُه * لَزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَـا

ولو لم تطعه نيات القلوب * لمـا قبِـل الله أعمالهـا

فهذه الأبيـات من أَرَقِّ الشعر غَزَلًا ومديحا ، وقد أذعن لمديحها الشـعراءُ من أهل ذلك العصر، وهى على ما ترى من السَّلاسَةِ واللَّطافة على أقصى الغايات ؛

حتى قال بشار عند سماع المهدى لها من أبى العتاهية . "انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده ؟" يريد هل زال عن سريره طربا بهذا المديح . وعلى هذا الأسلوب كان أبو نواس فى السهولة والسلاسة والرقة ، ولذلك قدم على شعراء عصره مع ما فيه من فحول الشعراء ومفلقيهم كسلم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقة شعره وسهولته ، كقوله فى محبوبته جنان :

أَلَم تَرَ أَنِّي أَفْنَيْتُ عُمْرِي * بِمَطْلَبِهَا وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبَبًا إِلَيْهَا * يُقَرِّبُنِي وَأَعْيَتْنِي الأُمُورُ
حَجَجْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَجَّتْ جِنَانٌ * فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

فانظر إلى هذه الأبيات ليس فيها لفظة منغلقة ، وكذلك سائر شعره ، وكان هو وأبو العتاهية كأنما ينفقان من كيس واحد . ومن لطيف ما يحكى فى توافق طريقتهما واتحاد مأخذهما أن أبا نواس جلس يوما إلى بعض التجار ببغداد هو وجماعة من الشعراء فاستسقى أبو نواس ماء فلما شرب قال :

* عَذُبَ الْمَاءُ وَطَابَا *

ثم قال : أجيزوه ، فأخذ أولئك الشعراء يترددون فى إجازته وإذا هم بأبى العتاهية مجتازا فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا كيت وكيت وقد قال أبو نواس ،

* عَذُبَ الْمَاءُ وَطَابَا *

فقال أبو العتاهية مجيزا له

* حَبَّذَا الْمَاءُ شَرَابَا *

فعجبوا لقوله على الفور من غير تلبث ، فهذا هو الكلام السهل الممتنع تراه يطمعك أن تأتى بمثله ، فإذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب ، وهكذا ينبغى أن يكون من خاض فى كتابة أو شعر ، فإن خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن .

ومن النثر قول سعيد بن حُمَيْد : وأنا مَنْ لا يُحَاجُّكَ عن نفسه، ولا يغالطك عن جُرْمِه، ولا يستدعى برَّك إلا من طريقته، ولا يَسْتَعْطِفُكَ إلا بالإقرار بالذَّنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجُرْم، نَبَتْ بى عنك غِرَّة الحَدَاثة، وردّتنى إليك الحُنْكَةُ، وباعدتْنى منك الثقةُ بالأيّام، وقادتْنى إليك الضّرورة؛ فإن رأيتَ أن تستقبل الصنيعة بقبول العُــذْر، وتجدّد النعــمة باطّراح الحقْد، فإنّ قديم الحُرْمة وحديثَ التوبة يَمْحقان ما بينهما من الإساءة؛ وإن أيامَ القدرة وإن طالت قصيرة، والمُتْعَةَ بها وإن كَثُرت قليلة، فَعَلْتَ إن شاء الله تعالى.

فانظر إلى قوة هذا الكلام فى سهولته، وقُرْب مأخَذه مع بُعْد تنـاوله والإتيان بمُشَاكله. وأجزلُ منــه مع السهولة قول الشَّعْبىّ للحَجَّـاج، وأراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث: "أجْدبَ بنا الجَنَابُ، وأحْزنَ بنـا المَنْزِل، فاسْتَحْلَسْنَا الحَــذَرَ، واكْتَحَلْنَا السهرَ، وأصابَتْنا فتنةٌ لم نكن فيها بَرَرَةً أتقياء، ولا فَجَرَةً أقوياء" فعفا عنه.

قال صاحب "الصناعتين": وقد غلب الجهــل على قوم فصاروا يَسْتَجيدُونَ الكلامَ إذا لم يقفوا على معناه إلا بِكَدٍّ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كَزَّةً غليظة، وجَاسِيَةً غريبة؛ ويستحقرون الكلام إذا رَأَوْهُ سَلِسًا عذبا، وسهلا حُلْوًا؛ ولم يعلموا أن السهل أمنعُ جانبا، وأعزُّ مطلبا، وهو أحسن موقِعا، وأعذب مُسْتَمَعًا؛ ولهذا قيل: "أجود الكلام السَّهْلُ الممتنع" وكان المُفَضَّل يختار من الشعر ما يَقِــلُّ تداول الرواة له، ويكثر الغريب فيه. قال العسكرى: وهذا خطأ فى الاختيار، لأن الغريب لم يكثر فى كلام إلا أفسده، وفيه دِلَالَةٌ على الاستكراه والتكلف.

ووصف الفضلُ بنُ سهلٍ عَمرو بنَ مَسْعَدَةَ فقال: هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتُب مثل كُتُبهُ، فإذا رامها، تعذرت عليه.

وقال العباس بن ميمون: قلت للسيد ، ألا تستعمل الغريب في شعرك؟ فقال : ذلك عيٌّ في زماني، وتَكَلُّفٌ مني لو قلته، وقد رُزقت طبعا وآتساعا في الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير، ثم أنشدني :

أيا رَبِّ إنّي لم أُرِدْ بالذي به * مَدَحْتُ عَلِيًّا غيرَ وجهك فآرحم

قال في "الصناعتين": فهذا كلامُ عاقلٍ يَضَعُ الكلام موضعه، ويستعمله في إبّانه.

ومن كلام بعض الأوائل : تلخيص المعاني رِفْقٌ، والتشادق في غير أهل نقص، والنظر في وجوه الناس عِيّ، ومس اللّحْيةِ هُلْكٌ، والاستعانة بالغريب عَجْز، والخروج عما بُنِيَ عليه الكلامُ إسهاب، فأجود الكلام ما كان جَزْلا سَهلا، لا يَنْغَلِقُ معناه، ولا يَسْتَبْهِم مَغْزاه، ولا يكون مكدودا مستكْرَها، ومتوعرا مُتَقَعَّرا، ويكون بريئا من الغَثَاثة، عاريا من الرَّثَاثة، فالكلام إذا كان لفظُه غثًّا، ومَعْرِضُه رثًّا، كان مردودا ولو آحتوى على أجلِّ معنًى وأنبله، وأرفعه وأفضله . قال "في المثل السائر" : أما البداوة والعُنْجُهِيَّةُ ، فتلك أمة قد خَلَتْ، ومع أنها قد خَلَتْ وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عِيبتْ على مستعملها في ذلك الوقت فكيف الآن ، وقد غلب على الناس رقة الحَضَر

الصـــنف الثـاني

الغريب المتوحش عند كل قوم في كل زمن

وهو ما لم يكن متداول الأستعمال في الزمن الأوّل ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هو مرفوض عند غيرهم، ويسمّى الوَحْشيّ الغليظ، والعكِز، والمتوعَّر وهو على ثلاثة أضْرب :

الضـــرب الأوّل

ما يعـاب آســتعماله فى النظم والنـــثر جميعـا

قال فى "المثل السائر" : والناس فى قبح آستعماله سواء، لا يختلف فيه عربىٌّ بَادٍ، ولا قَرَوِىٌّ مُتَحَضِّرٌ . قال : وليس وراءه فى القبح درجة أخرى؛ ولا يستعمله إلا أجهلُ النـاس ممن لم يخطُر بباله شىء من معرفة هـذا الفنّ أصلا، وهو ما مَجَّهُ سمعُك، ونَبَا عنه لسانك، وثَقُل عليك النطقُ به؛ على أنه قد وقع منه ألفاظ لبعض الشعراء المُفْلِقِينَ من العرب والمُحْدَثين . فمن ذلك لفظ الجَحِيش فى قول تأبط شرًّا من أبيات الحَمَاسَة :

يَظَـــلُّ بمَوْمَاةٍ ويُمسِى بغَـــيْرِهَا * جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المَسالكِ

فإن لفظة جَحِيش من الألفاظ المُنْكَرَة القبيحة

قال فى "المَثَل السائر" : ويالله العجب! أليس أنها بمعنى فَرِيد؟ وفريدٌ لفظةٌ حَسَنَةٌ رائقة لو وضعت فى هذا البيت موضع جَحِيش لمـا آختـل شىء من وزنه، فتأبط شرا ملوم من وجهين : أحدهما آستعماله القبيحَ والثانى أنه كانت له مندوحة عن آستعماله فلم يعْدِل عنها ؛ وأقبح من ذلك لفظ آطْلَخَمَّ فى قول أبى تمّـام :

قد قلتُ لمـا آطْلَخَمَّ الأمرُ وآنْبَعَثَتْ * عَشْــوَاءُ تَالِيَـــةً غُبْسًا دَهَارِيسَا

فإن لفظة آطْلَخَمَّ من الألفاظ المنكرة التى جمعت الوصفين القبيحين من أنهـا غريبة، وأنها غليظة فى السمع ، كريهة على الذَّوْق؛ وكذلك لفظة دَهَارِيس فى آخر البيت المذكور .

وعلى حدّ ذلك ورد لفظ جَيْدَر فى قوله من أبيات فى وصف فرس :

نِعْم متاعُ الدّنيا حَبَاكَ به * أرْوَعُ لاجَيْدَرٌ ولا جِبْسُ

فلفظة جيدر وحشية غليظة؛ وأغلظ منها لفظة جَفَخَتْ في قول أبي الطَّيِّب المتنبي :

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَخُونَ بها بهم * شِيَمٌ على الحسب الأغرّ دلائل

فإن لفظة جَفَخَ مُرَّةُ الطعم ، وإذا مَرَّتْ على السمع آقْشَعَرَّ منها ، وكان له مندوحة عن آستعمالها فإنّ جَفَخَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما في وزن واحد ، فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ ويَفْخَرُونَ مكان جَفَخَتْ ويَجْفَخُونَ لآستقام وزن البيت وحظِيَ في آستعماله بالأحسن ، فهو في ذلك كتأبّط شرًّا في لفظة جحيش في توجه الملامة عليه من وجهين .

قال في "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء !

هذا ما أورده آبن الأثير من هذا النوع ؛ ويشبه أن يكون منه لفظ الحَقَلَّدْ في قول زُهَيْر :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لم يُكَثِّرْ غَنِيمَةً * بِنَهْكَةِ ذي قُرْبى ولا بحَقَلَّد

والحَقَلَّدُ : السيئ الخلق (1) .

قال في "الصناعتين" : وقد أخذ الرُّواة على زُهَيْر في لفظة الحَقَلَّد فاستبشعوها ، وقالوا : ليس في لفظ زُهَيْر أنكرُ منها ، وكذلك لفظ الجِرِشَّى في قول أبي الطَّيِّب في مدح سيف الدولة بن حمدان وآسمه عَلِيّ :

مُبَارَكُ الاسْمِ أغرُّ اللَّقَبْ * كَرِيمُ الجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ

فلفظ الجِرِشَّى مما يكرهه السمع ، وينبو عنه اللسان ، والجِرِشَّى بمعنى النَّفْس فجعل اسمه مباركا ، ولقبَه أغرَّ ، ونفسَه كريمةً ، ونسبه شريفا ، وذلك أنه كان يسمَّى عَلِيًّا وهو آسم مبارك لموافقة آسم أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه ، ويلقب سيف الدولة

(1) في القاموس «الحقلد في قول زهير : الآثم» ومثله في لسان العرب .

وهو لقب أعرابى مشهور، وأغرُّ أخذا من غرّة الفرس لأنها أشهر مافيها، ووصفه بكرم النفس إما باعتبار الحَسَب والعَـرَاقَة، وإما باعتبار بَذْل المـال وكثرة العطاء، وأشار إلى شرف نسبه باعتبار عَرَاقته فى بيت الملك وعَرَاقة حَسَبه .

الضرب الثـانى

ما يعاب آستعماله فى النثر دون النظم

وهذا الضرب ممـا ذكر صاحب المثل السائر أنه آستخرجه بفكره، ولم يجد فيه قولا لغيره . قال : وهذا ينكره مَنْ يسمعه حتَّى ينتهىَ إلى ما أوردتُه من الأمثلة ؛ ولربمـا أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم الذوق السليم عنده، ثم ذكر منـه أمثلة . منها لفظ شَرَنْبَثَة من قول الفرزدق :

ولولا حَيَاءٌ زِدتُ رأسَك شَجَّـةً * إذا سُبِرَتْ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِى
شَرَنْبَثَةً شَمْطَاءَ مَنْ يَرَ مَا بِهَا * يُشَبِّهْ وَلَوْ بَيْنَ الخُمَاسِىِّ والطِّفْلِ

قال : فلفظة شَرَنْبَثَة من الألفاظ الغريبة التى يسوغ آستعمالهـا فى الشعر، وهى هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت فى كلام منثور من كتاب أو خطبـة، لعيبت على مستعملها .

ومنها لفظة مُشْمَخِرّ الواردةُ فى أبيات بِشْر فى وصفه لقاءَهُ الأسد حيث قال :

وأطلقتُ المُهَنَّـد عن يمينى (١) * فقَدَّ له من الأضلاع عَشْرَا
فَخَـرَّ مُضَرَّجًا بِدَمٍ كأَنِّى * هَدَمْتُ بِهِ بِنَـاءً مُشْمَخِرَّا

وكذلك فى قول البُحْتُرِىِّ فى قصيدته التى يصف فيها إيوان كسرى :

مُشْمَـخِرٌّ تَعْـلُو لَهُ شُرُفَاتٌ * رُفِعَتْ فِى رُءوسِ رَضْوَى وقُدْسِ

(١) فى مقامات بديع الزمان الهمذانى بتعليق الشيخ محمد عبده : «وأطلقت المهند من... الخ»

فإن لفظةَ مُشْمَخِرٌّ لا يحسُن آستعمالهـا فى الخطب والمكاتبات، ولا بأس بهـا فى الشعر؛ وقد وردت فى خُطَب الشيخ الخطيب ابن نُبَاتَة كقوله فى خُطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة : آقْمَطَرّ وَبَالُهَا، وآشْمَخَرَّ نَكَالُهَا، فمـا طابت ولا ساغت .

ومنها لفظة الكَنَهْوَرِ من أوصاف السحاب كقول أبى الطَّيِّب :

يَا لَيْتَ بَاكِيَـةً شَجَـانِى دَمْعُهَا * نَظَرَتْ إليكَ كما نظرتُ فَتَعْـذِرَا

وتَرَى الفَضيلَةَ لَا تُرَدُّ فَضِيلَةً * الشَّمْسَ تُشْرِقُ والسَّحَابَ كَنَهْوَرَا

فلفظة الكَنَهْوَرِ لا تعاب نظما، وتعاب نثرا .

ومنها لفظة العِرمِس، وهو آسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ آستعمالها فى الشعر ولا يُعاب مُسْتَعْمِلُها كقول المتنبى :

ومَهْمَهٍ جُبْتُـهُ على قَدَمِى * تَعْجِزُ عنه العَرَامِسُ الذُّلُلُ

فإنه جمع هـذه اللفظة ولا بأس بها، ولو آستعملت فى الكلام المنثور من الخطب لمـا طابت ولا ساغت؛ وقد جاءت مُوَحَّدَةً فى شعر أبى تمام فى قوله :

هى العِـرْمِسُ الوَجْناء وابن مُلِمَّـةٍ * وجاشٌ على مايُحْدِثُ الدهرُ خافِضُ

ومنها لفظة الشَّدَنيَّةِ فى قول أبى تمام أيضا .

* يا مُوضِع الشَّدَنيَّةِ الوجناء *

وهى ضرب من النُّوقِ فإن الشَّـدَنيَّة لا تعاب شعرا وتعاب لو وردت فى كتابة أو خطبة . هذا ما أورده فى "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة

ثم قال : وهكذا يجرى الحكمُ فى أمثال هذه الألفاظ؛ وعلى هذا فآعلم أن كل ما يسوغ آستعماله فى الكلام المنثور يسوغ آستعماله فى الكلام المنظوم، وليس كل ما يسوغ آستعماله فى الكلام المنظوم يسوغ آستعماله فى الكلام المنثور . قال : وذلك

شيء آستنبطته وآطلعت عليه لكثرة ممـارستى هذا الفن، ولأن الذوق الذى عندى دَلّنى عليـه، ممن شاء أن يقلّدنى فيه، وإلا فليُدْمِن النظرَ حتّى يطّلع على ما آطلعت عليه. والأذهان فى مثل هذا المقام تتفاوت، على أن الشيخ سعد الدين التفتازانى رحمه الله قد تابعه على ذلك فى شرح التلخيص، فلا أعلم أقلده فى ذلك أم ذوقه أدّاه اليه؟.

الضرب الثـالث

ما يعاب آستعماله بصيغة دون صيغة

قال فى "المثل السائر": وهذا الضرب من هذه الصناعة بمنزلةٍ عليّة، ومكانةٍ شريفة، وجُلُّ الأسرار اللفظية منوط به. قال: وقد لقيت جماعة من مُدَّعِى فن الفصاحة وفاوضتهم وفاوضونى، وسألتهم وسألونى، فما وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هـذا الموضع كما ينبغى؛ وقد آستخرجت فيه أشياء لم أُسْبَق اليها فإن اللفظة الواحدة قد تنتقل من هيئة الى هيئة، أو من صـفة الى صفة، فتنتقل من القُبْح الى الحُسْنِ و بالعكس فيصير القبيح حَسَنًا، والحَسَنُ قبيحا، والمرجع فى ذلك الى الذوق الصحيح والطبع السليم؛ وقد نبه منه على تسعة أنماط:

النمط الأول — ما يترجح فيـه الأسم فى الأستعمال على الفعل، وذلك فى مثل لفظ خَوْدٍ، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت الى صيغة الفعل، قيـل خَوَّدَ على وزن فَعَّلَ بتشديد العين ومعناها أسرع. يقال: خوّد البعير اذا أسرع فى مَشْيِه، فهى على صيغة الأسم حسنة رائقة، قد وردت فى النظم والنثر كثيرا، واذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن حسنة، كقول أبى تمّـام:

وإلى بنى عبدِ الكريم تَوَاهَقَتْ * رَتْكَ النَّعَامِ رَأَى الطريقَ[1] فَخَوَّدَا

---

(١) فى المثل السائر: الظلام. وكذا فى ديوان أبى تمام.

إلا أن لفظة خَوَّدَ قد استعملت على غير هذا الوجه فى بعض المواضع فزال عنها بعضُ القُبْح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة :

أقولُ لنفْسى حين خَوَّد رَأْلُهَا : * رُوَيْدَكِ[1] لما تُشْفِقِى حين مُشْفَقِ
رُوَيْدَكِ[1] حتّى تَنْظُرِى عَمَّ تَنْجلِى * عَمَايَةُ هذا العارِضِ المتألِّقِ

والرَّأْلُ : النعام، والمراد أن نفسه فرّت وفَزِعت، شبه بإسراع النعام فى فِراره وفزعه، فلما أورد ذلك على سبيل المجاز زال بعض القبح .

قال: وهذا يدركه الذوق الصحيح فهى فى بيت أبى تمّام قبيحةٌ سمجةٌ، وهاهنا بينَ بينَ، ويقاس على ذلك أشباهُه ونظائرُه .

النمط الثانى — ما يترجح فيه فعل الأمر والمستقبل فى الاستعمال على الفعل الماضى وذلك فى مثل لفظة وَدَع، وهى فعل ماض ثلاثىّ لا ثِقَلَ بها على اللسان، ومع ذلك فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضية. إلا جاءت غير مُسْتَحْسَنَة ، فاذا استعملت على صيغة الأمر أو الاستقبال جاءت حسنة بهجة رائقة؛ أما على صيغة الأمر فكما فى قوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾[2] ولم ترد فى القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة؛ وأما على صيغة الاستقبال فكقول النبى صلى الله عليه وسلم وقد واصل فى شهر رمضان فواصل معه قوم، فقال : "لو مُدّ لنا الشَّهْرُ لواصَلْنَا وِصالًا يَدَعُ له المتعَمِّقُون تعمُّقهم" . وقد استعملها أبو الطَّيِّب على هذا الوجه فى قوله :

تَشُقُّكُمُ بِقَنَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ * والضَّرْبُ يأْخُذُ مِنْكُمْ فوق مَايَدَعُ

فجاءت فى كلامه بهجة رائقة؛ وأما الماضى من هذه اللفظة فلم يستعمل إلا شاذا ولا حُسْنَ له ، كقول أبى العتاهية :

---

(١) فى الحماسة : "مكانك" (٢) كان عليه أن يمثل بقوله تعالى : " ودع أذاهم " .

أَثْرَوْا فلم يُدْخِلُوا قبورَهُم * شيئًا من الثَّرْوَةِ التى جَمَعُوا

وَكَانَ ما قَـدَّمُوا لأنفسهم * أعظمَ نفعا من الذى وَدَعُوا

فلم تقع فى كلامه من الحسن موقعا، ولا أصابت من الطَّلاوة غَرَضًا؛ وهـذه لفظة واحدة لم يتغير شىء من أحوالها سوى أنها نقلت من صيغة الى صيغة؛ وكذلك لفظة وَذَرَ، فإنها لا تستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ ولم ترد فى القرآن الكريم إلا على هاتين الصيغتين؛ وكذلك فى غير القرآن الكريم من فصيح الكلام؛ أما فى حالة المضى، فإنها أقبح من لفظة وَدَعَ، وقد آستعملت ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلا .

النمط الثالث — ما يترجح فيه الإفراد فى الآستعمال على التثنية، وذلك فى مثـل لفظ الأَخْدَع، فانها يحسن آستعمالهـا فى حالة الإفراد دون التثنية؛ مما وردت فيـه مفردة فجاءت حسنة رائقة، قول الصِّمَّة بن عبد الله من شعراء الحماسة :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حتَّى وَجَـــدْتُنِي * وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتًا وَأَخْدَعَا

ومـمـا ورد فيه لفظ التثنية فجاء ثقيلا مستكرها قول أبى تَمَّـام :

يَادَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ * أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ

هكذا ذكره فى المثل السائر، ثم قال: وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت موحدة فى أحدهما فحسنت، وجاءت مثناة فى الآخر فقبحت .

النمط الرابع — ما يترجح فيه الإفراد فى الآستعمال على الجمع، وذلك كلفظة الأرض فانها لم ترد فى القرآن الكريم إلا مفردة، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما فى قوله تعالى. ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أو قُرِنت بالسماء مفردة كما فى قوله تعالى،

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أو مجموعةً كما فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ولو كان استعمالها بلفظ الجمع مستحسنا لكان هذا الموضعُ وشبهُهُ به أليقَ لمقابلة الجمع فى السموات، ولما أراد أن يأتىَ بها مجموعةً قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ وكذلك لفظة البُقْعة . وكذلك لفظة طَيْف فى ذكر طَيْف الخيال ، فإنها تجمع على طُيُوف، وهى فى حالة الإفراد من أَرَقِّ الألفاظ وألطفها ؛ فإذا جمعت زالت عنها تلك الطَّلاوة ، وفارقتها تلك البَهْجَةُ ، ولذلك وردت فى القرآن الكريم بلفظ الإفراد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ(1) مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ . ولم تزل الشعراء فى القديم والحديث يستعملونه بلفظ الإفراد فيقع أحسن موقع ، ولم يُلِمُّوا باستعماله مجموعا .

قال فى " المَثَل السائر " : ويا لله العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها عدّة ووزنا، وهى ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة ، وكلاهما فى الاستعمال حسن رائق، قال : وهذا مما لا يُعْلَمُ السرّ فيه ، والذوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مجراهما ، وكذلك يجرى الحكم فى جميع المصادر ، فإنها فى حالة الإفراد أحسنُ منها فى حالة الجمع ؛ وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة فجاءت غَثَّة مستكرهة ، كما فى قول عنترة :

فإن يبرأ فلم انفث عليه ... وإن يُفْقَد فَحُقَّ له الفُقُود

فالفقود جمع مصدر من قولنا : فقد يفْقِد فَقْدا، وليس له من الرَّوْنق والطَّلاوة ما لمفرده ، وهو لفظ فَقْد ، وإن كان جائزا من جهة العربية .

النمط الخامس — ما يترجح فيه الجمع فى الاستعمال على الإفراد كلفظة اللُّبّ الذى هو العقل ، فإن استعمالها بصيغة الجمع فى غاية الحسن والبهجة والطَّلاوة ، وقد ورد

(1) هذه إحدى القراءتين فى الآية

بهــذه الصيغة فى غير موضع من القرآن الكريم، كقوله تعـالى : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصيغة الجمع ، أما فى حالة الإفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة على النطق ، بعيدة المخارج ، ليست بمستثقلة ولا مكروهة .

قال فى "المَثَل السائر" : وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر فى رموزه وأسراره وجدتَ هذه اللفظة قد روعى فيهـا الجمع دون الإفراد، فإن أضيفت أو أضيف إليها حسن استعمالها ، وساغ فى طريق الفصاحة إيرادها . أما إضافتها فكقول النبى صلى الله عليه وسـلم فى ذكر النساء : "مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ" وأما الإضافة إليها فكقول جرير:

إنَّ العُيونَ التى فى طَرْفِهَا حَــوَرٌ * قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِينَ قَتْــلَانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِ حتّى لَا حَرَاكَ به * وهُنَّ أضــعفُ خلقِ اللهِ أَرْكَانَا

قال فى "المَثَل السائر" : فإن عَريت هذه اللفظة عن الجمع والإضافة لم تأت حسنة . قال : ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجردَّ الذوق السليم؛ وكذلك لفظة كوب فإنها لم ترد فى القرآن الكريم إلا مجموعة، وهى وإن لم تكن مستقبحة فى حالة الإفراد فإن الجمع فيها أحسن . وانظر إلى ماعليها من الطَّلاوة والمـائية فى قوله تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَعِينٍ﴾ وعلى هذا النحو لفظ رَجًا بالقصر، ومعناه الجانب، فإنهـا قد وردت فى القرآن بلفظ الجمـع فى قوله تعالى : ﴿والْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أى جوانبها، ولم تستعمل مفردة : لأن الجمع يُكسبها من الحسن مالم يوجد لهـا حالة الإفراد؛ فإن أضيفت حالة الإفراد كرجا البئر ونحوه حسنت كما فى حالة الجمع .

قال فى "المَثَل السائر" : وليس كذلك لفظ الصُّوف والأصواف، وإن كان لم يرد فى القرآن الكريم إلا مجموعا حيث قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ لأن لفظ الصوف مستحسنٌ فى حالة الإفراد كما فى حالة الجمع . قال : وإنما قَبُح ذكره فى قول أبى تمّام :

كانُوا بُرُودَ زمانِهم فتصدّعوا * فكأنّما لَبِسَ الزمانُ الصُّوفَا

لأنها جاءت مجازية فى نسبتها إلى الزمان . قال : وعلى هذا النَّهْج وردت لفظة حِبْر وأحبار فإنها مجموعةً أحسنُ منها مفردةً، ولم ترد فى القرآن الكريم إلا مجموعة .

النمط السادس — ما يترجح فيه بعضُ الجموع فى الآستعمال على بعض كما فى جمع صائب من قولك : سهم صائب، فإنه يقال فى الجمع سِهَام صوائبُ وصائبات وصُيَّبٌ بالتشديد ، وهذه الجموع كلها حسنة، رائقة، مُعْجِبَةٌ، دائرة على ألسنة أرباب النثر والنظم، ويقال فى جمعه أيضا صُيُبٌ على وزن كُتُب، وهو جمع قبيح، مرفوض الآستعمال، ثقيل على النطق، جاف عن السمع، وقد آستعمله أبو نُوَاسٍ فى شعره حيث قال :

ما أَحَلَّ اللهُ ما صَنَعَتْ * عينُه تلك العشيةَ بِى

قَتَلَتْ إنسانُها كَبِدِى * بِسِهَام للردى صُيُبِ

بجاءت غَثَّةً كريهة نابية عن السمع، نافرة عن اللسان، وكذلك الجمع فى قَيْد، فإنه يجمع على قيود، وهو جمع سائغ القبول، شائع الآستعمال، ويقال فى جمعه أيضا : أقياد، وهو من الجموع المستكرهة الخارجة عن الآستعمال، وقد ورد فى قول عُوَيْف القوافى من أبيات الحماسة :

ذهب الرُّقَادُ فمـا يُحَسُّ رُقَادُ * ممـا شجَاكَ ونامت العُوَّادُ

لمـا أتانى من عُيَيْنَةَ أنه * أمست عليه تُظَاهَرُ الأقْيَادُ

فلم يحسن ولم يَرُقْ ، وكذلك القول فى جمع قُبَّةٍ، فإنه يجمع على قبـاب وهو جمع حسن دائر على ألسنة الفصحاء من أهل النظم والنثر، ويجمع أيضا على قُبَبٍ، وليس بمستحسَن، وإن كان هو فى الكراهة دون أقياد فى جمع قَيْدٍ، وقد ٱستعمله ٱبن مُحْكَانَ التَّيِمِيُّ فى قوله :

مَاذَا تَرَيْنَ أَنُدْنِيهِـمْ لِأَرْحُلِنَا * فِى جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبْنِى لَهُمْ قُبَبَا ؟

فلم يحسن كحسن قباب بل جاءت كريهة مستشنعة؛ وأعجب مافى هذا الباب أن الجمع قد يكون متفقا فى لفظة واحدة إلا أنها مختلفة المعنى فيختلف الأستعمال فى الجمع باختلاف المعانى حتى لو جىء بجمع فى مكان جمع لم يحسن ٱستعماله وإن كان جائزا من جهة العربية؛ كلفظ العين، فإنها تطلق من جملة مدلولاتها على العين الباصرة، والعين من الناس، وهو النَّبِيهُ منهم، والعينُ الباصرة تجمع على عيون، والعين من الناس تجمع على أعيان، وقد شذ هذا الموضع على المتنبى فى قوله :

والْقَوْمُ فى أَعْيَـانِهِـم خَزَرٌ * والخَيْـــلُ فِى أَعْيَانِهـا قَبَلُ

بجمع العين الباصرة على أعيان فى الموضعين .

قال فى "المَثَل السائر" : وكأن الذوق يأبى ذلك ولا يجد له على اللسان حلاوةً وإن كان جائزا ؛ وأعجبُ من ذلك كله أنك ترى وزنا واحدا من الألفاظ ، فتارةً تجد مفرده حسنا ، وتارة تجد جمعه حسنا ، وتارة تجدهما جميعا حسنين .

فما مفرده أحسن من جمعه حُبْرُورٌ ، وهو فَرْخُ الحُبَارى، فإنه يجمع على حَبَارِيرَ ومفرده أحسنُ من جمعه ، وكذلك طُنْبُورٌ وطنابير ، وعُرْقُوبٌ وعراقيبُ ، وما أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفرده بُهْلُولٌ وبَهَاليل، ولُهْمُومٌ ولهاميم، وهذا ضد الأول.
ومما مفرده حسن وجمعه حسن جُمْهُورٌ وجماهير، وعُرْجُون وعَرَاجِينُ وما أشبه ذلك.

النمط السابع — ما يترجح فيه أحد صور الوزن الواحد باختلافه بالحركة والسكون كلفظ الثلث والربع إلى العشر، فإنها فى حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة الاستعمال فإذا تحركت أوساطها فقلت: ثُلُث، ورُبُع، وخُمُس، وكذلك إلى عُشُر، فإن الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهى الثُّلُثُ، والخُمُس، والسُّدُس، أما الربُعُ، والسبُعُ، والثمُن، والتُسع، والعُشر فليس كذلك فى حسنه. قلت: إنما يظهر ذلك فى السبُع، والتُسع، والعُشر خاصة فان الثقَل ظاهر فيها، أما الربُعُ والثمُنُ فانهما فى الحسن مع تحريك الوسط كالثلُث، والخمُس، والسدُس، وقد ورد القرآن بتحريك الوسط فيهما فى سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ وقوله: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ وأى حُسْن وفصاحة بعد وروده فى القرآن الكريم؟

النمط الثامن — ما تترجح فيه أبنية بعض اسماء الفاعلين فى الاستعمال على بعض كاسم الفاعل المبنىّ من فَعِلَ بفتح الفاء وكسر العين، فإنه يبنى على فاعل وفَعِلٍ بكسر العين وفَعْلَانَ، نحو حَمِدَ فهو حامد، وحَمِدٌ، وحَمْدَانُ، وفَرِحَ فهو فَرِحٌ، وفارح، وفرحانٌ، وغَضِبَ فهو غَضْبَان، وغاضب؛ فالأفعال الثلاثة على وزن واحد، وصيغُ أسماء الفاعلين المبنية منها مختلفةٌ فى الأحسن الغالب استعماله، فحامد من حَمِدَ أحسن من حَمِد وحَمْدَانَ، وفَرِحٌ من فَرِحَ أحسن من فارح وفرحان، وغضبانُ من غَضِبَ

أحسن من غاضب ، و إن كان جائزا ؛ وقد جاء بناء آسم الفاعل من فَرِحَ على فارِح في قول بعض شعراء الحَمَاسة :

فما أنا من حُزْنٍ وإن جَلَّ جَازِعٌ ✽ ولَا بِسُرُورٍ بَعْـــدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

فلم يحسن كحسن فَرِحٍ، أما ما جاء منه على وزن فُعَـلَةٍ نحو هُمَزَةٍ ولُمَزَةٍ وجُثَمَةٍ ونُوَمَةٍ ولُكَنَةٍ ولُحَنَةٍ، وما أشبه ذلك ؛ فقد قال في "المَثَل السائر" : الغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة .

النمط التاسع — ما يترجح من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة فعل وآفتعل ، فإن لفظةَ فعل لها موضع تستعمل فيه ، ولفظةَ آفتعل لها موضع تستعمل فيه، تقول : قعدت إلى فلان إذا جلستَ اليه، وآقتعدت غَارِبَ الجمل، إذا ركبتَ عليه، ولا يحسن أن تقول آقتعدت إلى فلان وقعدت على غارب الجمـل و إن كان ذلك جائزا ؛ وكذلك أفعل وآفعَوْعَلَ فإنك تقول أَعْشَبَ المكان، فإذا كثر عُشْـبُهُ قلت : آعشَوْشَب فلفظة آفعوعل للتكثير، وهي على ما فيها من تَكْرار الحروف طيِّبة عَذْبة، وكذلك سائر ما في وزنها نحو آخشَوْشَن المكان، وآغرَوْرَقَت العين، وآحلَوْلَى الطعم، وما أشبه ذلك .

قال في "المَثَل السائر" : وهذا كله ممـا أخذته بالآستقراء، وفي اللغة مواضع كثيرة من ذلك لا يمكن آستقصاؤها .

فانظر إلى ما يفعله آختلاف الصيغة بالألفاظ ،وعليك بتفقُّد أمثال هذه الكلمات لتعلمَ كيف تضع يدك في آستعمالهـا ، فكثيرا ما يقَع لفحول الخطباء والشعراء في مثلها ، ومؤلِّف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرَّتْ به الألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح ، فـما يجده الحسُّ منها مُوَحَّدًا وحَّده، وما يجده الحس منها مجموعا جمعه ؛ وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ .

الصنف الثالث

المتوحش فى زمن دون زمن

وهو ما كان متداولَ الاستعمال فى زمَن العرب، ثم رُفِضَ وتُرِك بعد ذلك، وبهذا لايعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم وَحْشِياً، ولا لديهم غريبا كما سيأتى التنبيه عليه؛ وإنما يُعاب استعماله على غيرهم ممن قَصُر فهمهم عنه، وقلّتْ معرفتُهم به؛ وقد كان كلام العرب مشحونا به فى نظمهم ونثرهم، دائرا على ألسنتهم فى مخاطَباتهم ومحاوَراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه؛ وانظر إلى ما تضمنته خطبهم وأشعارهم من الغريب ترى ذلك عِيَاناً؛ فمن ذلك قول أبى المُثَلَّم الهُذَلىّ:

آبِى الْمَضِيمَةِ نَابٍ بِالْعَظِيمَةِ مِتْـ * ـلَافُ الكَرِيمَةِ جَـلْدٌ غَيْرُ ثُنْيَانِ
حَامِى الْحَقِيقَةِ نَسَّالُ الوَدِيقَةِ مِعْـ * ـتَاقُ الوَسِيقَةِ لَا نِكْسٌ وَلَاوَانِ
رَبَّاءُ مَرْقَبَـةٍ مَنَّاعُ مَغْلَبَـةٍ * وَهَّابُ سَلْهَبَـةٍ قَطَّاعُ أَقْرَانِ
هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ * شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ سِرْحَانُ فِتْيَانِ

وقول أعرابىّ فى وصف إبل: كُومٌ بَهَازِر، مُكُدٌ خَنَاجِر، عِظَامُ الحَنَاجِر، سِبَاطُ المَشَافِر، أجوافها رِغَاب، وأعطانها رِحَاب؛ تُمنَع من البَهم، وتبرك للجُمَم. يريد بالكُوم جمع كَوْماء، وهى الناقة العظيمة السَّنَام، والبَهَازِر جمع بُهْزُرة، وهى الناقة العظيمة، والمُكُدُ جمع مَكُود، وهى الناقة الغزيرة اللبن، والخناجر جمع خُنجور، وهى بمعنى المَكُود أيضا، والعِظَام الحناجر: غِلَاظُ الأعناق، وسِبَاطُ المَشَافر أى مرسَلات المشافر، والمِشْفَرُ من الناقة كالجَحْفَلة من الفرس؛ ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى وينخرط فى هذا السِّلْك؛ فهذا ومثله لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم غريبا ولا لديهم وَحْشِيًّا، بل شائعا بينهم، دائرا على ألسنتهم فى نظمهم ونثرهم؛ وأعظم

شاهد لاستحسان استعماله عندهم ووضوح مَنْهَجِهِ لديهم أن القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام وأبهج لفظ قد اشتمل على ألفاظ من ذلك، كقوله تعالى : ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ وقوله : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ وما أشبه ذلك ؛ وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب، معلومةَ المعانى عند المخاطَبين : لأن الله تعالى قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم، والخطاب بما لا يُفْهَم بعيد، وقد قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ . وكذلك ورد فى الأخبار النبوية جملةٌ مستكثَرَة من ذلك، وهى المعبر عنها بغريب الحديث . كقوله صلى الله عليه وسلم "مَنْ قَعَدَ مقعدًا لم يَذْكُرِ اللهَ تعالى فيه كانت عليه من الله تعالى تِرَةٌ" أى نقص، وقيل تَبِعَة، وقيل حَسْرة . وقوله صلى الله عليه وسلم : "لِيَسْتَرْجِعْ أحدُكم حتَّى فِى شِسْعِ نَعْلِهِ فإنها من المَصَائب" والشِّسْعُ : أحد سيور النعل ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم : "أَلِظُّوا بياذا الجَلَال والإكرام" أى الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها، وقوله صلى الله عليه وسلم فى الدعاء : "واغْسِلْ حَوْبَتِى واسْلُلْ سَخِيمَةَ قلبى" وأشباه ذلك

وحديث أُمِّ زَرْعٍ صريح فى شيوع ذلك فيهم ؛ وعمومه فى مخاطَبَاتهم ومكالَمَاتهم ؛ وهو ما ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : "جلَس إحدى عشرةَ امرأةً فتعاهَدْنَ وتعاقَدْنَ ألا يَكْتُمْنَ من أخبار أزواجهن شيئا .

قالت الأولى : زوجى لَحْمُ جَمَلٍ غَثٌّ على رأس جبل، لا سَهْلٍ فيرتقى ولا سمين فيُنْتَقى ، وفى رواية فينتقل .

قالت الثانيـة : زوجى لا أَبُثُّ خبَره، إنّى أخافُ ألا أَذَرَه ، إن أذكُرْه أذكُرْ عُجَرَه وبُجَرَه .

الثالثة : زوجى العَشَنَّق ، إن أَنطِقْ أُطَلَّق ، وإن أسكُتْ أُعَلَّق

قالت الرابعة : زوجى كلَيْلِ تِهامَة ، لا حَرٌّ ولا قُرٌّ ولا خوفٌ ولا سآمة .

قالت الخامسة : زوجى إن دخل فَهِد ، وإن خرج أَسِد ، ولا يَسأل عما عَهِد .

قالت السادسة : زوجى إن أَكَلَ لَفّ ، وإن شَرِب ٱشْتَفّ ، وإن ٱضطَجَع ٱلتَفّ ، ولا يُولِج الكَفّ ، ليعلم البَثّ .

قالت السابعة : زوجى عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ ، كلُّ داءٍ له داءٌ ، شَجَّكِ أو فَلَّكِ أو جَمَعَ كُلًّا لَكِ .

قالت الثامنة : زوجى الريحُ ريحُ زَرْنَب ، والمَسُّ مَسُّ أرنَب .

قالت التاسعة : زَوْجِى رَفِيعُ العِمَادِ ، طويلُ النِّجَاد ، عظيم الرَّماد ، قريبُ البيت من النَّاد .

قالت العاشرة : زوجى مَالِكٌ ، وما مَالِكٌ ؟ ما لك خيرٌ من ذلك ، له إبلٌ قليلات المَسَارح ، كثيراتُ المَبَارك ، وإذا سمِعْنَ صوت المِزْهَرِ أيقَنَّ أنهنَّ هَوَالِك .

قالت الحادية عشْرَة : زوجِى أبو زَرْع ، وما أبو زَرع ؟ أَنَاسَ من حُلِىٍّ أُذُنَىَّ ، ومَلأَ من شَحْمٍ عَضُدَىَّ ، وبَجَّحَنِى فَبَجِحَتْ إلىّ نفسى ، وَجَدَنِى فى أهل غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ ، فَجَعَلَنِى فى أهـل صَهِيلٍ وأَطِيطٍ ودائِسٍ ومُنَقٍّ ؛ فعِنْـدَهُ أقولُ فلا أُقبَّح ، وأَرْقُـدُ فأَتَصبَّحُ ، وأَشْرَبُ فأَتقنَّحُ ، (وفى رواية فأتقَمَّحُ) ؛ أُمُّ أبى زَرْع ، فما أُمُّ أبى زرع ؟ عُكُومُها رَدَاحٌ ، وبَيْتُها فَسَاحٌ ؛ ابن أبى زَرْعٍ ، فما ٱبن أبى زَرْع ؟ مَضْجعه كَمَسَلِّ شَطْبَة ، وتُشبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَة ؛ بنت أبى زَرْعٍ ، فما بنت أبى زَرْع ؟ طَوْعُ أبيها ، وطَوْع أُمِّها ، ومِلْءُ كِسَائِها ، وغَيْظُ جارتِها ؛ جاريةُ أبى زَرْعٍ ، فما جارية أبى زرعٍ ؟ لا تَنُثُّ حَدِيثَنَا تَنْثِيثًا (وفى رواية لا تَبُثُّ حَديثَنا تَبْثِيثًا) ، ولا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا ، ولا تَمْلأُ بيتَنا تَعْشِيشًا . قالت : خرج أبو زرع والأَوْطابُ تُمْخَض ، فلَقِىَ ٱمرأة معها

وَلَدانِ لها كالفَهْدَيْنِ، يلعبانِ من تحت خَصْرِها بِرُمانتين، فطلّقنى ونكحها، فنكحتُ بعده رجلا سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وأخذ خَطِّيًّا، وأَرَاحَ علىّ نَعَمًا ثَرِيًّا، وأعطانى من كلّ رائحةٍ زوجًا، (وفى رواية فأعطانى من كل ذَابِحَةٍ زوجا) . وقال : كُلى أُمَّ زَرْعٍ وميرِى أَهْلَكِ، فلو جمعتُ كلّ شىْءٍ أعطانِى ما بلغ أصغرَ آنيةِ أبى زَرْعٍ "

قالت عائشة : قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم "كنتُ لكِ كأبى زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ" وفى رواية " غير أنّى لا أطلّقك " .

فاذا كان هذا كلامَ نسائهم الدائرَ فيما بينهن من محادثاتهن مع بعضهن فى خَلَوَاتِهِنّ، فما ظنك بفُرْسان الكلام فى نظمهم ونثرهم ! فأنّى يُعاب عليهم ذلك، ويُنْكر عليهم الإتيان بمثله !

وقد آختصم رجل وآمرأة إلى يحيى بن يَعْمَر، وهو من أكابر التابعين وجِلّتهم، فقال للرجل : أَأَنْ سألَتْكَ ثَمَنَ شَكْرِها وشَبْرِكَ، أنشأتَ تَطُلُّها وتَضْهَلُها؟ . أما غير العرب ممن تكلف ذلك وأتى به فى كلامه المعتاد فى مخاطَبَاته أو نثره ونظمه فإنه يعاب عليه ذلك ، وينحط به عن درجة الفصاحة ، ويخرج به عن قانونها ؛ إذ المقصود من الكلام إنما هو الإفهام لا غير، فيخاطب كلُّ أحد بما يفهمه ولا يُكَلَّفُ بما لا يعلمه، وخير الكلامِ ما جاد وأفاد .

قال بِشْرُ بن المعتمر : إيَّاك والتَّوَعُّرَ ، فإنه يُسْلِمك إلى التعقيد والتقييد ، وهو الذى يستهلكُ معانيَكَ، ويمنعُك مَرَامِيَكَ .

قال أبو هلال العسكرى : وربما غلب سوءُ الرأى وقلةُ العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السُّوقِىّ، والمملوكَ والأعجمىّ، بألفاظ أهل نجد، ومعانى أهل السَّرَاةِ؛ وحكاياتهم فى ذلك كثيرةٌ .

قال أبو نَصْر الجوهرىّ: سقط عيسى بن عُمَرَ عن حمار له فاجتمع عليه الناس فقال: مَا لَكُمْ تَكَأْكَأْتُمْ عَلَىَّ تَكَأْكُؤَكُمْ على ذِى جِنَّــةٍ! افْرَنْقِعُوا عَنِّى. أى ما لكم اجتمعتم علىّ اجتماعَكُم على ذى جِنَّة تفرّقوا عنى. وذكر الجاحظ هذه الحكايةَ عن أبى عَلْقَمَةَ النحوىّ بزيادة فقال: مر أبو عَلْقَمَةَ ببعض طُرُق البصرة فهاجت به مِرَّةٌ فوثب عليه قوم يَعَضُّونَ إبهامَه ويؤذِّنون فى أذنه، فأفْلَتَ من أيديهــم وقال: مَا لَكُمْ تَكَأْكَأْتُمْ علىّ كَمَا تَكَأْكَئُونَ على ذى جِنَّةٍ! افْرَنْقِعُوا عَنِّى. فقال بعضهــم: دَعُوه فإن شيطانه يتكلم بالهِنْدِيَّة.

وقال أبو علقمة يوما لحاجمه: أُشْدُدْ قَصَبَ المَلَازِم، وأَرْهِف ظُبَاتِ المَشَارِط، وأَمِرَّ المسحَ، واستَنْجِل الرَّشْحَ، وخَفِّف الوطء، وعجِّل النَّزْع، ولا تُكْرِهَنَّ أَبِيًّا، ولا تردّن أَتِيًّا؛ فقال له الحَجَّامُ: ليس لى علم بالحروف.

ونظر إليه رجل وتحته بَغْل مِصْرىّ حسن المَنْظَرِ، فقال: إن كان مَخْبَرُ هــذا البغل كَمَنْظَرِه فقد كَمَل؛ فقال أبو عَلْقَمَةَ: واللهِ لقد خرجتُ عليه من مِصْرَ فتنكَّبتُ الطريقَ مخافة السُّرَّاقِ وجَوْرِ السلطان، فبينا أنا أسيرُ فى ليلة ظَلْمَــاءَ قَتْمَاءَ، طَخْيَاءَ مُدْلَهِمَّةٍ، حِنْدِسٍ داجِيَةٍ، فى صَحْصَحٍ أَمْلَسَ، إذ أحس بِنَبْأَةٍ من صوت نُغَرٍ، أو طَيَرَانِ ضُوَعٍ، أو نَغْضِ سُبَدٍ، فَحَاصَ عن الطريق مُتَنَكِّبًا لِعزَّةِ نفسه، وفَضْل قُوَّته، فبعثته باللجام فَعَسَلَ، وحرّكته بالركاب فَنَسَلَ، وانْتَعَلَ الطريق يغتاله مُعْتَرِمًا، والْتَحَفَ الليل لا يهابه مُظْلِمًا، فوالله ما شبهته إلا بظَبْيَة نافرة تَحْفِزُها فَتْخَاءُ شاغِيَةٌ؛ فقال الرجل: فادعُ الله وسَلْهُ أن يحشرَ معك هــذا البغلَ يوم القيامة؛ قال: ولِمَ؟ قال: لِيُجِيزَك الصِّراطَ بطفرة.

وكانت آمرأة تأكل الطِّين[١] لحصل لها بسببه إسهال مَرِضَت منه، وكان لها ولد يتكلم بالغريب، فكتب رِقَاعا وطَرَحها فى المسجد الجامع بمدينة السَّلام. فيها صِينَ آمرُؤٌ وَرُعِىَ، دعا لامرأة إنقحْلَةٍ مُقْسَئنَّةٍ قد مُنِيَتْ بأكْلِ الطُّرْمُوقِ فأصابها من أجله الاَسْتِمْصَالُ أن يَمُنّ الله عليها بالاَطْرِغْشَاشِ . فكل من قرأ رُقعته ، دعا عليـه ولعنه ولعن أمّه .

وحكى محمد بن أبى المغازى الضبى عن أبيه قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب، فخرج إلى ضَيْعة له على حِجْرٍ معها مُهْر فأفْلَتَتْ، فذهبت ومعها مُهْرُها فخرج يسأل عنها، فمرّ بخَيَّاطٍ فقال : ياذا النِّصَاح وذَاتِ السَّمّ، الطاعنَ بهـا فى غير وَخْزٍ لغير عِدًى، هل رأيت الخَيْفَانَةَ القَبَّاءَ يتبعها الحَـاسِنُ المُسْرَهَفُّ ؟ كأنّ غُرَّتَه القمرُ الأزهر، ينير فى حُضْره كالخُلَّب الأجرد؛ فقال الخياط : آطْلُبهـا فى ترللج ؛ فقال: وَيْحك ما تقول! قَبّحك الله، فإنى ما أعرف رَطَانَتَكَ؛ قال: لعن الله أبغضَنا لفظًا وأخطأنا مَنْطِقا .

وضرب عمرُ بنُ هبيرةَ عيسى بنَ عمر النحوىَّ ضربا كثيرا من أجل وديعة فكان يقول وهو يضرب : ماهى إلا أُثَيَّابٌ فى أُسَيْفَاط أخذها عَشَّارُوك . وسأله رجل عن مسألة . فقال : ليست مسألتك يَتْنًا ، أى ليست مستوية؛ وأصـل اليَتْن : خروج رِجل الولد قبل رأسه . وسأله آخر عن كتابته ، فقال : كتبت حتّى آنقطع سَوائى أى ظهرى ، على أنّ أبا جعفر النحاسَ قد عدّ عيسى بن عمر من المطبوعين فى ذلك . قال الجاحظ : رأيتهم يديرون فى كتبهم هذا الكلامَ، فإن كانوا إنما رَوَوْهُ ودوّنوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة، فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة ،

(١) كذا فى الصناعتين أيضا ، ولعله مصحف عن الطير بالراء بدليل بقية الكلام ، فان الطرموق اسم للخفاش وهو من الطير .

وإن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العَجّاج وشعر الطِّرِمّاح وأشعار هُذَيْل تأتى لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأَصْمَعِيَّ بمثل هذا الكلام، لظننتُ أنه يستجهل نفسه، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصنف الرابع

الغريب المتوحش عند قوم دون قوم

وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحَضَر منهم، فإن أهل الحَضَر يألفون السَّهْلَ من الكلام، ويستعملون الألفاظ الرقيقةَ، ولا يستعملون الغريب إلا فى النادر؛ وأهل البادية يألفون اللفظ الجَزْل ويميلون إلى استعمال الغريب؛ وإذا نظرتَ إلى أهل مكةَ وكلامِ قريش الذين نزل القرآن بلغتهم وبُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أُرُومَتِهِمْ ، وكلامِ أهل حَضْرَمَوْتَ وما جاورها من اليمن ومَخَاليف الحجاز، علمتَ فرقَ مابين الكلامين ، وتبايُنَ مابين الطَّرَفين، حتّى كأنّ البادى يَرْطُنُ بالنسبة إلى الحاضر، ويتكلم بلغة غير العربية ؛ وكانت لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يتكلم بها على الدوام، ويخاطب بها الخاص والعامَّ، لغة قريش وحاضرةِ الحجاز، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أُوتِيَ جوامع الكلم وجمع إلى سُهُولة الحاضرة جزالةَ البادية ، فكان يخاطب أهل نجد وتِهَامَةَ وقبائلَ اليمن بلغتهم، ويخاطبهم فى الكلام الجزل على قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لِطَهْفَةَ النَّهدِىّ وكتابُه إلى بنى نَهْد ، وذلك أنه لمّا قَدِمَ وُفودُ العرب على النبىّ صلى الله عليه وسلم قدم عليه طَهْفَةُ بن أبى زُهَير النَّهدِىّ . فقال : أتيناك يارسول الله من غَوْرِ تِهَامَةَ على أكوار المَيْس، ترتمى بنا العِيسُ، نستَحْلِب الصَّبِيرَ، ونستَخْلِب الخَبِيرَ، ونَسْتَعْضِدُ البَرِيرَ، ونَسْتَخِيلُ الرِّهَامَ،

ونستخيل الجَهامَ، من أرض غائلة النِّطاء، غليظة الوِطاء، قد جفَّ المُدْهُنُ، ويبس الجعثن، وسقط الأملوج، ومات العُسْلوج، وهلك الهَدِىّ، وفاد الوَدِىّ، برئنا إليك يا رسول الله من الوَثَنِ والعَنَنِ، وما يُحْدِثُ الزمن، لنا دعوةُ السلام، وشريعة الإسلام ما طَمَا البحر، وقامَ تِعارٌ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أغْفالٌ، ما تبِضُّ ببِلال، ووَقيرٌ كثير الرَّسَل، قليل الرِّسْل، أصابتها سُنَيَّةٌ حمراءُ مُؤْزِلَةٌ، ليس لها عَلَلٌ ولا نَهَلٌ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهمّ بارك لهم فى مَحْضِها ومَخْضِها ومَذْقِها وفِرْقِها، وابعث راعيها فى الدَّثْرِ بيانع الثَّمرِ، وافْجُرْ لهم الثَّمَد، وبارك لهم فى المال والوَلَد، مَنْ أقام الصلاة كان مسلما . ومَنْ آتى الزكاة كان مُحْسِنا . ومَنْ شهد أن لا إله إلا الله كان مُخْلِصا ..

لكم يا بنى نَهْدٍ ودائعُ الشِّرك، ووَضائع المُلْك؛ لا تُلْطِط فى الزكاة، ولا تُلْحِد فى الحياة، ولا تَتَثاقَلْ عن الصلاة" .

وكتب معه كتابا إلى بنى نهد فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم ! السلام على مَنْ آمنَ بالله ورسوله ، لكم يا بنى نَهْدٍ فى الوظيفة الفريضةُ، ولكم العارضُ والفَرِيشُ وذو العِنان الرَّكُوب ، والفَلُوُّ الضَّبِيسُ؛ لا يُمْنع سَرْحُكُم ، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكُم ولا يمنع دَرُّكُم ؛ مالم تُضْمِروا الإمْاقَ ، وتأكلوا الرِّباقَ؛ من أقرّ فله الوفاء بالعهد والذِّمّة ، ومن أبى فعليه الرِّبْوَةُ . "

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة هَمْدانَ، وذلك أنه لما قَدِمَ عليه صلى الله عليه وسلم وفود العرب قَدِمَ وفد هَمْدانَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم مالك بن نَمَط أبو ثَوْر، وهو ذو المِشْعار ، ومالك بن أيفع ، وضِمَام بن مالك السلمانى، وعميرة بن مالك الخارِفِى، فلقُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرْجِعَهم

من تَبُوكَ ، وعليهم مُقَطَّعات الحِبَرَات والعمائم العَدَنِيَّة ، برحال المَيْس على المَهْرِيَّة والأَرْحَبِيَّة ، ومالكُ بن نَمَط ورجلٌ آخر يرتجزان بالقوم ، يقول أحدهما :

هَمْدَانُ خيرُ سُوقَةٍ وأَقْيالْ ٭ لَيْس لَهَا فى العالَمِينَ أَمثالْ
مَحَلُّهَا الهَضْبُ ومنها الأَبْطالْ ٭ لها إطاباتٌ بها وآكالْ

ويقول الآخر :

إِلَيْكَ جاوَزْنَ سَوَادَ الرِّيفِ ٭ فى هَبَوَاتِ الصَّيْفِ والخَرِيفِ
٭ مُخَطَّمَاتٍ بِحِبَالِ اللِّيفِ ٭

فقام مالك بن نَمَط بين يديه ، ثم قال : يارسول الله ، نَصِيَّةٌ من هَمْدَانَ من كل حاضر وبادٍ ، أَتَوْكَ على قُلُصٍ نَوَاجٍ ، متَّصِلةٌ بحبال الإسلام ، لا تأخذهم فى الله لومةُ لائم ، من مِخْلافِ خَارِفٍ ، ويامٍ ، وشاكرٍ ؛ أهل السَّواد والقُرى ، أجابوا دَعْوة الرسول ، وفارقوا آلهة الأنصاب ، عهدُهم لاينقضُ ما أقام لَعْلَعٌ ، وماجرى اليَعْفورُ بِصَلَّعٍ .

فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا كتابٌ من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمِخْلافِ خَارِفٍ وأهل جناب الهَضْب وحِقَاف الرَّمْلِ ، مع وافدها ذى المِشْعار مالك بن نَمَطٍ ، ولِمَنْ أسلم من قومه على أن لهم فِرَاعَهَا ووِهَاطَهَا ما أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة ، يأكلون عِلافَهَا ويَرْعَوْنَ عَافِيَها ؛ لهم بذلك عَهدُ الله وذِمَام رسوله ، وشاهدُهُم المهاجرون والأنصار" .

فقال فى ذلك مالك بن نَمَط :

ذَكَرْتُ رسولَ الله فى فَحْمَةِ الدُّجى ٭ ونَحْنُ بأعلى رَحْرَحَانَ وصَلْدَدِ
وهُنَّ بنا خُوصٌ طلائحُ تَعْتَلِي ٭ بِرُكْبانِها فى لاحِبٍ مُتَمَدِّدِ
على كُلِّ فَتْلاءِ الذِّراعَيْنِ جَسْرَةٍ ٭ تَمُرُّ بنا مَرَّ الهِجَفِّ الخَفَيْدَدِ

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إلى مِنًى * صَوَادِرَ بالرُّكْبَانِ من هَضْبِ قَرْدَدِ
بأن رسولَ الله فينا مُصَدَّقٌ * رسولٌ أتى من عند ذِى العَرْشِ مُهْتَدِ
فما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فوق رَحْلِهَا * أبرَّ وأوفى ذمّةً من مُحَمَّدِ
وأعطى إذا ما طَالِبُ العُرْفِ جَاءَهُ * وأمضى بحَدِّ المَشْرَفِيِّ المُهَنَّدِ

وفى رواية أن فى كتابه إليهم : "إن لكم فِرَاعَها ووِهَاطَهَا وعَزَازَهَا تأكلون علافَهَا وتَرْعَوْنَ عَفَاءَهَا ، لنا من دِفْئِهِم وصِرَامهم ما سلَّمُوا بالميثاق والأمانة ؛ ولهم من الصَّدَقَةِ الثِّلْبُ والنَّابُ ، والفَصِيلُ والعارضُ ، والدَّاجِنُ والكَبْشُ الحَوَرِىّ ؛ وعليهم فيها الصَّالِغُ والقَارِحُ" .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لأُكَيْدِر دُومَةَ . قال أبو عبيدة . أنا قرأته فإذا فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسولِ الله ، لأُكَيْدِرَ حين أجاب إلى الإسلام ، وخَلَعَ الأَنْدَادَ والأصنامَ ، مع خالد بن الوليد ، سيفِ الله فى دُومَةِ الجَنْدَلِ وأكنافها ؛ إن لنا الضَّاحِيَةَ من الضَّحْلِ(١) والبُوْرَ والمَعَامِىَ وأغْفَالَ الأرض ، والحَلْقَةَ والسِّلاحَ والحَافِرَ والحِصْنَ ؛ ولكم الضَّامِنَةَ من النخل ، والمَعِينَ من المعمور ، لا تُعْدَلُ سَارِحَتُكُمْ ، ولا تعدّ فَارِدَتُكُمْ ، ولا يُحْظَرُ عليكم النبات ، تُقِيمون الصلاة لوقتها ، وتُؤْتون الزكاة بحقّها ؛ عليكم بذلك عهدُ اللهِ والميثاقُ ، ولكم بذلكَ الصدقُ والوفاءُ ، شهد اللهُ ومَنْ حضر من المسلمين" .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى وائل بنِ حُجْرٍ وأهل حَضْرَمَوْتَ ، وهو "بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى الأقيال العَبَاهِلَةِ من أهل حَضْرَمَوْتَ بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، على التِّيعَةِ الشَّاةُ ، والتِّيمَةُ لصَاحِبِهَا وفى السُّيُوب

(١) الضحل بالسكون : القليل من الماء ، ويروى : "لكم الضاحية من البعل" وهو النخل .

الخُمُسُ، لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ، ولا شِنَاقَ ولا شِغَارَ؛ ومن أجْبى فقد أربى، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ .

وفى رواية أنه كتب إليهم "إلى الأقيال العَبَاهِلَةِ والأرْوَاعِ المَشَابِيب، وفى التِّيعَةِ شاةٌ لا مُقْوَرَّةُ الأَلْيَاطِ ولا ضَنَاكٌ، وأنطُوا الثَّبَجَة وفى السُّيُوبِ الخُمُسُ؛ ومن زنى من آمْبِكْرٍ فاصْقَعُوهُ مائة، وآسْتَوْفِضُوه عَاماً؛ ومن زنى من آمْثَيِّبِ فضَرِّجُوه بالأَضَامِيمِ، ولا تَوْصِيمَ فى الدين، ولا غُمَّةَ فى فرائض الله تعالى؛ وكل مُسْكِرٍ حرامٌ، ووائل بن حُجْرٍ يترَفَّل على الأقيال" .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله "فى المَثَل السائر" : وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتضى آستعمال هذه الألفاظ، ولا تكاد توجد فى كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كحديث طَهْفَةَ وما جرى مجراه؛ على أنه قد كان فى زمنه أوّلا متداوَلا بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يستعمله إلا يسيرا لأنه أعلم بالفصيح والأفصح .

الصفة الثانية

اللفظ الفصيح ألّا يكون مبتذَلا عامّيًّا، ولا ساقطا سُوقيًّا

واللفظ المبتذل على قسمين

القسم الأوّل

ما لم تغيره العامّة عن موضعه اللغوىّ إلا أنها آختصت باستعماله دون الخاصة فابتذل لأجل ذلك وسَخُف لفظُه، وآنحطّت رتبته لآختصاص العامّة بتداوله؛ وصار من آستعمله من الخاصة مَلُوما على الإتيان به لمشاركة العامة فيه؛ وقد وقع ذلك لجماعة من فحول الشعراء فَعِيبَ عليهم .

فمن ذلك قول الفَرَزْدَق من قصيدة :

وأصبحَ مُبيَضُّ الضَّريبِ كأنه * على سَرَوات النَّبْت قُطْنٌ مُنَدَّفُ

فقوله مندّف من الألفاظ العامية المبتذلة ، وإن كان له أصل فى اللغة يقال : نَدَفَ القُطْنَ إذا ضرب به بالمِنْدَف ، ولذلك قيل للقُطْنِ المندوف : نديف .

ومن ذلك قول أبى نُوَاس :

ومُلِحَّةٍ بالعَذْلِ تَحْسَبُ أننى * بالجهل أَتْرُكُ صُحْبَةَ الشُّطَّار

فالشطار جمع شاطر ، وهو فى أصل اللغة آسم لمن أعيا أهلَهُ خُبْثًا ، يقال منه : شَطَر وشَطُر بالفتح والضم شَطَارَةً بالفتح فيهما ، ثم آستُعمِل فى الشجاع الذى أعيا الناس شجاعةً ، وغلب دَوَرَانُه على لسان العامة فآمتُهِن وآبتُذِل ، فاستعمال أبى نُوَاس له غير لائق ، وكذلك قوله أيضا :

يامَنْ جفَـانى ومَلَّا * نَسِيتَ أهلًا وسَهْلا

وما تَمَـرْحَبْتَ لمـا * رأيتَ مالىَ قَـلَّا

إنى أظُنُّـــك فيا * فعلتَ تَحْـكِى القِرِلَّى

فلفظ القِرِلَّى من أشدّ ألفاظ العـامة آبتذالا ، وهو آسم لطائر صغير من طيور المـاء يخطَفُ صِغَار السمك من المـاء برجليه ومِنْقاره ، فإذا سـقط على المـاء ولم يحصل على صيد آرتفع بسُرْعة ، فتضرب به العامة المَثَل تقول : فلانٌ كأنه قِرِلَّى ، إن وَجَدَ خيرا تَدَلَّى ، وإن وجد شرا تَعَلَّى

وقوله أيضا :

وأَنْمَرِ الجِـلْدَةِ صَـيَّرْتُهُ * فى النـاس زَاغًا وشِقِرَّاقَا

مازِلْتُ أُجْرِى كَلْكَلِى فَوْقَهُ * حتى دعا من تحتِـه قَاقَا

فقوله : قَاقَا حكاية لصوت يضرب به المثل لصياح المغلوب، يقال : فعلت بفلان كذا وكذا حتّى قال : قاق، وأقبح من ذلك كله فى الآبتذال بين العامة والسّخافة قول المتنبى :

ومن النـاس مَنْ يَجُوزُ عليهم * شُـعَراءُ كأنها الخـازِ بازِ

قال فى "المثل السائر" : وهـذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة البِرْسام الذى ذكره فى قوله :

إن بعضًا من القَرِيض هُـذَاءُ * ليس شـيئا وبعضـه أحكامُ
فيـه مايَجْلُبُ البراعةَ والفهْـمَ * وفيـه مايَجْلُبُ البِرْسَامُ

وعدّ منه فى "المثل السائر" قول البُحْتُرِىّ :

وجوهُ حُسَّادِكَ مُسْوَدَّةٌ * أم صُبِغَتْ بعدىَ بالزَّاجِ؟

قال : فلفظة الزاج من أشدّ ألفاظ العامة آبتذالا، وكذلك عدّ منه قول النابغة الذُّبْيَانِىّ :

أو دُمْيَة فى مَرْمَرٍ مرفوعة * بُنِيَتْ بآجُرٍّ يُشَادُ بِقَرْمَدِ

قال : فلفظة آجُرّ مبتذلة جدّا . وإذا شئت أن تعلم شيئا من سرّ الفصاحة التى تضمنها القرآن الكريم، فآنظر إلى هذا الموضع فإنه لمـا جىء فيه بذكر الآجُرّ لم يذكر بلفظه، ولا بلفظ القَرْمَد أيضا، ولا بلفظ الطُّوب الذى هو لغة أهل مِصْرَ، فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر فى القرآن على وجه آخر، وهو قوله تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يٰأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِى صَرْحًا﴾ فعبر عن الآجُرّ بالوُقُود على الطين؛ نَعَمْ من الألفاظ المبتذلة السخيفة لفظة الكَنْس، وما آشتق منه، ولذلك عابها القاضى الفاضل رحمه الله تعالى على ابن سـناء الملك فى بعض أشعاره حيث قال من أبيات

يُزَخْرَفُ منها وجهُها فهو جَنَّـةٌ * ويَخْضَرُّ منها نَضْرَةً فهو سُنْدُسُ

صليبِى وهذا الحسنُ بَاقٍ فَرُبَّمَـا * يُعَزِّلُ بيتُ الحُسْنِ منه ويُكْنَسُ

فلمـا وقف القاضى الفاضل رحمه الله على هذه القصـيدة كتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل : وما قلت هذه الغاية، إلا وتعلمنى أنها البداية؛ ولا قلت هذا البيت آية القصـيدة إلا تلا ما بعـده : وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ . أَفَسِحْرٌ هَـذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . ولا عيب فى هذه المحاسن إلا قصور الأفهام، وتقصير الأنام، وإلا فقد لَهِجَ الناس بمـا تحتها، ودوّنوا ما دُونَها، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بمـا لا يقاربها، وسارت الأشعار وطالت بما لا يبلغ مُدَّها ولا نَصيفه؛ والقصيدة فائقة فى حسنها، بديعة فى فَنِّها، وقد ذَلّت السين فيها وانقادت، فلو أنها الراء لمـا رادت؛ و بيت يُعَزِّل و يكنس أردت أن أَكْنُسَه من القصيدة، فإن لفظة الكنس غير لائقة فى مكانها .

فأجابه ابن سناء الملك قائلا : وعلم المملوكُ مانبه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنُسَه من القصيدة، وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت، مستحليا له متعجبا منه، معتقدا أنه قد مَلَّح فيه، وأنّ قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدةُ قوافيه، وما أوقعه فى الكنس إلا ابن المعتز فى قوله :

وقَوَامِى مثـلُ القَنَاةِ من الخط وخدّى من لِحْيَتِى مكنوسُ

والمولى يعـلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثّر، ويطلب مطالبه فتتعسّر عليه وتتعذر؛ ولا آنَسَ نارَه إلا لمّـا وجد عليها هُدًى، ولا مال المملوك إلا إلى طريق مَنْ مَيَّلَهُ إليه طبعهُ؛ ولا سار قلبه إلا إلى مَنْ دَلَّهُ عليه سمعُه؛ ورأى المملوك أبا عُبَادَةَ قد قال :

ويا عاذلِى فى عَبْرَةٍ قد سَفَحْتُها * لِبَـيْنٍ وأخرى قبلها للتجنّب

تُحَاوِلُ منّى شيمةً غيرَ شيمتى ... وتطلُب منّى مَذْهَبا غير مَذْهبى

وقال :

وما زَارَنِى إلا وَلِهْتُ صَبَابَةً ... إليْه وإلَّا قلتُ أهْلا ومَرْحَبَا

فعلم المملوك أنَّ هذه طريقةٌ لا تُسْلَك، وعَقِيلةٌ لا تُمْلَك، وغايةٌ لا تُدْرَك؛ ووجد أبا تمَّام قد قال :

* سَلِّم على الرَّبْع من سَلْمى بذِى سَلَم

وقال : * خَشُنْتِ عَلَيْهِ أُخْتَ بَنِى خُشَيْنِ *

فاشمأزَّ من هذا النَّمَطِ طبعُه، واقشعرّ منه فهمه، ونَبَا عنه ذوقُه، وكاد سمعه يتجرّعه ولا يكاد يُسِيغُهُ؛ ووجد هذا السيد عبد الله بن المعتز قد قال :

وَقَفْتُ فى الرَّوْض أبكى فَقْدَ مُشْبِهِهِ ... حتّى بَكَتْ بدُمُوعى أعيُنُ الزَّهَرِ

لو لم أُعِرْهَا دُموعَ العينِ تَسْفَحُها ... لرحمتى لاستعارتْها من المَطَرِ

وقال :

قَدُّكَ غُصْنٌ لا شَكَّ فيه كما ... وجْهُك شمسٌ نهارُه جَسَدُك

فوجد المملوكُ طبعه إلى هذا النَّمَط مائلا، وخاطره فى بعض الأحيان عليه سائلا؛ فَنَسَجَ على هذا الأسلوب، وغلب عليه خاطرُه مع علمه أنه المغلوب؛ «وحُبُّكَ الشىء يُعْمِى ويُصِمُّ» فقد أعماه حبُّه وأصمه إلى أن نظم تلك اللفظة فى تلك الأبيات تقليدا لابن المعتز حيث قالها، وحَمَل أثقالها؛ وهى تُغْفَر لذاك فى جَنْب إحسانه، فأما المملوك فهى عَوْرة ظهرت من لسانه .

فأجابه القاضى الفاضل رحمه الله بقوله : ولا حجة فيما احتج به عن الكنس فى بيت ابن المعتز، فإنه غير معصوم من الغلط، ولا يُقَلَّد إلا فى الصواب فقط، وقد علم ما ذكره ابن رَشيق فى عمدته من تهافُت طبعه، وتباين وضعه؛ فذكر من محاسنه مالا يُعَلَّق معه كتاب، ومن بارده وغَثّه مالا تُلبس عليه الثياب .

وقد تعصّب القاضى السعيد على أبى تمّام فنقصه من حظه، وللبُحتُرِىّ فأعطاه أكثر من حقه، وما أنصفهما :

ولو كان هذا موضعَ العَتْبِ لاشتفى * فؤادى ولكنْ للعتاب مواضعُ

قال المولى صلاح الدين الصَّفَدى رحمه الله تعـالى فى شرح لامية العجم . وقد استعمل ابن سناء الملك رحمه الله تعالى هذه اللفظة فى غير هـذا الموضع ولم يتّعظ بنهى الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجَرَ عما قبحه لأنه غلب عليه الهوى، فقال :

تَوَسْوَسَ شِعْرِى به مُـدّةً * وما بَرِحَ الخَـلْقُ والوَسْوَسه

وخلَّصنى من يدَىْ عِشْـقِه * ظـلامٌ على خدّه حَنْدَسَـه

كنَسْتُ فؤادىَ من عِشْقِه * ولِحْيته كانت المِكْنَسَه

قال : وأما القاضى الفاضل، فما أظنه خلا فى هذا الايراد، من ضعف انتقاد، وأحاشى ذاك الذهن الوَقّاد، من هذا الاعتقال فى ورطة هـذا الاعتقاد، وما أراه إلا أنه تعمّد أن يعكس مراده، ويُوهِىَ ماشـدّه ويُوهنَ ماشاده، ويرميه ببلاء البَلادة، إما على سبيل النَّكال أو النَّكادة، لأن الفاضل رحمه الله ممن يتوخّى هـذه الألفاظ ويقصدها، ويُنْشيها وينشدها، ويورى زِنَادَها ويُوردها .

فمن كلام القاضى الفاضل فى بعض رسائله : وما استطاعت أيديهم أن تَقبِضَ جمره، ولا ألبابهم أن تسيغ جمره ولا سيوفهم أن تكنُس قميمه .

قال فى "المثل السائر" : ومثل هذه الألفاظ إذا وردت فى الكلام، وضعتْ من قدره ولو كان معناه شريفا . قال : وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر، لكن منهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثِر .

القســـم الثـانى

ما كان من الألفاظ دالاًّ على معنًى وضع له فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالًّا على معنًى آخر . وهو على ضربين

الضرب الأول — ما ليس بمستقبح فى الذكر ولا مستكره فى السمع . وذلك كتسميتهم الإنسانَ إذا كان دَمِثَ الأخلاق، حَسَن الصورة أو اللباس أو ما هــذا سبيله ظريفا، والظَّرْفُ فى أصل اللغة : مختص بنُطْق اللسان فقط، كما أن الصَّبَاحَةَ مختصــة بالوجه ، والوضاءةَ مختصة بالبَشَرة ، والجمــالَ مختص بالأنف، والحلاوةَ مختصــة بالعينين، والملاحةَ : مختصــة بالفم، والرَّشَاقَةَ : مختصة بالقدّ، واللباقةَ : مختصة بالشمائل؛ فالظَّرْفُ إنمــا يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه ونقلته إلى أعمّ من موضوعه كما تقدّم؛ وممن وقع له الذُّهول عن ذلك فغلِط فيه أبو نُوَاس فى قوله :

اختَصَم الجُودُ والجَمــالُ * فيــك فصارا إلى جِدَال
فقال هـــذا يمينــه لى * للعُرْف والبَذْلِ والنوال
وقال هــذاك وجهه لى * للظَّرْف والحُسْن والكمال
فافترقا فيك عن تَرَاضٍ * كلاهمــا صادقُ المَقَال

فوصف الوجه بالظَّرْف، وهو من صفات النطق كما تقدّم؛ وكذلك أبو تَمّــام فى قوله :

لَكَ هَضْبَةُ الحِلْم التى لو وازنت * أجأً إذًا ثَقُــلَتْ وكان خفيفا
وحلاوةُ الشِّيَم التى لو مازَجَتْ * خُلُقَ الزمان الفَــدْم عاد ظريفا

فوصف الشِّيَمَ بالحلاوة وهى مختصــة بالعينين، ووصف الخُلُقَ بالظَّرْف وهو مختص بالنطق كما تقدّم بيانه .

الضرب الثانى — ما يُستقبح ذكره كما فى لفظ الصُّرْم بالصاد المضمومة والسُّرْم بالسين؛ فإن الصَّرم بالصاد فى أصل اللغة عبارة عن القطع، يقال: صرمه يَصْرِمُه صَرْما وصُرْما بالفتح والضم إذا قطعه، و بالسين عبارة عن المحل المخصوص، وقد كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة فى أشعارها بهذا المعنى فلا يعاب عليها؛ قال أبو صخر الهُذَلىّ:

قد كان صُرْم فى المَمَات لنا * فعجِلْت قبلَ المَوْتِ بالصَّرْم

فاستعمله بمعنى القطع ولم يُعَب عليه لأن الألفاظ فى زمن العرب لم تتغير بل كانت باقيةً على أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا وآستعملت لفظ الصُّرْم الذى هو القطع فى المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا وسماعه مستكرها، وعيب على أبى الطَّيِّب آستعماله فى قوله:

أذاق الغَوانِى حُسْنُه ما أذقْنَنِى * وعَفَّ بجَازاهنَّ عنِّى بالصُّرْمِ

على أنه إنما يكره آستعماله بصيغة الأسم لما تقدّم، أما إذا آستعمل بصيغة الفعل مثل صَرَمَ و يَصْرِمُ وما شاكل ذلك، فإنه لا حَجْر فى آستعماله، وقد آستعمله آبن الرومىّ بالسين على بابه فجاء أقبحَ وأشنعَ، فقال يهجو الوَرْد:

كأنه سُرْم بغـل حين يُخْرِجه * عند البِراز و باقِى الرَّوْث فى وَسَطِه

قال الصلاح الصَّفَدِىّ: وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر فى الورد أيضا:

كأنهُ وَجْنةُ الحبيبِ وقَدْ * نَقَّطها عاشـقٌ بدينـار

قال: فانظر إلى هذا، وَجْنة، وحبيب، ودينـار؛ وإلى ذلك، سُرْمٌ، و بغل، وروث. وشتَّانَ ما بينهما.

الصـــفة الثالثة

من صفات اللفظ المفـرد الفصيح ألّا يكون متنافرَ الحروف، فإن كانت حروفه متنافرةً بحيث يثقُل على اللسان ويعْسُر النطق به فليس بفصيح

وذلك نحو لفظ الهُعْخُع فى قول بعض العرب عن ناقة : تركتها تَرْعى الهُعْخُعَ بالخاء المعجمة والعين المهملة ، وهو نبت أسـود ، وكذلك لفظ مستَشْزِرات من قول آمرئ القيس فى قصيدته اللامية التى من جملة القصائد السبع الطِّوال :

غَـــدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العُلا * تَضِـلُّ المَدَارِى فِى مُثَنًّى ومُرْسَـلِ

فلفظ مستشزرات من المتنافر الذى يثقل على اللسان، ويعسُر النطق به .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى "المَثَل السائر" : ولقد رآنى بعض الناس وأنا أَعيب على آمرئ القيس هذا اللفظ فأكْبَرَ ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد فى أن آمرأ القيس أشعرُ الشعراء، فعجبت من آرتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة، وقلت له : لا يمنع إحسانُ آمرئ القيس من آستقباح مَالَه من القبيح، بل مثال ذلك كمثال غَزَال المِسْك فإنه يخرج منه المِسك والبَعْر، ولا يمنعُ طِيبُ ما يخرج من مسكه من خُبْثِ ما يخرج من بَعْره ، ولا تكون لَذَاذَةُ ذلك الطِّيب حاميــةً للخبيث من الآستكراه، فأُسْكِتَ الرجلُ عند ذلك .

إذا علمتَ ذلك ، فإن معظم اللغة العربية دائرة على ذلك، لأن الواضع قسَّمها فى وضعه إلى ثلاثة أقسام : ثُلَاثِيًّا ، ورُباعيًّا، وخُمَاسيًّا ، فالثلاثىّ من الألفاظ هو الأكثر ، ولا يوجد فيه ما يكره آستعماله إلا النادر؛ والخماسىّ هو الاقلّ، ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر؛ والرباعىّ وسط بين الثُّلاثىّ والخُمَاسىّ فى الكثرة عددا وآستعمالا ، فيكون أكثر اللغة مستعملا غير مكروه. قال : ولا تقتضى حكمة هذه

اللغة التى هى سيّدة اللغات إلا ذلك ؛ ولذلك أسقط الواضعُ منها حروفا كثيرة فى تأليف بعضها مع بعض آستثقالا وآستكراها ، فلم يؤلّف بين حروف الحلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الزاى والسين ، وذلك دليل على عنايته بتأليف المتباعِد المخارج دون المتقارب ؛ وكيف كان الواضع يُخلّ بمثل هذا الأصل الكلىّ فى تحسين اللغة وقد آعتنى بأمور جزئية دون ذلك ! كمماثلته بين حركات الفعل فى الوجود وبين حركات المصدر فى النطق كالغَلَيَان ، والضَّرَبَان ، والنَّقَزَان ، والنَّزَوَان ؛ وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهى مماثلة لحركات الفعل فى الوجـــود .

ومن نظر فى حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التى هى كالأطراف والحواشى فكيف كان يخلّ بالأصل المعوّل عليه فى تأليف الحروف بعضها إلى بعض ! . على انه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مَخَارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، أهى متباعدة أو متقاربة؟ لطال الخَطْب فى ذلك وعَسُر، ولَمَا كان الشاعر ينظِم قصيدا، ولا الكاتب ينشئ كتابا إلا فى مدّة طويلة ، والأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسَّة السمع هى الحاكمة فى هذا المقام فى تحسين لفظ وتقبيح آخر ؛ . على أنه قد يجىء من المتقارب المَخارِج ما هو حسن رائق ، ألا ترى أن الحروف الشَّجْرِيَّة ، وهى الجيم والشين والياء متقاربةُ المخارج لأنها تخرُج من وَسَط اللسان بينه وبين الحَنَك ، واذا ترتّب منها لفظ جاء حسنا رائقا ، فإن لفظة جَيْش قد آجتمع فيها الحروف الشَّجْرِيَّة الثلاثة ، وهى مع تقارب مخارجها حسنة رائقة ؛ وكذلك الحروف الشَّفَهية وهى الباء والميم والفاء متقاربة المخارج ، فان مَخرَج جميعها من الشَّفَة ، واذا ترتب منها لفظ جاء سَلِسا غير متنافر ، كقولك أكلت بفمى ، وهو فى غاية الحسن ، والحروف الثلاثة

الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيهـا ، وقد يجيء من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر ، كقولك : مَلَع بمعنى عدا ، فإن الميم من الشفة ، والعينَ من حروف الحلق واللام من وسط اللسان ؛ فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كريهة الاستعمال ، ينبُو عنها الذوق السليم ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ؛ على أنه لو عُكست حروف هذه اللفظة صارت عَلِم وعاد القبح منها حُسْنا ؛ مع أنه لم يتغير شيء من مخارجها ، على أن اللام لم تزل فيها وَسَطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ؛ ولو كانت مخارج الحروف معتبرة فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض ، وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الشَّفَة إلى الحلق فى مَلَع أعسَرُ من إخراجها من الحلق إلى الشَّـفَة فى عَلِم ، فإنّ لفظة بَلَـعَ فيها الباء وهى من حروف الشفة واللام وهى من وَسَط اللسان والعين وهى من حروف الحلق وهى غير مكروهة .

قال فى "المَثَل السائر" : ولربمـا اعترض بعض الجهال بأن الاستثقال فى لفظ مستَشْزِرات إنمـا هو لطولهـا وليس كذلك ، فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزر لكان ثقيلا أيضا ، لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاى ، فَثَقُلَ النطق بها ؛ نعم لو أبدلنا من الزاى راءً ومن الراء فاءً فقلنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك ؛ ومن ثَمَّ ظهر لك أن اعتبار ابن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبا غيرُ معتبَر ، وقد ورد فى القرآن العظيم ألفاظ طِوَالٌ لا شكَّ فى حسنها وفصاحتها كقوله تعالى : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقوله تعالى : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فإن لفظ فسيكفيكهم مركب من تسعة أحرف ، ولفظ ليستخلفنهم مركب من عشرة أحرف ، ولفظ مستشزرات مركب من ثمـانية أحرف . قال : والأصل فى هذا الباب أن الأصول لا تحسُن إلا فى الثلاثىّ وفى بعض الرُّباعىّ ، كقولك عَذْب وعَسْجَدٌ ، فالأولى ثلاثيّة ،

والثانية رُبَاعيّة؛ أما الخُمَاسيّ من الأصول فإنه قبيح، كقولك: صَهْصَلِق و جَحْمَرِشٌ، وما جرى مَجْراهما؛ ولهـذا لا يوجد فى القرآن الكريم من الخماسىّ الأصول شىء إلا ما كان من آسم نبىّ عُرِّب آسمـه، ولم يكن فى الأصل عربيـا كابراهيم و إسماعيل ونحوهما .

الصّـفة الرابعـة

من صفات اللفظ المفرد الفصيح ألّا يكون على خلاف القانون المستنْبَط من تتبع مفردات ألفاظ اللغة العربية وما هو فى حكمها

كوجوب الإعلال فى نحو قام والإدغام فى نحو مدّ، وغير ذلك ممـا يشتمل عليه علم التصريف ، فإنه لو فَكّ الإدغام فى مـدّ فقـال مَدَد لم يكن فصيحا، وعلى حدّ ذلك جاء قول بعض العرب .

* الحمدُ للهِ العَـلِيِّ الأجْلَلِ *

فإنّ قياس بابه الإدغام فيقال الأجَلّ .

قال الشيخ سعد الدين التفتازانى فى شرح التلخيص : وأما نحو أبى يأبى وعَوِر وآستحْوَذَ وقَطِط شعره وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة فليست من المخالفة فى شىء لأنها كذلك ثبتت عن الواضع، فهى فى حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هى عمود الفَصَاحة فى اللفظ المفرد، وقطب دائرة حسنه، فمتى آتصف بهـا وسلم من أضـدادها كان بالفصاحة متّسما ، وبالحسن والرونق مشتملا، وللطبع ملائمـا، وللسمع موافقا، ومتى عَرِى عن ذلك خرج عن طرائق الفصاحة ، وحاد عن سبيل الحسن، ومال إلى الهُجْنة، فمَجّه السمع ، وقَلَاه الطبع، ورفضتْـه النفوس، ونفَرت منـه القلوب، فلزم العيبُ قائلَه، وتوجه العَتْبُ على مستعمله .

قال ابن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الجُهَّال إذا قيل لأحدهم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلى غاية لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العُسْلوج ، وبين لفظ المدامة ولفظ الإسْفِنْط ، وبين لفظ السَّيف ولفظة الخَنْشَلِيل ، وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدَوْكَس ، فلا ينبغي أن يُخَاطَبَ بخطاب ، ولا يُجاب بجواب ، بل يترك وشأنَه كما قيل : «اُتركوا الجاهلَ بجهله ، ولو ألقى الجَعْرَ في رَحْله» .

وما مثاله في ذلك إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد ، شوهاء الخَلْق ، ذاتِ عين محمرّة ، وشَفَةٍ غليظة ، وشعر قَطَط وبين صورةٍ رُوميّةٍ بيضاء ، مُشْرَبة بحمرة ، ذات خدّ أسِيل ، وطَرْف كحيل ، ومَبْسِم كأنما نُظِم من أقاح ، وطُرّة كأنها ليل على صَبَاح . فإذا كان بإنسان من سُقْم النظر أن يسوِّى بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقْم الفكر أن يسوِّيَ بين هذه الألفاظ وهذه ، ولا فرق بين السمع والنظر في ذلك ، فان هذه حاسّة وهذه حاسّة . وقياس حاسة على حاسة غيرُ ممتنع ، ولا عبرةَ بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميل إلى الصورة الشنيعة ، فان الحكم على الكثير الغالب ، دون الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، فانا لو رأينا من يُحِبُّ أكلَ الفَحْم والجِصّ والتراب ، ويختار ذلك على ملاذّ الأطعمة فانا لا نستجيد هذه الشهوةَ بل نحكم عليه بالمرض وفساد المَعِدة ، وأنه يحتاج الى العلاج والمُداواة ؛ ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للالفاظ في الأذن نَغْمة لذيذة كنغمة الأوتار ، وصوتا مُنْكَرا كصوت الحمار ، وأن لها في الفم حلاوةً كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحَنْظَل . ولا حجة لاستعمال العرب لهذه الألفاظ ، فانّ استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مَجَال . وإنما له خصائص وهيئات وعلامات إذا وُجدت عُلم حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصـــل الثالث

من صناعة إنشاء الكلام، تركيب الكلام، وترتيب الالفاظ
والنظر فيـــه من وجوه

الوجه الأوّل

فى بيان فضل المعرفة بذلك، ومسيس حاجة الكاتب إلى معرفته، والإشارة إلى خفى سره وتوعُّر مَسْلَكه

قال أبو هلال العسكرىّ : وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل، والخُطَب، والشعر، جميعها يحتاج الى حُسْن التاليف، وجَوْدَةِ التركيب، وحسنُ التاليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا، ومع سُوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شُعْبَةٌ من التعمية، فاذا كان المعنى سيِّئا، ورصف الكلام رديئا، لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليـه طَلَاوة . فاذا كان المعنى وسطا ورَصْـف الكلام جيدا، كان أحسن مَوْقعا وأطيب مُسْتَمَعًا، فهو بمنزلة العِقْد إذا جُعل كل خرزة منه إلى ما يليق بهـا كان رائقا فى المرأى، وإن لم يكن مرتفعا نبيلا، وإن اختلّ نظمه فَضُمَّت الحبـة منه إلى ما لا يليق بهـا اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا، وحُسْنُ الرَّصْف أن توضَـع الألفاظ فى مواضعها، وتمكّن من أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفا لا يُفْسِد الكلام، ولا يُعَمِّى المعنى، وتُضم كل لفظة منها الى شكلها وتُضاف الى وَفْقِها، وسوء الرَّصْف تقديم ما ينبغى تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال فى نظمها .

وقد قال العتابىّ : الألفاظ أجساد والمعانى أرواح، وانما تراها بعيون القلوب، فاذا قدّمتَ منها مؤخرا وأخرتَ منها مقدّما أفسدتَ الصورة وغيرت المعنى، كما أنه

لو حُوّل رأسٌ الى موضع يدٍ أو يدٌ الى موضع رأس أو رِجْلٍ لتحولت الخلقة، وتغيّرت الحِلْيَةُ .

قال فى "الصناعتين" : وقد أحسن فى هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى "المَثَل السائر": وهذا الموضع يَضِلّ فى سلوك طريقه العلماءُ بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهالُ الذين لم تَنْفَحْهُمْ منه رائحة ! ومَن الذى يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، حتّى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها فى مواضعها ؟ وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها، إذ التركيب أعسر وأشقّ ، ألا ترى أن ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملتها العرب ومَنْ بعدهم، وهى مع ذلك تفوق جميع كلامهم وتعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب . وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ وما اشتملت عليه هذه الآية من الحُسن والطلاوة والرونق والمائية الّتى لايقدر البشر على الإتيان بمثلها، ولايستطيع أفصحُ الناس وأبلغُ العالَم مضاهاتها؛ على أن ألفاظها المفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة، فقوّة التركيب وحسن السبك هو الذى ظهر فيه الإعجاز وأُفْحِمت فيه البلاغةُ من حيث لاقت اللفظةُ الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وكذلك سائر الألفاظ إلى آخر الآية. ويشهد لذلك أنك لو أخذت لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أَخَواتها لم تكن لابسة من الحُسن والرونق مالبسته فى موضعها من الآية، ولِكُلّ كِلِمَةٍ مَعَ صَاحِبَتِهَا مَقَامُ

قال ابن الأثير : ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلّان على معنى واحد، كلتاهما فى الاستعمال على وزن واحد وعدّة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هـذه

فى كل موضع تستعمل فيـه هـذه، بل يُفرِّق بينهما فى مواضع السَّبْك؛ وهذا ممـا لا يدركه إلا من دَقَّ فهمُه، وجلّ نظره . و إذا نظرت إلى قوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وقوله تعالى : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ رأيت ذلك عِيانا، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد، وقد ٱستُعمِل الجوف فى الآية الأولى والبطنُ فى الآية الثانية ولم يُستعمل أحدهما مكان الآخر؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فالقلب والفؤاد سواء فى الدلالة وإن كانا مختلفين فى الوزن، ولم يستعمل أحدُهما موضع الآخر .

وممـا يجرى هذا المجرى قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو الموت إذا المَوْتُ نَزَلْ * لا عَارَ بالموت إذا حُمَّ الأَجَلْ

* الموت أحلى عِندنا من العَسَل *

وقول أبى الطيب المُتَنَبِّي :

إذا شِئْتُ حَفَّتْ بى على كل سابح * رِجالٌ كأنَّ المَوْتَ فى فَمِها شَهْدُ

فلفظة الشهد ولفظة العسل كلاهما حَسَنٌ مستعمل، وقدجاءت لفظة الشهد فى بيت أبى الطَّيِّب أحسن من لفظة العســل فى بيت الأعرج ، على أن لفظة العسل قد وردت فى القرآن دون لفظــة الشهد فجاءت أحلى من الشهد فى موضــعها ؛ وكثيرا ما تجد أمثال ذلك فى أقوال الشعراء المُفْلقِينَ وبُلَغاء الكُتَّاب ومصاقع الخطباء، وتحتها دقائقُ ورموز؛ إذا عُلِمتْ وقِيسَ عليها كان صاحب الكلام قد ٱنتهى فى النظم والنثر إلى الغاية القصوى فى وضع الألفاظ فى مواضعها اللائقة بها .

قال : وأعجب من ذلك أنك ترى اللفظة الواحدة تَرُوقك فى كلامٍ، ثم تراهـا فى كلام آخر فتكرهها؛ وقد جاءت لفظة فى آى القرآن الكريم بَهِجة رائقة، ثم جاءت

تلك اللفظة بعينها فى كلام آخر فجاءت ركيكة نابيةً عن الذوق، بعيدة من الاستحسان؛ فمن ذلك لفظة يؤذى فإنها وردت فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ فجاءت فى غاية الحسن ونهاية الطلاوة، ووردت فى قول أبى الطيب:

تَلَذُّ له المُرُوءةُ وهى تُؤْذِى * ومَنْ يَعْشَقْ يَلَذَّ له الغَرامُ

فجاءت رَثَّةً مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعانى الشريفة، وذلك لقوة تركيبها فى الآية وضعف تركيبها فى البيت الشعر؛ والسبب فى ذلك أن لفظة تؤذى إنما تحسن فى الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقةً به كما فى الآية الكريمة حيث قال: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ وفى بيت المتنبي جاءت منقطعة ليس بعدها شىء نتعلق به حيث قال:

* تَلَذُّ له المُروءةُ وهى تُؤْذِى *

ثم استأنف كلاما آخر فقال:

* ومَنْ يَعْشَقْ يَلَذَّ له الغَرامُ *

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوىّ مضافةً الى كاف خطاب، فأخذت من المحاسن بزِمَامها، وأحاطتْ من الطَّلاوة بأطرافها؛ وذلك أنه لما اشتكى النبىّ صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فَرَقَاه فقال: "بسم الله أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ داءٍ يُؤْذِيك" فصارت إلى الحُسْن بزيادة حرف واحد، وهذا من السِّرّ الخفىّ الذى يَدِقُّ فهمه. وعلى نهج لفظة يؤذى يردُ لفظة لى، فإنها لا تَحْسُن إلا أن تكون متعلقة بما بعدها، ولذلك لحقها هاء السَّكْتِ فى قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ لما لم يكن بعدها ما نتعلق به، بخلاف قوله: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فإنه لم تلحقها هاءُ السكت اكتفاء بما هى متعلقة به.

ومـا يجرى مثل هذا المجرى لفظة القُمَّل، فإنها قد وردتْ فى قوله تعـالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ والقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ﴾ فجاءت فى غاية الحسن، ووردتْ فى قول الفرزدق :

مِنْ عِزِّهِ ٱجْتَحَرَتْ كُلَيْبٌ عنده ٭ زَرْبا كأنَّهُمُ لَدَيْهِ القُمَّلُ

فجاءت منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت فى الآية منـدرجةً فى ضمن كلام لم ينقطع الكلامُ عندها، وجاءت فى البيت قافيةً ٱنقطع الكلام عندها .

هذا ملخص ما ذكره ٱبن الأثير، وقال : إنه لم يُسْبَق إليـه ، وجعل الحاكم فيه الذوق السليم دون غيره : وعلى الجملة فلا نزاع فى أن تركيب الألفاظ يُعْطِى الكلامَ من القوة والضَّعف ما تزيد به قيمةُ الألفاظ الفصيحة، ويرتفع به قدرها، أو يحُطُّ مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلى رتبة القبح والٱستهجان .

الوجـــه الثـانى

فى بيان ما ينبى عليه "تركيبُ الكلام" وترتيبه . وله ركنان

الركن الأوّل ــ أن يُسْلك فى تركيبه سـبيل الفصاحة والخروج عن اللُّكْنَة والهُجْنـة .

والفصاحةُ فى المركب بأن يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات .

الصـفة الأولى

أن يكون سليما من ضَعْف التأليف

بأن يكون تأليف أجزاء الكلام على القانون النحوىّ المشتهر فيما بيـن معظم أصحابه حتّى لا يمتنع عند الجمهور، وذلك كالإضمار قبـل الذكر لفظًا أو معنًى، نحو

ضرب غلامُه زيدا، فإنه غير فصيح وإن كان ما آتصل بالفاعل فيه ضميرَ المفعول به مما أجازه الأخفش، وتبعه آبن جنى لشدّة آقتضاء الفعل المفعول به كالفاعل، وآستشهد بقوله :

لما عصى أصحابُه مُصْعَبًا * أدّى إليه الكيلَ صاعًا بصاع

وقوله :

جزى بَنُوه أبَا الغيلانِ عن كِبَرٍ * وحُسْنِ فِعْلٍ كما يُجزى سِنِمَّارُ

وقوله :

ألا ليتَ شِعْرِى، هَلْ يَلُومَنَّ قومُه * زُهَيْرًا على ما جَرَّ من كُلِّ جانِب

الصفة الثانية

أن يكون سليما من التعقيد

وهو ألّا يكون الكلام ظاهرَ الدلالة على المعنى الذى يُراد منه ، وهو على ضربين :

الضرب الأوّل — وهو الذى يسميه ابن الأثير : المعاظلة المعنوية — ألّا يكون ترتيب الألفاظ على وَفْق ترتيب المعانى بسبب تقديم أو تأخير، أو حذف، أو إضمار، أو غير ذلك مما يوجب صُعوبة فهم المراد، وإن كان ثابتا فى الكلام، جاريا على القوانين، كقول الفَرَزْدَق فى مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومىّ، خالِ هشامِ بن عبد الملك :

وما مِثْلُهُ فى الناس إلا مُمَلَّكًا * أبو أمِّه حَىٌّ أبُوه يُقارِبه

أىْ وما مثل هذا الممدوح فى الناس حىٌّ يقاربه ويُشْبهه فى الفضائل إلا مُمَلَّكًا ، أبو أمّ ذلك المملَّك أبو الممدوح ، فيكون الممدوح خالَ المُمَلَّك ، والمعنى أنه لا يماثل

أحدٌ هذا الممدوحَ الذى هو إبراهيم بن هشام إلا ابن أخته هشام ؛ أفسده وعقّد معناه ، وأخرجه عن حدّ الفصاحة إلى حدّ اللُّكْنة ، وكذلك قوله فى الوليد بن عبد الملك :

إلى مَلِكٍ، ما أُمُّــه من مُحَارِب * أبوه،ولا كانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

يريد إلى مَلِكٍ ما أم أبيه من مُحَارِبٍ، وقوله :

تَعَالَ فإنْ عاهَدْتَنِي لاتَخُونُنِي * نَكُنْ مثلَ مَنْ ياذئْبُ يَصْطَحِبَانِ

يريد نكن يا ذئب مثلَ مَنْ يصطحبان، وقوله :

وليست خُرَاسَانُ التى كان خالدٌ * بها أَسَــدٌ، إذ كان سيفا أميرَها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد وَلِىَ خراسَانَ ووليها أَسَدٌ بعده ، فمدح خالدا بأنه كان سيفا، بعد أن كان أَسَــدٌ أميرَها، فكأنه يقول وليست خراسان بالبــلدة التى كان خالد بها سيفا إذ كان أسد أميرها .

قال ابن الأثير : وعلى هــذا التقدير ففى كان الثانيــة ضميرُ الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبرٌ عنها، وقد قُدِّمَ بعض ما إذْ مضافةٌ إليه وهو أسد عليها، وفى تقديم المضاف إليه أو شىء منه على المضاف من القبح ما لا خفاء به . قال : وأيضا فإن أســدا أحد جزأى الجملة المفسِّرة للضمير، والضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده، ولو تقدّم تفسيره قبله لمـا احتاج إلى تفسير، ولمَّـا سماه الكوفيون الضمير المجهول، وعلى نحو ذلك ورد قول الآخر :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِها * كَأَنَّ قَفْرًا رُسُــومَها قَلَمـا

يريد فأصبحت بعد بهجتها قَفْرا كأنّ قَلَمًا خط رسومها ، فقــدّم خبر كانَّ وهو خَطَّ عليها فجاء مختلًّا مضطربا .

قال فى "المثَل السائر" : وهذا البيتُ من أقبح هذا النوع لأن معانيَه قد تداخلتْ ، وركب بعضُها بعضا ؛ على أن ذلك قد وقع لجمع من فحول شعراء العرب ؛ كقول ٱمرئ القيس :

هُمَا أَخَوَا فى الحَرْب من لَا أَخَا لَهُ * إذا خاف يوما نَبْــوةً فَدعاهُمَا

يريد أخوا من لا أخوَىْ له فى الحرب ؛ وقول النابغة :

يُثِرْنَ الـثَّرى حتّى يُبَاشِرْنَ بَرْدَهُ * ، إذا الشمسُ مجّتْ ريقها بالكَلَاكِلِ

قال أبو هلال العسكرىّ : وهذا البيت مستهجَن جِدًّا لأن المعنى تعمّى فيه ، يريد يُثِرْن الثرى حتى يباشرن برده بالكلاكل إذا الشمس مجّتْ ريقها ؛ وقول أبى حَيّةَ النُّمَيْرىّ :

كَمَا خُطَّ الكُتّابُ بِكَفٍّ، يوما، * يَهُــودِىٌّ يُقَــارِبُ أو يُزِيلُ

يريد كما خط الكتّاب بكف يهودىّ يوما يقارب أو يزيل ؛ وقول ذى الرمة :

نَضَا البُرْدَ عنه وهو مِن،ذو، جُنُونِه * أجارِىَّ، صَهَّالٌ وصوتُ مُبَرْسَمِ

يريد وهو من جنونه ذو أجارِىَّ ؛ قال فى "الصناعتين" : كأنه تخليط كلام مجنون أو هُجْرُ مبرسَم ؛ وقول الشماخ :

تَخَامَصُ عن بَرْدِ الوِشَاحِ إذا مَشَتْ * تَخَامُصَ حافِى الخَيْلِ فى الأمْعزِ الوَجِى

يريد تخامُصَ حافى الخيل فى الوجى، الأمعز .

قال أبو هلال العسكرىّ : وليس للمحْدَث أن يجعل هذه الأبيات حجةً ويبنى عليها فإنه لا يُعــذر فى شىء منها ، لإجماع الناس اليومَ على مجانبة أمثالها وٱستجادة ما يضحُ من الكلام ويستبين، وٱسترذال ما يُشْكِلُ منه ويَسْتبهم ؛ وقد كان عمر رضى الله عنه يمدح زهيرا بأنه لم يكن يُعاظل بين الكلام .

قال فى "المثل السائر" : والفرزدق أكبر الشعراء تعاظلا وتعقيدا فى شعره، كأنه كان يقصد ذلك ويتعمّده، لأن مثله لا يجيء إلا متكلّفا مقصودا، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجرى على سجيّتها وطبعها فى الاسترسال لم يعرض له شيء من هذا التعقيد، بدليل أن المقصود من الكلام معدوم فى هذا النوع، إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الضرب الثانى من التعقيد — ألّا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد بخلل فى انتقال الذهن من المعنى الأوّل المفهوم بحسب اللغة إلى الثانى المقصود، لإيراد اللوازم البعيدة المفتقرة إلى الوسائط الكثيرة، مع خفاء القرائن الدالة على المقصود، كقول العبّاس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عنكم لِتقْرُبُوا * وتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّموعَ لِتَجْمُدَا

يريد إنى أطلب بُعْدَ الدار عنكم لتقربوا منى، وتسكبُ عيناى الدّموع لتجمد وتكُفّ الدمعَ بحصول التلاقى ؛ والمعنى أنّى طبت نفسا بالبعد والفِراق، ووطّنتُ نفسى على مقاساة الأحزان والأشواق، وأتجرّعُ الغُصَص، وأحتمل لأجلها حُزْنا يُفيضُ الدّموع من عينيّ، لأتسبّبَ بذلك الى وصل يدوم، ومَسَرّة لا تزول، فتجمُد عينى ويرقأ دمعى، فإن الصبر مِفْتَاحُ الفَرَج ؛ فكنّى بسكبِ الدموع عن الكآبة والحُزْن، وهو ظاهر المعنى لأنه كثيرا ما يُجعل دليلا عليه، يقال : أبكانى الدهرُ وأضحكنى بمعنى ساءنى وسرّنى ؛ وكنّى بجمود العين عما يوجبه دوامُ التلاقى من الفرح والسرور ؛ فإن المتبادر إلى الذهن من جمود العين بخلُها بالدمع عند إرادة البكاء حال الحزن، بخلاف ما قصده الشاعر من التعبير به عن الفَرَح والسرور، وإن كانت

حالة جمود الدمع مشتركةٌ بين بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء، وبين زمن السرور الذى لم يُطلب فيه بكاء، وكذلك يجرى القول فى كل لفظ مشترك ينتقل الذهن فيه من أحد المعنيين الى الآخر إذا لم يكن هناك قرينــة تصرفه الى أحدهما، كما صرح به الرمانىّ وغيره ، خصوصا إذا كان أحد المعنيين الذى يدلّ عليه اللفظ المشترَك مســتقْبَحا كما نبه عليه ابن الأثير فى الكلام على فصاحة اللفظ المفرد؛ ألا ترى أن لفظــة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام ، وبين الإهانة بسبب الخيانة التى لا توجب الحدّ من الضرب وغيره ، والمعنيان ضدّان لحيث وردت معها قرينــة صرفتْهــا إلى معنى التعظيم جاءت حَسَنَةً رائقة، وكانت فى أعلى درجات الفصاحة؛ وعلى نحو ذلك ورد قوله تعــالى : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُــولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وقوله : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ الآية، فإنه لمــا ورد معها قرينة التوقير فى الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر فى الآية الثانيــة زال اللبس وحَسُنَ المَوْقِع ؛ ولو وردت مهملةً بغير قرينــة بإرادة المعنى الحسن لسبق الفهم إلى المعنى القبيح، كما لو قلتَ عزَّر القاضى فلانًا وأنت تريد أنه عظمه، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه، وعلى هذا النَّهج يجرى الحكم فى الحسن والقبح مع القرينة وعدمها .

قال ابن الأثير رحمه الله : فمما ورد مع القرينة فجاء حسنا قول تأبط شرا :

أقول لِلَحْيَانٍ، وقد صَفِرَتْ لَهُمْ * وِطَابِى ويَوْمِى ضَيِّقُ الْجُحْرِ مُعْوِرُ

فإنه أضاف الجُحْرَ إلى اليوم فأزال عنه هُجْنة الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب كجُحر الحَيَّة واليربوع ونحوهما (١)، وعلى المحل المخصوص من الحيوان، فإذا ورد مهملا بغير قرينــة تُخَصِّصُه سبق إلى الفهم المعنى القبيحُ لاشتهاره دون غيره . وممــا ورد مهملا بغير قرينة فجاء قبيحا قول أبى تمّــام :

---

(١) أى الفرج .

أعطيتِنِى ديةَ القتيلِ وليس لى * عَقْلٌ ولا حَقٌّ عليــك قديمُ

فإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لى عقل أنه من العقل الذى هو ضدّ الجنون ولو قال وليس لى عليك عقل لزال اللبس . قال : فيجب إذًا على صاحب هذه الصناعة أن يراعَى فى كلامه مثل هذا الموضع .

الصــــفة الثالثـــة

أن يكون الكلام سليما من تَنافُر الكلمات وإن كانت مفرداته فصيحة

وقد آختلف فى معنى هذا التنافر على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول — أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون فى الكلام ثِقَلٌ على اللسان ويَعْسُرُ النطقُ به على المتكلم ، واليه ذهب السَّكّاكىّ وغيره من علماء البيان .

وهو على ضربين :

الضرب الأول — أن يكون فيه بعض ثقل ، كقول أبى تَمّام :

كريمٌ متى أمدحْه أمدحْه والورى * معى ، وإذا ما لُمْتُه ، لُمتُه وَحْدِى

فقــوله أمدحه أمدحه فيــه بعض الثِّقَل على اللسان فى النطق به ، وذلك أن الحاء والهاء متقاربان فى المخرج ، وقد آجتمعا فى قوله أمدحه ، ثم تكررت الكلمة فى البيت مع تَقَارُب مخرج الحرفين فثقلت بعض الثقل .

وأول من نبه على ذلك الأستاذ آبن العَميد رحمه الله .

ومما يحكى فى ذلك : أن الصاحب بن عَبّاد أنشد هذا البيت بحضرة آبن العميد ، فقال له آبن العميد : هل تعرف فى هذا البيت شيئا من الهُجْنَة ؟ فقال : نعم ، مقابلة المدح باللوم وإنما يقابل المدح بالذم والهجاء ، فقـال له آبن العميد : غيرَ

هـذا أريدُ، قال : لا أرى غير ذلك . فقال ابن العَميد : هـذا التكرير فى أمدحه أمدحه مع الجمع بين الحاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حدّ الاعتدال ، نافر كلَّ التنافر، فاستحسن الصاحب بن عَبَّادٍ ذلك .

قال الشيخ سعد الدّين التفتازانىّ فى شرح تلخيص المِفْتاح : ولا يجوز أن يراد أن الثقل فى لفظة أمدحه دون تكرار، فإنّ مثل ذلك واقع فى التنزيل نحو قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ والقول باشتمال القرآن على كلام غير فصيح ممـا لا يجترئ عليه المؤمن .

الضرب الثانى — ما كان شديد الثقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة النطق به، كقوله :

وَقَـــبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْر * وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قال فى عجائب المخلوقات : إن من الجن نوعا يقـال له الهاتف ، فصاح واحد منهم على حَرْبِ بن أُمَيَّة فمات، فقال ذلك الجِنِّىّ هذا البيتَ . قال المسعودىّ فى "مروج الذهب" : والدليل على أنه من شعر الجن أمران : أحدهما الرواية، والثانى أنه لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَعْتَع فيه .

قال ضياء الدين بن الأثير : والسبب فى ثقل البيت تكرير حرفى الباء والراء فيه، فهذه الباءات والراءات فيه كأنها سِلْسِلة، ولا خَفَاءَ بمـا فى ذلك من الثقل . قال : وكذلك يجرى الحكم فى كل ماتكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطْلِق على ذلك اسمَ التنافر، وجعل التنافر قسما مستقلا برأسه كما سيأتى ، وعدّ هـذا من أنواع المعاظلة اللفظية، ثم ذكر من أمثلته قول الحريرى فى مقاماته :

وَازْوَرَّ مَنْ كانَ له زَائِرًا * وعافَ عَافِى العُرْفِ عِرْفَانَهُ

وقول كُشَاجِم :

والزَّهْرُ والقَطْرُ فى رُبَاهَا * مابينَ نَظْمٍ وبينَ نَثْرِ

حدائقُ، كَنَفُ كلِّ رِيحٍ * حلَّ بهـا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر:

مَلِلْتُ مِطَالَ مولود مُفَدَّى * مَلِيـــحٍ مانع مِنِّى مُرَادى

وقول المتنبي :

كَيْفَ تَرْثِى التى ترى كُلَّ جَفْنٍ * رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِهَـا غَـــيْرَ رَاقِى

وعاب بيت الحريرىّ لتكرر العين فيه فى قوله :

* وَعَافَ عَافِى العُرْف عِرْفَانَهُ *

وعاب البيت الثانى من بيتى كشاجم لتكرر الكاف فيه فى "كَنَف وكُلّ" الأولى و "كل" الثانية، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلى بِرْكَارٍ يضعه فى شِدْقِهِ حتّى يديره له؛ وعاب البيت الذى يليه لتكرر الميم فيه فى أوائل الكلمات، وقال : هــذه الميات كأنها عُقَــدٌ، متصلة بعضها ببعض؛ وعاب بيت المتنبي لتكرر الجيم والراء فى أكثر كلماته، وقال : هذا وأمثاله إنمـا يَعْرِض لقائله فى نوبة الصَّرْع التى تنوبه فى بعض الأيام . قال : وكان بعض أهــل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا القسمَ من المعاظلة كثيرا فى كلامه نثرا ونظما ، وذلك لعدم معرفته لسلوك الطريق، كقوله فى وصف رجل سخىّ : أنت المُرِيح كبِد الريح، والمُلِيح إن تجهّم المَلِيح بالتكليح، هند سائل يَلُوح، بل تفوق إذ تَرُوق مَرْأى يُوح؛ يا مغبوقَ كأسِ الحمد يا مَصْبُوح ضاق عن نَدَاك اللَّوح، وببابك المفتوح يستريح ويُرِيح ذو التَّبْرِيح، ويُرَفِّه الطليح . فانظر إلى حرفى الراء والحاء كيف لزمهما فى كل لفظة من هذه الألفاظ فجاء على ما تراه من الثقل والغَثَاثة .

ثم قال : وٱعلم أن العرب الذين هم الأصل فى هــذه اللغة قد عَدَلُوا عن تكرير الحروف فى كثير من كلامهم، وذلك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أدغموه ٱستحسانا،

فقالوا فى جعل لك : جَعَلَّكَ، وفى تضربوننى تضربُونِّى ، وكذلك قالوا : آستعدّ فلان للأمر إذا تأهب له ، والأصل فيه آستعدد، وآستَتَبَّ الأمر إذا تهيأ والأصل فيه آستتبب، وأشباه هـذا كثير فى كلامهم حتّى إنهم لشدّة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا الحرفين المكررين (١) حرفا آخر غيره، فقالوا : أمليتُ الكتاب، والأصل فيه أمللت، فأبدلوا اللامَ ياءً طلبا للخفة وفرارا من الثقل ، و إذا كانوا قد فعلوا ذلك فى اللفظة الواحدة فما ظنك بالألفاظ الكثيرة التى يتبع بعضها بعضا .

قلت : ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقا كما يقتضيه كلامه بل بحسب التركيب ، فقد تتكرر الحروف وتترادف فى الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخفتها على اللسان وسهولة النطق بها ألا ترى الى قوله تعالى ﴿قِيلَ يَا نُوحُ آهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كيف آجتمع فيه ستَّ عشرةَ ميما فى آية واحدة، قد تلاصق منها أربع ميمات فى موضع وميمان فى موضع ، مع ما آشتملت عليه من الطّلاوة والرَّونق الذى ليس فى قدرة البَشَر الإتيان بمثله، والله أعلم .

المذهب الثانى — أن المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلائمة، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره، أو البيت الثانى غير مشاكل للبيت الأوّل، وعليه جرى العسكرى فى "الصناعتين" فمما آختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموءل :

فَنَحْنُ كماء المُزْنِ مافِى نِصابِنَا * كَهَامٌ ولا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ

فليس بين قوله ما فى نصابنا كَهَامٌ وقوله فنحن كماء المزن مناسبة لأن المراد بالكَهَام الذى لا غَنَاءَ به ولا فائدة فيه ، يقال قوم كَهَام أى لا غَنَاءَ عندهم ، ورجل كَهَامٌ

(١) صوابه أحد الحرفين كما هو نص العبارة فى المثل السائر .

أى مُسِنٌّ ، كذلك سَيْفٌ كَهَامٌ أى كَليلٌ ، ولسان كَهَامٌ أى عَيٌّ ، وفرس كَهَامٌ أى بطىء ، فهو يصف قومه بالنَّجْدَةِ والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يُغْنِي ، وماء المزن إنمـا يحسُن فى وصف الجود والكرم . قال فى "الصناعتين" : ولو قال : ونحن لُيُوث الحرب وأولو الصَّرامة والنجدة ، ما فى نِصَابِنا كَهَامٌ ، لكان الكلام مستويا ؛ أو فنحن كماء المزن صَفَاءَ أخلاق وبذل أَكُفٍّ ، لكان جيدا ؛ .

ومن ذلك قول طَرَفة :

ولستُ بِحَلَّالِ التِّلَاعِ مخـافةً * ولكن متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ

فالمصراع الثانى من البيت غير مشاكل لصورة المصراع الأول وإن كان المعنى صحيحا لأنه أراد : ولست بحلّال التِّلاع مخافةَ السؤال ولكنى أنزل الأمكنة المرتفعة ليَنتابونى وأَرْفِدَهم ، وهـذا وجه الكلام فلم يعبر عنـه تعبيرا صحيحا ولكنه خلطـه وحذف منه حذفا كثيرا فصار كالمتنافر ؛ وأدواء الكلام كثيرة ؛

ومنه قول الأعشى :

وإنّ امرأً أسرى اليك ودُونَه * سُهوبٌ ومَوْمَاةٌ وبيداء سَمْلَقُ
لَمَحْقُوقَةٌ أن تَسْتَجيبِي لِصَوْتِهِ * وأن تَعْلَمِي أن المُعَـانَ مُوَفَّقُ

فقوله : وأن تعلمى أن المُعَانَ موفق غير مشاكل لمـا قبـله ؛ وعلى نحو ذلك ورد قول عَنْتَرَةَ :

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيَيْ رأْسِه * جَلَمَانِ بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ
إنَّ الذين نَعَبْتَ لِي بِفِرَاقِهِم * هُمْ أسلمُوا لَيْلَ التَّمامِ وأَوْجَعُوا .

فليس قوله : بالأخبار هشٌّ مُولَعُ من صفة جناحيه ولَحْيَيْهِ ؛ وقريب منه قول أبى تمّـام :

مُحَمَّدُ إنّ الحاسدينَ شُهُودُ * وإنّ مُصَابَ المُزْنِ حيث تُرِيدُ

فليس النصف الثانى من النصف الأوّل فى شىء، وكذلك قول الطالبىّ :

قومٌ هدى اللهُ العبادَ بجدّهم * والمُؤْثِرُون الضيفَ بالأزْواد

فلا مناسبة بين صدر البيت وعُجُزه بوجه .

وعدّ بعض الأدباء من هذا النوع قول امرئ القيس :

كأنِّىَ لم أرْكبْ جَوادًا لِلَذَّة، * ولم أَتَبَطَّنْ كاعِبًا ذاتَ خَلْخَالِ

ولم أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقل * لِخَيْلِىَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجفال

وقال : لو وضع مصراعَ كل بيت من هـذين البيتين فى موضـع الآخر لكان أَحسنَ وأدخل فى استواء النسج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جَوادا ولم أقل * لخيلى كُرِّى كرة بعـد إجفال

ولم أسـبإ الزق الروىّ للذة * ولم أتبطَّنْ كاعبا ذات خَلْخَال

لأن ركوب الجواد مع ذكر كرور الخيل أجود، وذكر الخَمْر مع ذكر الكواعب أحسن .

قال فى "الصناعتين" : قال أبو أحمـد : والذى جاء به امرؤ القيس هو الصحيح لأن العرب تضع الشىء مع خلافه، فيقولون : الشدّة والرخاء ، والبُؤْس والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل مايجرى هذا المَجْرى .

قال أبو هلال العسكرىّ : أخبرنى أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعةٌ من أحداث بغدادَ ممن يتعاطى الأدبَ نختلف إلى مُدْرِك نتعـلم منه الشعر، فقال لنا يوما : إذا وضعتم الكلمة مع لِفْقِها كنتم شعراء، ثم قال : أجيزوا هذا البيت :

* ألا إنمـا الدُّنيا مَتَـاعُ غُرُورِ *

فأجازه كل واحد منا بشىء فلم يَرْضَهُ فقلت أنا :

* وإن عَظُمَتْ فى أَنْفُس وصُدُورِ *

فقال : هذا هو الجيِّد المختار .

قال : وأخبرنى أبو أحمد الشطنىّ قال : حدثنا أبو العباس بن عربىّ ، قال : حدثنا حماد بن يزيد بن جبلة ، قال : دفن مسلمةُ رجلا من أهله ثم قال :

* نَرُوحُ ونَغْدُو كُلَّ يومٍ وليلة *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* فحتَّى متى هذا الرَّواحُ مَعَ الغُدُوّ

فقال مسلمة : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* فيالك مَغْدًى مرَّةً ومَرَاحا *

فقال : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* وعمَّا قليلٍ لانَرُوحُ ولا نَغْدُو *

فقال : الآن تم البيت : وأشباه ذلك ونظائره كثيرة .

ومما اختلف فيه البيت الأول والثانى قول ابن هرْمَةَ :

وإنّى وتَرْكِى نَدى الأكْرمين * وقَدْحِى بِكَفِّىَ زَنْدًا شَحَاحا

كتاركة بَيْضَهَا بالعَــرَاء * ومُلْبِسَةٍ بيضَ أخرى جَنَاحا

وقول الفَرَزْدَقِ :

فإنَّكَ إذ تَهْجُــو تميمًا وترتشِى * سَرَابيلَ قَيْسٍ أو سُحُوقَ العَمَائم

كَمُهْرِيقِ ماء بالفَلاةِ ، وغَرَّهُ * سَرَابٌ أذَاعَتْهُ رِياحُ السَّمَائم

كان ينبغى أن يكون بيت ابن هرْمَةَ الأوَّلُ مع بيت الفرزدق الثانى ، وبيتُ الفرزدق الأوّلُ مع بيت ابن هرْمَةَ الثانى ، فيقال فى الأول :

وإنى وتركى ندى الأكرمين * وقدحِى بِكَفِّيَ زَنْدًا شحاحا

كمهريق ماء بالفـــلاة وغرَّه * سراب أذاعتـه رياح السمائم

مع تغيير إحدى القافيتين، ويقال فى الثانى :

وإنك إذ تهجو تميما وترتشى * سرابيلَ قَيْسٍ أو سحوقَ العمائم

كتاركة بيضها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جَنَاحا

مع تغيير إحدى القافيتين حتّى يصح التشبيه للشاعرين جميعا .

المذهب الثالث — أن المراد بتنافر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما فى معناها أولى بالذكر، فتجىء الكلمة غير لائقة بمكانها، وهو ما آصطلح عليه ابن الأثير فى "المَثَل السائر" . وهو على ضربين .

الضرب الأوّل ما يوجد منه فى اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو فى معناه سواء كان ذلك الكلام نظما أو نثرا، وهو على أنواع شتّى .

منها فك الإدغام فى غير موضع فكّه، كقول آبن أمّ صاحب :

مَهْلًا أعاذلَ قد جَرّبْتِ من خُلُقِى * أنى أجودُ لأقوام وإنْ ضَنِنُوا

ففكّ الإدغام فى ضننوا، وكان الأحسن أن يقال : وإن ضنوا أى بَخِلُوا .

وعلى حذ ذلك ورد قول المتنبي :

فلا يُبْرَمُ الأمرُ الذى هو حَالِلٌ * ولا يُحْلَلُ الأمرُ الذى هو يُبْرِمُ

فلو أدغم لجاءت اللفظة قارّة فى مكانها غير قلقة ولا نافرة، وكذلك كل ما جاء على هذا النهج فلا يحسن أن يقال : بَلَّ الثوبَ فهو بالل، ولا سَلَّ السيفَ فهو سالل، ولا هَمَّ بالأمر فهو هامم، ولا خط الكتاب فهو خاطط، ولا حَنَّ إلى كذا فهو حانن؛ وهذا لو عُرِض على من لا ذوق له أدركه، فكيف من له ذوق صحيح كأبى الطيب؟ لكن لا بدّ لكل جواد من كبوة .

ومنها زيادة حرف فى غير موضعه كقول دِعْبِل :

شفيعَك فاشكُرْ فى الحوائج إنّهُ * يَصُونُكَ عن مكروهها وهو يَخْلَقُ

فالفاء فى قوله فاشكر زائدة فى غير محلها، نافرة عن مكانها .

قال الوزير ضياء الدين ابن الأثير : أنشـــدنى بعض الأدباء هــذا البيت فقلت له : عجز هذا البيت حسن، وأما صدره فقبيح لأن سبكه قَلِقٌ نافر، والفاء فى قوله فاشكر كأنهـا رُكْبَةُ البعير، وهى فى زيادتهـا كزيادة الكَرِش ، فقال : لهـذه الفاء فى كتاب الله تعالى أشباه كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقلت له : بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا و بالذوق ثانيا، أما العلم فإن الفاء فى قوله تعالى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فهى الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ وهى مثل قولك : امْشِ فأَسْرِع، وقلْ فأَبْلِـغْ، وليست الفاء التى فى قول دِعْبِل : شفيعك فاشكر من هذا القبيل، بل هى زائدة ولا موضع لها، وإنما نسبتها أن يقـال : ربك أو ثيابك فطهر من غير تقـدّم معطوف عليه[1]، وحاشا فصاحة القرآن من ذلك . فأذعن بالتسليم ورجع إلى الحق . قال : ومثـل هـذه الدقائق التى ترد فى الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطّن لهـا إلا الراسخُ فى عـلم الفصاحة .

ومنها وصل همزة القطع فى الشعر وإن كان ذلك جائزا فيــه بخلاف النثر كقول أبى تمّـام :

قَرَانِى اللُّها والوُدَّ حتّى كأنّمـا * أفاد الغِنَى من نائلِى وفَوَائِدِى

فأَصْبَح يلْقانِى الزَّمانُ مِنَ آجله * بإِعْظَامِ مَـولُودٍ ورأفةِ والِدِ

فقوله من آجله بوصل همزة القطع من الكلام النافر، وعلى حدّه ورد قول أبى الطَّيِّب :

يُوَسِّــطُهُ المَفَـاوِزَ كلَّ يَوْم * طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا الأَنْتِظَارُ

فقوله لا الأنتظار بوصل همزة الانتظار كلام نافر .

(١) لم يذكر الثانى وقد ذكره فى "المثــل السائر" فقال . وأما الذوق فانه ينبو عن الفاء الواردة فى قول دعبل ويستثقلها ... الى أن قال فلما سمع ما ذكرته أذعن الخ .

ومنها قطع همزة الوصل فى الشعر أيضا و إن كان جائزا فيه كقول جميل :

أَلَا لَا أرى إِثْنَين أجمـلَ شِـيمَةً * على حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنّى ومن جُمْلِ

وقوله أيضا :

إذا جَاوَزَ الإِثْنينِ سِرٌّ فإنّهُ * بِنَشْرٍ وتَكْثِيرِ الوُشَاةِ قَمِينُ

فقطع ألف الوصل فى لفظ الآثنين فى البيت الأوّل والثانى .

ومنها أن يفرّق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدّم ذكره كقول البُحْتُرِىّ :

حَلَفْتُ لهـا باللهِ يَوْمَ التفرُّقِ * و بالوجْدِ مِنْ قَلْبِى بها المُتَعَلِّقِ

تقديره من قلبي المتعلق بها ، فلما فصل بين الموصوف الذى هو قلبي والصفة التى هى المتعلق بالضمير الذى هو بها قَبُحَ ذلك ، ولو قال : من قلب بها متعلق لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهُجْنة . ونحو ذلك .

الأصـــل الرابع

المعرفة بالسجع الذى هو قِوام الكلام المنثور وعُلُوّ رتبته

و يتعلق به ستة أغراض

الغرض الأوّل — فى معرفة معناه فى اللغة والآصطلاح ، و بيـان حكمه فى حالتى الدرج والوقف .

أما فى اللغة فقال فى "موادّ البيان": إنه مشتق من الساجع : وهو المستقيم لآستقامته فى الكلام ، وآستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة وهو ترجيعها الصوت على حدٍّ واحد ، يقال منـه سَجَعَتِ الحمـامةُ تَسْجَعُ سَجْعا فهى ساجعة ، سمّى السجع فى الكلام بذلك لأن مقاطع الفصـول تأتى على ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلمـات متوازية متمـاثلة ، فأشبه ذلك الترجيع .

وأما فى الاصطلاح، فقال فى "مواد البيان" : هو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن، وذكر نحوه فى "المثل السائر" فقال : هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور على حرف واحد ؛ ويقال للجزء الواحد منه سجعة، وتجمع على سَجَعات ؛ وفِقْرة بكسر الفـاء أخذا من فِقَرة الظهر وهى إحدى عظام الصُّلْب، وتجمع على فِقَر وفِقْرات بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها . وربمـا فتحت الفاء والقاف جميعا ، ويقـال لها أيضا : قَرينة لمقارنة أختها وتجمع على قرائنَ، ويقال للحرف الأخير منها : حرف الرَّوىّ والفاصلة .

وأما بيـان حكمه فى الوقف والدّرج فاعلم أن موضوع حكم السجع أن تكون كلمات الأسجاع ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها بالسكون فى حالتى الوقف والدّرج، لأن الغرض منها المناسبة بين القرائن ، أو المزاوجة بين الفِقَر، وذلك لا يتم إلا بالوقف ألا ترى أن قولهم : ما أبعد ما فات ، وما أقْرَبَ ماهو آت، لو ذهبت تصل فيه لم يكن بدّ من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيـه حكم الإعراب فتختلف أواخرُ القرائن ويفوت الساجع غرضُه .

الغـــرض الثـانى

فى بيان حُسْن موقعه من الكلام

قال فى "الصناعتين" : لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مُزْدَوِجا، ولا تجد لبليغ كلاما محلولا من الازدواج، وناهيك أن القرآن الكريم الذى هو عُنْصُر البلاغة ومَنَاط الإعجاز مشحونٌ به، لا تخلو منه سورة من سُوَره وإن قَصُرَتْ . بل ربمـا وقع السجع فى فواصل جميع السورة، كما فى سورة النجم، واقتربت، والرحمن وغيرها من السُّوَر . بل ربما وقع فى أوساط الآيات، كقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وقوله : ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وقوله : ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ وما أشبه ذلك. وكذلك وقع فى الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله عليه السلام عند قدومه المدينة الشريفة : "أَفْشُوا السَّلام، وأَطْعِمُوا الطَّعَام، وصِلُوا الأرْحام، وصَلُّوا بالَّليل والنَّاسُ نيَام، تَدْخُلوا الجنَّةَ بسَلَام". بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها فى تصريف اللغة طلبا للمزاوجة كقوله فى تعويذه لابن ابنته : "أُعِيذُه منَ الهَـامَّة والسامَّة، والعَيْن اللَّامَّة" وأصلها فى اللغة الْمُلِمَّة لأنها من أَلَمَّ، فعبر عنها باللامة لموافقة الهامَّة والسامَّة؛ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم للنساء : "انْصَرِفْنَ مَأْزُورات غَيْرَ مَأْجُورات" والأصل فى اللغة أن يقال مَوْزُوراتٍ أخذا من الوِزْر، فعبر بمأزورات لموافقة مأجورات؛ وعلى ذلك كان يجرى كلام العرب فى مُهِمّ كلامهم من الدعاء وغيره كقول بعض الأعراب وقد ذهب السيل بابنه : اللهم إن كُنْتَ قد أَبْلَيْتَ، فطَالَمَا عافَيْتَ . وقول الآخر: اللهم هَبْ لنا حبك، وأَرْضِ عنا خلقك، ونحو ذلك . أما ما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل فى الجَنين بغرة عبدٍ أو أمةٍ، فقال الرجل : أَأَدِى من لَا شَرِب ولا أَكل، ولا نَطَقَ ولا استَهَل، ومثل ذلك يُطَل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم "أسَجْعا كسَجْعِ الكُهَّان" فليس فيه دلالة على كراهة السجع فى الكلام وإن تمسك به بعض من نَبَا عن السجع طبعُه، ونفرت منه قريحته . إذ يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم إنما كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجعَ الكُهَّان، لما فى سجعهم من التكلُّف والتعسُّف كما وجهه أبو هلال العسكرى، وإما لجَريانه على عادتهم فى الجواب فى الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره؛ أو أنه إنما كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لا نفس السجع المأتى

به كما اختاره صاحب "المَثَل السائر" ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسه ، لاقتصر على قوله : أسجعا ولم يقيده بسجع الكُهّان .

الغــرض الثـالث

فى بيان أقسام السجع ، وهى راجعة الى صنفين

الصـــنف الأوّل

أن تكون القرينتان متفقتين فى حرف الرَّوِىّ ، ويسميه الرُّمَّانىّ السجع الحالى وعليه عمل أكثر الكُتّاب من زمن القاضى الفاضل ، وهَلُمَّ جرّا إلى زماننا ؛ وفيه ثلاث مراتب

المرتبة الأولى — أن تكون ألفاظ القرينتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء ويسمّى التصريع ، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه فى النثر قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ وقوله : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ . وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه : "اللّهمّ اقْبَلْ تَوْبَتِى ، واغْسِلْ حَوْبَتِى" . وقوله للأنصار : "إنكم لَتَكْثُرُونَ عند الفَزَع ، وتَقِلُّونَ عِنْد الطَّمَع" وقول بعض الأعراب فى وصف سنةٍ جَدْبة : سنة جَرَدَتْ ، وحالٌ جَهَدَتْ ، وأيدٍ جمدت ، ونحو ذلك . ومثاله فى النظم قول الخنساء :

حَامِى الحقيقةِ محمودُ الخليقـة ، مهـــدىُّ الطريقـــةِ نَفّاعٌ وضَرّارُ !
جوّاب قاصيـــةٍ جَزّازُ ناصـــية * عـــدّاد ألوية للخيـــل جرّارُ !

المرتبة الثانية — أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفِقْرتين فقط دون ما عداهما من سائر الألفاظ ، كقوله تعالى : ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ ثم قال : ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ ، وكقول الحريرىّ فى مقاماته : ألجأنى

حُكم دَهْرٍ قاسِط، الى أن أنتجعَ أرضَ وَاسِط . وقوله : وأوْدى الناطقُ والصّامت، ورثَى لنا الحاسدُ والشّامت، وما أشبه ذلك .

المرتبة الثالثة — أن يقع الاتفاق فى حرف الرَّوِىّ مع قطع النظر عن التَّوازُن فى شىءٍ من أجزاء الفِقْرة فى آخرٍ ولا غيره، ويسمّى المطرّف . كقوله تعالى : ﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقولهم : جَنَابه مَحَطُّ الرِّحال، ومُخَيَّمُ الآمال . وما يجرى هذا المَجْرى .

الصنف الثانى

أن يختلف حرف الرَّوِىّ فى آخر الفِقْرتين، وهو الذى يعبرون عنه بالازدواج . والرُّمانىّ يسميه السَّجْع العاطل، وعليه كان عملُ السلف من الصحابة ومَن قارب زمانهم ، وهو على ضربين

الضرب الأوّل

أن يقع ذلك فى النثر، وفيه مرتبتان

المرتبة الأولى — أن يراعى الوزن فى جميع كلمات القَرِينتين أو فى أكثرها مع مقابلة الكلمة بما يُعادلها وَزْنا، ويسمّى التوازُن وهو أحسنها وأعلاها ، كقوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وكقول الحريرىّ : اسْودّ يومى الأبيضُ، وابْيَضّ فَوْدِى الأسْود .

المرتبة الثانية — ألّا يُراعى التوازُنُ إلا فى الكلمتين الأخيرتين من القَرِينتين فقط، ويسمّى التوازنَ أيضا، ومنه قوله تعالى : ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ وقولهم : اِصْبِرْ على حَرِّ القِتال، ومَضَضِ النِّزال، وشِدّة النِّصَاع» ومُداوَمة البِرَاز، وما أشبه ذلك .

الضرب الثـانى
السَّجْع الواقع فى الشِّـعر

و يسمّى التصريعَ فى البيت الأول، ومحل الكلام عليه علمُ البديع، وقد ذكره فى "المثل السائر" فى أعقاب الكلام على السجع فى الكلام المنثور، وجعله على سبع مراتب:

المرتبة الأولى — وهى أعلاها درجةً — أن يكون كل مصراع من البيت مستقلًّا بنفسه، غيرَ محتاج الى ما يليه؛ و يسمّى التصريعَ الكاملَ: كقول امرئ القيس:

أَفَاطِمَ مَهْلًا بعضَ هـذا التَّـدَلُّلِ * وإنْ كُنتِ قد أَزْمَعتِ هَجْرِى فأَجْمِلى

فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنى بنفسه، غير محتاج الى ما يليه فى الفهم، وليس له به ارتباط يتوقف عليه.

المرتبة الثانية — أن يكون المِصْراع الأوّل مستقلًّا بنفسه، غير محتاج إلى الذى يليه إلا أنه مرتبط به، كقول آمرئ القيس أيضا:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فإن المِصْراع الأوّل منـه غير محتاج إلى الثـانى فى فهم معناه، ولكنه لمـا جاء الثانى صار مرتبطا به.

المرتبة الثالثة — أن يكون الشاعر مخيَّرًا فى وضع كل مصراع موضع الآخر، و يسمى التصريع المُوَجَّه، كقول آبن حَجّاج:

مِنْ شُروطِ الصَّبُوحِ فى المَهْرَجانِ * خِفَّـةُ الشُّرْبِ مع خُلُوِّ المَكَانِ

فإنه لو جعل المِصْراع الثانى أوّلا والآخر ثانيا، لساغ له ذلك.

المرتبة الرابعة — أن يكون المِصْراع الأوّل غيرَ مستقلّ بنفسه، ولا يُفْهَم معناه إلا بالثانى؛ و يسمّى التصريعَ الناقصَ، وليس بمستحسَن، كقول المتنبى:

مَغَانِى الشِّعب طِيبًا فى المَغَانِى * بِمَنْزِلَة الربيع مِنَ الزَّمَانِ

فإنّ المِصْراع الأوّل لا يستقلّ بنفسه فى فهم معناه دون المِصْراع الثانى .

المرتبة الخامسة — أن يكونَ التصريعُ فى البيت بلفظة واحدة فى الوسط والقافية، ويسمّى التصريعَ المكررَ؛ ثم اللفظة التى يَقَع بها التصريع قد تكون حقيقةً لا مجازَ فيها كقول عبيد بن الأبرص :

وكُلُّ ذِى غَيْبةٍ يَؤُوبُ * وغائبُ الموتِ لا يَؤُوب

وقد تكون اللفظة التى يَقَع بها التصريع مجازيّةً كقول أبى تمّام الطائىّ :

فَتًى كانَ شِرْبًا للعُفَاةِ ومَرْتَعًا * فأصبحَ للهِنْدِيّةِ البِيضِ مَرْتَعَا

المرتبة السادسة — أن يكون المصراع الأوّل معلّقا على صفة يأتى ذكرها فى أوّل المصراع الثانى؛ ويسمّى التصريع المعلّق ، كقول امرئ القيس :

ألَا أيُّها الليلُ الطَّويلُ ألا انْجَلِى * بِصُبْحٍ وما الإِصْباحُ فيك بأمْثَلِ

فإن المصراع الأوّل معلق على قوله بصُبْحٍ، وهو مستقْبَح فى الصنعة .

المرتبة السابعة — أن يكون التصريع فى البيت مخالِفًا لقافيته؛ ويسمّى التصريع المشطورَ ، وهو أنزل درجات التصريع وأقبحُها ، كقول أبى نُوَاس :

أَقِلْنِى قَدْ نَدِمْتُ على الذُّنوبِ * وبالإقرارِ عُذْتُ من الجُحُودِ

فإنه قد صَرَّع فى وسط البيت بالباء ثم فى آخره بالدال .

قلت وإنما أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر لأنه قد يَقَع مثله فى النثر إذ الفِقْرة من النثر كالبيت من الشعر، فالفِقْرتان كالبيتين، وأيضا فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغـــرض الرابع

فى معرفة مقادير السَّجَعات فى الطُّول والقِصَر، وهى على ضربين

الضــــرب الأوّل

السَّــجَعات القِصَــار

وهى ماصيغ من عشرة ألفاظ فما دونها، قال فى "حسن التوسل": وهى تدل على قوّة التمكن وإحكام الصنعة، لا سيما القصير منها للغاية، وأقل ما يكون من لفظتين كقوله تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾. وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ وما أشبه ذلك وأمثاله فى القرآن الكريم كثير إلا أن الزائد على ذلك أكثر. كقوله تعـالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾. وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾. وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ونحو ذلك.

الضـــرب الثـانى

الســجعات الطوال

قال فى "حسن التوسل": وهى ألَذُّ فى السمع، يتشوّق السامع الى ما يرد متزايدا على سمعه، وأقلُّ ما تتركب من إحدى عشرة كلمة فـا فوقها، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فـا حولها، كقوله تعـالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فالأولى من إحدى عشرةَ لفظة، والثانية من ثلاث

عشرةَ لفظة، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فالأُولى من أربعَ عشرةَ لفظة ، والثانية من خمس عشرةَ ، وقوله : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فالأُولى عشرون لفظة ، والثانيــة تسع عشرةَ ، وهذا غاية ما انتهى إليــه الطُّول فى القرآن الكريم . وينبغى أن يكون ذلك نهاية الطول فى السجع وقوفًا مع ما ورد به القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام ، وأقْوَمُ نظام ، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير ، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى وغيرهما ، قد صرحوا بأنه لا ضابط لأكثره .

واعلم أنه قد جرتْ عادة كُتَّاب الزمان ومصطلَحهم أن تكون السجعة الأولى من افتتاح الولاية من تقليــد أو توقيع أو غير ذلك قصــيرةً بحيث لا يتعدّى آخرها السطر الثانى فى الكتابة ليقع العلم بها بمجرّد وقوع النظر على أول المكتوب . وعلى هذا فيختلف القِصَرُ فيها باختلاف ضيق الورق وسعته فى العرض .

الغــــرض الخــامس

(فى ترتيب السجعات بعضها على بعض فى التقديم والتأخــــير باعتبار الطول والقصر وله حالتان

الحــالة الأولى

ألا يزيد السجع على سجعتين؛ وله ثلاث مراتب

المرتبة الأُولى — أن تكون القرينتان متساويتين لا تزيد إحداهما على الأُخرى كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ

ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ وأمثال ذلك .

المرتبة الثانية — أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى بقدر يسير كقوله تعـالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيـدٍ سَمِعُوا لَهَـا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فالأولى ثمـان كلمات، والثانية تسع ونحو ذلك؛ أما إذا طالت الثـانية عن الأولى طولا يخرج عن الاعتدال، فإنه يستقبح حينئذ، ووجّهه في "حسن التوسل" بأنه يُبعِـد دخول القافيـة على السامع فيقلّ الالتذاذ بسماعها . والمرجع فى قدر الزيادة والقِصَر إلى الذوق .

المرتبة الثالثة — أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأُولى . قال فى "المثل السائر": وهو عنـدى عيب فاحش، لأن السـمع يكون قد استوفى أَمَدَه من الفصل الأول بحكم طوله، ثم يجىء الفصل الثانى قصيرا فيكون كالشىء المبتور، فيبقى الانسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعـثُر دُونها ؛ وفيما قاله نظر، فقـد تقدّم فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ الآيتين أن الأولى عشرون كلمة والثانية تسعَ عشرة، بل قد اختار تحسين ذلك أبو هلال العسكرى فى "الصناعتين" محتجًّا له بكثرة وروده فى كلام النبوّة كقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار : " إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِند الفَزَعِ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ" وقوله : " الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَؤُ دِمَاؤُهم، وهم يَدٌ على مَنْ سوَاهم" وقوله : "رَحِمَ اللهُ من قال خيرا فغَنِم أو سَكَتَ فسَلِم"

الحـالة الثانيـــة

أن يزيد السجع على سجعتين، ولها أربع مراتب

المرتبة الأُولى — أن يقع على حدّ واحد فى التّساوى وهو مستحسن، وقد ورد فى القـرآن الكريم بعض ذلك كقوله تعـالى : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ

فى سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ) فهـذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية — أن تكون الأولى أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) فالأولى من ثمـان كلمات، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة — أن تكون الأولى والثانية متساويتين، والثالثة زائدة عليهما؛ وقد أشار الى هـذه المرتبـة فى "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضر تساوي القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة، ولم يمثل لها .

المرتبة الرابعة — أن تكون الثانية زائدة على الأولى ، والثالثة زائدة على الثانية . قال فى "المثل السائر": وينبغى أن تكون فى هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة فى الطول على الأولى والثانيـة أكثر من تميز الثانية على الأولى . ثم قال : فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة لفظة، ومثّل له فى "حسن التوسل" بقوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) فالأولى من ثمـان كلمات، والثانيـة من تسع، والثالثة من عشر، ومثل له فى "المثل السائر" بقوله فى وصف صديق : فقلت : الصـديق مَنْ لم يَعْتَضْ عنك بخالِف، ولم يُعامِلْك معاملة الحالف، وإذا بَلَّغَتْهُ أُذُنُه وشايةً أقام عليها حدّ السارق أو القاذف؛ فالأولى : وهى لم يعتض عنك بخالف والثانيـة بعدها أربع كلمات ، والثالثة عشر كلمات . ثم قال : وينبغى أن يكون ما يستعمل من هذا القبيل، فإن زادت الأولى والثانية على هذه العدّة زادت

الثالثة بالحساب، وإن نقصت الأولى والثانية، فكذلك . لكن قد ضبط فى "حسن التوسـل" الزيادة فى الثالثـة بألّا تجاوز المِثْل، والأمر فيما بين الضابطين قريب؛ ولا يخفى حكم الرابعة فى الزيادة مع الثالثة . قال فى "حسن التوسل" : ولا بدّ من الزيادة فى آخر القرائن .

الغـــرض الســادس

فيما يكون فيه حسن السجع وقبحه

أما حسنه، فيُعتبر فيه بعد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصناف البديع ونحوها بأمور أخرى .

منها أن يكون السجع بريئا من التكلف، خاليا من التعسف، محمولا على ما يأتي به الطبع وتُبْديه الغريزة، ويكون اللفظ فيــه تابعا للمعنى، بأن يُقْتَصر من اللفظ على ما يُحتاج اليه فى المعنى دون الإتيــان بزيادة أو نقص تدعو اليه ضرورة السجع، حتّى لو حصلت زيادةٌ أو نقص بسبب السجع دون المعنى، خرج السجع عن حيّز المدح الى حيز الذم .

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حُلوةً حادّة، لا غَثّة ولا باردة، مُونَقةَ المعنى حَسَّنة التركيب، غيرَ قاصرة على صـورة السجع الذى هو تواطؤ الفِقَر، فيكون كمن نقش أثوابا من الكُرْسُف، أو نظم عقْدا من الخَرَز الملوّن . قال فى "المَثَل السائر": وهــذا مقام تَزِلُّ عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . قال : ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا، ولولا ذلك كان كل أديب سَجّاعًا إذ ما منهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة فى الجملة .

ومنها أن تكون كلُّ واحدة من الفِقرتين المسجوعتين دالّة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها، لأن اشتمال السجعتين على معنى واحد يمكن أن يكون

فى إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم فى الكلام؛ وهو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها على ماهو مقرّر فى علم البيان . قال فى "المَثَل السائر": فلا يكونَ مثلَ قول الصابى فى وصف مُدَبِّر: " يسافر رأيُه وهو دانٍ لم يَنْزَح، ويسير تدبيرُهُ وهو ثاوٍ لم يَبْرَح" ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم يبْرح، ويُثْخِنُ الجِراح فى عدوّه وسيفُه فى الغِمْد لم يجرح، لَسَلِمَ من هُجْنَةِ التكرار: فإنه تصير كل سجعة محتوية على معنًى بحياله .

ومنها أن يقع التجسين فى نفس الفواصل، كقولهم : إذا قَلَّتِ الأنصار، كَلَّت الأبصار، وقولهم : ما وراءَ الخَلْقِ الدَّميم، إلّا الخُلُقُ الذميم، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع فى خلال السجعة الطويلة قرائنُ قصار فتكون سجعا فى سجع، كقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ . وقوله : ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فإن قوله : ﴿على أموالهم﴾ . وقوله : ﴿على قلوبهم﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ . وقوله : ﴿بآخذيه﴾ وقوله : ﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها ﴿غَنِىٌّ حَمِيد﴾ وعدّ العسكرىّ منه قولهم : عاد تَعْرِيضُك تصريحا، وتَمْرِيضُك تَصْحيحا .

وأما قبحه فيعتبر بأمور :

منها التجميع، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأوّل بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكى قُدَامَةُ : أن كاتبا كتب فى جواب كتاب : وصل كتابك فوصل به ما يَسْتَعْبِدُ الحرّ، وإن كان قديمَ العبودية، ويَسْتَغْرِقُ الشكر، وإن كان سالف فضلك لم يُبْقِ شيئا منه؛ فإن العبودية بعيدة عن مشاكلة منه .

ومنها التطويل ، فيما ذكر قُدَامَةُ وغيره : وهو أن يجيء الجـزء الأوّل طويلا فيحتاج الى إطالة الثانى بالضرورة . كما حكى قُدَامَةُ أن كاتبا كتب فى تعزية : اذا كان للحزون فى لقاء مِثْلِه كبيرُ الراحة فى العاجل، وكان طويل الحُزْنِ راتبا اذا رجع الى الحقائق وغيرَ زائل . قال فى "الصناعتين": وذلك أنه لمـا أطال الجزء الأوّل، وعَلِمَ أن الجزء الثانى ينبغى أن يكون مثله أو أطول، آحتاج الى تطويل الثانى فأتى باستكراه وتكلف . قال فى "موادّ البيان" والإطالة بقوله وغير زائل .

الأصـــل الخـامس

حسن الآتباع، والقدرة على الآختراع

وآعلم أن لكاتب الإنشاء مسلكين :

المســــلك الأوّل

طريقـــة الاتبـاع

وهى نظر الكاتب فى كلام من تقدّمه منَ الـكُتَّاب، وسلوك منهجهم، وآقتفاء سبيلهم، وسماها آبن الأثير التقليدَ، وهى على صنفين :

الصـــنف الأوّل

الآتبـاع فى الألفاظ

وهو آعتماد الكاتب على ماربّبه غيره من الـكُتَّاب، وأنشأه سواه من أهل صناعة النثر، بأن يَعْمِدَ الى ما أنشأه أفاضلُ الـكُتَّاب ورتبه علماء الصناعة : من نثر أو نظم فيأخذه بِرُمّته، ويأتىَ عليه بصيغته؛ وغايته أن يكون ناسخا ناقلا لكلام غيره، حاكيا له . ولمثـل ذلك تُوضَع الدساتير، وتُدَوَّن الدواوين ؛ على أنه ربمـا غيَّر وبدّل ، وحرّف وصحّف ، وأزال اللفظ عن وضـعه؛ وأحال المعنى عن حكمه ؛ وبعضهـم

ربما حملته الأَنَفَةُ والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمته، فعدل إلى كلام غيره، فالتقط من كل مكان سجعتين أو سجعات، ورتب بعضها على بعض حتّى تقوم بمقصوده، وينتهى إلى مراده .

فإن كان لطيفَ الذوق، حَسَنَ الاختيار، رائق الترتيب، فاختار من خلال السجع لطيفَه، وأحسن رَصْفَهُ وتأليفه، جاء بَهِجًا رائقا، لأنه أتى من كل كلام بأحسنه، إلا أن فيه إخراجَ الكلام عن وضعه الذى قصده الناثر، وتفريقَ مادُوِّن من كلام الأفاضل وتبديدَ شمله، وخروجَ الكلام عن أن يُعرَف قائلُه، ويعلم منشئه، فيقعَ من القلوب بمكان صاحبه ويهتدى بهديه، وينسج على منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق، ولا حَسَن الاختيار، جاء مالَفَّقَهُ من كلام غيره رَثًّا ركيكا، نابيًا عن الذوق، بعيدا عن الصنعة، يُعاد من النسخ إلى المسخ، وأخرج الكلام عن موضوعه، وأفسده فى وضعه وتركيبه؛ فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامَّة الكبرى، والمُصيبة العظمى. ثم لا يكتفى بذلك حتّى يتبجح به ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته، محتجا فى ذلك بقول الحريرى: "إن صناعةَ الحِسَابِ موضوعةٌ على التحقيق، وصناعةَ الإنشاء مبنية على التلفيق". ظانًّا أن التلفيق هو ضم سجعات منتظمة، وفِقَرات مؤلَّفة بعضها إلى بعض، ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلى أختها، وإضافة كلمة إلى مشاكلتها . وشَتَّانَ ما بين التلفيقين، وبُعْدا لما بين الطريقين :

وللزُّنْبُورِ والبَـازِى جَمِيعًا * لَدَى الطَّيَرَانِ أَجْنِحَةٌ وخَفْقُ
ولَكِنْ بَيْنَ مَا يَصْطَادُ بَازٍ * وَمَا يَصْطَادُهُ الزُّنْبُـورُ فَرْقُ

وقد عابوا أخذ المعنى إذا كان ظاهرا مكشوفا فما ظنُّك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصيرُ ناسخا لكلام غيره، وناقلا له؟ فأىّ فضيلة فى ذلك؟

وقد قيل : من أخذ معنًى بلفظه كان سارقا، ومن أخذ بعض لفظه كان سالخا، ومن أخذه فكساه لفظا من عنـده كان أولى به ممن تقدّمه ، وأين من هو أولى بالشىء ممن سـبقه إليه ممن يُعَـدّ سارقا وسالخا ؟ ويقال إن أبا عُذْرَة الكلام مَنْ سـبك لفظه على معناه ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب . هـذا فيمن أخذ سجعة أو سجعتين فى خطبة أو رسالة ، أو بيتا أو بيتين فى قصيدة وما قارب ذلك ؛ أما من أخذ القصـيدة بكمالها، أو الخطبة أو الرسالة برُمَّتها، أو لَفَّقها من خطب أو رسائل فذاك إنما يعدّ ناسخا إن أحسن النقل، أو ماسخا إن أفسده .

وآعلم أن الناثر الماهر، والشاعر المُفْلِق قد يأتى بكلام سبقه إليه غيرُه، فيأتى بالبيت من الشعر، أو القرينة من النثر، أو أكثر من ذلك بلفظ الأوّل من غير زيادة ولا نقصان، أو بتغيير لفظ يسير، وهذا هو الذى يسميه أهل هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر . وقـد سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان على لفظ واحد ومعنى فقال : عقول رجال توافت على ألسنتها .

والواقع من ذلك فى كلامهم على قسمين :

القســـم الأوّل

ما وقع الاتفاق فيه فى المعنى واللفظ جميعا

كقول الفَرَزْدَق :

وغُرّ قد وَسَـقْت مُشَمَّراتٍ * طوالِعَ لا تُطيقُ لها جَوَابا
بكُلّ ثَنِيَّـةٍ وبكُلّ ثَغْـرٍ * غَرائبُهُنّ تَنْتَسِب آنْتِسابا
بَلَغْن الشمسَ حِينَ تكون شرقا * ومَسْقَط رأسِها من حيثُ غابا

ووافقه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص .

ويروى أنّ عُمَر بن أبي ربيعة أنشد ٱبن عباس رضى الله عنه :

* تشُـــطُّ غَدًا دارُ جيراننـا *

فقال ٱبن عباس رضى الله عنه :

* وللدَّارُ بَعْـدَ غدٍ أبعَـدُ *

فقال عمر : والله ما قلتُ إلا كذلك .

قال أبو هلال العسكرى فى كتابه "الصناعتين" :

وأنشدت الصاحب إسماعيل بن عَبَّاد رحمه الله :

* كانت سَرَاةُ الناس تَحْتَ أَظَلّه *

فسبقنى وقال :

* فَغَدَتْ سراةُ النـاسِ فوق سَرَاتِهِ *

وكذلك كنتُ قُلْتُ : قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى كتابه "المَثَل السائر" : ويحكى أن ٱمرأة من عُقَيل يقال لهـا ليلى كان يتحـدّث اليها الشَّبَابُ ، فدخل الفَرَزْدَقُ إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتًى من قومها كانت تألَفُهُ فدخل إليها فأقبلت عليه وتركت الفَرَزْدَق ، فغاظه ذلك فقال للفتى : أتصارِعُنى؟ فقال : ذاك اليك ، فقام اليـه فلم يلبَثْ أن أخذ الفَرَزْدَق فصَرَعه وجلس على صـدره فضَرِط ، فوثب الفتى عنه وقال : يا أبا فِرَاس هذا مَقَام العائذ بك ، والله ما أردت ما جرى ، قال : ويحـك ! والله ما بى أنك صرعتنى ولكن كأنّى بابن الأتان ، (يعنى جريرا) وقد بلغه خبَرى فقال يهجونى :

جَلَسْتَ الى ليلى لِتَحْظى بِقُرْبِهَا * فخـانك دُبْرٌ لا يزالُ يَخُونُ

فلو كنتَ ذا حَزْمٍ شَدَدْتَ وِكَاءَه * كما شَـدَّ جُرْبَانَ الدِّلاص قُيُونُ

فمـا مضى إلا أيام حتّى بلغ جريرًا الخبر ، فقال فيـه هذين البيتين . قال : وهذا من أغرب ما يكون فى هذا الموضع وأعجبه ! قال فى "الصناعتين" : وإذا كان القوم فى قبيلة واحدة ، فى أرض واحدة ، فإن خواطرهم تقع متقاربةً ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة . قال فى "المثل السائر" : ويقال إن الفَرَزْدَق وجريرا كانا ينطقان فى بعض الأحوال عن ضمير واحد . قال : وهذا عندى مستبعد ، فإن ظاهر الأمر يدل على خلافه ، والباطن لا يعلمه إلا الله تعالى ، وإلا فإذا رأينا شاعرا متقدّم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده ، علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه ، وهب أن الخواطر تتفق فى استخراج المعـانى الظاهرة المتداولة ، فكيف تتفق الألسنة أيضا فى صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكرىّ فى "الصناعتين" يوافقه بالعَتْب على المتأخر ، وإن ادّعى أنه لم يسمع كلام الأول فى مثل ذلك .

القســـم الثـانى

ما وقع الاتفاق فيه فى المعنى وبعض اللفظ ، وهو على ضربين

الضـــرب الأوّل

ما اتفق فيـه المعنى وأكثرُ اللفظ

كقول امرئ القيس :

وُقُوفًا بها صَحْبِي عَلَىَّ مَطِيَّهم * يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَمَّلِ

وقول طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بها صَحْبِي عَلَىَّ مَطِيَّهم * يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَلَّدِ

فالتخالف بينهما فى كلمة القافية فقط .

وقول البعيث :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أن يجيء حَدِيثُها * بخيرٍ وقد أعيا كُلَيْباً قَدِيمُهَا؟

وقول الفَرَزْدَق :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أن تجيء صِغَارُهَا * بخيرٍ وقد أعيا رَبِيعاً كِبَارُهَا؟

فالتخالف بينهما فى موضعين من البيت، كلمة القافية وآسم القبيلة .

وقول بعض المتقدّمين يمدح مَعْبَدًا صاحب الغِنَاء :

أجادَ طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعدَهُ * وما قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلا لِمَعْبَدِ

وقول الفَرَزْدَق بعده :

مَحَاسِنُ أصنافِ المُغَنِّينَ جملةٌ * وما قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلا لِمَعْبَدِ

فاتفقا فى النصف الثانى وآختلفا فى النصف الأوّل، الى غير ذلك من الأشعار التى وقعت خواطرُ الشعراء عليها، وتوافقت عقولهم عندها .

الضـــرب الثـانى

ما آتفق فيـــه المعنى مع يسـيـر اللفظ

فمن ذلك قول البُحْتُرِىّ فى وصف غلام :

فوق ضَعْفِ الصغير إن وُكِلَ الأمـ * ـر اليه، ودُونَ كَيْدِ الكِبَار

أخذه من قول أبى نُوَاس :

لم يَخْفُ من كِبَرٍ عما يُرَادُ به * من الأمور ولا أزرى به الصِّغَر

وقول أبى تَمَّام :

لم أمدَحْك تفخيما بشِعْرِى * ولكنِّى مدحتُ بك المَدِيحا

أخذه من قول حسانَ بن ثابت يمدح النبىّ صلى الله عليه وسلم :

ما إنْ مَدَحْتُ محمدًا بمقالتِى * لكنْ مَدَحْتُ مقالتِى بمحمّدِ

وقول أبى الطَّيِّبِ :

أين أزمعتَ أيُّهـاذا الهُـمَامُ * نحنُ نَبْتُ الرُّبَا وأنت الغَمَامُ

أخذه من قول بَشَّارٍ :

كأنَّ الناسَ حين تَغِيبُ عَنْهم * نباتُ الأرضِ أخطأه القِطَارُ

الصـــــنف الثـــانى

التقليـــد فى المعـانى

وهذا مما لا يَسْتغنى عنه ناظم ولا ناثر. قال أبو هلال العسكرىّ رحمه الله فى كتابه "الصناعتين" : ليس لأحد من أصناف القائلين غِنًى عن تناول المعانى ممن تقدّمهم والصَّبِّ على قوالب مَنْ سبقهم، ولكن عليهم اذا أخذوها أن يكسوها ألفـاظا من عندهم، ويبرزوها فى معارضَ من تأليفهم، ويوردوها فى غير حِلْيتها الأُولى، ويزيدوا عليها فى حسن تأليفها وجَوْدَةِ تركيبها، وكمال حليتها ومعرضها، فإذا فعـلوا ذلك فهم أَوْلى بها ممن سـبق اليها . قال : ولولا أن القائل يؤدّى ما سمع لمـا كان فى طاقته أن يقول، وإنمـا ينطق الطفل بعد آستماعه من البالغين ؛ وقد قال أمير المؤمنـين على كرّم الله وجهه : لولا أن الكلام يعـاد لنَفِدَ . ومن كلام بعضهم : كل شيء إذا ثَنَيْتَه قَصُر إلا الكلام، فإنك اذا ثنيته طال، والمعانى مشتركة بين العقلاء. فربما وقع المعنى الجيّـد للسُّوقِىّ والنَّبَطِىّ والزِّنجِىّ . وإنمـا يتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها ، وتأليفها ونظمها ؛ وقد أطبق المتقدّمون والمتأخرون على تداوُل المعـانى بينهم ، فليس على أحد فيــه عيبٌ إلا اذا أخذه بكل لفظه ، أو أفســده فى الأخذ

وقصّر فيه عمن تقدّمه . قال فى "الصناعتين" : وما يُعرف للتقدّم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخر وطلب الشركة فيه معه ، إلا بيت عنترة :

وخَلَا الذُّبَابُ بها فلَيْس ببارِحٍ * غَرِدًا كفعْـل الشارب المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُـكُّ ذِراعَهُ بِذراعِه * قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجْذَمِ

فإنه ماَنُوزِع فيه على جَوْدَته . قال : وقد رامه بعض المحدَثين فافتضح مع العلم بأن ابتكار المعنى والسبق اليه ليس فيه فضيلة ترجع الى المعنى ، وإنما ترجع الفضيلة فيه الى الذى ابتكره وسبق اليه ؛ فالمعنى الجيّد جيّد وان كان مسبوقا اليه ، والوسط وسط والردىء ردىء وان لم يكن مسبوقا اليهما . على أن بعض علماء الأدب قد ذهب الى أنه ليس لأحد من المتأخرين معنًى مُبْتَدَعٌ ، محتجًّا لذلك بأن قول الشعر قديم مذ نُطِق باللغة العربية ، وأنه لم يبق معنًى من المعـانى الا وقد طُرِق مرارا . قال فى "المثل السائر" : والصحيح أن باب الابتداع مفتوح الى يوم القيامة ، ومن الذى يحجُر على الخواطر وهى قاذفة بمـا لا نهاية له ؟ الا أنّ من المعانى ما يتساوى فيه الشعراء ولا يُطْلَق عليه اسم الابتداع لأول قبـل آخر لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة الى اتباع الآخر الأوّلَ ، كقولهم فى الغزَل :

عفَتِ الديارُ وما عفَتْ * آثارُهُنّ من القـلُوب

وقولهم فى المديح : إن عطاءه كالبحر أو كالسّحاب ، وإنه لا يمنع عطـاءُ اليوم عطاءَ غدٍ ، وإنه يجود بمالِهِ من غير مسالة ، وأشباه ذلك .

وقولهم فى المَرَاثى : إن هـذا الرزء أوّل حادِثٍ ، وإنه استوى فيـه الأباعد والأقارب ، وإن الذاهب لم يكن واحدا وانمـا كان قبيلةً ، وإنّ بعد هـذا الذاهب لا يُعدّ للمنيّة ذنب ، وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعانى الظاهرة التى تتوارد عليها الخواطر من غير كُلْفَة ، ويستوى فى إيرادها كلّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطْلَق

على الآخر فيه آسم السرقة من الأول ، وانمـا يطلق آسم السرقة فى معنًى مخصوص كقول أبى تمّـام :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبى له مَنْ دُونَه * مَثَلًا شَرودا فى النَّدى والبَاسِ
فاللهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لنُورِه * مَثَلًا من المِشكاةِ والنِّبْراسِ

فإن هـذا معنًى آبتداعُه مخصوص بأبى تمّـام، وذلك أنه لمـا أنشد أحمد بن المعتصم قصيدتَه السينيةَ التى مطلعها :

* ما فى وُقُوفِك ساعةً مِن باس *

آنتهى الى قوله منها .

إقْدام عَمْرو فى سَماحةِ حاتم * فى حِلْمِ أحْنَفَ فى ذَكاء إياسِ

فقال الحكيم الكِنْدىّ : وأىّ فخر فى تشبيه آبن أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟ فأطرق أبو تمّام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إيّاه بعمرو وحاتم وإياس . فالحال يشهد بابتداعه هذا المعنى ، فمن أتى بعده بهذا المعنى أو بجزء منه كان سارقا له ، وكذلك كلُّ ما جرى هذا المجرى . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من مَعانى مَنْ قبلهم، ويبنون على بناء مَنْ تقدّمهم .

فما وقع للشعراء من ذلك قول أبى تمّـام :

خُلِقْنا رجالا للتَّجَلُّدِ والأسى * وتِلْكَ الغَوانِى للبُكَا والمآتم

أخذه من قول عبد الله بن الزُّبَيْر لمـا قُتل مُصْعَبُ بن الزبير : وانمـا التسليم والسُّلُوّ لحُزَماء الرجال، وإن الجَزَع والهَلَع لربَّاتِ الحِجَال، وقوله أيضا :

تَعَجَّبُ أن رأتْ جسمي نحيفًا * كأنَّ المَجْدَ يُدْرَكُ بالصِّرَاعِ

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبي الأسود الدؤلى : لولا أنك ضعيف لاستعملتك، وقول أبي الأسود له في جواب ذلك : إن كنت تريدنى للصراع فإنى لا أصلح له ، وإلا فغير شديد أن آمر وأنهى؛ وقوله من قصيدة البيت المتقدم :

أطال يدى على الأيام حتى * جزيت صروفها صاعا بصاع

أخذه من قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه :

فإن تقتلا أو يمكن الله منكما * نكل لكما صاعا بصاع المكايل

وقول أبي الطيب المتنبي :

وإذا كانت النفوس كبارا * تعبت فى مرادها الأجسام

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة .

وقول الخاسر .

من راقب الناس مات غما * وفاز باللذة الجسور

أخذه من قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فلما سمع بشار بيت الخاسر قال : ذهب ابن الفاعلة ببيتى . ومثل هذا وأشباهه مما لا ينحصر كثرة، ولا يكاد أن يخلو عنه بيت إلا نادرا .

ومما وقع للكتاب من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العباس من قوله فى فصل من كتاب . إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه، وللمسىء من العقاب ما يقمعه، ازداد المحسن فى الإحسان رغبة ، وانقاد المسىء للحق رهبة . أخذه من قول على كرم الله وجهه : يجب على الوالى أن يتعهد أموره ، ويتفقد أعوانه ، حتى

لا يَخْفى عليه إحسان مُحْسِنٍ، ولا إساءة مُسِيء، ثم لا يترك واحدا منهما بغير جزاء؛ فإنْ تركَ ذلك تهاون المحسنُ واجترأ المسيء، وفَسَد الأمر، وضاع العَمَل .

وما كتب به بعض الكُتَّاب فى فصل وهو : لو سكتَ لسانى عن شُكْرك، لنطق أثرُك علىّ . وفى فصل آخر : ولو جحدتُكَ إحسانَك، لأكذبَتْنِى آثارُك، ونَمَّتْ علىّ شواهدُها، أخذه من قول نُصَيْب :

* ولو سَكَتُوا أثنتْ عليك الحَقائبُ *

وما كتب به أحمد بن يوسفَ من فصل وهو : أحقُّ مَنْ أثبت لك العذرَ فى حال شُغلك، مَنْ لم يخلُ ساعةً من برِّك فى وقت فَراغك . أخذه من قول علىّ رضى الله عنه : لا تكونن كَمَنْ يَعجِز عن شُكْر ما أُولِى، ويلتمسُ الزيادة فيما بَقِى .

والاقتباس من الأحاديث والآثار كثير، وقد تقـدّم الكلام عليـه قبل ذلك . قال فى " الصناعتين " : ومِنْ أخفى أسباب السرقة أن يأخذ معنًى من نظم فيوردَه فى نثر، أو من نثر فيوردَه فى نظم، أو ينقل المعـنى المستعملَ فى صفة خمر فيجعلَه فى مَديح، أو فى مديح فينقله إلى وصف؛ إلا أنه لا يصل لهذا إلا المُبَرِّز الكاملُ المقـــدّم .

وقال فى " المَثَل السائر " : أشْكَلُ سرقات المعانى، وأدقُّها وأغربها، وأبعدها مذهبا أن يؤخَذ المعنى مجـرّدا مِن اللفظ . قال : وذلك ممـا يصعُب جدّا ولا يكاد يأتى إلا قليـلا، ولا يتفطنُ له ويستخرجه من الأشعار إلا بعضُ الخواطر دون بعض .

فمن ذلك قول أبى تمّـام فى المدح :

فَتًى ماتَ بينَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ ميتةً * تقومُ مَقامَ النَّصرِ إذْ فاتَه النَّصْرُ

أخذه من قول عُروة بن الورْد من شعراء الحماسة

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذا عِيالٍ ومُقْتِرًا * من المال يَطْرَحْ نفسَه كلَّ مَطْرَحِ

لِيُبْلِغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيبَةً * ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحِ

فعروة جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح، وأبو تمّام جعل الموت فى الحرب الذى هو غايةُ اجتهاد المجتهد فى لقاء العدّو قائما مقام الانتصار . قال فى "المثل السائر": وكلا المعنيين واحد، غير أن اللفظ مختلف. وأظهرُ من ذلك أخذا قول القائل :

وقد عزّى ربيعةَ أن يومًا * عليها مثلَ يومِك لا يعودَ

أخذه من قول ابن المُقَفَّع فى باب المراثى من الحماسة :

وقد جرّ نفعا فقدُنا لك أننا * أمِنّا على كلِّ الرَّزَايَا مِنَ الجَزَعْ

على أنه ربما وقع للتأخر معنًى سبقه إليه مَنْ تقدّمه من غير أن يلّم به المتأخر ولم يسمعه ، ولا استبعاد فى ذلك كما يستبعد اتفاق اللفظ والمعنى جميعا . قال أبو هلال العسكرى : وهذا أمر قد عرفته من نفسى فلا أَمْتَرِى فيه ، وذلك أنى كنت عملت شيئا فى صفة النساء فقلت :

* سَفَرْنَ بُدُورا وانْتَقَبْنَ أَهِلَّةً *

وظننت أنى لم أُسبَق إلى جمع هذين التشبيهين حتّى وجدت ذلك بعينه لبعض البغداديين فكثُر تعجبى ، وعزمت على ألّا أحكم على المتأخر بالسرقة من المتقدّم حكما حتما .

إذا تقرر ذلك فسرقة المعنى المجرّد عن اللفظ لا تخرُج عن اثنى عشر ضربا .

الضـــــرب الأوّل

أن يؤخذ المعنى ويستخرجَ منه ما يشبهه ولا يكون هو إيّاه . قال فى "المثَل السائر" : وهذا من أدق السرقات مَذْهبا وأحسنها صورة، ولا يأتى إلا قليلا . فمن ذلك قول المتنبى :

وإذا أتَتكَ مَذَمّتى من نَاقِصٍ * فهى الشّهادة لِى بأنّى كامِلُ

وهذا المعنى استخرجه المتنبى من قول بعض شعراء الحَمَاسة، وإن لم يكن صريحا فيه حيث يقول :

لَقَـدْ زادَنِى حُبًّا لِنَفْسِى أنّنى * بَغِيضٌ الى كلّ امرئ غير طَائِل

قال فى "المثَل السائر": والمعرفة بأنّ هذا المعنى من ذلك المعنى عَسِرٌ غامض غير متبيّن إلا لمن أعرق فى ممـارسة الشعر، وغاص على اسـتخراج المعـانى . قال : وبيـان ذلك أن الأوّل يقول : إن بغض الذى هو غير طائل إيّاى قد زاد نفسى حبـا إلىّ أى قد جمّلها فى عينى وحسنها عنـدى كونُ الذى هو غير طائل منقصى؛ والمتنبى يقول : إن ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بُغْض الذى هو غير طائل نفسَ ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذا من هذا الضرب قول البحترى فى قصـيدة يفتخرُ فيهـا بقـــومه :

شَيْخَانِ قد ثَقُلَ السِّلاحُ عليهما * وعداهمـا رَأْىُ السميع المُبْصِر
رَكِبا القَنَا مَن بعد ما حَملا القنا * فى عَسْـكرٍ متحامِلٍ فى عَسْـكَرِ

أخذه من قول أبى تمّـام فى وصف جَمَلٍ :

رَعَتْه الفَيَافِى بعـد ما كان حِقْبـةً * رَعَاها وماءُ الرَّوْض يَنْهَـلُّ سَاكِبُهْ

فأبو تمّام ذكر أن الجمل رعى الأرض، ثم سار فيها فرعته أى أهزلته، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها ؛ والبُحْتُرِىُّ نقله إلى وصف الرجل بعلو السنّ والهرم ، فقال : إنه كان يحمل الرمح فى القتال، ثم صار يركب الرُّمْح أى يتوكأ منه على عصا كما يفعل الشيخ الكبير .

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا فى الأخذ قول البُحْتُرِىّ أيضا :

أَعَاتِكَ ما كان الشَّبَابُ مُقَرِّبِى * إِلَيْكِ فَأَلْحى الشَّيْبَ إِذْ هُوَ مُبْعِدِى

أخذه من قول أبى تمّام :

لا أَظْلِمُ النَّأْىَ قد كانتْ خلائقُها * من قَبْلِ وَشْكِ النوى عندى نَوًى قُذُفَا

الضرب الثانى

أن يُؤخذ المعنى فيعكس، قال فى "المَثَل السائر" : وذلك حَسَنٌ يكاد يخرجه حسنه عن حدّ السرقة ،

فمن ذلك قول أبى نُوَاس

قالوا عَشِقْتَ صغيرةً فأجبتُهم * أشهى المَطِىّ إلىّ ما لم يُرْكَب .

كم بين حَبّةِ لؤلؤ مثقوبةٍ * نُظِمتْ وحَبّةِ لُؤْلؤ لم تُثْقَب ؟

وقول آبن الوليد فى عكسه :

إن المَطِيَّةَ لا يَلَذّ رُكُوبها * حتى تُذَلَّلَ بالزِّمامِ وتُركَبا .

والدُّرّ ليس بنافعٍ أربابَهُ * حتّى يُزَيَّنَ بالنِّظام ويُثْقَبا .

ومنه قول آبن جعفر :

ولمّا بَدَا لى أنها لا تُرِيدُنِى * وأنَّ هواها ليسَ عَنّى بمُنْجَلِى ؟

تمنّيت أن تَهْوى سِوَاىَ لعلّها * تَذُوقُ صَبابَاتِ الهوى فتَرِقّ لى

وقول غيره فى عكسه :

ولقد سرّنى صدودك عنّى * فى طلابيك، وامتناعك منى

حذرًا أن أكون مفتاح غيرى * و إذا ما خلوتُ، كنت التمنّى

أما ابن جعفر فإنه ألقى عن منكبيه رداء الغيرة؛ وأما الآخر فإنه جاء بالضدّ من ذلك و بالغ غاية المبالغة .

ومنه قول أبى الشّيص :

أجدُ الملامةَ فى هواك لذيذة * شغفًا بذكرِك، فليلمنى اللّومُ

وقول أبى الطيب فى عكسه :

أأحبُّه وأحبُّ فيه ملامةً * إنّ الملامةَ فيه من أعدائه

ومنه قول أبى تمّام :

ولولا خلالٌ سنّها الشّعر ما درى * بغاةُ العلا من أين تؤتى المكارمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير فى عكسه :

لولا الكرام وما سنّوهُ من كرم * لم يدرِ قائلُ شعرٍ كيف يمتدحُ

الضرب الثالث

أن يؤخذ بعضُ المعنى دون بعض

فمن ذلك قول أميّة بن أبى الصّلت يمدح عبد الله بن جُدْعانَ :

عطاؤك زينٌ لامرئٍ إن حبوتَه * ببذلٍ، وما كلُّ العطاء يزينُ

وقول أبى تمّام بعده :

تُدعى عطاياه وفرًا وهى إنْ شُهرتْ * كانتْ فخارًا لمن يعفوه مؤتنفا

ما زلتُ منتظرا أعجوبةً زمنًا * حتّى رأيتُ سؤالا يُجتنى شرفا

فأمية بن أبي الصَّلت أتى بمعنيين أحدهما أن عطاءك زَيْن ، والآخر أن عطاء غيرك ليس بزين ، وأبو تمَّام أتى بالمعنى الأوّل فقط .

ومنه قول عليّ بن جَبَلة

وأنَّل ما لم يَحْوِهِ مُتقــدِّمٌ * وإن نال منه آخرٌ فهو تابعُ

وقول أبي الطَّيِّب بعده :

تَرفَّعَ عن عُونِ المكارِم قَدْرُهُ * فمـا يَفْعَلُ الفَعْلاتِ إلا عَذَارِيَا

فابن جبلة أتى بمعنيين، أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد ممن تقدّمه، وإن نال الآخر شيئا فهو مقتدٍ به وتابع له ؛ وأبو الطَّيِّب أتى بالمعنى الأوّل فقط،وهو أنه فعل ما لم يفعله غيره مشيرا الى ذلك بقوله :

* فما يفعل الفَعْلاتِ إلا عَذَارِيَا *

أى يستبكرها ويُزِيل عُذْرتها .

ومنه قول الآخر :

أَنْتِجِ الفَضْلَ أو تَخَلَّ عن الدنـ * ـيا فهَاتَانِ غَايَةُ الهِــمَمِ

وقول البُحْتُرِيّ بعده :

اِدْفَعْ بأمثـالِ أبي غَالِبٍ * عاديةَ العُــدْمِ أو اْسْتَعْفِفِ

فالبُحْتُرِيُّ اقتصر على بعض المعنى ولم يستوفه .

الضـــرب الرابـــع .

أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخرُ . قال في "المَثَل السائر" : وهذا النوع من السَّرقات قليل الوقوع بالنسبة الى غيره .

فمن ذلك قول الأخنس بن شهاب :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنَا كان وَصْلُها * خُطَانَا الى أعدائِنـا فنُضَارِبُ

وقول مسلم بن الوليد بعده :

إن قَصُر الرُّمحُ لم تَمْشِ الخُطَا عددا * أو عَرّدَ السـيفُ لم تَهْمُمْ بتعريد

أخذ مسـلم المعنى الذى أورده الأخنس وهو وصْل السـلاح اذا قَصُر بالخُطَا إلى العدوّ وزاد عليه عدم تعريدهم أى فِرارهم إذا عرّد السـيف . ومنه قول جرير فى وصف أبيات من شعره :

غَرائب آلاف إذا حانَ وِرْدُها * أخذْنَ طَريقًا للقَصائِد مُعْلَمـا

وقول أبى تمـام بعده :

غَرائبُ لاقَتْ فى فِنائكَ أُنْسَها * من المَجْدِ فَهِىَ الآنَ غيْرُ غَرائبِ

فزاد أبو تمـام على جرير قِرَان ذلك بالممدوح ومدحه مع الأبيات . ومنـه قول المُعَذَّل بن غيلان :

ولسْتُ بنَظَّارٍ إلى جانِبِ الغِنَى * إذا كانتِ العَلْيَاءُ فى جانِبِ الفَقْرِ

وقول أبى تمـام بعده :

يَصُـدُّ عنِ الدُّنْيا إذا عَنَّ سُودَدٌ * ولو بَرَزَتْ فى زِىِّ عَذْراءَ ناهِـدِ

فزاد عليه قوله :

* ولو برزتْ فى زىّ عذْراء ناهِدِ *

وممـا آتفق لى نظمه فى هذا الباب أنه لمـا عُمّرت مدرسة الظاهر برقوق بين القصرين بالقاهرة المحروسة ، وكان القـائم بعمارتها الأمير جركس الخليلىّ أميراخور الظاهرىّ ، وكان قد آعتمد بناءها بالصُّخور العظيمة التى لا تُقلّها الجمال حَملا ، ولا

تُحمَلُ إلا على العجل الخشب ، فأُولِـع الشعراءُ بالنظم فى هذا المعنى ؛ فنظم بعض الشعراء أبياتا عرّض فيها بذكر الخليلى وقيامه فى عمارتها ، ثم قال فى آخرها :

وبعضُ خُدّامه طَوْعًا لخدمته * يدعُو الصُّخُور فتأتِيه على عَجَل.

وألزمنى بعضُ الإخوان بنظم شىء فى المعنى ، فوقع لى أبيات من جملتها :

وبالخليـلىّ قد راجتْ عِمـارتُها * فى سُرْعةٍ بُنِيَتْ من غَيْرِ ما مَهَل

كَمْ أظْهرَتْ عَجَبًا أسواطُ حِكْمَتِهِ * وقد غَدَتْ مَثَلًا ناهِيكَ مِنْ مَثَلِ

وكَمْ صُخُورٍ تَخالُ الجِنَّ تَنْقُلُها * فإنّهـا بالوَحَا تأتِى وبالعَجَـلِ

فزدت عليه ذكر الوَحَا الذى معناه السرعة أيضا وصار مطابقا لما يأتى به المعزِّمون فى عزائمهم من قولهم : الوحَا الوحَا العَجَلَ العجَلَ مع ما تقدّم له من التوطئة بقولى : تَخالُ الجنّ تنقُلُها . على أنى لستُ من فُرسان هذا الميْدان ، ولا من رجال هذا الوَغى

الضـــرب الخـامس

أن يُؤْخَذَ المعنى فيُكْسى عبارةً أحسنَ من العبارة الأُولى قالَ فى "المثل السائر" : وهذا هو المحمود الذى يَخْرُج به حُسْنُه عن باب السرقة ؛ فمن ذلك قول أبى تمام :

إنّ الكِرَامَ كَثِيرٌ فى البِلَادِ وإنْ * قَلُّوا كما غيرُهم قُـلٌّ وإن كَثُرُوا

أخذه البحْتُرِىُّ فقال :

قَلَّ الكِرامُ فصـار يَكْثُرُ فَذُّهُمْ * ولقـد يَقِلُّ الشىْءُ حَتّى يَكْثُرا

ومنه قول أبى نُوَاس :

يَدُلُّ على ما فى الضَّمِيرِ مِنَ الفَتى * تَقَلُّبُ عَيْنَيْهِ إلى شَخْصِ مَنْ يَهْوى

وقول أبى الطيب بعده :

وإذا خَامَرَ الهَوى قَلْبَ صَبٍّ * فعلَيْـــهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيــلُ

ومنه قول أبى العلاء بن سليمان فى مَرْثِيَة :

وما كُلْفَةُ البَـدْرِ المُنيرِ قَدِيمَـةً * ولكِنَّها فى وَجْهِـهِ أَثَرُ اللَّطْمِ

وقول القيسرانىّ بعده :

وأهوى الَّذِى يَهْوِى لَهُ البَدْرُ ساجدًا * أَلَسْتَ تَرَى فى وَجْهِـه أَثَرَ التُّرْبِ

ومنه قول ٱبن الرومىّ :

إذا شَنَأَتْ عيْنُ امْرِئٍ شَيْبَ نَفْسِه * فَعَيْنُ سِوَاهُ بالشَّـنَاءَةِ أَجْـدَرُ

وقول مَنْ بعده :

إذا كان شَـيْبِى بغِيضًا الىّ * فكَيْفَ يكُونُ إِلَيْهَـا حَبِيبَا

الضـــرب السادس

أن يؤخذ المعنى و يسبك سَبْكا مُوجَزا، قال فى "المثل السائر" وهو من أحسن السرقات : لمـا فيه من الدلالة على بَسطة الناظم فى القول وسَعَة باعه فى البَلَاغة ، فمن ذلك قول أبى تمـام :

بَرَّزْتَ فى طَلَبِ المَعَالِى واحِدًا * فيهـا تَسِـيرُ مُغَوِّرًا أو مُنْجِدَا

عَجَبًـا بأَنَّكَ سَالِمٌ من وَحْشَـةٍ * فى غايةٍ ما زِلْتَ فيهـا مُفْـرَدا

وقول ٱبن الرومى بعده :

غَرَّبَتْهُ الخَلائِقُ الزُّهْرُ فى النَّا * سِ وما أَوْحَشَـتْه بالتَّغْرِيبِ

فأخذ معنى البيتين فى بيت واحد، ومنه قول أبى العَتَاهِيَة :

وإنِّى لَمَعْـذُور على فَرْطِ حُبِّها * لأنَّ لها وَجْهًا يَدُلُّ على عُذْرِى

أخذه أبو تمـام فقال :

لَهُ وَجْـهٌ إذا أَبْصَرْ * تَهُ ناجاكَ عَنْ عُذْرِى

فأوجز فى هذا المعنى غاية الإيجاز ؛ ومنه قول أبى تمام يمدح احمد بن سعيد :

كانتْ مُسَاءلَةُ الرُّكْبانِ تُخْــبِرُنِى * عَنْ أحْمد بْنِ سَعيدٍ أطْيَبَ الخَبَرِ
حتّى التَقَيْنا فَلَا واللهِ ما سَمِعتْ * أُذْنِى بأحسَنَ مما قَدْ رَأى بَصَرِى

أخذه أبو الطيب فأوجز فى أخذه فقال :

وأستَكْبِرُ الأخبارَ قَبْــلَ لِقَائِهِ * فَلَمَّا التَقَيْنَا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ

ومن قول بعض الشعراء :

أمِنْ خَوْفِ فَقْــرٍ تَعَجَّلْتَه * وأخَّــرْتَ إنفَاقَ ما تَجْمَعُ؟
فَصِرْتَ الفقِــيرَ وأنْتَ الغَنِيّ * وماكُنْتَ تَعْـدُو الذى تَصْنَعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

ومن يُنْفِقِ الساعاتِ فى جَمْعِ مالِهِ * مَخَـافَةَ فَقْــرٍ فالذى فَعَـلَ الفَقْرُ

الضـــرب السـابع

زيادة البيان مع المساواة فى المعنى، بأن يؤخذ المعنى فيُضْرَب له مثال يوضحه، فمن ذلك قول أبى تمـام :

هو الصُّنْعُ إن يُعْجَلْ فنَفْع وإن يُرِثْ * فَلَلرَّيْثُ فى بعض المَوَاطِنِ أنْفَعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

ومِنَ الخَــيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّى * أسْرَعُ السُّحْبِ فى المَسِيرِ الجَهَامُ

فزاده وضوحا بضرب المثال له بالجَهَام وهو السحاب الذى لا مَطَرَ فيه .

ومنه قول أبى تمام أيضا :

قد قَلَصَتْ شَفَتاهُ من حَفِيظَتِه * فَخِيلَ من شدّةِ التَّعْبِيس مُبْتَسِما

أخذه أبو الطيب فقال :

وجاهلٍ مَدَّهُ فى جَهْـلِهِ ضَحِكى * حتّى أتتْــهُ يَدٌ فَرّاســةٌ وفَمُ
إذا رأيتَ نُيُوبَ اللّيثِ بارِزَةً * فلا تَظُنَّنَّ أنَّ اللّيثَ مُبْتَسِمُ

فضرب له مثالا بظهور أنياب الليث فزاده وضوحا .

ومنه قول أبى تمـام أيضا :

وكذاكَ لم تُفْرِطْ كآبَةُ عاطِـلٍ * حتّى يُجَاوِرَها الزَّمانُ بحالِ

أخذه البحترىّ فقال :

وقد زادَها إفراطَ حُسنٍ جِوارُها * لأخْلاقِ أصْـفارٍ من المَجْدِ خُيَّبِ
وحُسْنُ دَرارىِّ الكَواكبِ أن تُرى * طَوالِـعَ فى داجٍ من اللّيلِ غَيْهَبِ

فضرب له مثالا بالكواكب فى ظلام الليل فأوضحه وزاده حُسْنا .

الضـــرب الثـامن

اتّحـاد الطريق واختلاف المَقْصود، مثل أنْ يَسْلُكَ الشاعران طريقا واحدةً فتخرجَ بهما الى مَوْردين، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

فمن ذلك قول النابغة :

اذا ما غَزَا بالجَيْشِ حَلّقَ فَوْقَهُ * عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِى بعَصَائِبِ
جَوَانِحَ قد أيْقَنَّ أنَّ قَبِيلَهُ * اذا ما الْتَقَى الجَمْعَانِ أوَّلُ غالِبِ

وهذا المعنى قد توارده الشعراء قديما وحديثا وأوردوه بضروب من العبارات، فقال أبو نُوَاس :

يَتَوخّى الطّيْرُ غَزْوَتَهُ * ثِقَـةً باللّحْمِ من جَزَرِه

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها * فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فى كُلِّ مُرْتَحَلِ

وقال أبو تمام :

وقد ظُلِّلَتْ عقبانُ أعلامه ضُحًى * بعقبان طَيْرٍ فى الدِّمَاءِ نَوَاهِلُ

أقامتْ مع الرَّايات حتى كأنَّها * من الجَيْش إلا أنَّها لا تُقَاتِلُ

وكل هؤلاء قد أتَوْا بمعنًى واحد لا تفاضُلَ بينهم فيه إلا من جهة حُسْن السبك أو من جهة الإيجاز . قال ولم أر أحدا أغرب فى هذا المعنى فسلك هذا الطريق مع اختلاف مَقْصِده إلا مسلم بن الوليد فقال :

أشْرَبْتَ أرواحَ العِدَا وقُلُوبَها * خَوْفًا فأنفُسُها اليكَ تَطِيرُ

لو حاكَمْتَكَ فطالَبَتْكَ بذَحْلِها * شَهِدتْ عليك ثَعَالِبٌ ونُسُورُ

فهذا قد فضل به مسلم غيرَه فى هذا المعنى ، ولما انتهى الأمر الى أبى الطيب سلك هذه الطريق التى سلكها مَنْ تقدّمه إلا أنه خرج فيها الى غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع ، وحاز الإحسان بجملته ، وصار كأنه مبتدِع لهذا المعنى دون غيره فقال :

سَحَابٌ من العِقْبان يَزْحَفُ تحتَها * سَحابٌ اذا استَسْقَتْ سَقَتْها صَوَارِمُهْ

فحَوَى طرفَى الإغراب والإعجاب .

الضــــرب التاسع

بيـاض بالأصل[1] .

---

(١) اقتصر فى الضوء على أحد عشر نوعا وجعل العاشر تاسعا إلخ وكذلك عدّها صاحب المثل السائر

الضـــرب العـاشر

أن يكون المعنى عامًّا فيجعل خاصًّا أو خاصًّا فيجعل عامًّا ، وهو من السرقات التى يُسامَحُ صاحبها، فأما جعل العام خاصا فمن ذلك قول الأخطل[1] :

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتأْتِىَ مِثْلَهُ * عارٌ عَلَيْكَ اذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

أخذه أبو تمـام فقال :

أألُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وأغْتَدِى * للبُخْلِ تِرْباً ساءَ ذاكَ صَنِيعَا

فالأخطل نهى عن الإتيان بمـا ينهى عنه مطلقا فجاء بالخُلُق منكَّرا فجعله شائعا فى بابه، وأبو تمـام خصَّص ذلك بالبُخْل وهو خُلُق واحدٌ من جملة الأخلاق .

وأما جعل الخاص عاما، فمن ذلك قول أبى تمـام :

ولو حارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقاحَها * ولكِنْ مُنِعْنَ الدَّرَ والضَّرْعُ حافِلُ

أخذه أبو الطيب فجعله عاما فقال :

وما يُؤْلِمُ الحِرْمانُ من كَفِّ حارِمٍ * كما يُؤْلِمُ الحِرْمانُ من كَفِّ رَازِقِ

الضرب الحادى عشر

قلبُ الصورة القبيحة الى صُورة حسـنه . قال فى "المثل السائر" : وهـذا لا يسمَّى سرقة بل يسمَّى إصـلاحا وتهذيبا، فمن ذلك قول أبى نُوَاس فى أُرْجوزة يصف فيها اللَّعِبَ بالكُرَة والصَّوْلَجَان فقال من جملتها :

جِنٌّ على جِنٍّ وإن كانوا بَشَرْ * كأنَّمـا خِيطُوا عليْهـا بالإبَرْ

أخذه المتنبى فقال .

فكأنَّهـا نُتِجَتْ قِياماً تَحْتَهُمْ * وكأنَّهُمْ خُلِقُوا على صهواتها

(١) كذا فى "المثل السائر" أيضا — وفى ديوان الأخطل صحيفة ٣٣٨ أن هذا البيت للمتوكل الليثى

فهذا فى غاية العلو والارتقاء بالنسبة الى قول أبى نُوَاس ، ومنه قول أبى الطيب

لو كانَ ماتُعطِيهمُو من قَبلِ أنْ * تُعْطِيهمو لم يَعْـرِفُوا التَّأْمِيــلا

وقول ابن نباتة السعدىّ :

لم يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئًا أؤمِّلُه * تَرَكْتَنِي أصْحَبُ الدُّنيـا بلا أمَلِ

فكلام ابن نباتة أحسن فى الصورة من كلام المتنبى هنا و إن كان مأخوذا منه .

الضرب الثـانى عشر

قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة ، وهو الذى يعبّر عنه أهل هذه الصناعة بالمسخ ، وهو من أرذل السرقات وأقبحها ، فمن ذلك قول أبى تمـام :

فَتًى لا يَرى أنّ الفَريصةَ مَقْتَلٌ * ولٰكِنْ يَرى أنَّ العُيوبَ مَقَاتِلُ

أخذه أبو الطيب فمسخه فقال :

يرى أنَّ مَا مَابانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ * بأقْتَلَ مِمَّـا بَانَ مِنْـكَ لعَائبِ

ومنه قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْـنُ نُعَزِّيكَ ومِنْكَ الهُدى * مُسْتَخْرَجٌ والصَّـبْرُ مُسْتَقبَلُ

أخذه أبو الطيب فمسخه فقال من أبيات :

و بألفـاظكَ اهتـدى فإذا عَزَّاكَ قال الَّذى له قُلْتَ قَبْــلا

المسلك الثـانى

طريقــة الاخـــتراع

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثـل السائر" ، فهى ألّا يتصفح كتابة المقدّمين ولا يطّلع على شىء منها ، بل يصرفُ هِمّته الى حفظ القرآن الكريم وكثير

من الأخبار النبوية وعدّة من دواوين فُحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادةُ فى المعانى والألفاظ ، ثم يأخذ فى الاقتباس من القرآن والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ، ويُخطئ ويُصيب ، ويَضِلُّ ويهتدى ، حتى يستقيم الى طريق يفتتحها لنفسه ، وأَخْلِق بتلك الطريق أن تكون مبتدَعة غريبة لاشركة لأحد من المتقدّمين فيها ! . قال : وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد وصاحبها يعدّ إماما فى الكتابة كما يعدّ الشافعى وأبوحنيفة ومالك وغيرهم من المجتهدين فى علم الفقه ، إلا أنها مستوعرة جدا ، لا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لسانا هَجّامًا ، وخاطرا رَقّاما . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مُرْتَبِطا فى كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم والأخبار النبوية والأشعار ، بحيث إنه لا ينشئ كتابا إلا مِن ذلك ، بل أريد أنه اذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نقّب عن ذلك تنقيبَ مطّلع على معانيه ، مفتّش على دفائنه ، وقلّبه ظهرًا لبطن ، عرف حينئذ من أين تُؤْكل الكَتِف فيما ينشئه من ذات نفسه ، وآستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية . على أنه لابدّ للكاتب المرتقى الى درجة الاجتهاد فى الكتابة مع حفظ القرآن الكريم ، والاستكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من العلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع ، ليتمكن من التصرف فى آقتباس المعانى وآستخراجها فيرقى الى درجة الاجتهاد فى الكتابة ؛ كما أن المجتهد من الفقهاء اذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونعتها ؛ وعرف النحو والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، والحساب والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، آستخرج بفكره حينئذ ما يؤدّيه اليه آجتهاده . فالمجتهد فى الكتابة يستخرج المعانى من مظانّها من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشعار ،

والأمثال، وغير ذلك بواسطة آلة الاجتهاد، كما أن المجتهـد فى الفقهيات يستخرج الأحكام من نصوص الكتاب والسـنة بواسطة آلة الاجتهاد . فإذا أراد الكاتب المتصف بصـفة الاجتهاد فى الكتابة إنشاء خطبـة أو رسالة أو غيرهما ممـا يتعلق بفن الإنشاء .

بياض بالأصـــل

الأصـــل السادس

وجود الطبع السليم، وخلو الفكر عن المشوش

أما وجود الطبع فقال فى "مواد البيان" : أول مَعاون هذه الصناعة الجليلة القريحةُ الفاضلة، والغريزة الكاملة، التى هى مبدأ الكمال، ومَنْشأ التمام، والأساس الذى يبنى عليه، والركنُ الذى يُستند اليه، فإن المرء قد يجتهد فى تحصيل الآداب، ويتوفّر على آقتناء العلوم وآكتسابها ، وهو مع ذلك غير مطبوع على تاليف الكلام فلا يفيده ما آكتسبه، بخلاف المطبوع على ذلك، فإنه وإن قصّر فى آقتباس العلوم وآكتساب المواد فقد يُلْحَق باوساط أهـل الصناعة ، وذلك أن الطبع يخص الله تعالى به المطبوعَ دون المتطبّع، والمناسبَ بغريزته للصناعة دونَ المتصنّع، ولاسبيلَ الى آكتساب سهولة الطبع ولا كَزَازته ، بل هو مَوْهَبـة تَخُصُّ ولا تَعُم ، وتوجد فى الواحد وتُفْقَد فى الآخر .

قال آبن أبى الأصبع فى "تحرير التحبير" : ومن الناس من يكون فى البديهة أبدعَ منه فى الرَّوية، ومن هو مُجيد فى الرَّوية وليست له بَديهة، وقلَّما يتساويان .

ومنهم مَن اذا خاطب أبدع ، واذا كاتب قصّر ؛ ومن هو بضدّ ذلك ؛ ومن قَوِى نثره ضَعُف نظمه ، ومن قوِى نظمه ضعُف نثره ، وقلما يتساويان . وقد يُبرّز الشاعر فى معنى من مقاصد الشعر دون غيره من المقاصد ؛ ولهذا قيل : أشعرُ الناس آمرؤُ القيس اذا رَكِب ، وزُهَيْر اذا رَغِب ، والنابغة اذا رَهِب ، وعنترة اذا كَلِبَ (١) ، والأعشى اذا طَرِب . قال فى "المثل السائر" : بل ربما تَفَذّ فى بعض أنواع الشعر دون بعض فيُرى مُجِيدا فى المدح دون الهَجْو أو بالعكس ، أو ماهرا فى المَقَامات ونحوها دُونَ الرسائل ، أو فى بعض الرسائل دون بعض . قال آبن أبى الأصبع : ولربما واتاه العملُ فى وقت دون وقت ؛ ولذلك قال الفرزدق : إنّى ليمرّ علىّ الوقت ولَقَلْعُ ضِرْسٍ من أضْراسى أيسرُ علىّ من قول الشعر ؛ ولذلك عز تأليف الكلام ونظمه على كثير من العلماء باللغة ، والمَهَرة فى معرفة حقائق الألفاظ من حيث نُبُوّ طباعهم عن تركيبِ بسائط الكلام الذى قامتْ صور معانيه فى نفوسهم ، وصَعُب الأمر عليهم فى تأليفه ونظمه ؛ فقد حكى أن الخليل بن أحمد مع تقدّمه فى اللغة ، ومَهَارته فى العربية ، وآختراعه علم العروض ، الذى هو ميزان شعر العرب ، لم يكن يتهيأ له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعانى فى نفسه على صورة النظم إلا بصُعوبة ومشقّة ؛ وكان اذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول : يابانى جيّده وآبى رديئه ؛ مشيرا بذلك الى أن طبعه غير مساعد له على التأليف المرضىّ الذى تحسُن نسبته الى مثله . وقيل للفضل الضبّىّ ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به فقال علمى به يمنعنى من قوله وأنشد :

أبى الشِّعْرُ إلا أنْ يفِىءَ رَدِيئه * علىّ ويأبى منه ما كانَ مُحْكَما
فياليتنى إنْ لم أجِدْ حَوْكَ وَشْيه * ولم أكُ من فُرْسانه كنت مُفْحَما

(١) أى غضب .

وأنشد أبو عبيدة خَلَفًا الأحمرَ شعرا له فقال اخْبَأْ هذا كما تَخْبَأُ السِّنَّوْرة حاجتها، مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها، وما يجرى مجرى ذلك من موادّ تأليف الكلام ونظمه ويحكى عن أبى العباس المبرّد أنه قال: لا أحتاج الى وصف نفسى: لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد بين الخافقَيْن تختلج فى نفسه مسئلةٌ مُشْكِلةٌ إلا لقينى بها وأعدّنى لهـا، فأنا عالم ومُعَلِّم، وحافظ ودارس، لا يخفى علىّ مشتبه من الشـعر، والنحو، والكلام المنشـور، والخُطَب، والرسائل؛ ولربما احتجت الى اعتذار من فَلْتة، أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذى أقصِد نُصْب عينى ثم لا أجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان؛ ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاولْت أن أكتب اليه رُقْعة أشكُره فيها وأعرِّض ببعض أُمُورى، فأتعبت نفسى يوما فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فينحرف لسانى الى غيره، ولذلك قيل: زيادة المنطق على الأدب خُدْعة، وزيادة الأدب على المنطق هُجْنة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع اليه فى ذلك؛ على أن الطبع بمفرده لاينهض بالمقصود من ذلك نُهوضَه مع اشتماله على الموادّ المساعدة له على ذلك من الأنواع السابقة فيما تقدّم فى أوّل هذه المقالة، من العلم باللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع، وحفظ كتاب الله تعـالى، والإكثار من حفظ الأحاديث النبوية، والأمثال والشعر والخطب، ورسائل المتقدّمين وأيام العـرب وما يجرى مجرى ذلك ممـا يكون مساعدا للطبع، ومُسَهِّلا طريق التأليف والنظم، بل يتفاوت فى العلو والهبوط بحسب التفاوت فى ضعف المساعد من ذلك وقوّته؛ إذ معرفتـه هذه الامور قائمةٌ من الإنشاء مَقامَ المـادّة، والطبعُ قائم منه مقام الآلة، فلايتم الفعل و إن قامت الصورة فى نفس الصانع مالم تُوجَد المـادّةُ والآلةُ جميعا، ولو كان حصول

المـادّة كافيا فى التوصل الى حسن التأليف الذى هو نظم الألفاظ المتناسبة وتطبيقها على المعانى المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلّف من الرسائل والخطب والأشعار سهلةً، والمُشاهَد بخلاف ذلك، لقُصور الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .

وأما خلوّ الفكر عن المشوّش فإنه يرجع الى أمرين .

الأمـــــر الأوّل

صـــفاء الزمان

فقد قال أبو تمـام الطائىّ فى وصيته لأبى عُبَادة البحترىّ مرشِـدا له للوقت المناسب لذلك : تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليـلُ الهُموم، صِفْرٌ من الغُمُوم؛ وٱعلم أن العادة فى الأوقات اذا قَصَد الإنسان تأليفَ شيء أو حفظَه أن يختار وقت السَّحَر، فإن النفس تكون قـد أخذت حظها من الراحة، وقِسْطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، وصَفَا الدِّماغ من أكثر الأبخرة والأَدْخِنة، وسكنت الغَمَاغِم، ورقّت النسائم، وتغنّت الحمائم .

وخالف ٱبن أبى الأصبع فى ٱختيار وقت السحر، وجنح الى ٱختيـار وسط الليل أخذا من قول أبى تمـام فى قصيدته البائية :

خُذْها ٱبنَةَ الفِكْرِ المُهَذَّبِ فى الدُّجى * واللَّيْــلُ أَسْوَدُ رُقْعَــةِ الجِلْباب

مفسرا للدُّجى بوسط الليل، محتجا لذلك بأنه حينئذ تكون النفس قـد أخذت حظها من الراحة، ونالت قِسطها من النوم، وخفّ عنها ثِقَل الغِذاء، فيكون الذهن حينئذ صحيحا، والصدر منشرحا، والبـدن نشيطا، والقلب ساكنا . بخلاف وقت السحر فإنه وإن كان فيـه يرِقّ النسيم وينهضم الغذاء، إلا أنه يكون قد ٱنتبه فيـه أكثر الحيوانات، النـاطقُ وغيره، ويرتفع معظم الأصـوات، ويجرى الكثير من الحركات، وينقشع بعضُ الظَّلْماء بطلائع أوائل الضوء، وربمـا ٱنهضم عن بعض

الناس الغذاء فتحركت الشهوة لإخلاف ما انهضم منه وخرج من فضلاته ، فكان ذلك داعيا الى شُغْل الخاطر، وباعثا على انصراف الهمّ الى تدبير الحَدَث الحاضر، فيتقسم الفكرُ، ويتذبذب القلبُ ، ويتفرق جميع الهمّ ، بخلاف وسط الليل فإنه خال من جميع ذلك .

الأمـــر الثـانى

صـفاء المكان

وذلك بأن يكون المكان الذى هو فيه خاليا من الأصوات، عاريا عن المَخُوفات والمَهُولات والطوارق، وأن يكون مع ذلك مكانا رائقا مُعْجِبا ، رقيقَ الحَوَاشى ، فسِيحَ الأرجاء ، بسيط الرِّحاب، غيرغَمٍّ ولا كَدِر ؛ فإن انضم الى ذلك ما فيه بَسْط للخاطر : من ماء وخُضرة وأشجار وأزهار وطيب رائحة ، كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر.

وقد ذهب بعضهم الى أنه ينبغى خُلوُّ المكان من النقوش الغريبة ، والمَرَائى المعجبة ، فإنها وإن كانت مما يُنَشِّط الخاطر فإن فيها شُغْلا للناظر فيتبعه القلب فيتشتَّتُ ،

المقصـــد الثـانى

من الطرف الثالث فى بيان طُرُق البلاغة ووجوه تحسين الكلام، وكيفية إنشائه وتأليفه، وتهذيبه وتأديته، وبيان ما يُستحسَن من الكلام المصنوع ، وما يُعاب به

أما إنشاؤه وتأليفه فقد قال ابن أبى الأصبع فى "تحرير التحبير" : يجب على كل من كان له مَيْل الى عمل الشعر وإنشاء النثر أن يتعهد أوّلا نفسه ويمتحنها بالنظر فى المعانى، وتدقيق الفكر فى استنباط المخترعات ؛ فإذا وجد لها فِطْرة سليمة، وجِبِلّة

موزونة، وذكاء وقّادا، وخاطرا سَمْحا، وفكرا ثاقبا، وفهما سريعا، وبصيرة مُبصِرة، وألمعيّة مهذَّبة، وقوّةً حافظة، وقدرةً حاكية، وهمة عالية، ولَهْجة فصيحة، وفِطْنة صحيحة، أخذ حينئذ فى العمل؛ وإن كان بعض ذلك غيرَ لازم لرب الإنشاء، ولا يُضْطَرُّ اليه أكثرُ الشعراء، ولكن اذا كملت هذه الصفات فى الكاتب والشاعر، كان موصوفا فى هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفيسة .

قال أبو هلال العسكرى فى "الصناعتين" : اذا أردتَ أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك، ونقّ له كرائم اللفظ فاجعلها على ذُكْر منك ليقرُب عليك تناوُلُهـا، ولا يتعبكَ تطلُّبها، واعمَلْه مادمت فى شباب نشاطك، فإذا غشيك الفُتور، وتخوّنكَ المَلَال، فامسك فإن الكثير مع المَلَال قليل، والنفيس مع الضَّجَر خسيس، والخَواطر كالينابيع يُسقى منها شىء بعد شىء فتجد حاجتك من الرِّىّ، وتنـال أربك من المنفعة، فإذا أكثرت عليها نَضَب ماؤها، فقلَّ عنك غَناؤها . وينبغى أن تخرج مع الكلام مُعارِضـه، فإذا مررت بلفظ حَسَن أخذت برقبتـه، أو معنًى بديع تعلقتَ بذَيْله . وتحرَّزْ أن يسبقك فإنه إن سبقك تعبت فى تطلُّبـه، ولعلك لا تلحقـه على طول الطلب، ومواصلة الدَّأْب، وهذا الشاعر يقول :

إذا ضَيَّعْتَ أوّلَ كلّ شىء * أبتْ أعجـازُه إلا التِـواء

وقد قالوا : ينبغى لصانع الكلام ألا يتقـدّم الكلام تقدّما، ولا يتتبع ذُنَابَاه تتبُّعا، ولا يحمله على لسانه حَمْلا، فإنه إن تقدّم الكلامَ لم يتبعه خفيفُه وهزيله وأعجَفُه والشاردُ منه، وإن تتبعه فاتتْه سـوابقه ولواحِقُه، وتباعدت عنه جياده وغُرَره، وإن حمله على لسانه ثقُلتْ عليه أوساقه وأعباؤه، ودخلت مَساويه فى مَحاسنه، ولكنه يجرى معه فلا تَنِدّ عنـه نادّة تُعجبه سِمَنا إلا كبَحها، ولا تتخلف عنه مُثقَلة هزيلةٌ إلا أرْهقها، وطورا يفرّقه ليختار أحسنه، وطورا يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر،

ويتناوله من تحت لسانه ، ولا يسلّط الملل على قلبه، ولا الإكثار على فكره، فيأخذ عَفْوَه، ويستغزر دَرّه، ولا يكره آبيا، ولا يدفع آتيا . وإيّاك والتعقيد والتوعّر، فإنّ التوعّر هو الذى يستهلك معانيَك، ويَشِين ألفاظك، ومن أراغ معنًى كريما، فليلتمس له لفظا كريما، فإن حقّ المعنى الشريف اللفظُ الشريفُ، ومن حقهما أن يصونهما عما يُدَنِّسهما، ويفسدهما ويُهَجِّنهما، فتصيرَ بهما الى حدّ تكون فيه أسوأ حالًا منك قبل أن تلتمِسَ البلاغة، وترتهِنَ نفسك فى مُلَابستها ؛ وليكن لفظك شريفا عذبا، فخْمًا سهلا، ومعْناه ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا ؛ فإن وجدتَ اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصِلْ الى مركزها، ولم تتصل بشَكْلها، وكانت قلِقةً فى موضعها، نافرةً عن مكانها، فلا تُكْرِهْها على اغتصاب أماكنها، والنزول فى غير أوطانها؛ وإن بُليت بتكلف القول، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمح لك الطبيعةُ فى أول وهلة ، وعصَتْ عليك بعد إجالة الفكر، فلا تعجَلْ ودَعْه سحابةَ يومك ، ولا تضجَرْ، وأمهله سوَادَ ليلتك، وعاوِدْه عنــد نَشَاطك، فانك لا تعْدَم الاجابة والمُواتاة إن كانت هناك طبيعة، أو جَرَيْت من الصناعة على عُرْف؛ وينبغى أن تعرف أقدار المعانى فتوازنَ بينها وبين أوزان المستمعين، وأقدار الحالات فتجعل لكل طبقــة كلاما، ولكل حال مَقَاما، حتّى تقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات، فان المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مَقام من المقال .

قال فى "موادّ البيان": ويكون آستعمال كلٍّ من جزل الألفاظ وسهلها، وفصيحها وسَلسلها وبهجها فى موضعه ، وأن يسلك فى تأليف الكلام الطريق الذى يخرجه عن حُكْم الكلام المنثور العاطل الذى تستعمله العامّة فى المخاطبات والمكاتبات إلى حكم المؤلّف الحالى بحَلْى البلاغة والبديع ، كالاستعارات ، والتشبيهات ، والأسجاع ، والمقابَلات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال فى "الصناعتين" : وإن عملت رسالة أو خُطْبــة فتخَطَّ ألفاظَ المتكلِّمين كالجِسْم ، والجَوْهر، والعَرَض ، واللون ، والتأليف ،واللاهوت ، والنـاسوت ، فإن ذلك هُجْنة .

قال فى "موادّ البيان": وذلك بأن يقصد الكاتب إلى ألفاظ الصِّـناعة فيخرج منها إلى ألفاظ غريبة عن الصناعة غير مجانسة لها . قال وإنما يُؤتى الكاتب فى هذا الباب من جهة أن يكون له شَرِكة فى صناعة غير الكِتابة ، كصـناعة الفقْه والكلام وغيرهما ، مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها ؛ فلكل طبقة من هذه الطبقات ألفاظٌ خاصة بها، يستعملونها فيما بينهم عند المحاورة والخوض فى الصــناعة ؛ ومن عادة الإنسان إذا تعاطى بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطره إلى الألفاظ المتعلِّقة به ، فيُوقعها فى الكُتب التى ينشئها لغلبة عادة آسـتعماله إياها فيهجِّنها بإدخاله فيهـا ما ليس من أنواعها .

قال فى "الصناعتين" : وتخيُّرُ الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام ، وهو من أحسن نُعُوته وأزْيَن صفاته ، فان أمكن مع ذلك آنتظامُه من حروف سَهْلة المخارج كان أحسن له ، وأدْعى للقلوب اليه ، وإن آتفق له أن يكون موقعُه فى الإطنــاب أو الإيجاز أليق بموقعــه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جامعا للحُسْن ، بارعا فى الفضل؛ فان بلغ مع ذلك أن تكون مواردُه تُنْبِيك عن مَصَادره، وأوّلُه يكشف قناعَ آخره ، كان قد جمع نهايةَ الحُسن ، وبلغ أعلى مراتب التمام .

قال فى "موادّ البيان": وإذا سلكت طريقا فتز فيها ،ولا تتنازل عنها إن كانت رفيعة ، ولا ترتفع عنها إن كانت وضيعة . وخالف آبن أبى الأصبع ، فقال : ولا تجعل كل الكلام شريفا عاليا . ولا وضيعا نازلا ، بل فَصِّله تفصيل العُقُود ، فان العِقْد ، إذا كان كله نفيسا لا يظهر حسنُ فرائده ، ولا يبين جمالُ واسطته ، فإن الكلام إذا كان

متنوعاً فى البلاغة، أُفتِنَت الأسماعُ فيه، ولا يلحق النفوسَ ملَلٌ من ألفاظه ومعانيه؛ ولا يخرج عن عرض إلى غيره حتّى يكمل كل ما ينتظم فيه، كما إذا كان ينشئ كتابا فى العَذْل والتوبيخ، فيشوبُ ألفاظَه بألفاظ أخرى تخرُج عن الخشونة إلى اللِّين، فإن اختلاف رُقْعة الكلام من أشدّ عيوبه.

قال فى "الصناعتين": ولا تجعل لفظك حُوشِيًّا بدويًّا، ولا مبتذلا سُوقيًّا، ورتّب الألفاظ ترتيبا صحيحا، فتقدّم منها ما يحسُن تقديمه، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره؛ ولا تقدّم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تُؤخر ما كان التقديم به أليق، ولا تكرر الكلمة الواحدة فى كلام قصير، كما كتب سعيد بن حميد: "ومَثَل خادمُك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئًا يفى بحقِّك، ورأى أن تقريظك بما يبلغه اللسان وإن كان مقصرا عن حقك أبلغُ فى أداء ما يجب لك". فكرر ذكر الحق مرتين فى مقدار يسير. على أن أبا جعفر النحاس قد ذكر فى "صناعة الكتّاب" أنّ ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربية، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرير فى القرآن الذى هو أفصح كلام، وآنَق نظام، فى قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَنْ لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات فى مقدار يسير من الكلام، وأمثاله فى القرآن الكريم كثير.

قال فى "الصناعتين": فإن احتاج إلى إعادة المعانى أعادها بغير اللفظ الذى ابتدأ به كما قال معاوية: "مَنْ لم يكن من بنى عبد المطلب جوادا فهو دَخيل، ومن لم يكن من بنى الزُّبير شُجاعا فهو لَزِيق، ومن لم يكن من بنى المُغيرة تيَّاها فهو سَنِيد". فقال: دَخيل، ثم قال: لَزيق، ثم قال: سَنِيد، والمعنى واحد، والكلام على ما ترى حسن؛ ولو قال لَزيق ثم أعاده لسَمُج. على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير

فى "المثل السائر" قد ذكر ما ينافى ذلك، وتعقَّب أبا إسحاق الصابى فى قوله فى تحميدة كتاب : الحمــد لله الذى لا تُدْرِكُهُ الأعينُ بألحــاظها، ولا تَحُدُه الألسُن بألفاظها، ولا تُخْلِقه العُصور بمرورها، ولا تُهْرِمه الدُّهور بكُرورها، وقوله بعد ذلك فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : لم يَرَ للكُفْر أثرًا إلّا طَمَسَــه ومَحَاه، ولا رَسْمـا إلا أزاله وعَفَّاه؛ فقــال لا فرقَ بين مُرور العصور، وكُرور الدهور؛ وكذلك لا فرق بين مَحْو الأثر وإعفاء الرسم؛ ويحتمل أن يقال إنمــا كره صاحب "المثــل السائر" ذلك لتوافق القرينتين فى جميع المعنى بخلاف كلام معــاوية فإنه متوافق فى اللفظة الأخيرة فقط .

قال فى "الصناعتين" : وتجنّب كلَّ ما يُكْسِب الكلام تعمية كما كتب سعيد ابن حميد يذكر مَظْلِمة إنسان فى كتابه : لفلانٍ ـ وله بى حُرْمةٌ ـ مَظْلِمةٌ، يريد لفلانٍ مظلمــة وله بى حرمة، بمعنى أنه راعى حرمتــه . قال : وٱعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرســائل والخُطَب هو أن تجعلها مُزْدَوِجة فقط ولا يلزمك فيها السجعُ، فإن جعلتها مســجوعةً كان أحسنَ ما لم يكــن فى سَجْعك استكراه وتنافُر وتعقيد؛ وكثيرا ما يقع ذلك فى السجع، وقلّما يَسلم اذا طال من ٱستكراه وتنافر .

قال ٱبن أبى الأصبع : ولا تجعــل كلامك كلَّه مبنيًّا على السجع فتظهرَ عليــه الكُلْفة، ويتبيَّنَ فيه أثرُ المشقّة، وتتكلَّف لأجل الســجع ارتكاب المعنى الساقط، واللفظِ النازل؛ وربمــا استدعيتَ كلمة للقَطْع رغبــةً فى الســجع فجاءت نافرة من أخواتها، قَلِقة فى مكانها . بل ٱصرف كلَّ النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعانى، وٱجْهَد فى تقويم المَبَانى، فإن جاء الكلام مسجوعا عَفْوا من غير قَصْد، وتشابهت مَقَاطعُــه من غير كسب كان، وإن عزَّ ذلك فاتْرُكه وان اختلفت أسجاعه، وتباينَتْ فى التقفية مَقَاطعه، فقــد كان المتقدّمون لا يحتفلون بالسَّجع جملة، ولا يقصدونه

إلا ما أتت به الفصاحة فى أثناء الكلام، واتّفق من غير قصد ولا اكتساب؛ وإنما كانت كلماتهم متوازية، وألفاظهم متساوية، ومعانيهم ناصعة، وعباراتهم رائعة، وفصولهم متقابلة، وجمل كلامهم متماثلة؛ وتلك طريقة الإمام على رضى الله عنه ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام، كابن المقفّع، ويزيد بن هارون، وإبراهيم بن العباس، والحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة، وأبى عثمان الجاحظ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء.

قال فى "مواد البيان": وأقلّ ما يكون من الازدواج قرينتان.

قال فى "الصناعتين"، وينبغى أن يجتنب إعادة حروف الصّلات والرباطات فى موضع واحد إذا كتب، فى مثل قول القائل له منه عليه، أو عليه منه، أو به له منه، وحقه له عليه. قال: وسبيله أن يداويه حتّى يزيله، بأن يفصل ما بين الحرفين مثل أن يقول: أقمت به شهداء عليه كقول المتنبى:

وتُسْعِدُنِى فى غَمْرةٍ بعدَ غَمْرةٍ ... سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

قال ابن أبى الأصبع: وليراع الإيجاز فى موضعه، والإطناب فى موضعه، بحسب ما يقتضيه المقام، ويجتنب الإسهاب والتطويل غير المفيد.

قال العسكرى: وينبغى أن يأتى فى تأليفه الكلامَ بآيات من الكتاب العزيز فى الأمور الجليلة للترصيع والتحلية، والاستشهاد للمعانى على ما يقع فى موقعه، ويليق بالمكان الذى يُوقَع فيه، ولكنه لا يستكثر منه حتّى يكون هو الغالبَ على كلامه، تنزيها لكلام الله تعالى عن الابتذال، فإنه إنما يستعمله على جهة التبرّك والزينة، لا ليُجعلَ حشوا فى الكلام؛ وإذا استُعير منه شىء أُتِى به على صورته، ولا ينقله عن صيغته، ليسلم من تحريفه، ومخالفة اختيار الله تعالى فيه. قال: وكما لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أن يُخَلِّىَ كلامه من شىء منه تحليةً له ، فإن خلوّ الكلام من القرآن يُطْمِس محاسِنَه، ويَنْقُص بَهْجته، ولذلك كانوا يسمُّون الخطبة الخالية من القرآن بتراء .

وينبـغى ألّا يستعمل فى كتابته ما جاء به القرآن العظيم من الحذف ومخاطبة الخاص بالعامّ، والعامّ بالخاص، والجماعة بلفظ الواحد، والواحد بلفظ الجماعة، وما يجرى هذا المَجْرى، لأنــ القرآن قد نزل بلغــة العرب، وخوطب به فُصحاؤهم بخلاف الرسائل .

قال فى "الصناعتين": لا يجوز أن يستعمل فيها ما يختص بالشّعر من صَرْف مالا ينصرف، وحذف ما لا يُحذف، وقَصْر الممدود، ومدّ المقصور، والإخفاء فى موضع الإظهار، وتصغير الاسم فى موضع تكبيره، إلا أن يريد تصغير التعظيم كقول القائل: «أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيْقُها المُرَجَّب» . ومما يستحسن من وصية أبى تمام لأبى عُبَادةَ البُحتُرى فى الشعر مما لا يستغنى الناثر عن المعرفة به، والنّسج على مِنْواله : لأنه يجب أن يُنَاسب بين الألفاظ والمعانى فى تأليف الكلام، ويكونَ كخيَّاط يقـدّر الثيابَ على قدر الأجسـام ، وأن يجعـل شهوتَه لتأليف الكلام هى الذّريعــةُ الى حُسْن نظمه، فإنّ الشهوة نِعْمَ المعين! ويَعتبر كلامَه بما سلَف من كلام المـاضين، فـا آستحسنه العلمـاء فليَقْصِده، وما آستقبحوه فليجتنِبْه ، وينبغى أنــ يعمل السجعات مفرّقة بحسب ما يجود به الخاطر، ثم يرتبها فى الآخر، ويحترز عند جمعها من سُوء الترتيب، ويتوخّى حُسْن النسق عنـه التهذيب ، ليكون كلامه بعضــه آخذا بأعناق بعض، فإنه أكمل لحسنه، وأمثل لرصفه، وأن يجيد المَبْدأ والمَخْلَص والمَقْطَع، ويميز فى فكره محط الرسالة قبل العمل، فإنه أسهل للقصد، ويجتهد فى تجويد هذه المواضع وتحسينها، ويوضّح معانيه ما آستطاع .

قلت وقد سبق فى أول هذه المقالة فى بيان ما يحتاج اليه الكاتب من الأدوات وذكر أنواعها بيانُ كيفية الاقتباس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والاستشهاد بها، وكيفيّة حل الشعر الى النثر، وتضمينه فى خلال الكلام المنثور وما يجرى هذا المَجْرى فأغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان ما يُستحْسَن من الكلام المصنوع فقد قال فى "الصناعتين" : إن الكلام يحسُن بسَلَاسته وسُهُولته ونَصَاعتـه، وتخيُّر لفظه، وإصابة معناه، وجودةِ مَطَالعـه، ولِين مَعَاطفه، واستواء تَقَاسيمه وتعادُل أطرافه وتشبُّه أعجازه بهَوادِيه، وموافَقـة أواخره لمَبَاديه، مع قِلّة ضروراته بل عدمها أصلا، حتّى لا يكونَ لهـا فى الألفاظ أثرٌ، فتجدُ المنظومَ مثـلَ المنثور فى سُهولة مَطْلَعـه، وجَوْدة مَقْطَعه، وحُسْن رَصْفه وتأليفـه، وكمال صَوْغه وتركيبه؛ فإذا كان الكلام قد جمع العُـذُوبة والجَزَالة والسُّهولة والرَّصانةَ مع السَّلاسة والنَّصاعة، واشتمل على الرَّوْنق والطَّلاوة، وسَلِم من ضَعْف التأليف، وبَعُد من سَمَاجة التركيب، صـار بالقَبول حَقيقا، وبالتحَفُّظ خَليقا؛ فإذا ورد على السمع المُصيب استوْعبه ولم يَمُجّه، والنفس تَقْبَلُ اللطيفَ،وتَنْبُو عن الغليظ، وتقْلَق عن الجاسِى البَشِع؛وجميعُ جوارح البدن وحواسّه تسكُن الى ما يوافِقُـه وتنفر عمـا يُضَادُّه ويخالفه؛ والعين تألَف الحَسَن، وتَقْذى بالقَبيح؛ والأنْف يرتاحُ للطِّيب ويَعـاف المُنْتِن؛ والفَمُ يلتَـذُّ بالحُلْو، ويمُجُّ المرّ؛ والسمع يتشوّق للصوت الرائع، وينْزوِى عن الجَهِير الهـائل؛ واليـد تنْعَم باللّين، وتتأذّى بالخَشِن؛والفَهْم يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكُن الى المألوف،ويَصْغى الى الصواب، ويَهْرُب من المُحَال، وينقبض عن الوَخِم، ويتأخّر عن الجافى الغليظ، ولا يقبل الكلام المُضْطَرِب إلا الفهمُ المضطرب والرويّةُ الفاسدة .

قال وليس الشأن فى إيراد المعانى لأن المعانى يعرفها العربىّ والأعجمىّ، والقروىّ والبدوىّ، إنما هو فى جَوْدة اللفظ وصَفَائه، وحُسْنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، وصحة السبك والتركيب، والخُلُوّ من أَوَد النظم والتأليف؛ وليس يُطْلَب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يُقْنَع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وُصِف من نعوته التى تقدّمت. ألا ترى أن الخُطَب الرائعة، والأشعار الرائقة، لم تُعمَل لإفهام المعانى فقط، لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام؛ وإنما يدلّ حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورَوْنَق ألفاظه، وجودةُ مَقَاطعه، وبديعُ مَباديه، وغريب مَبَانيه، على فضل قائله ومنشيه. وأيضا فإن الكلام اذا كان لفظا حُلْوا عَذْبا وَسَطا دخل فى جملة الجيد، وجرى مع الرائع النادر. وأحسنُ الكلام ما تلاءَمَ نَسْجه ولم يَسْخُف، وحَسُن نظمُه ولم يَهْجُن، ولم يُستعمَل فيه الغليظ من الكلام فيكون خَلَقا بغيضا، ولا السُّوقىّ من الألفاظ فيكون مُهَلْهَلا دُونا، ولا خيرَ فى المعانى اذا استُكْرِهت قهرا، والألفاظ اذا أُجْبِرَتْ قَسْرا؛ ولا خير فيما أُجيد لفظُه إلا مع وضوح المَغْزى وظهور المَقْصِد. قال وقد غلب على قوم الجهلُ فصاروا يستجيدُون الكلام اذا لم يَقِفوا على معناه إلا بكَدّ، ويستفصِحُونه اذا وجدوا ألفاظه كَزّةً غليظة، وجاسِيَةً غريبة، ويستحقرون الكلام اذا رأَوْه سَلِسا عَذْبا، وسَهْلا حُلْوا، ولم يعلموا أنّ السهلَ أمنعُ جانبا، وأعزُّ مَطْلَبا؛ وهو أحسن مَوْقِعا، وأعذَبُ مستَمَعا؛ ولهذا قيل أجودُ الكلامِ السهلُ الممتنع. وقد وصف الفضلُ آبنُ سهل عمرو بنَ مَسْعَدة فقال: هو أبلغُ الناس، ومن بَلَاغته أنّ كلّ أحد يظُنّ أنه يكتُب مثلَ كُتُبه؛ فإذا رامها تعذّرتْ عليه؛ وأنشد إبراهيم بن العبّاس لخاله العبّاس بن الأحنف:

إن قال لم يَفْعَلْ وإن سِيلَ لَمْ * يَبْذُلْ وإن عُوتِبَ لم يُعْتِبِ

صَبٌّ بِعِصْيانِي ولو قالَ لِي * لا تَشْرَبِ البارِدَ لم أَشْرَبِ

ثم قال : هذا والله الشعر الحسن المعنى، السهلُ اللفظ، العذبُ المستمَع، القليلُ النظير، العزيز الشبيه، المُطمع الممتنع، البعيدُ مع قربه، الصَّعْبُ مع سُهولته، قال فجعلنا نقول: هذا الكلام والله أحسن من شعره. وقيل لبعضهم: ألا تَسْتعملُ الغريب في شعرك؟ فقال : ذلك عيٌّ في زماني، وتكلُّف منِّي لوقلتُه، وقد رُزِقْت طَبْعا واتساعًا في الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يَحْتاج إلى تفسير.

وقال أبو داود: رأس الخَطَابة الطبعُ، وعمودُها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحَلْيها الإعراب، وبَهاؤُها تخيُّرُ الألفاظ، والمحبةُ مقرونةٌ بقلة الاستكراه، وما كان من الكلام لفظُه سهلا ومعناه مكشوفًا بَيِّنا فهو من جملة الردىء المردود، لا سيما إذا آرتُكِبتْ فيه الضرورات، فأما الجَزْل المختارُ من الكلام، فهو الذى تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستَعْمله فى مُحاوراتها، وأجودُ الكلام ما كان سَهْلا جَزْلا، لا يَنْغلق معناه، ولا يستَبْهم مَغْزاه، ولا يكون مَكْدودا مستكْرَهًا، ومتوعِّرا متقعِّرا، ويكون بريئا من الغَثاثة، عاريا من الرَّثاثة. فمن الجَزْل الجيِّد من النثر قول سعيد بن حميد: وانا مَنْ لايحاجُّك عن نفسه، ولا يُغالطك عن جُرْمه، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته، ولا يستدعى برَّك إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك الا بالاعتراف بالجُرْم، نَبَتْ بِى عنك غِرَّةُ الحَدَاثة وردَّتْنى إليكَ الحُنْكة، و باعَدَتْنى منكَ الثقةُ بالأيَّام، وقادَتْنى إليك الضرورة، فان رأيت أن تستَقْبل الصنيعةَ بقَبُول العُذْر، وتجدِّد النعمة باطِّراح الحقد، فانَّ قديم الحُرْمة وحديثَ التوبة يمحَقان ما بينهما من الإساءة، و إن أيام القدرة و إن طالتْ قَصيرة، والمتعةَ بها و إن كَثُرَتْ قليلة، فعلْتَ إن شاء الله تعالى.

وأجزلُ منه قول الشعبى للحجاج وقد أراد قتلَه لخُروجه عليه مع ابن الأشعث : أجدبَ بنا الجَنابُ، وأحْزنَ بنا المَنْزل فاستَحْلَسْنا، الحَذَر، واكتحلْنا السَّهر، وأصابتنا فتنةٌ لم نكنْ فيها بررةً أتقياءَ، ولا فَجَرةً أقوياء . فعفا عنه .

ومن النظم قول المرّار :

لا تَسْألِى القَوْمَ عن مالِى وكَثْرتِه * قد يُقْتِرُ المرءُ يوما وهو محْمُود

أمْضِى على سُنَّةٍ من والِدِى سلَفَتْ * وفى أُرُومَتِه ما يَنْبُتُ العُودُ

فهذا وان لم يكن من كلام العامة فإنهم يعرفون الغرضَ منه ويَقفُون على أكثر معانيه لحُسْن ترتيبه وجودة نَسْجه؛

قال فى "الصناعتين" : أما إذا كان لفظ الكلام غثًّا، ومَعْرِضه رثًّا، فإنه يكون مَرْدودا، ولو احتوى على أجلِّ معنًى وأنبله، وأرفعه وأفضله، كقول القائل :

أرى رِجالًا بأدْنى الدِّينِ قد قَنِعُوا * ولا أراهُمْ رَضُوا فى العَيْش بالدُّونِ

فاستَغْنِ بالدِّينِ عن دُنْيَا المُلوكِ كما اسـ * تَغْنى المُلوكُ بِدُنْياهُمْ عن الدِّينِ

قال : فهو لا يدخل فى جملة المختار، ومعناه كما ترى جيل، فاضلٌ جليل، وأما الجَزْل الردىءُ الفَجُّ الذى ينبغى ترك استعماله فقد مر فى الكلام على الغريب الحُوشىّ .

المقصِد الثـالث

فى بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطالته وقِصَره

اعلم أن الكلام المصنوع من الخطب والمكاتبات، والولايات وغيرها على ثلاثة ضروب :

الضــــرب الأول

الإيجــاز

وهو جمع المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة، وعليه ورد أكثرُ آى القرآن الكريم، فمن ذلك قوله تعالى فى مُفْتَتَح سورة الفاتحة : ﴿ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ . انتظم،

فيه خلق السموات والأرض وسائرِ المخلوقات لم يشذّ عنه شيء فى أوجز لفظ وأقربه وأسهله؛ ومنه قوله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ استوعبَ جميعَ الأشياء على الاستقصاء فى كلمتين لم يخرج عنهما شيء؛ وقوله ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ فدخل تحت الأمن جميعُ المحبوبات لأنه نفى به أن يخافوا شيئا من الفقرِ والموتِ وزوال النِّعمة والجَوْرِ وغير ذلك؛ وقوله : ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة؛ وقوله فى صفة خَمْر أهل الجنة : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ انتظم بقوله : ﴿ولا هم عنها ينزفون﴾ عدمَ ذَهاب العقل وذَهابِ المالِ ونَفَاد الشراب ، فلم يكن فيها شيء من ذلك؛ وقوله : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ جمع فيها مكارم الأخلاق بأسْرِها ، لأنّ فى العفو صلةَ القاطعين ، وإعطاء المانعين؛ وفى الأمر بالمعروف تقوى الله تعالى ، وصلة الرحم ، وصونَ اللسان عن الكذب، وغضّ الطَّرْف عن المحرّمات ، والتبرّى من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئا من المنكر؛ الى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى كثرةً .

ومن كلام النبوّة قوله صلى الله عليه وسلم : "نِيَّةُ المَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِه" وقوله عليه السلام : "حُبُّكَ الشَّىْءَ يُعْمِى ويُصِمُّ" الى غير ذلك من جَوامع الكَلِم .

الضـــرب الثـانى

الإطنــاب

وهو الإشباعُ فى القول، وتَرديدُ الألفاظ المترادفَة على المعنى الواحد . وقد وقع منه الكثيرُ فى الكتاب العزيز، مثل قوله تعالى : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وقوله جلّ وعزّ : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كرر اللفظ فى الموضعين تأكيدا للأمر وإعلاما أنه كذلك لا محالة . وقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ

إِنِّى لَكُمْ مِنْـهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْـهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ فكرر ﴿إنى لكم منه نذيرٌ مبين﴾ من حيث إن الكفر وإن تعدّدت أقسامُه لا يخرجُ عن تعطيل أو شرك، ففى قوله ﴿فَفِرُّوا الى اللهِ﴾ نفىُ التّعطيل بإثبات الإله وفى قوله : ﴿ولَا تَجْعَلُوا مع اللهِ إلٰهًا آخَرَ﴾ نفىُ الشّرك . وقد كرر سبحانه فى سورة الرحمن قوله : ﴿فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيثُ عدَّدَ فيها نعَمه، وأذكر عبادَه آلاءَه، ونبّههم على قَدْرها، وقدرته عليها، ولُطفه فيها ؛ وجعلها فاصلةً بين كُلّ نعمة ونعمة، تنبيهًا على موضع ما أسداه اليهم فيها ؛ وكذلك كَرَّر فى سورة المرسلات : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ تأكيدًا لأمر القيامة المذكورة فيها . وقد وقع التكرار للتأكيد فى كلام العرب كثيرا كما فى قول الشاعر :

* أَتَاكَ أَتَاكَ اللَّاحِقُونَ أَتَاكَا (١) *

وقول الآخر :

* كَمْ نِعْمَةٍ كانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

الى غير ذلك ممـا وقع فى كلامهم ممـا لا تأخذه الإحاطة .

الضـــرب الثـالث

المسـاواة

بأن تكون الألفاظ بإزاء المعانى فى القـلة والكثرة لا يزيد بعضها على بعض . وقد مثل له العسكرىّ فى "الصناعتين" بقوله تعالى : ﴿حُورٌ مَقْصُوراتٌ فى الخِيَامِ﴾ وقوله : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وقول النبى صلى الله عليه وسلم "لا تَزَالُ أُمَّتى بخَيْرٍ ما لم تَرَ الأَمَانَةَ مَغْنَمًا، والزَّكاةَ مَغْرَمًا" وقوله "إيَّاكَ والمُشَارَّةَ، فإنها تُمِيت الغُرَّةَ (٢)

---

(١) فى الضوء بدله (أحبس أحبس) وهو المشهور فى البيت .

(٢) أى العمل الصالح الحسن تشبيها له بغرة الفرس . والعرة العمل المسيء تشبيها له بالعذرة . انظر اللسان .

وتُحيي العِزّة» . وقول بعض الكُتّاب : سألتَ عن خَبَرِى وأنا فى عافية لاعَيْبَ فيها إلا فَقْدُك، ونِعْمةٍ لا مَزِيدَ فيها إلا بك . وقول آخر : وقد علّمتْنى نَبْوتُك سَلْوتَك، وأسلمنى يأْسِى مِنْك الى الصَّبْر عنك . وقول آخر : فتولّى اللهُ النعمةَ عليك وفيك ، وتولّى إصلاحَك والإصلاحَ بك ، وأجزل من الخير حَظَّكَ والحظَّ منك ، ومنّ عليك وعلينا بك . وقول الشاعر :

أَهَابُكِ إجْلالًا وما بِكِ قُــدْرةٌ * عَلَيّ ولَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها
وما هَجَرتْكِ النَّفْسُ أنّكِ عِنْدَها * قَلِيــلٌ ولا أنْ قَلّ مِنْكِ نَصِيبُها

اذا علمت ذلك فقد اختلف البلغاء فى أىّ الثلاثة أبلغ وأولى بالكلام، فذهب قوم الى ترجيح الإيجاز ، محتجِّينَ له بأنّه صورة البلاغة وأن ما تَجاوز مقدارَ الحاجة من الكلام فَضْلةٌ داخلةٌ فى حَيِّز اللَّغْو والهَذْر، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بَلَادة صاحب الصِّناعة وغَبَاوته، وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : عليكم بالإيجاز فإن له إفهاما، وللإطالة آستِبْهاما . وقال جعفر بن يحيى لكاتبه : إن قَدَرتم على أن تجعلوا كُتُبَكم توقيعاتٍ فافعــلوا . وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز أنْجَعُ من البيان بالإطناب، وقيل لبعضهم : ما البَلَاغة ؟ قال : الإيجاز . وقيــل لابن حازم لم لا تُطِيل القصائد فأنشد :

أبى لِى أن أُطِيلَ الشِّعْرَ قَصْدِى * الى المَعْــنى وعِلْمِى بالصَّــوابِ
وإيجَــازِى بمُخْتَصِر قَــرِيبٍ * حَذَفْتُ به الفُضُولَ منَ الجَوَابِ

وذهبت طائفة الى أن الإطناب أرجح ، وآحتجُّوا لذلك بأن المَنْطِق إنمــا هو بيــان والبيان لا يحصل إلا بإيضاح العبارة، وإيضاح العبارة لا يتهيأ إلا بمرادَفَــة الألفاظ على المعنى حتى تُحيط به إحاطةً يُؤْمَن معها من اللبس والإبهام، وان الكلامَ الوجيزَ لا يُؤْمَن وقوعُ الإشكال فيه . ومن ثم لم يحصل على معانيه إلا خواصُّ أهل

اللّغة العارفين بدلالات الألفاظ، بخلاف الكلام المُشْبَع الشافى فإنه سالم من الألتباس لتساوى الخاصّ والعامّ فى جهته؛ ويؤيد ذلك ما حكى أنه قيل لقَيْس بن خارجة: ماعندك فى حَمَالاتِ ذات حُسْن؟ قال : عندى قِرى كل نازل، ورضَا كلِّ ساخط، وخُطْبةٌ من لَدُنْ تطلُعُ الشمسُ الى أن تغربُ، آمرُ فيها بالتواصُل، وأنهى عن التقاطُع. فقيل لأبى يعقوب الخُرَّمى هلّا آكتفى بقوله آمر فيها بالتواصل عن قوله وأنهى عن التقاطع؟ فقال : أو ماعلمت أن الكناية والتعريضَ لا تعملُ عَمَلَ الإطناب والتكشُّف؟ ألاترى أن الله تعالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخْرَجَ الإشارة والوَحْى واذا خاطب بَنِى إسرائيل أو حكى عنهم جعلَ الكلامَ مبسوطا، وقلما تجد قصةً لبنى إسرائيل فى القرآن إلا مطوَّلة مشروحة، ومُكرّرةً فى مواضع مُعادةً لبُعد فهمهم، وتأخُّر معرفتهم؛ بخلاف الكلام المُشْبَع الشافى فإنه سالمٌ من الألتباس لتساوى الخاصّ والعامّ فى فهمه.

وذهبت فرقة الى ترجيح مساواة اللفظ المعنى، وآحتجوا لذلك بأن مَنْزَع الفضيلة من الوسَط دون الأطراف، وأن الحُسْن إنما يوجد فى الشىء المعتدل.

قال فى "موادّ البيان" : والذى يوجبه النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواةَ صفاتٌ موجودة فى الكلام ولكل منها موضع لا يخلُفه فيه رديفُه، اذا وضع فيه آنتظمَ فى سِلْك البلاغة ودلّ على فضل الواضع، واذا وُضع غيره دلَّ على نقص الواضع وجهله برُسُوم الصِّناعة.

فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمخاطبة الملوك، وذوى الأخطار العالية، والهمم المستقيمة، والشؤون السنيّة، ومن لا يجوز أن يُشْغَل زمانه بما همّته مصروفةٌ الى مطالعة غيره.

وأما الإطنـاب فإنه يصلح للكاتبات الصادرة فى الفُتُوحات ونحوها ممـا يُقرأ فى المحافل، والعُهودِ السلطانية، ومخاطبةِ من لا يصل المعنى الى فهمه بأدنى إشارة. وعلى ذلك يحمل ما كتبه المهلَّبُ بنُ أبى صُفْرةَ الى الحجّاج فى فتح الأزارقة من الخوارج والظهور عليهم على ارتفاع خَطَر هـذا الفتح وطول زمانه وبُعْد صِيته، فإنه كتب فيه : "الحمد لله الذى كفى بالإسلام فَقْدَ ما سِواه، وجعل الحمـدَ متصلا بنُعْماه، وقضى ألّا ينقطع المزيدُ وحبـلُه، حتّى ينقطع الشكْرُ من خلقه. ثم إنا كنا وعدُوّنا على حالتين مختلفتين نرى منهم ما يسُرُّنا أكثرَ ممـا يسُرُّهم، ويَرَوْن منـا ما يسُوءُهم أكثرَ مما يسُرُّهم، فلم يزل ذلك دأْبَنَا ودأْبَهم، ينصُرنا اللهُ ويَخْذُلهم، ويمحِّصنا ويمحَقُهم، حتّى بلغ الكتابُ بنادبهم أجلَه ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين﴾ .

فإن الذى حمله على الاختصار فى هذا الكتاب إنما هو كونه الى السلطان الذى من شأنه اختصارُ المكاتبات التى تُكتَب اليه، بخلاف ما لو كُتِب به عن السلطان الى غيره، فإنه يتعين فيه بَسْطُ القول وإطالتُه على ما سيأتى ذكره فى أوّل المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

وأما مساواة اللفظ للعنى فإنه يصلُح لمخاطبة الأكفاء والنُّظَراء والطَّبَقة الوُسْطَى من الرؤساء. فكما أن هذه المرتبةَ متوسِّطة بَيْن طرفَى الإيجاز والإطناب، كذلك يجب أن تُختَصّ بها الطبقةُ الوُسْطى من الناس . قال أما لو استعمل كاتبٌ ترديد الألفاظ ومرادَفَتها على المعنى فى المكاتبة الى ملك مصروفِ الهمة الى أمور كثيرة متى انصرف منها الى غيرها دخلها الخلَلُ، لرتَّب كلامه فى غير رُتَبـه، ودلَّ على جهله بالصناعة . وكذا لو بنى على الإيجاز كتابا يكتُبه فى فتح جليلِ الخطَر، حَسَنِ الأثر، يُقرأ فى المحافل والمساجد الجامعة على رءُوس الأشهاد من العامّة ومن يُراد منه تفخيمُ شأن السلطان فى نفسه، لأوقعَ كلامه فى غير موقعه، ونزّله فى غير منزلته، لأنه لا أقبحَ ولا أسمج

من أن يُستنفَر الناسُ لسماع كتاب قد ورد من السلطان فى بعض عظائم أمور المملكة أو الدِّين، فإذا حضر الناسُ كان الذى يمرّ على أسماعهم من الألفاظ واردا مَوْرِدَ الإيجاز والاختصار لم يحسُن موقعه وخرج من وَضْع البلاغة لوَضْعه فى غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التى تبنى عليها صنعة الكلام هو القدر اللازم الذى لا يسعُ الكاتبَ الجهلُ بشىء منه ، ولا يُسْمَح بإخلاء كتاب مصَنَّف فى هذا الفنّ منه .

أما المتمِّمات التى يكمُل بها الكاتب، من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوهِ تحسين الكلام من المعانى والبيان والبديع فإن فيها كتباً مفردة تكاد تخرُج عن الحَصْر والإحصاء ، فاقتضى الحال من المتقدّمين للتصنيف فى هـذا الفنّ أن قد قَصَروا تصانيفَهم على علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" وأبى هـلال العسكرىّ فى "الصناعتين" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى "حسن التوسل" كما تقدّمت الإشارة اليه فى مقـدّمة الكتاب ، فليُطْلَبْ ذلك من مظانّه من هـذه الكُتُب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنمـا يذكر فيه ما يَشق طلبه من كتب متفرّقة ، وتصانيف متعدّدة، أو يكونُ فى المصنَّف الواحد منه النُّبذة غيرُ الكافية ، ولا يجتمع منه المطلوب إلا من كشف الكثيرِ من المصنَّفات المتفرّقة فى الفنون المختلفة .

الفصل الثالث

من الباب الأوّل من المقالة الأُولى

فى معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين على آختلاف الأمم فيها، وتفاصيل أجزائها، والطرق الموصلة اليها، ومعرفة أعياد الأمم، وفيه أربعة أطراف

الطرف الأوّل

فى الأيام وفيه ست جمل

الجملة الأولى

فى مدلول اليوم ومعناه، و بيان آبتداء الليل والنهار

وقد اختلف الناس فى مدلول اليوم على مذهبين :

المذهب الأوّل (وهو مذهب أهل الهيئة) — أنّ اليوم عبارة عن زمانٍ جامعٍ لليل والنهار، مدّتُه ما بين مفارقة الشمس نصفَ دائرة عظيمة ثابتـةِ الموضع بالحركة الأولى الى عودها الى ذلك النصف بعينه، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلكُ نصف النهار . والحُذّاق من المنجّمين يؤْثِرون فلكَ نصِف النهار على الأفُق بسهولة تحصل بذلك فى بعض أعمالهم، لأن اختلافَ دوائره فى سائر الأوقات اختلافٌ واحد، وبعضهم يُؤْثِر استعمال الأفُق لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهرُ للعيان ، وهو الموافق لما نحن فيه .

ثم منهم مَنْ يقدّم الليل فيفتتح اليومَ بغروب الشمس ويختم بغروبها من اليوم القابل، وعلى ذلك عمل المسلمين وأهلِ الكتاب، وهو مذهب العرب، لأن شهورهم مبنية على مسير القمر، وأوائلها مقدّرة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدّم النهار على الليـل فيفتتح اليومَ بطلوع الشمس ويختِمُ بطلوعها من اليوم القابل، وهو مذهبُ الروم والفُرْس .

ويحكى أن الاسكندر سأل بعضَ الحكماء عن الليل والنهار أيُّهما قبل صاحبِه فقال : هما فى دائرة واحدة، والدائرة لا يُعْلَم لها أوّلٌ ولا آخر، ولا أعلى ولا أسفلُ.

المذهب الثانى (وهو مذهب الفقهاء) — أن اليوم عبارة عن النهار دُونَ الليل حتّى لو قال لزوجته : أنت طالق يومَ يقدَمُ فلان فقدِم ليلا لم يقع الطلاقُ على الصحيح .

ثم القائلون بذلك نظروا الى الليل والنهار باعتبارين : طبيعىّ، وشرعىّ .

أما الطبيعىّ فالليل من لَدُنْ غروب الشمس واستتارها بحَدَبة الأرض الى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصف قُرْص الشمس من المشرق الى غيبوبة نصفها فى الأُفُق فى المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك .

وأما الشرعىّ — فالليل من غروب الشمس الى طلوع الفجر الثانى، وهو المراد بالخيط الأبيض من قوله تعالى : ﴿حتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسودِ مِنَ الفَجْرِ﴾ والنهار من الفجر الثانى الى غروب الشمس، وبذلك تتعلق الأحكامُ الشرعية من الصوم والصلاة وغيرهما .

واعلم أن الشمس فى الليل تكون غائبةً تحت الأرض، فإذا قَرُبتْ منا فى حال غيبتها أحسَسْنا بضيائها المحيط(١) بظل الأرض الذى هو الليل، وهـذا الضياء طليعةٌ أمامها يطلعُ فى السَّحَر بياضٌ مستطيل مستدِقٌّ الأعلى، وهو الفجر الكاذب إذ لا حكم له فى الشريعة، ويُشَبَّه بذَنَب السِّرحان لانتصابه واستطالته ودقّته، ويبقى مدّة ثم يزداد هـذا الضوء الى أن يأخذ طُولا وعَرْضًا وينبسط فى عَرْض الأُفُق، وهو الفجر الثانى ويسمّى الصادق، وعليه تترتب جميعُ الأحكام الشرعية المتعلقة

(١) لعله المحجوب بظل الارض كما يفيده المقام

بالفَجْر، وبعده يحمّر الأفق لاقتراب الشمس وسُطُوع ضيائها على المدوّرات الغربية من الأرض ، ويتبعه الطلوع ؛ وعند غُرُوبها ينعكس الحكمُ فى الترتيب المتقدّم فيبقى الأُفُق محمّرا من جهة المغرب بعدَ الغروب، ثم تزول الحُمْرة ويبقى البَياضُ الذى هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالبياض حكمُها عند الحنفيــة ؛ ثم يزداد البياض ضعفا شيئا فشيئا الى أن يغيب ، ثم يتبعه البياض المستطيل المنتصِب نظير الفجر الكاذِب مدّة من الليل ثم يذهب؛ وهذا لا حكم له فى الشرعيات . والهنــد لا يَعُدُّون الفجرَ ولا الشَّفَق من الليل ولا من النهار ، ويجعلونهما قِسْما مستقلا وهذا فى غاية البُعْد لأن الله تعالى قسم الزمان الى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما .

الجمـــــلة الثـــانية

فى اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والاستواء باختلاف الأمكنة

واعلم أن البلاد والنواحى على قسمين :

القســـم الأوّل

ما يستوى فيه الليل والنهار أبدًا ؛ لا يختلفان بزيادة ولا نُقْصانٍ

وذلك فى البلاد التى لا عَرْضَ لهـا وهى ما مرّ عليـه خط الاستواء؛ والعلة فى التّساوى هى أن أصحاب الهيئة لمـا توهموا أن بين قُطْبَىْ فلك البُروج دائرةً عظمى تَقسِم سـطحَ السماء نصفين على السَّـواء وسَمّوْها دائرة معدّل النهار، وتوهموا أيضا فى موازاتها دائرة أُخرى تقسم سـطحَ الأرض نصفينِ وسَمّوْها دائرة الاسـتواء وخط الاستواء؛ وكل بلد يمرّ عليه هذا الخط لا عَرْض له ،وذلك لانقسام الكرة فيه وطلوع الشمس أبدا على رءوس ساكنيه، وميلها فى ناحيتى الشمال والجنوب بقدر واحد،

ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معـدّل النهار بنصفين نصفين ، فيكون قوس النهار وهو الزمان الذى من طلوع الشمس الى غروبها مساويا لقوس الليل وهو الزمان الذى من غروب الشمس الى طلوعها فيكون الليل والنهار متساويين أبدا فى هذه المواضع فى جميع السنة .

القســـم الثـانى

ما يختلف فيه الليل والنهار فى السنة بالاستواء والزيادة والنُّقْصان ، وهى البلاد ذواتُ العُروض

والعلّةُ فى الزيادة والنُّقصان أن المواضع التى تميل عن خَطّ الاستواء الى الشمال تميـل فى كل موضع منها دائرةُ معـدّل النهار الى الجَنُوب وتنحطُّ الشمسُ ويرتفعُ القطب الشمالىُّ من الأُفُق ويصـير للبلد عَرْض بحسب ذلك الارتفاع ، وبقَـدْر بُعْـده عن الخَطّ . واذا مالت الدائرة قطعت الآفاق كُلَّ دائرة من الدوائر الموازية لهـا بقطعتين مختلفتين ، فيكون ما فوق الأرض من قسمَيْها أعظمَ من الذى تحتها ، لأن القطب لمـا ارتفع ارتفعت الدوائر الشمالية فظهر من كل واحدة أكثرُ من نصـفها وانحط مَدارُ الشمس عن سَمْت الرأس الى جهـة الجنوب فبَعُـد مَشْرِقُ الصـيف عن مَشْرِق الشتـاء فطال النهار وقَصُر الليل ، وكلمـا زاد ارتفاعُ القطب فى الأقاليم زاد الاختلاف الذى هو بين هـذه القِطَع الى أنْ تكون نهـايةُ الأطوال حيث يكون ارتفاع القطب اثنَتىْ عشرةَ درجةً ونصفًا وربعًـا وهو أوّل المعمور ، اثنَتىْ عشرةَ ساعةً ونصفًا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعهُ تسعا وعشرين درجةً وهو آخر الإقليم الثـانى ، ثلاثَ عشْرَة ساعةً ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثا وثلاثين درجةً ونصـفًا وهو آخر الإقليم الثـالث أربعَ عشرةَ ساعةً وربعا ، وحيث

يكون ٱرتفاعه تِسعا وثلاثينَ درجةً وهو آخر الإقليم الرابع أربعَ عشرةَ ساعة ونصفا وربعا ؛ وحيث يكون ٱرتفاعه ثلاثا وأربعين درجةً ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خَمس عَشْرةَ ساعة ورُبعا ، وحيث يكون ٱرتفاعهُ سبعا وأربعين درجةً وهو آخر الإقليم السادس خمس عَشْرةَ ساعة ونصفا وربعا ، وحيث يكون ٱرتفاعه خمسين درجة وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعة وربعا .

ولا يزال ٱختلاف مَطَالع البروج يزداد بالإمعان فى الشمال ويتسعُ شَرْقَا المنقلَبيْنِ ويتقاربان مع مَغْرِبيهما الى أن يلتَقيا فى العَرْض المُساوى لتمام المَيْل الأعظم ، وهو بحيث يكوْن ٱرتفاع القُطْب ستاً وستين درجةً ، وفى هذا الموضع يكون قطبُ فلك البروج فى دَوْره يمرُّ على سمت الرءُوس ، ويكون أوّل السَّرطـان فقط ظاهرا فوق الأرض أبدا ، ومَدَار أوّل الجَدْى فقط غائبا أبدا . فيكون مقدارُ النهار الأطولِ أربعا وعشرين ساعة لا ليــل فيه . ويعرض فى هــذه المواضع عند موازاة قُطْب فلك البروج سَمْتَ الرءُوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ على دائرة الأفق ، فيكون أوّل الحَمَل فى المشرق ، وأوّل الميزان فى المَغْرِب ، وأوّل السَّرطان فى الأفق الشَّمالىّ ، وأوّل الجَــدْى فى الأفق الجنوبىّ . فاذا صار قطبُ فلك البروج والأفق نصــفين وارتفع النصف الشرقىّ من فلك البروج وٱنخفض النصف الغربىّ فيطلُع حينئذ ستةُ بروج دفعةً واحدةً ، وهى من أوّل الجَدْى إلى آخر الجوزاء ، وكذلك تغرب الســتة الباقية دفعة واحدة . وحيثُ يكون ٱرتفاع القطب سبعا وستين درجةً وربعا فهناك يكون مَدَار مابين النصف من الجوزاء إلى النصف من السَّرطان ظاهرا فوقَ الأرض أبدا ، وما بينَ النصف من القَوْس إلى النصف من الجَدْى غائبا أبدا ، فيكون مقدار شهر من شهور الصــيف نهارا كلُّه لا ليل فيه ، وشهر من الشــتاء ليلا كله لانهار فيه والعشرة الأشهر الباقيةُ من السنة كلّ يوم وليلة أربعًا وعشرين ساعةً . وحيث يكون

ٱرتفاع القطب تسعا وستين درجة ونصفا وربعا فهناك يكون مَدار بُرْجَيِ الجوزاء والسَّرطان ظاهرا فوق الأرض ، ومدار برجَيِ القوس والجَدْى غائبا تحت الأرض أبدا . ولذلك يكون مقدارُ شهرين من الصيف نهارًا كلّه ، وشهرين من الشتاء ليلا كلّهُ . وحيث يكون ٱرتفاعُ القطب ثلاثا وسبعين درجة يكون مابين النصف من الثور الى النصف من الأسد ظاهرا أبدا والأجزاء(١) النظيرةُ لهـا غائبةٌ أبدا ، فيكون مقدارُ ثلاثة أشهر من الصيف نهارًا كُلّه ، وثلاثةِ أشهر من الشتاء ليلًا كُلّه . وحيث يكون ٱرتفاع القطب ثمـانًا وسبعين درجة ونصفا فهناك يكون مَدار الثور والجَوْزاء والسَّرطان ظاهرا أبدا والبروج النظيرةُ لها غائبة أبدا ،فيكون أربعةُ أشهر من الصيف نهارا كلّه وأربعةُ أشهر من الشتاء ليلًا كُلّه . وحيث يكون ٱرتفاع القطب أربعا وثمـانين درجةً فهناك يكون مَدار مابين النصف من الحَمَل إلى النصف من السُّنْبلة ظاهرا أبدا والبُروج النظيرةُ لها غائبةٌ أبدا فيكون خمسةُ أشهرٍ من الصيف نهارًا كلّه وخمسةُ أشهر من الشتاء ليلا كُلّه .

وممـا يعرض فى هذه المواضع التى تقدّم ذكرها أنه إذا كان قطْب فلك البروج فى دائرة نصف النهار ممـا يلى الجَنوبَ كان أوّلُ الحمل فى المَشْرق وأوّلُ الميزان فى المغرب ، وتكون البروج الشماليـةُ ظاهرةً أبدا فوق الأرض والجَنوبيّـة غائبة تحتها ، وهناك يطلع ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجَـدْى والسَّرطان منكوسًا ، فيطلعُ الثورُ قبل الحَمَل ، والحملُ قبل الحوت ، والحوتُ قبل الدلو . وكذلك تغرب نظائرها منكوسةً ، وحيث يكون ٱرتفاع القطب تسعين درجة فيصير على سَمْت الرأس فهناك تكون دائرة معـدّل النهار منطبقةً على الأفق أبدا ، ويكون دور الفلك رَحَويًّا موازيا للأُفُق ويكون نصف السماء الشمالى عن معدّل النهار ظاهرا أبدا فوق

(١) المراد بها البروج كما يدل عليه بقية العبارة .

الأرض والنصف الجنوبىُّ غائبا تحتها، فلذلك اذا كانت الشمس فى البروج الشماليه كانت طالعة تدور حول الأُفُق ويكون أكثرُ ارتفاعها عنه بمقدار ميلها عن معدّل النهار، واذا كانت فى البروج الجنوبية كانت غائبة أبدا فتكون السنة هناك يوما واحدا ستة أشهر ليلا وستة أشهر نهارا، ولا يكون لها طلوع ولا غروب . فظهر من هذا أن حركة الفلك بالنسبة للآفاق إمّا دُولابيّة، وهى فى خط الاستواء؛ وإما حمائلية، وهى فى الآفاق المائلة عنه، وإما رَحَوِيّة! وهى فى المواضع التى ينطبق فيها قطبُ العالَم على سَمْت الرأس فسبحان مَنْ أتقن ما صنع !

الجملة الثالثة

فى معرفة زيادة الليل والنهار ونقصانهما بتنقّل الشمس فى البروج

اعلم أن للشمس حركتين : سريعةً وبطيئةً .

أما السريعة فحركة فلك الكُلّ بها فى اليوم والليلة من المَشْرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق، وتسمَّى الحركةَ اليوميَّةَ .

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلكَ البروج فى سنة شمسيَّة من الجَنُوب الى الشَّمال ومن الشَّمال الى الجَنُوب، ولتَعْلَمْ أن جهة المشرق وجهةالمغرب لا تتغيّران فى أنفسهما بل جهة المشرق واحدةٌ وكذلك جهة المغرب ، وان اختلفت مطالعهما . قال تعالى ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ﴾ أى جهة الشُّروق وجهة الغُروب فى الجملة، إلا أن الشمس لها غايةٌ ترتفع اليها فى الشَّمال ولتلك الغاية مَشْرِق ومَغْرِب وهو مَشْرِق الصيف ومغربُه، ومطلعها حينئذ بالقُرْب من مَطْلَع السِّماك الرامح، ولها غاية تنحطُّ اليها فى الجَنُوب، ولتلك الغاية أيضا مَشْرِق ومَغْرِب : وهو مشرق الشتاء ومغربه ، ومطلعها حينئذ القُرْب من مطْلَع بطن العقرب، وهذان المَشْرقان والمَغْرِبان هما المراد بقوله تعالى:

﴿رَبُّ المَشْرِقَيْنِ ورَبُّ المَغْرِبَيْنِ﴾ وبين هاتين الغايتين مائة وثمانون مَشْرِقا ويقابلها مائة وثمـانون مَغْرِبًا ، ففى كل يوم تَطْلُع فى مَطْلَع من المشرق غيرِ الذى تطلُع فيـه بالأمس، وتغرُبُ فى مغرب غيرِ الذى تغرب فيـه بالأمس . وذلك قوله تعـالى : ﴿رَبُّ المَشَارِق والمَغَارِب﴾ ونقطةُ الوسط بين هاتين الغايتين وهى التى يعتدل فيهـا الليلُ والنهارُ يُسَمّى مَطْلَع الشمس فيها مَشْرِق الاستواء، ومَغْرِب الاستواء، ومطلعها حينئذ بالقرب من مَطْلَع السماك الأعْزِل .

وقد قَسَّم علماء الهيئة مابين غاية الارتفاع وغاية الهُبُوط اثنَىْ عشر قِسْما، قالوا: والمعنى فى ذلك أن الشمس فى المبدإ الأوّل لمـا سارتْ مَسِيرَها الذى جعله الله خاصًّا بها قطعتْ دَوْر الفلك التاسع فى ثلثمائة وستين يوما ، وسميت جملةُ هذه الأيام سنة شمسية ورَسَمت بحركتها هذه فى هذا الفلك دائرةً عُظْمى على ما توهَّمه أصحاب الهيئة؛ وقسمت هذه الدائرة الى ثلثمائة وستين جزءا وسَمَّوْا كلَّ جزء درجةً، ثم قسمت هذه الدَّرَج الى اثنَىْ عشر قسما على عدد شهور السنة ، وسَمَّوْا كل قسم منها برجًا ، وجعلوا ابتداء الأقسام من نقطة الاعتدال الربيعىّ: لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة، ووجدوا فى كل من قسم هذه الأقسام نجوما تتشكَّل منها صورةٌ من الصُّوَر فسَمَّوْا كلَّ قسم باسم الصورة التى وجدوها عليه، وكان القسم الأوّل الذى ابتدءوا به نجوما اذا جُمِع متفرِّقها تشكلتْ صورةَ حَمَل، فسمَّوْها بالحمل، وكذلك البواقى .

قال صاحب "مَنَاهج الفكر" : وذلك فى أوّل ما رَصَدُوا، وقد انتقلت الصُّوَر عن أمكنتها على ما زعموا فصار مكانَ الحَمَلِ الثورُ، وهى تنتقل على رأى بطليموس فى ثلاثة آلاف سنة، وعلى رأى المتأخرين فى ألفَىْ سنة .

اذا علمت ذلك فاعلم أن الدَّوْرة الفلكية فى العُرُوض الشَّمالية تنقسم الى ثلثمائة وستين درجة ، كما تقدّمت الإشارة اليـه ؛ والسنةُ ثلثمائة وستون يوما منقسـمة على

الاثنى عشرَ برجا المتقدِّم ذكرها ، لكل برج منها ثلاثُون يوما ، وتُوزَّع عليها الخمسة أيام والربع يوم ، والليل والنهـار يتعاقبان بالزيادة والنُّقصان بحسب سير الشمس فى تلك البُروج ، فما نقص من أحدهما زيد فى الآخَر . وذلك أنها اذا حلَّتْ فى رأس الحَمَل وهي آخذةٌ فى الارتفاع الى جهة الشَّمال ، وذلك فى السابعَ عشرَ من برمهات من شُهور القبط ، ويوافقه الحادى والعشرون من آذار من شهور السُّرْيان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حردادماه من شهور الفرس ، اعتدل الليـلُ والنهار ، فكان كل واحد منهما مائةً وثمانين درجة ، وهو أحد الاعتدالين فى السنة ، ويسمّى الاعتدالَ الربيعيَّ لوقوعه أوّل زمن الربيع فيزيد النهارُ فيه فى كل يوم نصفَ درجة ، وينقص الليلُ كذلك ، فتكون زيادةُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجة ، ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجةً ، والليل على مائة وخمس وستين درجةً .

ثم تنقُل الى الثور فيزيد النهار فيه كلَّ يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشْرَ درجات ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات ، والليـل على مائة وخمس وخمسين درجة .

ثم تنتقل الى الجوزاء فيزيد النهارُ فيها كلَّ يوم سُدْسَ درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيهـا لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ، ونقص الليـل كذلك ، ويصـير النهار آخرَها على مائتين وعشر درجات والليـل على مائة وخمسـين درجة وذلك غاية ارتفاعها فى جهة الشمال . وهذا أطول يوم فى السنة وأقصر ليلة فى السنة .

ويسمّى سيرُ الشمس فى هذه البروج الثلاثة شَمَاليًّا صاعدا لصعودها فى جهة الشمال .

ثم تنقُل الشمس الى السَّرطان وتَكُرّ راجعةً الى جهة الجَنُوب ، ويسمّى ذلك المُنقلَبَ الصيفيَّ ، وذلك فى العشرين من بؤنة من شُهور القبط ، ويبقى من حزيران

من شهور السُّرْيان و يونيه من شهور الروم خمسةُ أيام،وحينئذ يأخُذ الليلُ فى الزيادة والنهـارُ فى النقصان، فينقُص النهارُ فيـه فى كل يوم سُدُسَ درجة، و يزيد الليـل كذلك، فيكون نقصُ النهار فيـه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات، و زيادة الليـل كذلك، و يصير النهارُ بآخره على مائتين وخمس درجات ، والليـل على مائة وخمس وخمسين درجة .

ثم تنقل الى الأسد فينقُص النهارُ فيه كل يوم ثُلثَ درجة، فيكون نقص النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشْرَ درجات، و زيادة الليل كذلك، و يصـير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجةً، والليل عل مائة وخمس وستين درجةً .

ثم تنقل الى السُّنْبلة فينقص النهار فيهـا كلَّ يوم نصفَ درجة ، و يزيد الليل كذلك، فيكون نقصُ النهار فيها لمدّة ثلاثين يوما خَمْسَ عَشْرةَ درجةً، و زيادة الليل كذلك ، و يصـير النهار بآخرها على مائة وثمـانين درجة والليل كذلك ، فيسـتوى الليلُ والنهار . و يسـمّى الاعتدال الخريفىَّ : لوقوعه فى أوّل الخريف . و يسمّى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة شماليا هابطا لهُبُوطها فى الجهة الشمالية .

ثم تنقل الى الميزان فى الثامنَ عشرَ من توت مرن شهور القبط، وهى آخذة فى الهُبُوط، والنهار فى النقص والليلُ فى الزيادة، فينقُص النهار فيه كلَّ يوم نصفَ درجة، و يزيد الليل كذلك، فيكون نقصُ النهـار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجةً، و زيادة الليل كذلك ؛ و يصـير النهار بآخره على مائة وخمس وسـتين درجةً والليل على مائة وخمس وتسعين درجةً .

ثم تنقل الى العقْرب، فينقص النهـارُ فى كل يوم ثُلُثَ درجة، و يزيد الليـل كذلك ، فيكون نقصُ النهار فيـه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات، و زيادةُ الليـل

كذلك؛ ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل الى القوس، فينقص النهار فيه كلّ يوم سُدُس درجة، ويزيد الليل كذلك؛ فيكون نقص النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات؛ وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة، والليل على مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم في السنة وأطول ليلة في السنة ؛ وذلك غايةُ هبوطها في الجهة الجنوبية . ويسمّى سيرُ الشمس في هذه البروج جَنوبياً هابطا، لهُبُوطها في الجهة الجنوبية .

ثم تنقل الى الجَدْى في السابعَ عشر من كيهك وتكُرّ راجعة، فتاخذ في الارتفاع ويأخُذ النهار في الزيادة والليل في النقصان، فيزيد النهار فيه كلّ يوم سُدُس درجة، وينقص الليل كذلك؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجةً ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل الى الدلو، فيزيد النهار فيه كلّ يوم ثلثَ درجة؛ وينقص الليل كذلك؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشر درجات ونقصُ الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة .

ثم تنقل الى الحُوت فيزيد النهار فيه كلّ يوم نصفَ درجة وينقص الليل كذلك، فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجةً ونقص الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقدّم . ويسمّى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبيا

صاعدا لصعودها فى الجهــة الجنوبيَّة؛ وهــذا شأنها الى أن يرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها وهو خيْر الوارثين .

وهــذا العمل إنمــا هو فى مصر وأعمالهــا؛ فاذا اختلفت العُروض كان الأمرُ فى الزيادة والنُّقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيــه — اذا أردت أن تعرف الشمس فى أىّ برج من البُروج وكم قطعتْ منه فى أىّ وقت شئت فأقرب الطرق فى ذلك أن تعرف الشهر الذى أنت فيه من شهور القبط وتعرف أمسه[1] .

الجملـــة الرابعـــة

فى بيان ما يعرّف به ابتداء الليل والنهار

وقد تقدّم أن النهار الطبيعىَّ أوّله طلوعُ الشمس وآخرُه غروبُها، والنهار الشرعىّ أوّله طلوع الفجر الثــانى وآخره غروب الشمس؛ فيخالفــه فى الأبتداء ويوافقه فى الأنتهاء، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاصّ والعــامّ أما الفجر فإن أمره خفىّ لا يعرفه كلُّ أحد؛ وقد تقدّم انقسامه الى كاذب : وهو الأوّل، وصادق وهو الثانى، وعليه التعويل فى الشرعيات، فيحتاج الى مُوضِّح يوضّحه و يظهره للعيان، وقد جعل المنجِّمون وعلماءُ الميقات له نجوما تدلُّ عليه بالطُّلوع والغروب والتوسط، وهى منــازل القمر، وعدّتها ثمــانٍ وعشرون منزلة وهى الشَّرَطانِ ، والبُطَيْن ، والثُّريَّا ، والدَّبَران ، والهَقْعَــة ، والهَنْعَــة ، والذِّراع ، والنَّثْرة ، والطَّرْف ، والجَبْهَــة ، والخَرَتان ، والصَّرْفة ، والعَوَّاء ، والسِّماك ، والغَفْر ، والزُّبانان ، والإكليل ، والقَلْب ، والشَّولة ، والنَّعائم ، والبَلْدة ، وسَــعْدُ الذابحُ ، وسَعْدُ بُلَعَ ، وسعدُ السُّعود ، وسَــعدُ الأخبيةِ ، والفَرْغُ المقدّم ، والفَرْغ المؤخَّر ، و بطن الحُوت ،

(١) بياض فى الأصل .

والمعنى فى ذلك أن الشمس إذا قَرُبت من كوكب من الكواكب الثابتة أو المتحرّكة سترته وأخفته عن العيون، فصار يظهر[١] نهارا ويختفى ليلا ويكون خفاؤه غيبةً له، ولا يزال كذلك خافيا الى أن تبعُدَ عنه الشمسُ بُعْدا يمكن أن يظهر معه للأبصار وهو عند أوّل طلوع، الفجر فإن ضوء الشمس يكون ضعيفا حينئذ فلا يغلبُ نورَ الكوكب فيُرى الكوكب فى الأفق الشرقىّ ظاهرا، وحصةُ كل منزلة من هذه المنازل من السنة ثلاثةَ عشرَ يوما وربعَ سبعِ يوم ونصفَ ثُمُن سبع يوم على التقريب كما سيأتى[٢] على المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ما ذكر من العدد والكسور، ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوما، وهى ثلاث عشرة درجة من درج الفلك وجمع ما فضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوما بعد انقضاء أيام المنازل الثمانية والعشرين، فكان يوما وربما يجعل يوما فى المنزلة التى توافق آخر السنة وهى الجبهة فكان حصتها أربعة عشر يوما، وبقى ربع يوم ونُسِئَ أربعَ سنين حتى صار يوما فزيد على الجبهة أيضا، فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلُع مع الفجر منها أربعة عشر يوما ثلاث سنين وفى السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوما .

فأما الشَّرطان وهما المنزلةُ الأولى، فأوّل طلوعهما بالفجر فى الثالث والعشرين من برمودة من شهور القبط، وهو الثامن عشر من نَيْسان من شهور السُّرْيان .

وأما البُطَين وهو المنزلة الثانية فأوّل طلوعه بالفجر فى السادس من بشنس من شهور القبط، وهو أوّل يوم من أيّار من شهور السُّرْيان .

وأما الثُّريّا وهى المنزلة الثالثة فأوّل طلوعها بالفجر فى التاسع عشر من بشنس من شهور القبط، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السُّريان .

(١) لعله يختفى نهارا و يظهر ليلا . ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة

(٢) كذا فى الأصل ولعله فان أيام السنة اذا قسمت على الخ .

وأما الدَّبران وهو المنزلة الرابعــة فطلوعها بالفجر فى الثـانى من بؤنه من شهور القبط، وهو السادس والعشرون من أيار من شهور السريان .

وأما الهَقْعة وهى المنزلة الخامســة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس عشر من بؤنه من شهور القبط، وهو التاسع من حزيران من شهور السريان .

وأما الهَنْعة وهى المنزلة السادســة، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثـامن والعشرين من بؤنه من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من حزيران من شهور السريان .

وأما الذِّراع وهو المنزلة السابعــة ، فأوّل طلوعه بالفجر فى الحـادى عشر من أبيب من شهور القبط، وهو الخامس من تمُّوز من شهور السريان .

وأما النَّثْرة وهى المنزلة الثامنة، فأوّل طلوعها بالفجر فى الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تموز من شهور السُّريان .

وأما الطَّرْف وهو المنزلة التاسعة، فأوّل طلوعه بالفجر فى السابع من مسرى من شهور القبط : وهو اليوم الآخر من تموز من شهور السُّريان .

وأما الجبهة وهى المنزلة العاشرة، فأوّل طلوعها بالفجر فى العشرين من مسرى من شهور القبط، وهو الثالث عشر من آب من شهور السريان .

وأما الخَرَتان وهو المنزلة الحادية عشرة، فأوّل طلوعه بالفجــر فى الرابع من أيام النسىء القبطىّ، وفى السنة الكبيسة فى الخامس منه، وهو السابع والعشرون من آب من شهور السريان .

وأما الصَّرْفة وهى المنزلة الثانيةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثانى عشر من توت من شهور القبط، وهو التاسع من أيلولَ من شهور السُّريان .

وأما العَوّاء وهي المنزلة الثالثةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس والعشرين من توت من شهور القبط، وفى الثانى والعشرين من أيلول من شهور السُّريان .

وأما السِّماك وهي المنزلة الرابعــةَ عشرةَ فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن من بابه من شهور القبط، وهو الخامس من تشرين الأوّل من شهور السريان .

وأما الغفْر وهى المنزلة الخامسةَ عشرةَ فأوّل طلوعها بالفجر فى الحادى والعشرين من بابه من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تشرين الأوّل من شهور السُّريان .

وأما الزُّبانانِ وهيــا المنزلة السادسةَ عشرةَ فأوّل طلوعهما بالفجر فى الرابع من هاتور من شهور القبط، وهو آخر يوم من تشرين الأوّل من شهور السُّريان .

وأما الإكليل وهو المنزلة السابعــةَ عشرةَ، فأوّل طلوعه بالفجر فى السابعَ عشرَ من هاتور من شهور القبط، وهو الثالث عشر من تشرين الثانى من شهور السريان.

وأما القَلْب وهو المنزلةُ الثامنةَ عشرة فأوّل طلوعه بالفجر فى آخر يوم من هاتور من شهور القبط وهو السادس والعشرون من تشرين الثانى من شهور السُّريان .

وأما الشَّولة وهى المنزلة التاســعةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثالث عشر من كيهك من شهور القبط، وهو التاسع من كانون الأوّل من شهور السريان .

وأما النَّعائم وهى المنزلة العشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى السادس والعشرين من كيهك من شهور القبط، وهو الثـانى والعشرون من كانون الأوّل من شهور السريان .

وأما البَلْدة وهى المنزلة الحادية والعشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى التاسع من طوبه من شهور القبط، وهو الرابع من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سَعْدُ الذابحُ وهو المنزلة الثانية والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثانى والعشرين من طوبة من شهور القبط ، وهو السابع عشر من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سَعْدُ بُلَعُ وهو المنزلة الثالثـة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس من أمشير من شهور القبط ، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهور السُّريان .

وأما سَعْدُ السُّعود وهو المنزلة الرابعة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن عشر من أمشير من شهور القبط ، وهو الثانى عشر من شباط من شهور السُّرْيان .

وأما سَعْدُ الأخبية وهو المنزلة الخامســة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر أوّل يوم من برمهات من شهور القبط ، وهو الخـامس والعشرون من شـباط من شُهُور السريان .

واما الفَرْغ المُقَـدَّم وهو المنزلة السادسةُ والعشرون فأوّل طلوعها بالفجر فى الرابع عشر من برمهات من شهور القبط ، وهو السابع من آذار من شهور السريان .

وأما الفَرْغ المؤخَّر وهو المنزلة السابعة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى السابع والعشرين من برمهات من شهور القبط ، وهو الثـانى والعشرون من آذار من شهور السريان .

وأما بَطْن الحوت وهو المنزلة الثامنة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى العاشر من برموده من شهور القبط ، وهو الخامس من نيسان من شهور السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيدُ الشيخ أبى عبد الله محمد القرطبى أبياتا ، يعلم منها مَطَالع هذه المنازل بالفجر بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب ، وربما غَلِط بعض الناس فنسبها الى الشيخ عبد العزيز الديرينى رحمة الله ، وهى هذه :

تبيص تهكح بجس بكاغ هدز * هيزاه هلق كيجش ككون يوز

ططب طكبذ أهب أيحس بأخ * بيـدم بكرم بيت بكجش رمز[1]

وليس فيهما من الحشوات قط سوى * أواخر النظم فافهم شرحها لتعز

و بيانُ ذلك أنّ الحرف الأوّل من كل كلمة آسم للشهر الذى تطلُع فيه تلك المنزلةُ والحرفَ الآخرَ منها آسمُ المنزلة، وما بين الآخر والأوّل عددُ ما مضى من الشهر بحساب الجمّل، مثال ذلك التاء من تبيض كناية عن توت، والصاد منها كناية عن الصّرفة، والياء والباء اللذان بينهما عددهما بالجمّل آثنا عشر، إذ الياء بعشرة والباء باثنين فكأنه قال فى الثـانى عشر من توت تطلُع منزلة الصّرفة بالفجر، وكذلك البواقى، إلا أنه لا عبرة بأواخر البيتين وهى برز فى البيت الأوّل و رمز فى البيت الثانى .

ونظم الإمام محب الدين جار الله الطـبرى أبيـاتا كذلك على شهو ر السريان وهى هذه :

تهس تحيـخ تلز تجبى * توكق كطش كبكن تزول

كدب كويذ كلب شبيس * شـهكح أزيم أبكم ألول

نهـب نحيش آآب * أوكد حطت حبكه صجول

والحال فى هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأوساطها كالحال فى الأبيات المتقدّمة، فالتاء من تهس إشارة لتشرين الأوّل، والسين إشارة للسماك، والهاء بينهما بخمسة ففى الخامس من تشرين الأوّل يطلُع السماك، وعلى هذا الترتيب فى البواقى .

وآعلم أن هذه المنازل لا تزال أربعَ عشرةَ منزلة منها ظاهرةً فوق الأرض فى نصف الفلك، وأربع عشر منزلة منها خافيةً تحت الأرض فى نصف الفلك، وهى مراقبة بعضها لبعض لآستواء مقادير أبعادها، فاذا طلعت واحدة فى الأفق الشرقى غربت واحدة فى الأفق الغربى، وكانت أخرى متوسطة فى وسط الفلك فهى كذلك أبدا .

(١) بعده بيت ناقص غير موجود بالأصل و به تكمل الشهور والمنازل .

والقاعدة فى معرفة ذلك أنك تبتدئ بأية منزلة شئتَ، وتعد منها ثمانية من الطالع فالثامنة هى المتوسطة والخامسة عشرة هى الغاربة؛ فاذا كان الطالعُ الشَّرَطين فالمتوسط النَّثرة والغارب الغَفْر؛ وكذلك فى جميع المنازل؛ وفى مراقبة الطالع منها للغارب يقول بعضُ الشعراء مقيِّدا لهـا على الترتيب بادئا بطلوع النَّطْح وهو الشَّرطان وغروب الغفر حينئذ :

كَمْ أمالُوا من ناطحٍ باغْتفارٍ * وأحالُوا على البُطَيْن الزُّبانى
والـــثُّرَيَّا تكلَّلَت فرأينا الـ * ـقَلْبَ منها يُشَـــعِّرُ الدَّبَرانَا
هَقَعُوا شَـوْلةً وهَنعُوا نَعامًا * بَعْـدَ ما ذَرَّعُوا البلَادَ زمانا
نَثَرُوا ذَبْحَهُـــم بطَرْف بُلَيْع * جَبهة السَّعْد فى خَرَات خبانا
فانصرّفْنا وفى الْمُقَـــدَّم عَوّا * آخرا والسِّماك مَـــدّ رِشانا

وقال آخر :

النَّطْح يَغْفِر والبُطَيْن مُزاين * ثم الــثُّرَيَّا تبتغى إكْليـــلا
والقَلْب للدَّبَران خِلٌّ عاذِر * من أجْل هَقْعةِ شَولةٍ ماقيلا
تَهْوِى الْهُنَيعةُ للنَّعائم مثلَ مَا * يَنْوِى الذِّرَاع لبَلْدةٍ ترجيلا
والنَّثْرِ يَذْبح عند طَرْف بُلُوعه * وبِجبهة سَـعْدٌ غدا منقولا
ولزُبْرَة وسـطَ الخِباَء إقامةٌ * فاصْرِفْ مقدّمَ ذَكْرها تعجيلا
يهوِى الْمُؤَخَّرَ إن سماكٌ مَرّةً * مدّ الرِّشاءَ لِجيـدِه تَنْكِيلا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشورىّ الشهير بالسهر وردىّ أُرجوزةً، ذكر فيها الطالع، ثم الغـارب فى بيت وبعـده المتوسط، ثم الوتد وهو الذى يقابله تحت الأرض فى بيت ثان — قال :

إن طلع الشرطان(١)

بُطَينُها نُورَ الزُّبانيَينِ خَلَعْ * فناعِسُ الطَّرْف رمى سعدَ بُلَعْ

ثُرَيّا مَعَ الإكليلِ بالوُفُودِ * تُنوِّرُ الجبهةَ فى السُّعُود

والدَّبَرانُ القلب منه يَخْفِقُ * فالحَرتانُ للخِباء يَطْرُق

وهَقْعةٌ شَوْلتُها مُنْهَزِمةْ * وصَرْفةٌ بفَرْغِها مقدمه

وهَنْعةٌ منها النَّعائِمُ نَفَرتْ * بعَوَّة بالفَرْغ قد تأخَّرت

رمى الذراعُ بَلْدةً أصابَها * سِماكُ بطنِ الحوتِ ما أصابها

فهذه جملتها مكمَّله * للشمس فى ثلاثَ عَشْرَ منْزِله

الجملة الخامسة

فى ساعات الليل والنهار

قال أصحاب الهيئة : لما كان الفلك متحرّكا حركاتٍ متعدّدةً يتلُو بعضُها بعضا جُعِل مقدار كل حركة منها يوما ، ولما كانت الشمس فى حركة من هذه الحركات تارةً تكونُ ظاهرةً لأهل الرُّبع المعمور، وتارة مستترةً عنهم بحَدَبة الأرض، انقسمَ لذلك مقدارُ تلك الحركة الى الليل والنهار، فالنهار عبارةٌ عن الوقت الذى تظهر فيه الشمس على ساكنِ ذلك الموضِع من المَعْمور، والليل عبارة عن الوقت الذى تخفى عنهم فيه ، فإنه يوجد وقتُ الصبح فى موضع وقتَ طلوع الشمس فى موضع آخر، وفى موضع آخَروقت الظهر، وفى موضع آخروقت المغرب، وفى موضع آخروقت نصف الليل .

ولما كانت منطقة البروج مقسومةً الى اثنَىْ عشر برجا، وكل برج الى ثلاثين درجة ، وكانت الشمس تقطع هذه المنطقةَ بحركة فلك الكل لها فى زمان اليوم

(١) بياض بالأصل .

الجامع لليل والنهار، قُسِّم كل واحد منهما الى اثنى عشر جزءا، وجعل قسطُ كل جزء منها خمسَ عشرةَ درجةً وسمِّى ساعة . ثم لمـا كان الليل والنهار يزيد أحدهما على الآخَر ويتساويان في الاعتدالين على ما مرّ، اضطُرَّ الى أن تكون الساعات نوعين مستوية وتسمّى المعتدلةَ، وزمانيّـة وتسمّى المعوجّة . فالمستوية تختلف أعدادها في الليل والنهار، وتتفق مقاديرُها بحسب طول النهار وقصره . فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وان قَصُر كانت ساعاته أقلّ، مقدارُ كل ساعة منه خمسَ عشرة درجة لا تزيد ولا تنقص ، والمعوجة تتفق أعدادُها وتختلف مقاديرُها ، فان زمان النهـار طال أو قصر ينقسم أبدا الى اثنىْ عشرةَ ساعة مقدار كل واحدة منها نصفُ سُدُس الليل والنهار، وهى فى النهار الطويل أطول منها فى القصـير . والذى كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانيّة دون المستوية ، فكانوا يقّسِمون كلا من الليـل والنهار الى اثنَىْ عشرةَ ساعةً، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسماءً تخُصُّها .

فأما ساعاتُ الليل فسَمَّوُا الأُولى منها الشاهِدَ، والثانيةَ الغَسَق، والثالثة العَتَمة، والرابعة الفَحْمة، والخامسة المَوْهِن، والسادسة القِطْع، والسابعة الجَوْشَن، والثامنة الهُتْكة، والتاسعة التَّباشير (١) ، والحـاديةَ عشرةَ الفجرُ الأوّل ، والثانيـةَ عشرةَ الفجر المعـــترض .

وأما النهار فسمَّوُا الساعة الأولى منه الذُّرور، والثانية البُزُوغ، والثالثة الضُّحى، والرابعة الغَزَالة، والخامســة الهاجِرَة، والسادسةَ الزَّوال، والسابعةَ الدُّلُوك، والثامنة العَصْر، والتاسعة الأَصِـيل، والعاشرة الصَّبوب، والحاديةَ عشرةَ الحدود (٢) ، والثانيةَ عشرةَ الغُرُوب .

(١) العاشرة غير موجودة فى الأصل . وعدّ فى نهاية الأرب بعد التباشير الفجر الأوّل ثم الفجر الثانى ثم المعترض وبه تعلم ما هنا (٢) لعل صوابه الحدور .

وتروى عنهم على وجه آخر، فيقال فيها : البُكور، ثم الشُّروق، ثم الإشراق، ثم الرَّأد، ثم الضُّحى، ثم المُتوع، ثم الهاجِرة، ثم الأصِيل، ثم العَصر، ثم الطَّفَل (بتحرك الفاء)، ثم العَشِيّ، ثم الغُروب، ذكرهما ابن النحاس فى "صناعة الكتّاب".

قال فى "مناهج الفكر": ويقال إن أوّل من قسم النهار الى اثنى عشرة ساعة آدمُ عليه السلام، وضمّن ذلك وصيةً لابنه شيث عليه السلام، وعرّفه ما وُظّف عليه كلّ ساعة من عمل وعبادة والله أعلم .

الجملة السادسة
فى أيام الأسبوع، وفيها أربعة مَدارك

المُدرَك الأوّل
فى ابتداء خَلقها وأصل وجودها

وقد نَطَق القرآن الكريم بذكر ستة أيام منها على الإجمال والتفصيل .

أما الإجمال فقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وأما التفصيل فقوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ والمراد بالأربعة الأولى بما فيها من اليومَين المتقدّمين ، ومثله فى كلام العرب كثير، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "إذا نامَ أحدُكم جاءَ الشيْطانُ فعقَد تحتَ رأسه ثَلاثَ عُقَد، فإذا اسْتَيْقَظ فذكر اللهَ تعالى انحلّتْ عُقْدةٌ، فإذا توضّأ انحلّتْ عُقْدتان، فإذا صلّى انحلّتْ الثالثةُ". فالمراد بقوله عقدتان عُقدةٌ والعُقدة الأولى ، وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط، وهو ما ورد به صريحُ الآيات فى غير هذه الآية أن خلَق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ٱبنُ جَرير من رواية ٱبن عباس رضى الله عنهما: أنَّ اليهودَ أتتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، تسأله عن خَلْقِ السموات والأرض، فقال: "خلق اللهُ الأرضَ يومَ الأحدِ ويومَ الاثنين، وخلق الجبالَ يوم الثّلاثاء وما فيهنّ من منافعَ، وخَلق يومَ الأربعاء المَدائنَ والشَّجَرَ والعُمْران والخَرابَ، فهذه أربعةُ أيّامٍ، وخلق يومَ الخميس السماء، وخَلَق يومَ الجمعة النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكةَ إلى ثلاث ساعات بقيَتْ منه؛ وفى الثانية ألقى الآفةَ على كل شىء مما ينتفع به الناسُ، وفى الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنَّةَ وأمر إبليسَ بالسُّجود له، وأخرجه منها فى آخر ساعة" قالت اليهود: ثم ماذا؟ قال: "ثم ٱستوى على العرش" قالوا: أصبت لو أتممت، قالوا: ثم استراح فغضبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم غَضَبا شديدا فنزل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ قال الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره: وفيه غرابة، ولا ذكر فى هذا الحديث ليوم السبت فى أول الخلق ولا فى آخره، نعم ثبت فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة رضى الله عنه، أنه قال: أخذَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، بيَدى فقال: "خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْت، وخلق فيها الجبالَ يَوْمَ الأحد، وخَلَق الشَّجَر يَوْمَ الاثنين، وخلق المكروه يوم الثَّلاثاء، وخَلَق النُّورَ يَوْمَ الأَرْبعاء، وبثَّ فيها الدَّوابَّ يَوْمَ الخَميس، وخَلَق آدمَ بعْدَ العَصْر يوم الجُمُعة آخرَ الخَلْق فى آخر ساعةٍ من ساعات الجُمعة، فيما بَيْنَ العَصْر الى اللَّيْل" قال ٱبن كثير: وهو من غرائب الصحيح، وعلله البخارىُّ فى تاريخه فقال: رواه بعضهم عن أبى هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح، فقد ورد التصريح فى هذا الحديث بذكر الأيَّام السبعة ووُقوع الخلق فيها. قال أبو جعفر النحاس: زعم محمد بن إسحاق أن هذا

الحديث أولى من الحديث الذى قبلَه ، واستدلّ بأن الفَرَاغ كان يوم الجُمُعة ، وخالفه غيرُه من العلماء الحُذَّاق النُّظَّار . وقالوا : دليلُه دليلٌ على خطئه ، لأن الخلق فى ستَّة أيام يومُ الجمعة منها كما صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلو لم يدخُل فى الأيام لكان الخَلْقُ فى سبعة وهو خلاف ما جاء به التنزيل ؛ على أن أكثر أهل العلم على حديث ابن عباس ، فتبين أن الابتداء يوم الأحد إذ كان الآخِر يوم الجمعة ، وذلك ستة أيام كما فى التنزيل . قال أبو جعفر : على أن الحديثين ليسا بمتناقضين ، لأنا إن عملنا على الابتداء بالأحد فالخلق فى ستة أيام وليس فى التنزيل أنه لا يخلق بعدها شيئا ، وإن عملنا على الابتداء بالسبت فليس فى التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئا .

إذا علمت ذلك فقد حكى أبو جعفر النحاسُ أن مقدار كل يوم من أيام خلق السموات والأرض ألفُ سنة من أيام الدُّنيا ، وأنه كان بين ابتدائه عز وجل فى خلق ذلك وخَلْق القلم الذى أمره بكتابة كلِّ ما هو كائن الى قيام الساعة يومٌ وهو ألف عام ، فصار من ابتداء الخلق إلى انتهائه سبعةُ آلاف عام ، وعليه يدل قول ابن عباس : إن مدّة إقامة الخَلْق إلى قيام الساعة سبعةُ أيّام كما كان الخلق فى سبعة أيام .

قال أبو جعفر : وهذا بابٌ مَدَارُه على النقل دُونَ الآراء .

المُــــدْرَك الثـانى

فى أسمائها ، وقد اختُلِف فى ذلك على ثلاث روايات

الرواية الأولى — ما نطَقتْ به العربُ المستعْرِبة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرى عليه الاستعمال إلى الآنَ : وهو الأحدُ والاثنان والثّلاثاءُ والأربعاءُ والخميس والجُمعة والسَّبْت .

والأصل فى ذلك ما رُوى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: "إن الله عز وجلّ خلق يومًا واحدا فسمّاه الأحد، ثم خلق ثانيًا فسمّاه الاثنين، ثم خلق ثالثا فسمّاه الثّلاثاء، ثم خلق رابعا فسمّاه الأربعاءَ، ثم خلق خامسًا فسمّاه الخميسَ" ولا ذكرَ فى هذه الرواية للجمعة والسبت . وقد ذكرهما اللهُ تعالى فى كتابه العزيز. قال تعالى: ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ وقال جل وعز ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ . وسيأتيان فى غير هذه الرواية عند ذكر الاختلاف فيما ٱبتُدئ فيه الخَلْق منها .

فالأحدُ بمعنى واحد ويقال بمعنى أوّل ورجحه النحاس، وهو المطابق لتسمية الثانى بالاثنين . والثالث بالثّلاثاء . وقيل أصله وَحَد بفتح الواو والحاء كما أن أَناة أصلها وَناة، ويجمع فى القِلّة على آحادٍ وأَحَداتٍ[1]، وفى الكثرة على أُحُود وأوحاد ويحكى فى جمعه أُحُد أيضا قال النحاس : كأنه جمع الجمع .

والاثنان بمعنى الثانى . قال النحاس: وسبيله ألّا يثنّى، وأن يقال فيه : مضت أيامُ الاثنين إلا أن تقول ذوات، قال : وقد حكى البصريّون الأُثْن والجميع الثُّنِيّ . وقال ٱبن قتيبة فى أدب الكاتب : إن شئت أن تجمعه فكأنه مبنى للواحد قلت أثانينُ . وحكى النحاس مثله عن كتاب الفرّاء فى الأيام وقال : إنما يجوز على حيلة بعيدة، وهى أن يقال: اليوم الاثنانُ فتضُمُّ النونَ فتصير ماثل عِمْران فتثنيه وتجمعه على هـذا . وحكى عن الفراء أيضا فى جمع الكثرة أَثانٍ فتقول مضت أثانٍ مثل أسماء وأَسامٍ، قال : وقرأت على أبى إسحاق فى كتاب سيبويه فيما حكاه اليومُ الثِّنَى فتقول على هذا فى الجمع الأَثْناء .

(١) لعله إحاد بدليل عبارة النحاس .

والثَّلاثاء بمعنى الثالث ، ويجمع على ثَلَاثاوات ،وحكى الفراء أثالِثَ . قال النحاس : ويجوز أثاليثُ ، وكذا ثَلاثُ مثل جمع ثلاثة لأن ألِفَى التأنيث كالهاء . وتقول فيه : مضت الثّلاثاءُ على تأنيث اللفظ ومضى على تذكير اليوم ، وكذا فى الجمع تقول مضت ثلاثُ ثَلاثاوات ، وثلاثةٌ ثلاثاوات .

والأَرْبعاء بمعنى الرابع ، ويجمع على أَرْبِعاوات وكذا أرابيعُ والياء فيه عوضٌ ماحُذِف ، فإن لم تعوّض قلت أَرَابِع . وأجاز الفراء أربِعاءات مثل ثلاثاءات ومنعه البصريون للفرق بين ألف التأنيث وغيرها .

والخميس بمعنى الخامس ، ويجمع فى القِلّة على أخمِسة . وفى الكثرة على خُمُس وخُمْسان كرُغُف ورُغْفان ، ويقال أخمِساء كأنصباء ، وحكى عن الفراء فى الكثرة أخامِسُ .

والجمعة (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . واختلف فى سبب تسميته بذلك فقال النحاس : لاجتماع الخلق فيه ، وهذا ظاهر فى أن الاسم كان بها قديما ، وقيل لاجتماع الناس للصلاة فيه . ثم اختلف فقيل سميتْ بذلك فى الجاهلية واحتُجّ له بما حكاه أبو هلال العسكرىّ فى كتابه الأوائل : أن أوّل من سمّى الجمعة جمعةً كعبُ ابنُ لؤىّ جدُّ النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنّه جمع قُرَيشا وخطَبهم فسميت جمعة وكانوا لا يعرفون قبلَ ذلك إلا العَروبة . وقيل إنما سميت بذلك فى الإسلام وذلك أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه بعدَ كل ستة أيام ، وللنصارى كذلك فهلُمُّوا نجعَلْ لنا يوما نجتمع فيه نذكُر الله تعالى ونُصَلِّ ، فقالوا يومَ السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوا يوم العروبة لنا ، فاجتمعوا الى سَعْد بنِ زُرَارة الأنصارىّ فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكّرهم فسمّوْه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه فأنزل الله تعالى سورةَ الجمعة . على أن السُّهَيْلِىّ قد قال فى الروض الأُنُف : إن يوم الجمعة كان يسمّى بهذا الاسم قبل أن يصلِّ الأنصارُ الجمعةَ .

أما أول جمعة جمّعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه صاحبُ الأوائل فإنه لما قدم المدينة مُهاجرا نزل على بنى عَمْرو بن عوف وأقام عندهم أيّاما ثم خرج يوم الجمعة عائدا الى المدينة فأدركته الصـلاة فى بنى سالم بن عوف فى بطن وادٍ لهم فخطب وصلّى بهم الجمعة . ويجمع على جُمَع وجُمْعات بالفتح والتسكين (١) .

والسبت ومعناه القطع بمعنى أنه قُطِع فيه الخَلْق على رأى مَنْ يرى أن السبت آخرُ أيام الجمعة، وأنه لا خَلْق فيه على ما سيأتى ذكره. وقولُ النحاس إنه مشتقٌّ من الراحة أيضا لا عبرة به لمُضاهاة قول اليهود فيه على ما سيأتى إن شاء الله تعالى . ويجمع فى القلّة على أسبُت وسَبَتات بالتحريك ، وفى الكثرة على سُبُوت بضم السين مثل قَرْح وقُرُوح .

الرواية الثانية — ما يُروى عن العرب العاربة من بنى قَحْطان وجُرْهم الأولى: وهو أنهم كانوا يُسـمّون الأحد أوّل لأنه أوّلُ أعداد الأيام ويسمّون الاثنين أَهْوَنَ أخذا من الهَوْن والهُوَينى، وأَوْهَد أيضا أخذا من الوَهْدة وهى المكان المنخفض من الأرض لانخفاضه عن اليوم الأوّل فى العدد . ويسمّون الثّلاثاء جُبّارا (بضم الجيم) لأنه جُبِر به العددُ . ويسمّون الأربعاء دُبَارا (بضم الدال المهملة) لأنه دَبَر ماجُبِر به العـدد بمعنى أنه جاء دُبُره . ويسمون الخميس مُؤْنِسا لأنه يُؤْنَس به لبركتـه . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا فى الإسلام، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتبرّك به ولا يُسافر إلا فيه وقال : "اللهمّ بارِكْ لِأُمّتِى فى بُكُورها يَوْمَ خَمِيسها" . ويسمّون الجمعة العَرُوبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفى لغة شاذّة عَرُوبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف، ومعناه اليوم البيّن أخذا من قولهم : أعرب اذا أبانَ، والمراد أنه بيّنُ العظَمة والشّرف، إذ لم يزل معظّما عنـد أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجمعات أيضا بضمتين . قال فى المصباح كغرفات فى وجوهها .

تعظيما ؛ وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خَيْرُ يومٍ طَلَعتْ عليه الشمسُ يومُ الجمعةِ، فيه خُلِق آدمُ، وفيه دُخِلَ الجنَّةَ، وفيه أُخْرِجَ منها" . ويسمُّونه أيضا حَرْبةَ بمعنى أنه مرتفع عالٍ كالحَرْبة التى هى كالرُّمح، كما يقال مِحْراب لارتفاعه وعلوِّ مكانته؛ ويسمُّون السبت شِيارًا (بفتح الشين المعجمة وكسرها مع الياء المثناة تحتُ) أخذا من شُرْت الشيءَ إذا استخرجْتَه وأظهرْتَه من مكانه إمّا بمعنى أنه استخرج من الأيام التى وقع فيها الخَلْق على مذهب من يرى أنه آخر أيام الأسبوع وأن ابتداء الخلق الأحدُ وانتهاءه الجمعةُ، وإما بمعنى أنه ظهر أوّل أيام الجمعة على مذهب مَنْ يرى أنه أول الجمعة وكان ابتداء الخلق فيه، وإلى هذه الأسماء يشير النابغة بقوله :

أؤمِّل أنْ أَعيشَ وأنَّ يَوْمِى * لِأوّلَ أو لِأهْوَنَ أو جُبارِ
أو التالى دُبارِ فإنْ أَفُتْه * فمُؤْنِسٍ أو عَرُوبَةَ أو شِيَارِ

الرواية الثالثة — ماحكاه النحاس عن الضَّحاك : أنّ الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيّام، ليس منها يوم إلا له اسمٌ أَبْجَد هَوَّز حُطِّى كلمن سَعَفَص قرشتْ . وقد حكى السهيلى رحمه الله أنّ الأسماء المتداوَلة بين الناس الآن مرويَّة عن أهل الكتاب، وأن العرب المستعربة لما جاورتْهم أخذتها عنهم، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماءَ التى وضعتها العرب العاربةُ وهى أبجد هَوَّز حُطِّى كلمن سعفص قرشَتْ التى خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات: عُلْوِيَّها وسُفْلِيَّها. وهذا يخالف ما تقدّم فى الرواية الثانية عن العرب العاربة . وعلى أنها أسماءٌ للأيام التى وقع فيها الخلق يحتمل أن يكون أبجد آسما للأحد على مذهب من يرى أن ابتداء الخلق يوم الأحد ويكون السبت لا ذكر له فى هذه الرواية[1] .

(١) أسقط الناسخ الاحتمال الثانى وقد ذكره فى الضوء بقوله : (ويحتمل أن أبجد اسم للسبت على رأى من يرى أنه ابتدئ فيه الخلق وتكون الجمعة لاذكر لها) .

المُدْرَك الثالث

في بيان أول أيام الأسبوع، وما كان فيه ابتداء الخلق منها .

وقد اختلف الناس فى ذلك على ثلاثة مذاهب

المذهب الأول — أن أول أيام الأسبوع وابتداء الخلق الأحدُ . واحتج لذلك بما تقدّم من حديث ابن عباس أن اليهودَ أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال : "خلَق اللهُ عز وجلّ الأرضَ يومَ الأحد" الحديث وبحديثه الآخر : "خلق اللهُ يومًا واحدا فسمّاه الأحَدَ" وإذا كان ابتداء الخلق الأحدَ لزم أن يكون أوّل الأسبوع الأحد .

المذهب الثانى — أن أول أيام الأسبوع وابتداء الخلق السبتُ . واحتج له بحديث أبي هريرة المتقدّم "أخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خَلَق اللهُ التُّربةَ يومَ السبْت" الحديثَ ، وإذا كان ابتداءُ الخلْق السبتَ لزم أن يكون أوّلُ الأسبوع السبتَ .

المذهب الثالث — أن أوّل أيام الأسبوع الأحدُ، لحديث "خَلَقَ اللهُ يومًا واحدًا فَسَمّاهُ الأحَدَ ثُمّ خَلَقَ ثانيًا فَسَمّاهُ الاثنَيْن" الحديث . وابتداءُ الخلقِ يوم السبت لحديث أبى هريرةَ المتقدّم . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُدْرَك الرابع

فى التفاؤل بأيام الأسبوع والتطيُّر بها وما يُعْزى لكلٍّ منها من خير أو شرٍّ، على ما هو متداوَل بين الناس

. واعلم أنه لا أصل لذلك من الشريعة، ولم يرد فيه نصٌّ من كتاب ولا سنة . وقد وردت القرعةُ عن جعفر الصادق رضى اللهُ عنه فى توزيع الأعمال على الأيام : أنه

قال : السبت يوم مكر وخديعة ، ويوم الأحد يوم غرس وعمارة ، ويومُ الاثنين يوم سفر وتجارة ، ويوم الثلاثاء يوم إراقة دم وحرب ومكافحة ، ويوم الأربعاء يوم أخذ وعطاء ، ويقال : يوم نحس مستمر ، ويوم الخميس يومُ دخول على الأمراء وطلب الحاجات ، ويوم الجمعة يوم خلوة ونكاح . ووجهوا هذه الدعوى بأن قريشا مكرت في دار الندوة يوم السبت ، وأن الله ابتدأ الخلق يومَ الأحد ، وأن شعيبا سافر للتجارة يومَ الاثنين ، وأن حواءَ حاضتْ يوم الثلاثاء ، وفيه قتل قابيلُ هابيلَ أخاهُ ، وأن فرعونَ غرق هو وقومُه يومَ الأربعاء ، وفيه أهلك اللهُ عادًا وثمودًا (١) ، وأن إبراهيمَ دخل على النمرودِ يومَ الخميس ، وأن الأنبياءَ عليهم السلامُ كانت تنكحُ وتخطُب يومَ الجمعة . وقد نظم بعض الشعراء هذه الاختيارات في أبياتٍ وإن كان قد خالف الواضعَ في مواضعَ فقال :

لنِعمَ اليومُ يومُ السبتِ حقًّا * لصيدٍ إن أردتَ بلا امتراءِ
وفي الأحدِ البناءُ فإنَّ فيه * تبدّى اللهُ في خلقِ السماءِ
وفي الإثنينِ إن سافرتَ فيه * ستَرجعُ بالنجاحِ وبالغناءِ
وإن تُرِدِ الحجامةَ في الثلاثا * ففي ساعاتِه هرقُ الدماءِ
وإنْ شربَ امرؤٌ منكم دواءً * فنعمَ اليومُ يومُ الأربعاءِ
وفي يوم الخميس قضاءُ حاجٍ * فإنَّ اللهَ يأذنُ بالقضاءِ
ويومَ الجمعةِ التزويجُ حقًّا * ولذّاتُ الرجالِ معَ النساءِ

وسيأتي الكلام على ما يتعلق من ذلك بأيام الشهر في الكلام على الشهورِ في الفصلِ السابع من الكتاب إن شاء الله تعالى .

---

(١) ثمود يصرف ولا يصرف .

الطرف الثانى

في الشهور، وهى على قسمين : طبيعىّ واصطلاحىّ

القسم الأوّل

الطبيعىّ والمراد به القمرىّ

وهو مدّة مسير القمر من حين يفارق الشمس الى حين يفارقها مرة أخرى ، وهى على ضربين :

الضربُ الأوّلُ

شُهُورُ العَرَب

والشهرُ العربىُّ عبارة عمّا بين رؤية الهلال الى رؤيته ثانيا ، وعددُ أيامه تسعةٌ وعشرونَ يوما ونصفُ يومٍ على التقريب ؛ ولما كان هذا الكسرُ فى العددِ عَسِرًا عدّوا جملةَ الشهرين تسعةً وخمسينَ يوما ، أحدُهما ثلاثونَ وهو التامّ ، والآخر تسعةٌ وعشرونَ وهوَ الناقص . وقد ثبتَ فى صحيح مسلم من حديث أُمّ سَلَمَةَ رضى الله عنها : "أنّ النبىَّ صلّى الله عليه وسلّمَ حَلَفَ لا يدخُل على بعض نسائه شَهْرًا فلما مضى تسعةٌ وعشرونَ غَدا عليهمْ أو رَاحَ فقيلَ : يا رسولَ الله ، حلفتَ لا تدخلُ عليهنّ شهرًا فقالَ : الشهرُ يكونُ تسعة وعشرينَ" . وذلك بحسب مَسيرِ النيّرين : الشمسِ والقمرِ بالمسيرِ الأوسط ، أما بالمسير المقوّم فإنه يتفق اذا استكمل الشهرُ برؤية الهلال عِيانا أن يتوالى شهران وثلاثة تامّةً ، ويتوالى كذلك ناقصةً ، وعلى ذلك عَمَلُ العربِ واليهود . ولهمْ فى استعماله طريقتان :

الطَّريقـــةُ الأولى

طَريقَـــةُ العَـــرَبِ

ومُدّةُ الشهرِ عنـدهُم من رُؤيةِ الهلالِ الى رُؤيةِ الهلالِ، وهى أسهـلُ الطُّرقِ وأقربُها، وعليها جاء الشرعُ، وبها نطقَ التنزيلُ قالَ تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ . وفيها جملتانِ :

الجمـــلةُ الأولى

في أحوال الأهِلَّةِ التى عليها مدارُ الشهورِ فى ابتدائها وانتهائها

واعلم أن مسيرَ القمرِ مقدّرٌ بمعرفةِ الشهورِ والسنين قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ والشمسُ تُعْطِيه فى كلِ ليلةٍ ما يَسْتَضِيءُ به نصفُ سُبعِ قُرْصِهِ حتّى يَكْمُلَ ثم تسلبه من الليلة الخامسةَ عشْرَةَ كلَّ ليلةٍ نصفَ سُبعِ قرصه حتّى لا يبقى فيه نورٌ فيستتر .
ويروى عن جعفر الصادق رضى اللهُ عنه أنهُ سُئِلَ عن القمَر فقال : يُمحق كل ليلةٍ ويُولَدُ جديدا، ويبعدُ مثل هذا عن جعفر الصادق .

إذا علمت ذلك فللقمر حركتان : سريعة وبطيئة كما تقدّم فى الشمس .

أما الحركةُ السريعةُ فحركةُ فلَك الكلِّ بِه من المشرق الى المغرب، ومن المغرب الى المشرق فى اليومِ والليلةِ .

واعلم أن الهلال إذا طلَع مع غُروبِ الشمسِ كان مغيبُه على مضىّ ستة أسباعِ ساعةٍ من الليل، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه فى كل ليلة ماضية هذا المقدارَ حتّى يكون مغيبه فى الليلة السابعة نصفَ الليل، وفى الليلة الرابعةَ عشرةَ طلوعَ الشمس،

ثم يكون طلوعه فى الليلة الخامسة عشرة على مضىّ ستة أسباع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه فى كل ليلة ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتّى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصفَ الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغَدَاة .

وإذا أردت أن تعلم على مضىّ كم من الساعات يغيب أو يطلُع من الليل، فإن أردت المغيب وكان قد مضى من الشهر خمسُ ليال تقديرا فاضربها فى ستة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى اثنان فيكون مغيبه على مضىّ أربع ساعات وثلاثة(١) أسباع ساعة، وكذلك العمل فى أىّ ليلة شئت؛ وإن أردت الطلوع وكان قد مضى من الإبدار ستُّ ليال مثلا فاضرب ستة فى ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعةً سبعةً يبقى واحد، فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع، وكذلك العمل فى أىّ ليلة شئت .

وقد قسمت العرب لياليَ الشهر بعد استهلاله كلَّ ثلاثة أيام قسما وسمتها باسم فالثلاث الأُوَل منها هلال، والثلاث الثانية قُمْر، والثلاث الثالثة بُهْر، والثلاث الرابعةُ زُهْر (والزَّهَر البياض)، والثلاثُ الخامسة بِيضٌ، لأن الليالى تَبْيَضُّ بطلوع القمر فيها من أولها الى آخرها، والثلاث السادسةُ دُرْع، لأن أوائلها تكون سُودا وسائرها بِيضٌ، والثلاث السابعة ظُلَم، والثلاث الثامنة حَنَادِس، والثلاث التاسعة دَآدِئُ (الواحدة منها دَأْدَأة على وزن فَعْلَلة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها مُحَاق وليلة سِرَار لإمحاق الشمس القمرَ فيها .

ومنهم من يقول: ثلاثٌ غُرَر (وغُرّة كلّ شىء أوّله)، وثلاث شُهْب، وثلاث زُهْر، وثلاث تُسَعٌ(٢)، لأن آخر يوم منها اليوم التاسع، وثلاث بُهْر، بُهِر فيها ظلامُ الليل، وثلاثٌ بِيض، وثلاث دُرْع، وثلاث دُهْم وفُحْم وحَنَادِس، وثلاث دَآدِئُ.

(١) لعل الصواب وسبعان كما هو واضح . (٢) لعل هذه الثلاثة قبل التى قبلها بدليل التعليل .

ويروى عنهم أنهم يسمّون ليلة ثمانٍ وعشرين الدَّعْجاء، وليلة تِسْع وعشرين الدَّهْماء، وليلة ثلاثين اللَّيْلاء، وهم يقولون فى أسجاعهم : القمر ابن ليلة، رَضاعُ سُخَيلة، حَلّ أهلُها برُمَيْلة؛ وابن ليلتين حديثُ أَمَتين، كَذِبٌ ومَيْن؛ وابن ثلاث، قليل اللَّبَاث؛ وابن أربع، عَتَمة أمِّ رُبَع، لاجائع ولا مُرْضَع؛ وابن خمس، حديثٌ وأُنْس، وعَشَاء خَلِفات قُعْس؛ وابن سِتّ، سِرْ وبِتّ؛ وابن سبع، دُلْجة ضَبُع، وحديثٌ وجَمْع؛ وابن ثمان، قمرٌ إضْحِيَان؛ وابن تسع، مُحذُوُّ النِّسْع، ويقال الشِّسْع؛ وابن عَشْر، مُخَنِّق الفَجْر، وثُلُث الشَّهر .

هذا هو المحفوظ عن العرب فى كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت فى بعض المجاميع على زيادة الى آخر الشهر، وكأنها والله أعلم مصنوعة ، وهى على ألسنة العرب موضوعة ، وهى : وابن إحدى عشرة، يُرى عِشاءً ويرى بُكْرة ، وابن اثنى عشرة، مُرْهِق البشر،(١) بالبَدْو والحَضَر ، وابن ثلاث عشرة، قمر باهِرْ، يُعْشِى الناظر، وابن أربع عشرة مُقْبِل الشباب؛ مضيءُ دُجُنَّات السَّحاب ؛ وابن خمس عشرة تَمَّ التمام، ونَفِدَت الأيّام؛ وابن ستَّ عشرةَ نَقَص الخلق، فى الغَرْب والشَّرْق، وابن سبع عشرة، أمْكنتِ المُقْتفرَ القفْرة، وابن ثَمانَ عَشرةَ قَليلُ البقَاء، سريع الفَنَاء ؛ وابن تِسعَ عَشرةَ بَطِيء الطُّلوع ، سَريعَ الخُشُوع؛ وابن عشرين يَطْلُع سُحْرة، ويَغِيبُ بُكْرة؛ وابن إحدى وعشرين كالقَبَس، يَطْلُع فى الغَلَس ؛ وابن اثنتين وعشرين يُطِيل السُّرى ، رَيْثَمَا يُرى ؛ وابن ثلاث وعشرين يُرى فى ظُلْمة الليال، لا قمرٌ ولا هِلال ؛ وابن خمس وعشرين دنا الأجَلْ، وانقطع الأمَل؛ وابن ست وعشرين دَنَا ما دَنَا، فما يُرى إلّا سَنا ، وابن

(١) فى بعض الروايات . للشمس . . . والحضرة .

سبع وعشرين يَشُقُّ الشمس، ولا يُرى له حسٌّ، وابن ثمانٍ وعشرين ضئيل صَغير لا يراه إلا البَصير .

وأما حركته البطيئة، فحركته من جهة الشَّمال الى جهـة الجَنوب ، ومن جهة الجَنوب الى جهة الشمال ، وتنقله فى المنازل الثمـانية وعشرين فى ثمـانية وعشرين يوما بلياليها كالشمس فى البروج قال تعالى: ﴿والقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّى عادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ﴾ فما تقطعه الشمس من الشمال الى الجَنوب و بالعكس فى جميع السنة يقطعه القمر فى ثمـانية وعشرين يوما . والمنازل للقمر كالبُروج للشَّمس؛ وذلك أنه لمـا اتصل الى العرب ماحققه القُدماء برَصْدهم من الكواكب الثابتَة، وكان لا غِنًى لهم عن مَعْرفة كواكِبَ تُرشدُهم الى العِلْم بفصول السنة وأزمنتها ، رصـدوا كواكبَ وامتحنوها، ولم يستعملوا صُوَر البروج على حقيقتها، لأنهم قَسَّموا فلك الكواكب على مقدار الأيام التى يقطعه القمر فيها، وهى ثمانيةٌ وعشرون يوما ، وطلبوا فى كل قسم منها علامةً تكون أبعادُ ما بينَها و بين العلامة الأُخرى مقدارَ مسير القمر فى يوم وليلة، وسَمَّوْها منزلة الى أن تحقق لهم ثمانية وعشرون على ما تقدّم ذكره فى الكلام على طلوعها بالفجر، لأن القمر اذا سار سيْرَه الوسط انتهى فى اليوم التاسع والعشرين الى المِحَاق الذى بدأ منه ، فحُذفت المتكررُ فبقىَ ثمـانية وعشرون و يزاد بالشَّرَطين ، لأن كواكبه من جملة كواكب الحَمَل الذى هو أوّل البُروج .

ثم هذه المنازل على قسمين : شَماليّ وجَنوبيّ كما فى البروج ، وكل قسم منهـا أربع عشرة منزلة . فالشمالىُّ منها ما كان طُلُوعه من ناحية الشام، وتسمّى الشاميَّـة وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال، التى هى رأس الحمل والميزان صاعدا الى جهة الشمال؛ وهى الشَّرَطان، والبُطَيْن، والثُّرَيَّا، والدَّبَرانُ، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع، والنَّـثْرة، والطَّرْف، والجَبْهة، والخَرَتان ، والصَّرْفة، والعَوّاء، والسِّماك . و بطلوعها

يطول الليـل ويقصر النهار . والجنوبىّ منها ما كان طُلُوعه من ناحية اليمن وتسمى اليمـانيةَ وهو ما كان منها من نقطة الاعتـدال المذكور هابطا الى جهة الجنوب . وهى الغَفْر، والزُّبانانِ، والإكْليل، والقلب، والشَّوْلة، والنَّعائم، والبَلْدة، وسَـعدُ الذابحُ، وسَعْدُ بُلَع، وسَعْدُ السُّعود، وسعدُ الأخبيةِ، والفَرْغُ المقدم، والفَرْغُ المؤَخر، وبطن الحوت؛ وبطلوعها يقصُر الليل ويطولُ النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قطعة من الفلك مقدارها رُبْع سُبْع الدور، وهو جزء من ثمـانية وعشرين جزءا من الفلك عبارة عن ... ...[1] لا عن الكواكب وإنمـا الكواكب حدود تَفْرُق بين كل منزلة وأُخْرى فعُدل بالتسمية اليها وغلبتْ عليها .

ونزول القمر فى هـذه المنازل على ثلاثة أحوال إما فى المَنْزِلة نفسِهـا وإما فيما بينها وبين التى تليها، وإما محاذيًا لها خارجًا عن السمت شَمَالا أو جَنُوبا . وقد تقدّم الكلام على عُدُول القمر عن بعض المنازل ونزوله فى غيرها .

ولتعلَمْ أن المنازل مقسومةٌ على البروج الاثنَىْ عَشَر موزعةٌ عليها ، فالشَّرطان والبُطَين وثلثُ الثريا للحَمَل، وثلثا الثُّرَيَّا والدَّبَرانُ وثلثـا الهَقْعة للثور ، وثلثُ الهَقْعة والهَنْعـةُ والذِّراع للجَوْزاء ، والنَّثْرةُ والطَّرف وثلثُ الجَبْهة للشَّرطان ، وثلثـا الجبهـة والخَرَتان وثلثـا الصَّرفة للأسـد، وثلث الصَّرفة والعَوَّاءُ والسِّماكُ للسُّنْبُلة؛ والغَفْـر والزُّبانان وثُلُث الإكليل للميزان، وثلثا الإكليل والقلبُ وثلثا الشولة للعقرب؛ وثلث الشولة والنعائم والبلدة للقَوْس، وسعدُ الذابح وسعدُ بُلَع وثلث سعد السعود للجَدْى[2]، وثلث الفرغ المقدّم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت .

(١) بياض بالأصل .

(٢) يظهر أن فيه سقطا هو [وثلثا سعد السعود وسعد الأخبية وثلثا الفرغ المقدم للدلو] .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعـرف القمرَ فى أىّ منزلة هو أو كَمْ مضى له فيها من الأيام، فخذ ما مضى من سنة القبط شهورا كانت أو أياما أو شهورا وأياما وابسُطْها أياما ، وأضف الى ما حصـل من ذلك يومين، ثم اطرح المجموع ثلاثةَ عشَرَ ثلاثةَ عشَرَ، وهو عدد لُبْث القمر فى كل منزلة من الأيام، واجعـل أوّل كل منزلة من العدد الخرتان، فمـا بقِىَ من الأيام دون الثلاثة عشر فهو عدد مامضى من المنزلة التى انتهى العدد اليها .

مثال ذلك أن يمضى من سَنَة القبط شهر توت وأربعـة أيام من بابه فتبسطها أياما تكون أربعة وثلاثين يوما فتضيف اليها يومين تصير ستة وثلاثين يوما فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين بستة وعشرين للخرتان منهـا ثلاثة عشر وللصَّرْفة ثلاثة عشر تبقى عشرة، وهى ما مضى من المنزلة الثالثة وهى العوّاء .

و إن أردت أن تعرف فى أىّ برج هو فاحسُبْ كم مضى من الشهر العربىّ يوما وزد عليه مثله ثم زد على الجملة خمسة وأعط لكل برج خمسةً وابدأ من البرج الذى فيه الشمس فأعط لكل برج خمسة فأينما نَفِد حسابُك فالقمر فى ذلك البرج والاعتماد فى ذلك على كم مضى من الشهر العربىّ بالحساب دون الرؤية والله أعلم .

الجمــــلة الثـانية

فى أسمـائها ، وفيها روايتان

الرواية الأولى — ما نطقت به العرب المستعربة وجرى عليه الاستعمال الى الآنَ وقد نطق القرآن الكريم بصدْقها قال تعالى : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ والمراد شهور العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، ومدارها الأهلّة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسـعةً وعشرين . الشهر الأوّل

منها المحرم، سمّى بذلك لأنهم كانوا يحرّمون فيه القتال، ويجمع على مُحرَّمات ومَحَارِم ومحاريم . الشهر الثانى صَفَر ، سمى بذلك لأنهم كانوا يُغيرون فيه على بلاد يقال لها الصَّفَرِيّة، ويجمع على صَفَرَات وأصْفار وصُفُور وصِفّار . الشهر الثالث ربيع الأوّل سمى بذلك لأنهم كانوا يُحَصِّلون فيه ما أصابوه فى صَفَر . والرَّبيع فى اللغة الخِصْب، وقيل لارتباعهم فيه . قال النحاس : والأوّل أولى بالصواب، ويقال فى التثنية رَبيعان الأوّلان وفى الجمع رَبِيعات الأوّلاتُ . ومن شرط فيه إضافة شهر قال فى التثنية شهرا ربيع الأوّلان وفى الجمع شَهْرات ربيع الأوّلات والأوائل، وان شئت قلت فى القليل أشهر وفى الكثير شهور، وحكى عن قطرب الأَرْبِعة الأوائل، وعن غيره رُبُعٌ الأوائلُ . الشهر الرابع ربيـع الآخر ، والكلام فى تسميتـه وتثنيته وجمعـه كالكلام فى رَبيع الأوّل . الشهر الخامس جمادى الأولى ، سمى بذلك لجمود المـاء فيـه ، لأن الوقت الذى سُمّى فيه بذلك كان المـاء فيه جامدًا لشـدّة البَرْد ، ويقال فى التثنية جُمَادَيَان الأُولَيان وفى الجمع جُمادَيات الأُولَيَات . الشهر السادس جمادى الآخرة، والكلام فيه تسميةً وتثنيةً وجمعاً كالكلام فى جُمَادى الأولى . الشهر السابع رجب ، سمى بذلك لتعظيمهم له أخذا من الترجيب وهو التعظيم ، ويجمـع على رَجَبات وأَرْجاب، وفى الكثرة على رِجَاب ورجُوب . الشهر الثامن شَعْبان ، سمى بذلك لتشعُّبهم فيه لكثرة الغارات عقِبَ رَجَب ؛ وقيل لتشعب العود فى الوقت الذى سُمّى فيه . وقيل لأنه شَعَب بين شهرىْ رجبَ ورمضانَ ويجمع على شَعْبانات وشعابة(1) على حذف الزوائد ، وحكى الكوفيون شَعَابِينَ، قال النحاس : وذلك خطأ على قول سيبويه كما لا يجوز عنده فى جمع عثمان عَثَامين . الشهر التاسـع رمضان ، سمى بذلك أخْذًا من الرمضاء لأنه وافق وقتُ تسـميته زمَنَ الحرّ، ويجمع على رَمَضانات، وحكى الكوفيون رَمَاضِين،

(1) ولعله وشعاب . بدون الهاء .

والقول فيه كالقول فى شَعَابين، ومَنْ شرط فيه لفظ شهر قال فى التثنية : شَهْرا رَمضانَ وفى الجمع شَهْرات رمضانَ وأشْهُرُ رمضان وشُهور رمضان. الشهر العاشر شوّال، سمى بذلك أخذا من شالَتِ الإبل بأذنابها اذا حملت لكونه أوّل شهور الحج، وقيل من شـال يَشُول اذا ارتفع، ولذلك كانت الجاهليــة تكْرَه التزويج فيه لمـا فيه من معنى الإشالة والرفع الى أن جاء الإسلامُ بهَدْم ذلك. قالت عائشةُ رضى الله عنها فيما ثبت فى صحيح مسلم: "تزوّجنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى شَوّالٍ وبَنَى بِى فى شَوّالٍ فأىُّ نِسائه كان أحظَى عنده منّى" ويجمع على شَوّالات وشَواوِيل وشَوَاوِل. الشهر الحادى عشر ذو القَعدة، ويقال بالفتح والكسر، سمّى بذلك لأنهم كانوا يَقْعُدُون فيه عن القتال لكونه من الأشهُر الحرم، ويجمع على ذَوَات القَعدة، وحكى الكوفيون أُولاتُ القَعْدة، وربما قالوا فى الجمع: ذات القعدة أيضا. الشهر الثانى عشر ذو الحجة، سمى بذلك لأن الحَجّ فيــه، والكلام فى جمعه كالكلام فى ذى القَعْدة. ثم من الأشهر المذكورة أربعــة أشهر حُرُم كما قال تعالى : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وقد أجمعت العلمــاء على أن الأربعة المذكورة هى رَجَب وذُو القَعدة وذو الحِجّة والمحرَّم. وقد اختلف فى الابتداء بعددها فذهب أهل المدينة الى أنه يُبْتدأ بذى القَعدة فيقال : ذو القَعدة وذو الحِجّة والمحرَّمُ ورجَب، ويحتجُّون على ذلك بأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم عدّها فى خُطْبة حِجّة الوَدَاع كذلك فقال: "السَّنَةُ اثْنا عَشَر شَهْرا، منها أربعةٌ حُرُم، ثلاثةٌ مُتَواليات وواحدٌ فَرْدٌ: ذُو القَعْدة وذُو الحِجّة والمحرَّم ورَجَب" واختاره أبو جعفر النحاس. وذهب أهل الكوفة الى أنه يبتدأ بالمحرَّم فيقال : المحرم ورجب وذُو القَعْدة وذو الحِجّة ليأتوا بها من سنة واحدة واليه ميلُ الكُتّاب. قال النحاس : ولا حُجّةَ لهم فيه لأنه اذا عُلم أن المقصود ذكرها فى كل سنة فكيف يتوهم أنها من سنتين. وكانت العربُ فى الجاهلية مع ما هم عليه من الضَّلال والكُفْر يعظّمون هذه الأشهرَ ويحرّمون القتالَ فيها حتّى

لو لقِىَ الرجلُ فيها قاتلَ أبيه لم يَهِجْه، الى أن حَدَث فيهم النسىءُ فكانوا يُنْسِئُون المحرّم فيؤخرونه الى صَـفَر فيحرّمونه مكانه ويُنْسِئُون رجبًا فيؤخِّرونه الى شَعْبان فيحرّمونه مكانَه ليستبيحوا القتال فى الأشهر الحرم .

واعلم أنه يجوز أن يُضاف لفظُ شهر الى جميع الأشهر فيقال: شَهْر المحرّم، وشهرُ صَفَر، وشهر ربيع الأوّل وكذا فى البواقى ، على أنّ منها ثلاثةَ أشهر لم تكد العرب تنطِقُ بهـا إلا مضافةً اليهـا ، وهى شهرا ربيع وشهر رمضـان ؛ ويؤيد ذلك فى رمضان ما ورد به القرآن من إضافته ، قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال : "لاتقُل رمضانُ ولكن قل كما قال الله عز وجل : شَهرُ رمضان ، فإنك لاتدرى ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعلّ رمضانَ اسمٌ من أسماء الله تعالى ، لكن قد ثبت فى الصحيحين من رواية أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : "اذا جاء رمضانُ أُغْلِقتِ النّيرانُ وصُفِّدَتِ الشّياطينُ" الحديث . وهذا صريح فى جواز تعريته عن الإضافة .

وقد اختلف الناس فى ذلك على ثلاثة مذاهبَ أصحها أنه يجوز تعريته عن لفظ شهر مطلقا ، سواء قامت قرينة أم لا ، فيقال جاء رمضان وصُمتُ رمضانَ ، وما أشبه ذلك وهو ما رجّحه النووىّ فى شرح مسلم . والثانى المنعُ مطلقا ، والثالث إن حَفَّت قرينة تدلُّ على الشهر كما فى قوله : صُمتُ رمضان فقد جازت التعرية ، وإن لم تَحُفَّ قرينة لم تَجُزْ ؛ وزاد بعضهم فيما يضاف اليه لفظ شهر رَجبٌ أيضا . وقال كل شهر فى أوّله حرف راء فلا يقال إلا بالإضـافة . ويقال فى المحرَّم أيضا شهرالله المحـرَّم ويقال فى الربيعين : ربيع الأوّلُ وربيع الآخرُ ؛ وفى الجُمَادَيَيْن : جُمَادى الأولى وجُمادى الآخرة . قال ابن مكىّ : ولا يقال جمـادى الأوّل بالتـذكير وجوّزه فى كلامه على "تثقيف اللسان" .

قال النحاس : وإنما قالوا ربيع الآخر وجمادى الآخرة ولم يقولوا ربيع الثانى وجمادى الثانية كما قالوا : السنة الأولى والسنة الثانية لأنه إنما يقال الثانى والثانية لما له ثالث وثالثة، ولما لم يكن لهذين ثالثٌ ولا ثالثةٌ قيل فيهما الآخِر والآخِرةُ كما قيل: الدنيا والآخرة؛ على أن أكثر استعمال أهل الغرب على ربيع الثانى وجمادي الثانية . ويقال فى رجب الفَرْدُ: لانفراده عن بقية الأشهر الحُرُم، ويقال فيه أيضا: رجبُ مُضَرَ الذى بين جُمادى وشَعْبان، ويقال فى شَعْبان المكرَّم لتكرمته وعلو قدره، وفى رمضان: المُعظَّم والمُعظَّم قدرُه لعظمته وشرفه، وفى شوّال المُبارَك للفرق بينه وبين شعبان خشيةَ الالتباس فى الكتابة ، ويقال فى كلٍّ من ذى القَعدة وذى الحِجّة الحَرَام. قال النحاس: وقد جاء فى ذى الحجة أيضا الأَصَمُّ، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مُرّة الهَمْدانى عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قام فينا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خطيبًا على ناقةٍ حمراءَ مُخَضْرَمةٍ(١)، فقال: أتدرُونَ أىُّ يومٍ يومُكم هـذا؟ قلنا : يومُ النحْر قال : صدَقْتم يومُ الحجِّ الأكبر، أتدرُون أىُّ شهرٍ شَهْرُكُمْ هذا؟ قلنا : ذو الحِجّة قال : صدَقْتُم شَهْرُ الله الأَصَمُّ .

الرواية الثانية — ما رُوِى عن العرب العاربة، وهو أنهم كانوا يقولون فى المحرّم: المُؤْتَمِر أخذًا من أَمِر القومُ اذا كثُروا بمعنى أنهم يحرمون فيه القتالَ فيكثُرون. وقيل أخذا من الائتمار بمعنى أنه يؤتَمَر فيه بترك الحرب، ويجمع على مؤتَمِرات ومآمِرَ ومآميرَ. ويقولون فى صفر: ناجِر إما من النَّجْر والنِّجار (بفتح النون وكسرها) الأصل، بمعنى أنه أصل للحرب لأنه يبتدأ فيه بعد المحرم؛ وإما من النَّجر وهو السَّوْق الشديد. لشدة سَوْقهم الخيلَ الى الحرب فيه، وإما من النجر، وهو شدّة الحر لشدة حرارة الحرب فيه، ويجمع على نواجر. ويقولون فى شهر ربيع الأول: خَوّانٌ (بالخاء المعجمة)

(١) أى قطع طرف أذنها . قاموس .

لأن الحرب تشتدّ فيه فتخونهم فتنقّصهم، ويجمع على خوّانات وخَوَاوِين وخَوَاوِن . ويقولون فى ربيع الآخِر :وَبْصان ، أخذا من الوَبيص وهو البَرِيق : لبَرِيق الحـديد فيه : ويجمع على وَبْصانات ، وحكى قطربٌ فيه بُصَّان فيجمع على أَبْصِنة وفى الكثرة بِصْنَان . ويقولون لجمادى الأولى: حَنِين لأنهم يحِنُّون فيه الى أوطانهم لكونه كان يقع فى زمن الربيع، ويجمع على أحِنَّة وحُنُن كرغيف ورُغُف . ويقولون لجمـادى الآخرة : رُبّى ورُبَّة لأنه يجتمع به لجمـاعة من الشهور التى ليست بحُـرُم وهى ما بعد صفر. قال أبو عبيد: رُبَّان كل شىء جماعته، ويجمع على رُبِّيات ورَبَايَا مثل حَبَالى . ومن قال رُبَّة جمعه على مآريب[1] . ويقولون فى رجب : الأصمّ لمـا تقـدّم من أنه لا يُسمع صوتُ السلاح ولا الاستغاثات فيه، ويجمع على أَصامّ . قال النحاس: ولا تقل صمّ لأنه ليس بنعت كما أنك لو سمّيت رجلا أحمر جمعتـه على أحامِر ولم تجمعه على حُمْر . ويقولون فى شعبان : عادِلٌ ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشعبهم فى القبائل ويجمع على عَوادِل . ويقولون فى رمضان : ناتِق لكثرة المـال عندهم فيه لإغارتهم على الأموال فى الذى قبله ، ويجمع على نَواتِق . ويقولون فى شَوّالٍ : وَعِلٌ أخذا من قولهم : وَعَلَ الى كذا اذا لجأ اليه لأنهم يهرُبون فيه من الغارات لأن بعده الأشهُر الحُرُم فيلجئُون فيـه الى أمكنة يتحصّنون فيها ، ويجمع على أوعال كَكَتِف وأكتاف، وفى الكثرة وُعُول . ويقولون فى ذى القَعْدة: وَرْنة والواو فيه منقلبة عن همزة أخذا من أَرِن اذا تحرّك لأنه الوقت الذى يتحرّكون فيه الى الحج، أو من الأُرُون وهو الدنوّ لقُرْبه من الحج ويجمع على وَرَنات ووِرَان كِفَان. ويقولون فى ذى الحجة: بُرَكُ، غيرَ مصروف لأنه معدول عن بارك، أو على التكثير كما يقال: رجل حُكَمٌ وهو

(١) كذا فى الضوء أيضا ولعله مصحف عن رباب أو ربب تأمل .

مأخوذ من البَرَكة لأن الج فيه ، أو مِنْ بَرَك الجمل لأنه الوقت الذى تَبْرُك فيـه الإبل للوسم ، ويجمع على بِرْكان مثل نُغَرٍ ونِغْران .

وفى هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ما تقدّم ذكره .

وقد نظم بعضهم ذلك فى أبيات على الترتيب فقال :

بمؤتَمِرٍ وناجِرٍ ابتَـدأْنَا * وبالخَوَانِ يَتْبَعـه البُصَانُ
ورُبّى ثم أيّدة تليـــه * تَعُود أصمّ صُمّ به السِّنَان
[وعادلة وناطِـلة جميعـا * وواغِلَةٌ فَهم غُرَر حِسان] (١)
ووَرْنةٌ بعدها بُرَكٌ فتمّت * شُهورُ الحول يُعْرِبُهَا البَيانُ

ثم للناس فى إخراج أوّل الشهر العـربىّ طُرُق ، أسهلها أن تعرِف أوّل يوم من المحرَّم ، ثم تعدّ كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذى تريد أن تعـرف أوّله وتقسمها نصفين ، فإن كان النصف صحيحا أضـفتَ على الجملة مثل نصفه ، وإن كان مكسورا كمّلته وأضفته على الجملة ، ثم تبتدئ من أوّل يوم من السنة وتعدّ منه أياما على توالى أسماء الأيام بعدد ماحصل معك من الأصل والمضاف ، فحيث انتهى عَدَدُك فذلك اليومُ هو أوّل الشهر .

مثال ذلك فى الصحيح النصف : إن أردتَ أنْ تعرف أوّل يوم من شـعبانَ وكان أوّلُ المحرَّم يوم الأحد مثـلا فتعِدّ من أوّل المحرم الى شعبانَ وتدخل شـعبان فى العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفُها أربعةً فتضيف الأربعةَ الى الثمانية تكون اثنى عَشَر ، ثم تبتدئ من يوم الأحد الذى هو أوّلُ المحرّم فتعدّ الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت ، ثم الأحد والاثنين والثلاثاء

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه فى "نهاية الأرب" للنويرى فأثبتناه كما ترى وبه تمت عدّة الشهور .

والأربعاء والخميس فيكون انتهاء الاثنى عشر فى يوم الخميس فيكون أول شعبانَ يوم الخميس .

ومثاله فى المكسور النصف اذا أردت أن تعرف أوّل رمضان أيضا وكان أوّل المحرم الأحد كما تقدّم فتعدّ ما مضى من شهور السنة وتعدّ منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسمُها نصفين يكون نصفُها أربعةً ونصفا فتكملها بنصف تصير خمسة فتُضيفها الى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعةَ عشرَ، ثم تبتدئُ عدد الأيام من أوّل المحرم، وهو الأحد كما تقدّم فيكون انتهاء الرابعَ عشرَ فى يوم السبت فيكون أوّلُ رمضان يوم السبت .

ومن الطُّرُق المعتبرة فى ذلك أن تنظُر فى الثالث من أيام النسىء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربىّ فما كان جعلته أصلا لتلك السنة، فإذا أردتَ أن تعرِف أوّلَ شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذى أنت فيه نخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وانظر كم مضى من السنة القبطية شهرا نخذ لكل شهرين يوما ، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجْبُرها بيوم زيادة حتّى تصير زَوْجا، وزد على ذلك يومين أصلا أبدا؛ ثم انظر كم يوما مضى من الشهر القبطىّ الذى أنت فيه فأضفه على ما اجتمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد ما مضى من الشهر العربىّ، ومنه يعرف أوّله .

ومثال ذلك نظرت فى الثالث من أيام النسىء فوجدت الماضى من الشهر العربىّ ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة، ثم نظرت فى الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أمشير مثلا فتعدّ من أوّل شهور السنة القبطية (وهو توت) الى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذى معك من أيام النسىء وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع

ثمـانية، ثم تنظر فى الشهر القبطى الذى أنت فيه (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكوّن عشرة، وهو المـاضى من الشهر العربىّ الذى أنت فيه ومنه يُعرَف أوّله .

الضـــــرب الثـانى

شهور اليهـــود

والشهر عندهم من الاجتماع الى الاجتماع، وهو اقتران الشمس والقمر فى آخر الشهر ولذلك تُوافق شهورُهم فى التقـديرِ شهورَ العرب، ولا تخالف أوائلها إلا بيوم واحد. فى بعض الأحيان لأسباب فى مِلّتهم ولكنها لا تُطابق شهرا لشهر، فإنّ شهور العرب غيرُ مكبوسة، وشهور اليهود مكبوسة، وهذه الطريقة لا تعرف إلا بتقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر، ولذلك لا يَعرِف شهورَ اليهود منهم إلا الآحادُ، وشهورهم وهى اثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون، وبعضها تسعة وعشرون على ما يقتضيه مســير الشمس والقمر، وفى السنة الكبيسة تكون شهورُهم ثلاثةَ عشر شهرا كما ســيأتى ؛ وشهورهم توافق شهور السُّرْيان فى بعض أسمائها دون بعض، الأوّل تشرى ، الشهر الثانى مرحشوان، الشهر الثالث كسلا، الشهر الرابع طابات، الشهر الخامس شباط، الشهر السادس آذار، الشهر السابع نيسان، الشهر الثامن أيّار، الشهر التاسع سيوان، الشهر العـاشر تموز، الشهر الحادى عشر آب، الشهر الثانى عشر أيلول؛ وفى السنة التى يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين على ما سيأتى بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم ويسمونه آذار الثانى، وسيأتى ذلك مفصلا فى الكلام على السنين إن شاء الله تعالى. وقد تقدّم أنها توافق شهور العرب الا فى القليل إلا أنها يدخلها الكَبْس لأمور فى مِلّتهم، وسيأتى الكلامُ على كَبْسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالى .

القســـم الثـانى

من الشهور الاصطلاحىّ والمراد به الشمسىّ

وهى مدّة قطع الشمس مَدَار برج من بُروج الفلك الاثنىْ عشَرَ، وذلك ثلاثون يوما وثلاثة عشر يوما (١) تقريبًا، وعليه عملُ القبط، والفرس، والسريان، والروم. وهى على صنفين :

الصـــنف الأوّل

ما يكون كلُّ شهر من شُهور السنة ثلاثين يومًا، وما فضل عن ذلك جعل نسيئا بين الشهور وهو الشهور القبط، والفرس

فأما شهور القبط (وتنسّب لدقلطيانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوما وأيام النّسىء فى آخر الثانى عشر منها وهى خمسة أيام .

الشهر الأوّل منها توت، ودُخُوله فى العشرين من آب من شهور السُّرْيان، وآخره السادسُ والعشرون من أيلول منها؛ فيــه يُدرِك الرُّطَب، ويكثر السَّفَرْجل والعنَب الشَّتْوِىّ، وتبتدئ المُحَمضات . وأوّل يوم منه يوم النَّيْروز وهو رأس سنة القِبْط؛ وفى سابعه يبتدئ لَقْط الزيتون؛ وفى سابع عشره عيدُ الصليب، فيــه تفتحُ أكثرُ الترع بمصر؛ وفى ثامن عشره أوّل فصل الخريف؛ وفى تاسع عشره يبتدئ هَيَجان السوداء فى البدن؛ وفى العشرين منه يُفْصَد البَلَسان؛ وفى الحادى والعشرين منــه يبتــدئ بَيضُ النَّعام؛ وفى الرابع والعشرين منــه أوّل دى ماه من شهور الفرس؛ وفى الثامن والعشرين منــه يذهَبُ الحر؛ وفى التاسع والعشرين منــه أوّل رَعْى الكَرَاكىّ؛ وفى الثلاثين منه وهو آخره يُزْرَع الهِلْيَوْن .

---

(١) لعله وثلاثة أعشار يوم .

الشهر الثانى بابه، ودخوله فى السابع والعشرين من أيلول من شهور السُّرْيان، وآخره السادس والعشرون من تشرين الأوّل منها، فيه يُبْذَر كلُّ مالا تُشَق له الأرضُ كالبِرْسيم وغيره، وفى آخره تُشَقُّ الأرض بالصعيد، وفيــه يُحْصد الأرز، ويطيب الرُّمّان، وتضَع الضأنُ والمَعْـز والبقر الخيسـيّة، ويُستخرَج دُهن الآس واللينوفر، ويُدْرِك التمرُ والزبيبُ وبعض المُحَمِّضات، وفى ثالثه رأس سنة السريان، وفى رابعه أوّل تشرين الأوّل من شُهُورهم، وفى خامســه عُرْس النيل، وفى سادسه يطيب شُرْب الدواء، وفى سابعه نِهايةُ زيادة النيل، وفى ثامنه يكره خُروج الدم، وفى حادى عشره يبتــدئ النيل فى النقص، وفى ثالث عشره بداية الوخم، وفى رابع عشره يكثر الناموس، وفى خامس عشره يبتدئ زرع القُرْط، وفى سادس عشره تبتدئ كثرة السُّعال، وفى تاسع عشره يبتدئ زرع السَّلْجَم، وفى الثانى والعشرين منه يبتـدئ صَلَاح المَوَاشى، وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ كثرةُ الغُيوم، وفى الرابع والعشرين منه تبتـدئ أهل مصر الزرع، وفى السابع والعشرين منه يبتـدئ سِمَنُ الحيتان، وفى الثـامن والعشرين منه أوّل المدّ، وفى التاسع والعشرين منه أوّل الليالى البُلْق .

الشهر الثـالث هتور، ودخوله فى السابع والعشرين من تشرين الأوّل، وآخره الخامسُ والعشرون من تشرين الثانى . فيه يُزْرَع القمح ويطْلُع البَنَفْسج والمَنْثور، وأكثر البُقُول، ويجمـع ما بَقِىَ من الباذِنجـان وما يجرى مجراه، ويُحْمَـل العنبُ من قُوص، وفى ثانيه يبتدئ حصاد الأرز، وفى خامســه أوّلُ تشرين الثانى من شهور السريان، وفيه يبتدئ برد المياه، وفى سادسه أوّل المَطَر الوسمىّ، وفى سابعه يبتدئ أهل الشام الزَّرْع، وفى ثامنه يبتدئ هُبوب الرياح الجَنُوبيّة، وفى تاسعه يبتـدئ زرعُ الخَشْخاش، وفى حادى عشره يبتدئ اختفاء الهوامّ، وفى ثالث عشره يبتـدئ

غَلَيَـان البحر ، وفى رابع عشره تَعْمى الحيَّات ، وفى سادس عشره يُجمع الزعْفَران ، وفى ثامن عشره تكثُر الوحوش ، وفى الثامن والعشرين منـه يُغْلَق البحر الملح وتمتنع السُّفُن من السفر فيـه لشدّة الرياح ، وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ سُخونةُ بطن الأرض ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل اسفيدار ماه من شهور الفُرْس ،

الشهر الرابع كيهك ، ودخوله فى السادس والعشرين من تشرين الثانى من شهور السُّريان ، وآخره الخامس والعشرون من كانون الأوّل منها ؛ فيه تدرك الباقلّاء ، وتُزْرع الحُلْبة وأكثر الحبوب ، ويُدرك النَّرجس والبَنَفْسَج ، وتتلاحق المحمضات ، وفى أوّله ابتداء أربعينيّات مصر ، وفى ثالثه يبتدئ موتُ الذُّباب ، وفى خامسـه أوّل كانون الأوّل من شهور السُّريان ، وفى سابعه آخر الليالى البُلْق وأوّل الليـالى السُّود ، وفى حادى عشره يبتدئ الشجرُ فى رَمْى أوراقه ، وفى ثانى عشره تظهر البَراغيثُ ، وفى سابع عشره أوّل فصل الشتاء وهو أوّلُ أربعينيّات الشام ، وفى ثامن عشره يتنفّس النهار ، وفى الحادى والعشرين منه يكثُر الطير الغريبُ بمصر ، وفى الثالث والعشرين منـه أوّل مردوماه (1) من شهور الفُرْس ، وهو نَوْروزهم وأوّل سنتهم ، وفى الخامس والعشرين منه يَهيج البَلْغَم ، وفى السادس والعشرين منـه تلقح الإبل ، وفى السابع والعشرين منه يكثُر شُرْب المـاء فى الليل ، وفى الثلاثين منه يبتدئ تقليم الكُرُوم .

الشهر الخامس طوبه ، ودخوله فى السادس والعشرين من كانون الأوّل من شهور السريان ، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثانى منها ؛ فى زرع القمح فيه تغرير ، وفيه تُشق الأرض للقَصَب والقُلْقاس ، ويتكامل النَّرجس ؛ وفى أوّله تهيجُ الرياح الشديدةُ ، وفى ثانيه يُدرك القُرطُ ، وفى سادسه أوّل كانون الثانى من شهور السُّريان ،

(1) سيأتى قريبا أن نيروز الفرس وأوّل سنتهم أفرودين ماه ونظنه الصواب لأنه الذى ورد فى مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى أسماء الشهور الآتية :

وفى عاشره آخر أربعينيّات مصر ، وفى حادى عشره أول نصب الكروم ، وفى ثانى عشره يشتد البرد ، وفى ثالث عشره يبتدئ زرع المَقَات ، وفى سابع عشره يبتدئ غَرْس الأشجار، وفى ثامن عشره تبتدئ كثرة النّدى ، وهو آخر الليالى السود ، وفى تاسع عشره يبتدئ وقُوعُ الثلج بالشام وغيره . وفى الرابع والعشرين منه يبتدئ صَفْوُ ماء النيل، وفى التاسع والعشرين منه يبتدئ اختلاف الرياح

الشهر السادس أمشير، ودخوله فى الخامس والعشرين من كانون الثانى من شهور السريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها . فيه تُغْرَس الأشجار، وتقلّم الكروم، ويُدْرِك النبق واللوز الأخضر، ويكثر البَنَفْسَج والمنثور ، وفى رابعه يبتدئ إفراخ النخل، وفى سادسه أوّل شباط من شهور السّريان، وفى حادى عشره يبتدئ إنتاج الطيور وزرع بُقُول الصّيف، وفى ثانى عشره يبتدئ تحرك دوابّ البحر، وفى الثانى والعشرين منه ثانى جمرة فاترة، ويبتدئ مرض الأطفال ، ويبتدئ خروجُ ورق الشجر، وفى الثالث والعشرين منه يبتدئ خروج الدوابّ للرّعى، وفى الرابع والعشرين منه أوّل حردادماه من شهور الفُرْس، وفى الخامس والعشرين منه يبتدئ هَيَجان الرِّياح ، وفى السابع والعشرين منه تبتدى ثالث جمرة حامية، وفى الثامن والعشرين منه أوّل المفرطات، وفى التاسع والعشرين منه آخر نهى أبقراط .

الشهر السابع برمهات، ودخوله فى الرابع والعشرين من شباط من شُهور السُّرْيان، وآخره الخامس والعشرون من آذار . فيه تُزْهِرُ الأشجار، ويعقِدُ أكثرُ الثمار، ويُزْرَع أوائل السِّمْسِم، ويُقْلَع الكَتّان، ويُدْرِك الفُول والعَدَس ، وفى ثانيه يحمد خروج الدم، وهو أوّل الأعجاز، وفى ثالث عشره تُفَتّح الحياتُ أعينها ، وفى خامس عشره تطيبُ الألبانُ ، وفى سادس عشره يبتدئ خروج دود القَزّ، وفى ثامن عشره يهيج الدم، وفى تاسع عشره ظُهُور الهوام، وفى العشرين منه يُزْرع السِّمْسِم،

الرابع والعشرين منه أول تيرماه من شهور الفُرْس، وفى السادس والعشرين منه يبتدئ شُرْب المُسْهِل؛ وفى السابع والعشرين منه خروج الذُّباب الأزرق .

الشهر الثامن برموده؛ ودخوله فى السادس والعشرين من آذار من شهور السريان، وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها، فيه تُقْطَف أوائل عَسَل النحل، وفيه تكثر الباقِلاء، ويُنْفَض جَوْز الكَتَّان، ويكثر الورد الأحمر، والبطنُ الأوّلُ من الجُمَّيز، ويقلع بعض الشعير، ويُدْرِك الخيار شنبر. وفى أوّله يُؤْكَل الفَرِيك، وفى رابعه يُعصَر دُهْن البَلَسان، وفى خامسه تبتدئ كثرة الزهور، وفى سادسه أوّل نيسان من شهور السُّرْيان، وفى ثانى عشرة يُخاف على بعض الزرع، وفى ثامن عشره آخر قلع الكَتَّان، وفى العشرين منه يُنْهى عن أكل البُقُول، وفى الثانى والعشرين منه ظهور الكَمْأة، وفى الثالث والعشرين منه الخِتَام الكبير للزرع، وفى الرابع والعشرين منه أوّل تردماه من شهور الفرس، وفى الخامس والعشرين منه نهاية مَدّ الفُرات، وفى الثامن والعشرين منه يَبيض النَّعام .

الشهر التاسع بشنس، ودخوله فى الخامس والعشرين من نيسان من شهور السريان، وآخره التاسع والعشرون من أيّار منها. فيه يكثر التُّفّاح القاسى، ويبتدئ التُّفّاح المِسْكىّ، والبطِّيخ العَبْدلِىّ والخَوْفى، والمِشْمِش، والخَوْخ الزُّهرِى، والورد الأبيض . وفى نصفه يُبْذَر الأُرُز، ويُحْصَدُ القمح، وفى سادسه أوّل أيّار من شهور السُّريان، وفى رابع عشره يجمع الخَشْخاش، وفى ثامن عشره يجمع العُصْفُر، وفى الحادى والعشرين منه تبتدئ بُرودةُ الأرض، وفى الرابع والعشرين منه أوّل شهر برماه من شهور الفُرْس

الشهر العاشر بؤنه؛ ودخوله فى الخامس والعشرين من أيّار من شهور السُّريان؛ وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها، فيه يكثر الحِصرم ويطيب بعض العنب

والتين البونى وهو الديفور، والخوخ الزهرى والمشعر، والكمثرى البوهى، والقراصيا، والتوت، ويظلم البلح، ويقطف جمهور العسل؛ وفى ثالثه يبتدئ توحم النيل، وفى سادسه يكمل الدرياق؛ وفى سابعه أول حزيران من شهور السريان، وفى تاسعه يبتدئ مهب الريح الشمالية، وفى عاشره يبتدئ تنفس النيل، وفى خامس عشره تتحرك شهوة الجماع، وفى ثانى عشره عيد ميكائيل، فى ليلته يوزن من الطين زنة ستة عشر درهما عند غروب الشمس ويرفع فى مكان ويوزن عند طلوع الشمس فما زاد كان بكل خروبة زادت على الستة عشر ذراع، وفى ثالث عشره يبتدئ نقص الفرات، وفى رابع عشره تهب الرياح السمائم، وفى تاسع عشره تذهب البراغيث؛ وفى العشرين منه تهيج الصفراء، وفى الثانى والعشرين منه يعقد الجوز؛ ويقوى اندفاع النيل، وفى الرابع والعشرين منه يثور وجع العين وهو أول مهرماه من شهور الفرس، وفى السابع والعشرين منه يؤخذ قاع النيل، وفى الثامن والعشرين منه ينادى عليه؛ وفى التاسع والعشرين منه يدرك البطيخ.

الشهر الحادى عشر أبيب؛ ودخوله فى الرابع والعشرين من حزيران من شهور السريان، وآخره الثالث والعشرون من تموز منها، فيه يكثر العنب والتين ويقل البطيخ العبدلى ويطيب البلح وتقطف بقايا العسل وتقوى زيادة النيل، وفى رابعه أول نهى أبقراط، وفيه يموت الجراد، وفى سابعه أول تموز من شهور السريان، وفى عاشره يبتدئ وقع الطاعون، وفى ثانى عشره تبتدئ قوة السمائم، وفى ثالث عشره تدرك الفاكهة، وفى سابع عشره تغور العيون، وفى ثامن عشره يجمع السماق، وفى الثانى والعشرين منه يدرك الفستق، وفى الرابع والعشرين منه أول أبان ماه من شهور الفرس، وفى السادس والعشرين منه طلوع الشعرى اليمانية، وفى التاسع والعشرين منه يدرك نخل الحجاز.

الشهر الثانى عشر مسرى ، ودخوله فى الرابع والعشرين من تموز من شهور السريان ، وآخره السابع والعشرون من آب منها . فيه يُعمَل الخَلّ ، ويُدرِكُ البُسر والمَوْزُ ، ويتغيَّر طُعومُ الفاكهة لغلبة الماء على الأرض ، ويُدرِكُ اللَّيْمونُ التُّفاحىُّ ، ويبتدئ إدراك الرُّمّان ، وفى رابعه نُقصانُ الدِّجلة ، وفى خامسه أوّل العصير ، وفى ثامنه أوّل آب من شهور السُّريان ، وفى ثانى عشره فِصَال المَواشى ، وفى رابع عشره تَقِلُّ الألبانُ ، وفى خامس عشره تَسخُنُ المياهُ ، وفى سابع عشره تختلفُ الرياح ، وفى ثامن عشره يُحذَرُ لَسْعُ الهوامِّ ، وفى الثانى والعشرين منه آخرُ العصير ، وفى الرابع والعشرين منه يَهيجُ النَّعام ، وفى الخامس والعشرين منه تَكثُر الغُيومُ ، وفى الثامن والعشرين منه آخر السَّمائم ، وفى التاسع والعشرين منه أوّل آذرماه من شهور الفرس .

أيام النسيء — ودخولها فى الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها .

وقد وضعَ الناسُ طُرُقًا لإخراج أوّل الشهر القبطىّ بالحساب أقربُها أن تعرِفَ يوم النَّيْروز ثم تَعُدَّ مامضى من الشهور القبطية بالشهر الذى تَريد أن تَعرِفَ أوّله فما كان فاضْعِفْه فما تحصَّل فأسقط منه واحدا أبدا ، ثم أسقط الباقىَ سبعةً سبعةً فما فضل فعُدَّ من يوم النَّيروز الى آخر الباقى بعد الإسقاط على توالى الأيام فأينما انتهى العدَدُ فذلك اليوم هو أوّل الشهر المطلوب .

مثال ذلك ، كانَ يوم النيروز الأحدَ ، وأردنا أن نعرفَ أوّل أمشير ، عَدَدْنا كم مضى من أوّل الشهور القبطية وعَدَدْنا منها أمشير ، وجدنا ذلك ستة ، أضعفناها صارت اثنى عشر ، أسقطنا منها واحدا بقى أحد عشر ، أسقطنا منها سبعةً بقى أربعةٌ ، عددنا من يوم النيروز وهو الأحدُ أربعةً فكان آخرها يومَ الأربعاء فعلمنا أن أوّل أمشير الأربعاءُ .

وأما شهور الفُرس، فهى آثنا عشر شهراً كلُّ شهر منها ثلاثون يوما، وأيامُ النسىء خمسة أيام فى آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه . الشهر الأوّل منها افرودين ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من كيهك من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من طوبه منها، وأوّل يوم منـه نَيرُوزُ الفرس ورأسُ سنتهم . الشهر الثانى ارديهشتماه ودخوله فى الرابع والعشرين من طوبه من شهور القبط ، وآخره الثالث والعشرون من أمشير منها . الشهر الثالث حردادماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من أمشير من شهور القبط، وآخره الثـالث والعشرون من برمهات منهـا . الشهر الرابع تيرماه ، ودخوله فى الرابع والعشرين من برمهات من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برموده منهـا . الشهرُ الخامس تردماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من برموده من شهور القبط، وآخره الثـالث والعشرون من بشنس منها . الشهر السادس شهر برماه ، ودخوله فى الرابع والعشرين من بشنس من شهور القبـط ، وآخره الثـالث والعشرون من بؤنه منها . الشهر السابع مهرماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أبيب منها. الثامن أبان ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من مسرى، منهـا أيام النسىء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولهـا فى الرابع والعشرين من مسرى وآخرها الثـامن والعشرون منها . الشهر التاسع ادرماه، ودخوله فى التـاسع والعشرين من مسرى من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت . الشهر العـاشر دى ماه . ودخوله فى الرابع والعشرين من توت من شهور القبط ، وآخره الثالث والعشرون من بابه منهـا . الشهر الحادى عشر بهمن ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بابه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها . الشهر[1]

(١) وقع فى الأصل شىء من السقط والتحريف وقد صححناها من نهاية الأرب ومن الضوء وبمعونة ترتيب الشهور القبطية فتنبه .

الثانى عشر [اسفندارماه ، ودخوله فى الرابع والعشرين من هاتور من شهور القبط ، وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم اسم خاص يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة موكل به .

وقد علم مما تقدّم من شهور القبط ما يقع فى هذه الشهور من ... ... والفواكه وغيرها .

الصنف الثانى

من الشهور الاصطلاحية ما يختلف عدده بالزيادة والنقصان ،
فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، و بعضها أقلّ ، و بعضها أكثر ،
وهو شهور السريان والروم :

فأما شهور السريان وتنسب للإسكندر فاثنا عشر شهرا ، منها أربعة كل شهر منها ثلاثون يوما ، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الأول منها تشرين الأول ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الرابع من بابه من شهور القبط ، وآخره الرابع من هاتور منها ، و يوافقه أكتوبر من شهور الروم ، وهو الشهر العاشر منها . الشهر الثانى تشرين الثانى ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى الخامس من هاتور من شهور القبط ، وآخره الرابع من كيهك منها ، و يوافقه نوفمبر من شهور الروم ، وهو الشهر الحادى عشر منها . الشهر الثالث كانون الأول وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الخامس من كيهك من شهور القبط ، وآخره الخامس من طوبه منها ، و يوافقه دجنبر من شهور الروم ، وهو الشهر الثانى عشر منها . الشهر الرابع كانون الثانى ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى السادس من طوبه من شهور القبط ،

وآخره السادس من أمشـير منها ، و يوافقه ينير من شهور الروم ، وهو الشهر الأول منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شياط ، وهو ثمانية وعشرون يوما ، ودخوله فى السابع من أمشير ، وآخره الرابع من برمهات ؛ و يوافقـه فبراير من شهور الروم ، وهو الثانى من شهورهم . الشهر السادس آذار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الخامس من برمهات من شهور القبط ، وآخره الخامس من برموده منها ، و يوافقه مارس من شهور الروم ، وهو الثالث من شهورهم . الشهر السابع نيسـان ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى السادس من برموده من شهور القبط ، وآخره الخامس من بشنس منها ، و يوافقه إبريل من شهور الروم ، وهو الرابع من شهورهم . الشهر الثامن أيار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى السادس من بشنس من شهور القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، و يوافقه مايه من شهور الروم ، وهو الخـامس من شهورهم . الشهر التاسع حزيران ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى السابع من بؤنه من شهور القبط ، وآخره السادس من أبيب منها ، و يوافقه يونيه من شهور الروم ، وهو السادس من شهورهم . الشهر العـاشر تمـوز ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى السابع من أبيب من شهور القبط ، وآخره السابع من مسرى منها ، و يوافقه يوليه من شهور الروم ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الحـادى عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الثامن من مسرى من شهور القبط ، وآخره الثالث من توت منها ، و يوافقـه اغشت من شهور الروم ، وهو الثامن من شهورهم . الشهر الثانى عشر أيلول ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى الرابع من توت من شهور القبط ، وآخره الثالث من بابه منها ، و يوافقـه ستنبر من شهور الروم ، وهو التاسع من شهورهم ؛ و بذهابه يذهب الحر جملة ، وفى ذلك يقول أبو نواس :

مَضَى أيلولُ وارتفَع الحَـرُورُ * وأخبتْ نارَها الشِّعرى العَبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشورى فى أبيات ابتدأ فيها بأيْلُولَ فقال :

وابْدَأْ بأيْلُولٍ مِنَ السُّرْيَانِى * تَشْرِينُ الأوّلُ يَتْبَعُـه الثـانِى
كانونُ كانونٌ شُـبَاطٌ يَطْلعُ * آذَارَ نَيْسانَ أيَارٌ يَتْبَـعُ
ثُمَّ حَزِيرانٌ وتَمُّـوز وأبْ * تَبارَكَ الرحمنُ يَهْدِى مَنْ أَحَبْ

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزانى رحمه الله أبياتا ذكر فيها الأشهر التى منها ثلاثون يوما والناقصة عن الثلاثين ولم يتعرّض للزائدة على الثلاثين وليست بالطائل، وهى هـــذه :

شُـــهُورُ الرُّومِ أَلْوانٌ * زِيادَاتٌ ونُقْصَانُ
فتَشْرِينُهُـــمُ الثـانى * وأَيْلُولٌ و نَيْسانُ
ثَلاثُونَ ثَلاثُونَ * سَـــواءٌ وحَزِيرانُ ،
شَبَاطٌ خُصَّ بالنقص * وقَـدْرُ النَّقْصِ يومان

ونظم صاحب "مناهج الفكر" تداخلها مع شهور القبط فى أرجوزة فجاءت فى غاية الحسن والوضوح إلا أن فيها طولا، وهى هذه :

متى تَشَأْ مَعْـرِفَةَ التّـداخُلِ * مِنْ أوّل الشُّهور فى المَنازل
فعُدّ من تُوتٍ بلا تَطْوِيل * أربعـــةً فهْى ابتدا أيْلُولِ
وبابَةٌ كذاك مَـعْ تَشْرِينِ * الأوّلِ السـابقِ فى السنين
والخامسُ المعدُودُ من هَتُور * أوّلُ تشرينِهِـم الأخِـيرِ
أوّلُ كانونٍ بغَـيْرِ دَلَســه * اذا نقَصْتَ من كِيَهْك خمسه
وطُوبةٌ إن مَرّ منه ستّة * أتاك كانونُ الأخِيرُ بغتَــه
ومن شَـبَاطِ أوّلٌ يوافِق * سابعَ أمْشيرٍ حسابٌ صادِق
أوّل آذار اذا جعلْتَــه * لبَرْمَهات خامسا وجدْتَه

أوّل نيسـانٍ لدى التّجْريد * السادسُ المعدودُ من برمود
ومثـــله أيَارُ معْ بَشَنْس * واحـــدةٌ مقـــرونةٌ بخمس
أمّا حَزيرانُ فيَحْسُبُونَهْ * أوّلَه السـابعُ من بؤُنه
كذلك السـابعُ من أبيب * أوّلُ تمّـــوزٍ بلا تكذيب
أوّلُ آبٍ عند مَنْ يُحَصِّـل * ثامنُ مسرى ذاك مالا يُجْهَلُ

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنى هذه الأرجوزة فى بيت واحد، الحرف الأوّل من الكلمة منه للشهر السريانىّ والحرف الأخير للشهر القبطىّ وما بينهما لعدد الأيام التى اذا مضت من ذلك الشهر القبطىّ دخل ذلك الشهر السريانى وهو :

أدّت تدب تهه كهك كوط أزا * أهب نوب أوب حزب تزا أحم

فالألف من أدّت إشارة لأيلول من شهور السّريان، وهو آخر شهورهم، والتاء إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أوّل شهورهم، والدال من أدت بأربعة، ففى الرابع من توت يدخل أيلول، والتاء من تدب إشارة لتشرين الأوّل، والباء إشاره لبابه، والدال بينهما بأربعة، ففى الرابع من بابه يدخل تشرين الأوّل، والتاء من تهه إشارة لتشرين الثانى، والهاء الأخيرة إشارة لهتور، والهاء المتوسطة بينهما بخمسة ففى الخامس من هاتور يدخل تشرين الثانى، والكاف الأولى من كهك إشارة لكانون الأوّل والكاف الأخيرة إشارة لكيهك والهاء بينهما بخمسة، ففى الخامس من كيهك يدخل كانون الأوّل، والكاف من كوط إشارة لكانون الثانى، والطاء إشارة لطوبه، والواو بينهما بستة، ففى السادس من طوبه يدخل كانون الثانى؛ والألف الأولى من أزا إشارة لأشباط ، والألف الأخيرة إشارة لأمشير، والزاى بينهما بسبعة ، ففى السابع من أمشير يدخل أشباط؛ والألف من أهب إشارة لآذار، والباء إشارة لبرمهات، والهاء بينهما بخمسة، ففى الخامس من برمهات يدخل آذار، والنون من

نوب إشارة لنيسان ، والباء إشارة لبرموده، والواو بينهما بستة، ففى السادس من برموده يدخل نيسان، والألف من أوب إشارة لأيّار،والباء إشارة لبشنس، والواو بينهما بستة، ففى السادس من بشنس يدخل أيّار، والحاء من حزب إشارة لحزيران، والباء إشارة لبؤنه، والزاى بينهما بسبعة، ففى السابع من بؤنه يدخل حزيران، والتاء من تزأ إشارة لتموز، والألف إشارة لأبيب، والزاى بينهما بسبعة ، ففى السابع من أبيب يدخل تمّوز، والألف من احم إشارة لآب، والميم إشارة لمسرى،والحاء بينهما بثمانية، ففى الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسَبُ لأغشطش ملك الروم) وهو قيصر الأوّل، فاثنا عشَرَ شهرا ؛ بعضها ثلاثون يوماً، وبعضها زائد على الثلاثين، وبعضها ناقص عنها كما فى شهور السريان؛ وهى مطابقة لشهور السريان فى العَدَد ؛ مخالفةٌ لها فى الأسماء والترتيب . الشهر الأول ينير، ويُوافقه كانون الثانى من شهور السريان، وهو الرابع من شهورهم، وفى أوّل يوم منه يكون القلداس ، ويُوقد أهل الشام فى ليلته نيرانا عظيمة ، لاسيما مدينة أنطاكِيَةَ، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم، وسائر بلاد النصارى . الشهر الثانى فبرير، ويوافقه شباط من شهور السريان؛ وهو الخامس من شهورهم. الشهر الثالث مارس، ويوافقه آذار من شهور السريان، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع ابريل؛ ويوافقه نيسان من شهور السريان، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايه، ويوافقه أيّار من شهور السريان، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيه؛ ويوافقه حزيران من شهور السريان، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يوليه، ويوافقه تمّوز من شهور السريان، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغشت ، ويوافقه آب من شهور السريان، وهو الحادى عشر من شهورهم . الشهر التاسع شتنبر، ويوافقه أيلول من شهور

السريان، وهو الثانى عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر، ويوافقه تشرين الأول من شهور السريان، وهو الأول من شهورهم . الشهر الحادى عشر نونمبر، ويوافقه تشرين الثانى من شهور السريان، وهو الثانى من شهورهم . الشهر الثانى عشر دجنبر، ويوافقه كانون الأول من شهور السريان، وهو الثالث من شهورهم ، وقد نظمها الشيخ ابراهيم الدهشورى فقال :

ينير فبراير مارس للروم * أبريل مايه خامس المعلوم
يُنيه ويُليه ثم أغشت شتنبر * أكتوبر نونمبر دجنبر

الطـرف الثـالث

فى السنين ، وفيـه ثلاث جمـل

الجمـلة الأولى

فى مـدلول السـنة والعـام

يقال : السنة، والعام، والحول؛ وقد نطق القرآن بالأسماء الثلاثة قال تعالى : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فأتى بذكر السنة والعام فى آية واحدة ، وقال جل وعز : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ وقد تختص السنةُ بالجَدْب والعامُ بالخِصْب، وبذلك ورد القرآنُ الكريم فى بعض الآيات قال تعالى : ﴿ثم يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وفيه يَعْصِرُونَ﴾ فعبر بالعام عن الخِصْب وقال جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ من الثَّمَرَاتِ﴾ فعبر بالسنين عن الجَدْب . على أنه قد وقع التعبير بالسّنين عن الخِصْب أيضا فى قوله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فى سُنْبُلِهِ﴾ . أما الحول فإنه يقع على الخِصْب والجَدْب جميعا .

الجملة الثانية

في حقيقة السنة، وهي على قسمين : طبيعيّة وأصطلاحية كما تقدّم في الشهور

القسم الأوّل

السنة الطبيعية وهي القَمَرِيّة

وأوّلها أستهلال القمر في غُرّة المحرّم ، وآخرها سَلْخ ذي الحِجّة من تلك السنة ، وهي آثنا عشَرَ شهرا هِلاليًّا قال تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ﴾. وعدد أيّامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وخمسٌ وسدسُ يوم تقريبا؛ ويجتمع من هذا الخُمس والسدُس يومٌ في كل ثلاث سنين فتصيرُ السنة ثلثمائة وخمسةً وخمسين يومًا، ويبقى من ذلك بعد اليوم الذي اجتمع شيء، فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه في السنة السادسة يوم واحد، وكذلك الى أن يبقى الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة، وتسمّى تلك السنين كبائس العَرَب .

قال السهيلي : كانوا يُؤَخّرون في كل عام أحدَ عشَرَ يوما حتى يَدُورَ الدورُ الى ثلاث وثلاثين سنة فيعود الى وقته ، فلما كانت سنةُ حَجَّة الوَداع وهي سنة تسع من الهجرة عاد الحجّ الى وقته اتفاقًا في ذي الحِجّة كما وُضِع أوّلا، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحجّ، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ : "إنَّ الزمانَ قد آستَدارَ كهيئته يوم خلق اللهُ السَّمٰوات والأرضَ" بمعنى أن الحج قد عاد في ذي الحِجّة . وفي بعض التعاليق أن سِنِي العرب كانت موافقةً لِسِني الفُرْس في الدخول والانسلاخ فحدَث في أحوالهم انتقالاتٌ فسَد عليهم بها الكَبْس في أوّل السنة السادسة من ملك أغيطش، وذلك بعد ملك ذي القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوما فسَنّوا كبْنتري

الربع من ذلك اليوم فى كل سنة فصارت سنينُهم بعد ذلك الوقت محفوظةَ المواقيت .
وقيل لم تزل العرب فى جاهليتها على رسم ابراهيم واسمـاعيل عليهما السـلام لا تَنْسَأ سِنِيها الى أن جاورتهم اليهود فى يثرب، فأرادت العرب أن يكون حجُّهم فى أخصب وقتٍ من السـنة، وأسهلِ زمان للتردُّد بالتجارة فعلموا الكبس من اليهود والله أعلم أىُّ ذلك كان .

القســـم الثـــانى

الاصطلاحيـــة وهى الشمســـيّة

وشهورها اثنا عشَرَ شهرًا كما فى السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعتْ عدَم دَوَران سِنِيها جعلت فى أشهرها زيادةً فى الأيام إما جملة واحدة وإما متفرّقة وسمَّتْها نسيئًا بحسب ما اصطلحوا عليه كما ستقف عليه فى مصطَلَح كل قوم إن شاء الله تعالى .
وعدد أيامها عند جميع الطوائف من القبط، والفرس، والسريان، والروم، وغيرهم ثلثمائة يوم وخمســةٌ وستون يوما وربعُ يوم، فتكون زيادتها على العربية عشرةَ أيام وثمــانيةَ أعشار يوم وخمسة أسداس يوم . وقد قال بعض حُذّاق المفسرين فى قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فى كَهْفِهِمْ ثَلَثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ : إنه إن حمل على السنين القمرية فهو على ظاهره من العــدد، وإن حمل على السنين الشمسية فالتسع الزائدة هى تفاوت زيادة الشمسية على القمرية ، لأنَّ فى كل ثلثمائة سنة تسعَ سنينَ لاتُخِلُّ بالحساب أصلا .

قال صاحب "مناهج الفكر" ولذلك كانوا فى صَدْر الإسلام يُسْقِطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سـنة عربيَّة سنةً ويسمُّونها سـنة الازدلاف، لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . قال وإنمـا حملهم على ذلك الفرار من اسم النسىء الذى أخبر الله تعالى أنه زيادة فى الكفر .

ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .

المصطلح الأول — مصطلح القبط ، وقد اصطلحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدم ، فإذا انقضت الآثنا عشر شهرا أضافوا اليها خمسة أيام يسمونها أيام النسيء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية ، فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا الى خمسة النسيء المذكورة ما اجتمع من الربع يوم الزائد على الخمسة أيام فى السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كبيسة فى تلك السنة ، وبعض ظرفائهم يسمى الخمسة المزيدة السنة الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات : وأول ابتدائهم ذلك فى زمن أغشطش . وكانوا من قبل يتركون الربع الى أن تجتمع أيام سنة كاملة وذلك فى ألف سنة وأربعمائة وإحدى وستين سنة ويسقطونها من سنيهم ؛ وعلى هذا المصطلح استقر عملهم بالديار المصرية فى الإقطاعات ، والزرع ، والخراج ، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثانى — مصطلح الفرس ، وشهورهم كشهور القبط فى عدد الأيام على ما تقدم ، فإذا كان آخر شهر أبان ماه ، وهو الشهر السابع (١) من شهورهم أضافوا اليه الخمسة الأيام الباقية وجعلوه خمسة وثلاثين يوما ، وتسمى الفرس هذه الأيام الخمسة : الاندركاه ؛ ولكل يوم منها عندهم اسم خاص كما فى أيام الشهر ؛ ولما لم يجز فى معتقدهم كبس السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤخرونه الى أن يتم منه فى مائة وعشرين سنة شهر كامل فيلقونه ، وتسمى السنة التى يلقى فيها بهرك (٢) ، قال المسعودى فى "مروج الذهب" : وإنما أخروا ذلك الى مائة وعشرين سنة لأن أيامهم كانت سعودا ونحوسا فكرهوا أن يكبسوا فى كل أربع سنين يوما فتنتقل بذلك أيام السعود الى أيام النحوس ، ولا يكون النيروز أول يوم من الشهر .

(١) الصواب الثامن كما يعلم مما تقدم . (٢) فى مروج الذهب — الهارك ، وفى الضوء — بهرك .

وعلى هذا المصطلح كان يُجبى الخراج للخلفاء، وتمشى الأحوال الديوانية فى بداية الأمر، وعليه العمل فى العراق وبلاد فارس الى الآن .

المصطلح الثالث — مصطلح السريان ، وشهورهم على ما تقدّم من كونها تارةً ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها، وتارة ناقصة عنها، وإنما فعلوا ذلك حتّى لا يلحقهم النسىءُ فى شهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الزائدة على شهور القبط والفُرْس موزّعةٌ على رءُوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أن من شهورهم سبعةَ أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين وهى تشرين الأوّل، وكانون الأوّل، وكانون الثانى، وآذار، وأيّار، وتموز، وآب، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام، وهى نظير النسىءُ فى سنة القبط والفُرْس ، ويبقى بعد ذلك الربع يوم الزائد على الخمسة أيام فى السنة الشمسية ، فإذا انقضت ثلاث سنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملغاة الى الربع الرابع فيجتمع منها يوم فيجعلونه نظير اليوم الذى كبسه القبطُ ويضيفونه الى شباط، فيصير تسعةً وعشرين يوما .

المصطلَح الرابع — مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قمَرِيَّةً كالعربية كما تقدّم فقد اضْطُرّوا الى أن تكون سنتُهم شمسيَّةً لأنهم أمروا فى التوراة أن يكون عيد الفطر فى زمان الفَرِيك فلم يتأتَّ لهم ذلك حتّى جعلوا سنيهم قسمين: الأوّل بشيطا ومعناه بسيطة وهى القمرية، والثانى معبارت ، ومعناه كبيسة وهم يكبسون شهرا كاملا ، ومعبارت اسم موضوع عندهم على الكامل؛ فانه لما كان فى بطنها زيادة عليها كانت هذه السنة مثلها باضافة الشهر المكبوس اليها ، وكل واحدة من السنين ثلاثة أنواع أحدها حسارين ومعناه ناقصة ، وهى التى يكون الشهر الثانى والثالث منها (وهما مرحشوان وكسلا) ناقصين، وكل واحد منهما تسعة وعشرون

يوما ؛ والنوع الثانى شلاميم ومعناه تامّة، وهى التى يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين تاما ؛ والنوع الثالث كسدران ؛ معناه معتـدلة، وهى التى تكون أشهرُها ناقصٌ يتلوه تام ؛ وهـذا يلزم من جهة أنهم لا يجيزون أن يكون رأس سنتهم يوم أحد ولا يوم أربعاء ولا يوم خميس .

وأما معبارت فانها تكون فى كل تسع عشرة سنة سبع مرات، و يسمون الجملة محزورا ومعناه الدور؛ وهذه السبعة لا تكون على التوالى، و إنما تكون تارة سنتان بشيطان يتلوهما معبارت ، وتارة سنة بشيطا يتلوها معبارت، كل ذلك حتى لاتحرم عليهم قاعدة الثلاثة أيام التى لا يختارونها أن تكون أوّل سنتهم، فاذا انقضى آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثـانى، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا وعملوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطلَح المنجّمين فالسنة عندهم من حُلُول الشمس فى أوّل نقطة من رأس الحَمَل الى حلولهـا فى آخر نقطة من الحوت ، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس فى أوّل نقطة من رأس الميزان الى حلولهـا فى آخر نقطة من السُّنْبلة ، والأوّل هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هى من كون الشمس فى نقطة مّا من فَلَك البروج الى عودها الى تلك النقطة ، ويقال إن سـنة الجُنْد والمرتزِقة بالديار المصرية كانت أوّلا على هذا المصطلَح ، و به يعملون فى الإقطاعات ونحوها .

الجمـــلة الثـالثة

فى فصول السنة الأربعة وفيه ثلاثة مَهَايِـع

المَهْيَــعُ الأوّل

فى الحكمة فى تغيير الفصول الأربعة فى السنة

واعلم أن الفُصول تختلف بحسب اختلاف طبائع السـنة لتبايُن مصالح أوقاتها حكمةً من الله تعالى . قال بطليموس : تحتاج الأبدان الى تغيير الفصول، فالشـتاء للتجميد ، والصيف للتَّحْليـل ، والخريف للتَّدْريج ، والربيع للتَّعْديل . وعلى ذلك يقال : إن أصل وَضع الحَمَّـام أربعةَ بيوت بعضها دون بعض على التدريج ترتيبُها على الفصول الأربعة .

المَهْيَــعُ الثـانى

فى كيفيَّة انقسام السنة الشمسية الى الفُصول

واعلم أن دائرة منطقة البُروج لمـا قاطعت دائرة معدّل النهار على نقطتين متقابلتين مال عنهما[(1)] فى جهتى الشمال والجنوب بقدر واحد، فالنقطة التى تجوزُ عليها الشمس من ناحيــة الجَنُوب الى الشمال عن معدّل النهـار تسمَّى نقطة الاعتدال الربيعىّ ، وهى أوّل الحَمَل، والنقطة التى تجوز عليها من الشمال الى الجنوب تسمى نقطة الاعتدال الخَرِيفىّ وهى أوّل الميزان . ويتوهم فى الفلك دائرة ثالثة معترضـة من الشمال الى الجنوب تمرّ على أقطاب تقـابل الدائرة المخطوطة على الفلكين تقطَعُ كلَّ واحد من فلك معدّل النهار وفلك البروج بنصفين، فوجب أن يكون قطعها لفلَك البروج على

(1) لعله مال نصفها فى جهة الشمال والآخر فى جهة الجنوب كما يستفاد من المقريزى .

النقطتين اللتين هما فى غاية المَيْل والبُعْد عن معدّل النهار فى جهتى الشمال والجنوب فتسمّى النقطة الشمالية نُقطةُ المُنْقَلَب الصيفىّ وهى أول السَّرَطان، وتسمّى النقطة الجنوبية نقطة المُنْقَلَب الشَّتْوىّ، وهى أول الجَدْى . واختلافُ طبائع الفصول عن حركة الشمس وتنقُّلها فى هـذه النُّقَط ، فانها اذا تحركت من الحمل، وهو أوّل البروج الشمالية أخَذَ الهواءُ فى السُّخُونة لقربها من سَمْت الرءُوس وتواتر الإسخان الى أن تصل الى أوّل السرطان ، وحينئذ يشتدّ الحرّ فى السَّرَطان والأسد الى أن تصل الى الميزان، فحينئذ يطيبُ الهواءُ و يعتـدلُ؛ ثم يأخذُ الهواء فى البُرودة و يتواتَرُ الى أوّل الجَدْى، وحينئذ يشتدّ البرد فى الجَدْى والدَّلْو لبُعْد الشمس من سَمْت الرءُوس الى أن تصل الى الحَمَل فتعود الشمس الى أوّل حركتها .

المهيــع الثـالث

فى ذكر الفصول، وأزمنتها، وطبائعها ، وما حصة كلّ فصل منها من البروج والمنازل؛ وهى أربعة فصول

الأوّل — فَصْل الربيع — وابتداؤه عند حُلُول الشمس برأس الحَمَل . وقد تقدّم ومدّته أحدٌ وتسعون يوما وربعُ يوم ونصف ثمن يوم . وأوّله حُلول الشمس رأسَ الحَمَل، وآخرُه عند قطعها بُرجَ الجوزاء ؛ وله من الكواكب القمر، والزُّهَرة، ومن المنـازل الشَّرَطان، والبُطَين، والثُّرَيّا ، والدَّبَران، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع بمـا فى ذلك من التداخل كما مر ؛ ومن الساعات الأُولى والثانيةُ والثالثةُ ؛ ومن الرِّياح الجَنُوب؛ وطبعه حارٌّ رَطْب؛ وله من السِّنّ الطُّفُوليّـة والحَدَاثة؛ ومن الأخلاط الدمُ ؛ ومن القُوى الهاضمة . وفيه تتحرّك الطبائع، وتظهر الموادّ المتولدة فى الشّتاء، فيطلُع النباتُ، وتُزهر الأشجارُ وتُورق، و يهيج الحيوان للسِّـفاد، وتدوب الثُّلُوج،

وتَنْبُع العُيون ، وتَسِيل الأوْدِيةُ ، وأخَذَت الأرضُ زُخْرُفَها وٱزَّيَنَتْ فتصيرُ كأنها عَرُوس تبدّت لخُطّابها ، فى مُصَبَّغَات ثيابها ؛ ويقال : اذا نزلت الشمسُ رأسَ الحمل تصرّم الشتاءُ ، وتنفّس الربيعُ ، واختالت الأرضُ فى وَشْيها البديع ؛ وتبرّجتْ للنُّظّارة فى مَعْرِض الحُسْن والنَّضارة .

ومن كلام الوزير المغربىّ : لو كان زمنُ الربيع شخصًا لكان مُقَبَّلا ، ولو أن الأيام حيوان لكان لها حليا ومُجَلَّلا ، لأن الشمس تخلُص فيه من ظُلُمات حُوت السماء ، خَلاصَ يونُسَ من ظُلُمات حُوت الماء ؛ فاذا وردت الحَمَلَ وافتْ أحبَّ الأوطان اليها وأعزَّ أماكنها عليها .

وكان عَبْدوس الخزاعىّ يقول : من لم يبتهج بالربيع ، ولم يستَمْتِع بأنواره ولا استروَحَ بنسيم أزهاره ، فهو فاسدُ المِزَاج ، محتاجٌ الى العِلاج .

ويروى عن بقراط الحكيم مثله ، وفيه بدل قوله : "فهو فاسدُ المزاج" فهو عديمُ حسّ ، أو سقيم نفس . ولجَلالة محلّ هذا الفصل فى القلوب ، ولنزوله من النفوس مَنْزِلةَ الكاعِب الخَلُوب ، كانت الملوك اذا عَدِمتْه استعملتْ ما يُضاهِى زَهْره من البُسُط المصوَّرة المنقّشة ، والنَّمارِق المُفَوّفة المرقّشة . وقد كان لأنو شَرْوانَ بساط يسميه بِساطَ الشّتاء ، مرصَّعٌ بأزرق الياقوت والجواهر ، وأصفره وأبيضه وأحمره ، وقد جعل أخضرُه مكانَ أغصان الأشجار ، وألوانه بموضع الزَّهْر والنوّار . ولما أُخذ هذا البساطُ فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى واقعة القادسيّة ، حُمل اليه فيما أفاء الله على المسلمين ؛ فلما رآه قال : "إن أُمَّةً أدّتْ هذا الى أميرها لأمينةٌ " ثم مزّقه فوقع منه لعلىّ عليه السلام قطعةٌ فى قسمه مقدارُها شبر فى شبر فباعها بخمسةَ عشرَ ألف دينار .

وقد أطنب الناس فى وصف هذا الفصل ومدحه، وأتوا بما يقصُر عن شرحه، وتغالى الشعراء فيه غاية التّغالى، وفضّلوا أيامه ولياليَه على الأيّام والليالى، وما أحلى قولَ البُحترىّ:

أتاكَ الربيعُ الطّلْقُ يختال ضاحكا * من الحُسْن حتّى كاد أن يتكلّما
وقد نبّه النَّوْروزُ فى غسَقِ الدّجى * أوائلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمسِ نُوَّما
يُفتّحها بَرْدُ النّدى فكأنّما * يبثُّ حديثا بينهنّ مكتّما
ومِن شجرٍ ردَّ الربيعُ رِداءَهُ * كما نشرتْ ثوبا عليه منمنما
أحلَّ فأبدى للعيونِ بَشاشةً * وكان قذًى للعينِ إذ كان مُحْرِما
ورقَّ نسيم الجوّ حتّى كأنّما * يجيءُ بأنفاسِ الأحبّةِ نُعَّما

وأحلى منه قول أحمد بن محمد العلوىّ:

أوَ ما ترى الأيّام كيف تبرّجتْ * ورَبيعُها والٍ عليها قيِّمُ؟
لَبِستْ بهِ الأرضُ الجمالَ فحُسْنُها * متأزِّرٌ ببرودِهِ متعمِّمُ
أنْظُرْ الى وَشْيِ الرِّياضِ كأنّهُ * وَشْيٌ تُنَشِّرُهُ الأكفُّ يُنَمْنَمُ
والنَّوْرُ يَهْوِى كالعُقودِ تبدّدتْ * والوَرْدُ يَخْجَلُ والأقاحى تَبْسِمُ
والطّلُّ يَنْظِمُ فوقهنّ لآلئا * قدْ زانَ منهنّ الفُرادى التّوْءَمُ
ويكادُ يُذْرِى الدّمعَ نَرْجِسُها اذا * أضْحى ويَقْطُرُ مِنْ شقائقِها الدّمُ

ومنها:

أرضٌ تُباهِيها السماءُ اذا دَجا * ليلٌ ولاحتْ فى دُجاها الأنْجُمُ
فلِخُضْرة الجَوّ اخْضِرارُ رياضِها * ولِزَهْرِهِ زَهْرٌ ونَوْرٌ يَنْجُمُ
وكما يَشُقُّ سَنا المَجرّةِ جَوَّهُ * وادٍ يَشُقُّ الأرضَ طامٍ مُفْعَمُ
لم يَبْقَ إلا الدّهرُ إذ باهتْ به * وحَيًا يَجودُ بهِ مُلِثٌّ مُرْهِمُ

وقول الآخر :

طَـــرَقَ الحَيـاءُ ببرِّه المَشْكُورِ * أهْـــلًا به مِنْ زَائِرٍ ومَزُورِ
وحَبَا الرِّياضَ غلالةً مِنْ وَشْيِهِ * بغرائِبِ التَّفْوِيفِ والتَّحْبِـــيرِ
وأَعَارَها حَلْيـا تأنّى الغيثُ فى * تَرْصِـــيعِهِ بجواهِرِ المَنْثُــورِ
بمُـــوَرَّدٍ كمُوَرَّدِ اليــاقُوتِ قا * رَنَ أبيضًا كَمَصاعِدِ الكافُورِ
ومُعَصْفَرٍ شَرِقٍ وأَصْفَرَ فاقِــعٍ * فى أخْضَرٍ كالسُّـــنْدُسِ المَنْشُورِ
فكأنَّ أزرَقَهُ بَقَايَا إثْمِــــدٍ * فى أعْيُنٍ مَكْحُولةٍ بفُتُـــورِ
كَمُلَتْ صِفاتُ الزَّهْرِ فيه فنابَ عَمْـ * ـا غاب مِنْ أنْواعِهِ بحُضُورِ

وقول الآخر :

إشْرَبْ هَنِيئًا قَدْ أتَاكَ زَمانٌ * متَعَطِّـــرٌ متَهَلِّلٌ نَشْوانُ
فالأرضُ وَشْىٌ والنَّسيمُ مُعَنْبَرٌ * والمــاءُ راحٌ والطُّيُورُ قِيَـانُ

الثانى — فصل الصيف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم وابتــداؤه اذا حلّت الشمسُ رأسَ السَّرطانِ ، وانتهاؤه اذا أتتْ على آخر درجة من السُّنبلة ، فيكون له من البُروج السرطانُ ، والأسـدُ ، والسنبلة . وهذه البروج تدلُّ على السُّكون ، وله من الكواكب المِرِّيخ والشمسُ ، ومن المنازل النَّثْرةُ ، والطَّرْفُ ، والجبهـةُ ، والزُّبرة ، والصَّرْفة ، والعوَّاء ، والسِّماكُ يتداخل فيــه ، وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ، ومن الرياح الصَّبَا ، وطبعُه حارّ يابس ، وله من السنّ الشَّبابُ ، ومن الأخلاط المِرَّةُ الصـفراءُ ، ومن القُوَى القوّة النفسية والحيوانيــة . وللعرب فى هــذا الفَصْل وغَرَاتٌ : وهى الحُرورُ ، منها وغْرَةُ الشِّعرى ، ووَغْرة الجوزاءِ ، ووَغْرة سُهَيل ، أوّلها أقواها حرًّا ، يقال إن الرجل فى هذه الوغرة يَعْطَش بين الحوض والبئر ، واذا طلع سُهيل ذهبت الوَغَراتُ ، وتُسمَّى الرياحُ التى فى هذه

الوَغَراتِ البَوارحَ؛ سميت بذلك لأنها تأتى من يسار الكعبة كما بَرَح الظَّبْىُ اذا أتاك من يسارك؛ وقد أُولِعَ الناسُ بيْن لَفَحات الحرّ وسُمُومه، وأتوا فيه ببدائعَ تقلَعُ من قلب الصَّبّ غَمامَ غُمومه. وفى ذلك قول بعضهم: أوقدت الظهيرةُ نارَها، وأذْكَتْ أُوَارَها، فأذابت دِمَاغَ الضَّبّ، وألهبت قلبَ الصَّبّ؛ هاجرةٌ كأنها من قلوب العُشّاق، إذا اشتعلت فيها نارُ الفِراق؛ حَرٌّ تَهرُبُ له الحِرْباءُ من الشمس، وتستجير بمتراكم الرَّمْس؛ لا يطيب معه عيش، ولا ينْفَع معه ثَلْج ولا خَيْش؛ فهو كالقلب المهجور، أو كالتَّنُّور المَسْجور. ووصف بعضُهم، وهو ذو الرمّة، حرَّ هاجرة فقال:

وهَاجِرةٍ حَرُّها واقِدٌ * نَصَبْتُ لحاجِبها حاجِبى
تَلُوذُ من الشَّمْسِ أطْلاؤُها * لِيَاذَ الغَرِيمِ من الطَّالِبِ
وتَسجُد للشمسِ حِرباؤها * كما يَسْجُدُ القَسُّ للرَّاهِبِ

وقال سوّار بن المُضَرّس:

وهاجِرةٍ تُشْتَوَى بالسَّمُوم * جَنَادِبُها فى رءُوسِ الأَكَمْ
إذا المَوْتُ أخطأ حِرْباءَها * رمى نَفْسَه بالعَمى والصَّمَمْ

وقال أبو العَلاء المَعرّى:

وهَجِيرةٍ كالهَجْرِ مَوْجُ سَرَابِها * كالبَحْرِ لَيْس لِمائها من طُحْلُبِ
وافى به الحِرْباءُ عُودَىْ مِنْبَرٍ * للظُّهْرِ إلا أنه لم يَخْطُبِ

وقال آخر:

ورُبَّ يَوْمٍ حَرُّه مُنْضِجٌ * كأنّه أحْشاءُ ظَمْآنِ
كأنّما الأرضُ على رَضْفةٍ * والجَوُّ مَحْشُوٌّ بنِيرانِ

وبالغ الأمير ناصرُ الدين بن الفقيسى فقال من أبيات:

فى زَمانٍ يَشْوِى الوُجُوهَ بحَرٍّ * ويُذِيبُ الجُسُومَ لو كُنَّ صَخْرا

لا تَطِيرُ النُّسُورُ فيه إذا ما * وقَفَتْ شمسُه وقارَبَ ظُهْرا
يَشْتَكِي الضَّبّ ما اشتكى الصَّبُّ فيه * ولِحِرْبائه الى الظِّلِّ حَرّا
ويَوَدُّ الغُصْنُ الرَّطِيبُ به لوْ * أنّهُ من لِحَائِه يتعَرَّى.

وقال أيضا يصف ليلة شديدة الحرّ :

يا لَيْلةً بِتُّ بها ساهِرًا * مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ وفَرْطِ الأُوَارْ
كأنّنِي فى جُنْحِها مُحْرِمٌ * لو أنَّ لِلعَوْرَةِ مِنّى ٱستِتَارْ
وكَيْفَ لا أُحْرِمُ فى لَيْلَةٍ * سماؤُها بالشُّهْبِ تَرْمِي الجِمارْ

على أن أبا علىّ بن رَشيق قد فَضّله على فصل الشتاء فقال :

فَصْلُ الشِّتاءِ مُبِينٌ لا خَفَاءَ بِهِ * والصَّيْفُ أفضَلُ مِنْهُ حِينَ يَغْشَاكَا
فِيهِ الّذِى وَعَدَ اللهُ العِبَادَ بِهِ * فِي جَنَّةِ الخُلْدِ إنْ جاءُوه نُسّاكَا
أنْهارُ خَمْرٍ وأطْيارٌ وفاكِهَةٌ * ماشِئْتَ مِنْ ذا ومِنْ هذا ومِنْ ذاكا
فَقُلْ لِمَنْ قال لَوْلَا ذاكَ لَمْ يَكُ ذا * إذًا تُفَضِّلُ على أُخْراكَ دُنْياكا
سَمِّ الشِّتَاءَ بعبّاسٍ تُصِبْ غَرَضًا * من الصّوابِ وسَمِّ الصَّيْفَ ضَحّاكا

الثـالث — فصل الخريف، وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم. وأوّله عند حُلول الشمس رأسَ الميزان، وذلك فى الثامن عشر من توت و إذا بَقِىَ من أيلول ثمانية أيام، وآخره إذا أتت الشمسُ على آخر درجة من القَوْس؛ فيكون له من البروج الميزانُ والعقربُ والقوسُ ؛ وهـذه البروج تدلُّ على الحركة ، وله من الكواكب زُحَلُ ، ومن الساعات السابعة والثامنـة . والطالع فيه مع الفجر من المنازل الغَفْر والزُّبَانان والإكليل والقَلْب والشَّوْلة والنَّعائم والبَلْدة يتداخل فيه . وهو بارد يابس ، له من السِّن الكُهُولة ؛ تهيج فيه المِرَّة السَّوْداء، وتقوى فيه القوّة المـاسكةُ، وتهبُّ فيه الرياح الشَّمالِيَّة ، وفيـه يبرُد الهواء، و يتغيّر الزمانُ ، وتنصرم

الثمارُ، ويتغير وجهُ الأرض، وتُهْزَل البهائم، وتموت الهوامّ، وتنجحر الحشرات، ويطلب الطير المواضع الدّفئة، وتصير الأرض كأنها كَهْلَةٌ مُدْبِرة . ويقال : فصل الخريف ربيعُ النفس كما أن الربيعَ ربيعُ العين، فإنه ميقاتُ الأقوات، ومَوْسِم الثمار، وأوانُ شَبَاب الأشجار، وللنفوس فى آثاره مَرْبَع، وللجسوم بمواقع خيراته مستمْتَع . وقد وصفه الصابى فقال الخريف أصحُّ فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا، وهو أحد الاعتدالين المتوسّطين بين الانقلابين، حين أبدَتِ الأرض عن ثمرتها، وصرَّحت عن زُبْدتها، وأطلقت السماءُ حَوَافِلَ أنوائها، وآذنتْ بانسكاب مائها، وصارت المَوَارد، كمتون المَبَارد، صفاءً من كَدَرها، وتهذبا من عَكَرها، واطّرادا مع نفحات الهواء، وحركات الرّياح الشّجْواء، واكتست الماشيةُ وبَرَها القشيب، والطائرُ رِيشَه العجيب " .

ومن كلام ابن شبل : كلُّ ما يظهَرُ فى الربيع نُوّارُه ففى الخريف تُجتنَى ثِمارُه .

وقال أبو بكر الصنوبرى :

ما قضى فى الربيع حَقَّ المَسَرّا * تِ مُضِيعٌ لحقّها فى الخريف
نحنُ منه على تَلَقّ شتاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أو وداعِ مَصِيف
فى قميص من الزّمانِ رقيقٍ * ورِداءٍ من الهَواءِ خفيف
يَرْعُدُ الماءُ فيه خَوْفًا اذا ما * لَمَسَتْه يَدُ النّسيمِ الضّعيف

وقال ابن الرومى يصفه :

لَوْلا فواكهُ أيْلُولٍ إذا اجتمعَتْ * من كُلّ فَنٍّ ورَقَّ الجوُّ والماءُ
إذًا لَمَا حفَلَتْ نفسى إذا اشتملتْ * علىّ هائلةُ الحالَيْنِ غَبْراءُ
ياحبّذا ليلُ أيْلُولٍ إذا بَرَدَتْ * فيه مَضَاجِعُنَا والرِّيحُ شجْواءُ
وَحَمِشَ القُرُّ فيه الجِلْدَ والتأمتْ * من الضّجيعَيْنِ أجسامٌ وأحْشاءُ

وأسْفَرَ القَمرُ السارِى بصَفحَتيهِ * يُرى لها فى صَفاءِ الماء لألاءُ
بل حَبّذا نفحةٌ من رِيحه سَحَرًا * يأتيك فيها من الرَّيحان أنباءُ
قُلْ فيه ما شئتَ من فضل تَعَهّدُه * فى كُلّ يومٍ يدٌ للهِ بيضاءُ

وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله على الصيف من أبيات :

طابَ شُربُ الصَّبُوح فى أيْلُولِ * بَرَدَ الظلُّ فى الضُّحى والأصِيلِ
وخَبَتْ لَفحةُ الهواجِرِ عَنّا * وٱستَرَحْنَا من النَّهار الطَّويلِ
وخرجْنَا من السَّمُومِ الى بَرْ * دِ نَسيمٍ وطيب ظلٍّ ظَليلِ
فَكأنّا نَزْدادُ قربا من الجنّ * ـة فى كُلِّ شارقٍ وأَصيلِ
ووجُوهُ البِقاعِ تَنْتَظِر الغيـ * ـث ٱنتِظَارَ المُحِبِّ رَدَّ الرَّسُولِ

وقريب منه قول الآخر :

اشرَبْ عَلى طِيبِ الزّمانِ فقدْ حَدَا * بالصَّيْف للنُّدمانِ أطْيَبُ حادِ
وأشَمَّنا بِاللّيْلِ بَرْدَ نَسيمِهِ * فارتاحَتِ الأرْواحُ فى الأجْسَادِ
وافَاكَ بالأنْداءِ قُدَّامَ الحَيَا * فالأرضُ للأمطار فى استِعْدادِ
كَمْ فى ضَمَائِرِ تُرْبِها من رَوْضةٍ * بِمَسِيلِ ماءٍ أو قَرَارَةِ وَادِ
تَبْدُو اذا جاء السَّحابُ بقَطْرِه * فكأنّما كُنَّا على ميعاد

ومما يقرُب منه قول جَحْظةَ البرمكىّ :

لا تَصغَ للّوْمِ إن اللَّوْمَ تَضْلِيلُ * وٱشرَبْ ففى الشُّرْب للأحْزان تَحْليلُ
فقدْ مَضى القَيْظُ وٱجتُثَّت رَوَاحلُهُ * وطابت الرِّيحُ لما آلَ أيْلُولُ
وليس فى الأرض بيتٌ يشتكى مَرَهًا * إلا وناظِرُه بالطَّلِّ مَكْحُولُ

و بالغ بعضهم فسوّى بينه و بين فصل الربيع فقال فى ضِمْن تهنئةٍ لبعض إخوانه

هُنيِّتَ إقبالَ الخريـ * ـف وفُزْتَ بالوَجْه الوَضِىّ

تمّ اعتدالًا فى الكمَا * ل بجاء فى خَلْقٍ سَوِىّ
فحكى الرَّبيعَ بحُسْنِهِ * ونَسيمِ رَيّاهُ الذَّكِىّ
ويَنُوبُ وَرْد الزَّعفرا * نِ له عَنِ الوَرْدِ الجَنِىّ

وأبلغ منه قول الآخر يفضله على فصل الربيع الذى هو سيدُ الفصول ورئيسُها :

مَحَاسِنُ للخَرِيفِ لَهُنَّ فَخْرٌ * على زَمَنِ الرَّبيعِ وأىُّ فَخْرِ
به صار الزَّمانُ أَمَامَ بَرْدٍ * يُرَاقِبُ نَزْحَه وعَقيبَ حَرّ

ومع ذلك فالأطباء تذمُّه لاستيلاء المِرّة السَّوْداء فيه، ويقولون : انّ هواءه رديءٌ متى تشبَّث بالجسم لا يمكن تَلافيه؛ وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

خُذْ فى التَّدَثُّرِ فى الخَرِيفِ فإنّهُ * مُسْتَوْبَلٌ ونَسِيمُه خَطَّافُ
يَجْرى مَعَ الأيّامِ جَرْىَ نِفَاقِهَا * لصَدِيقِها ومن الصَّديقِ يُخَافُ

الرابع — فصل الشتاء وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصفُ ثُمن يوم، ودخولُه عند حُلُول الشمس رأسَ الجَدْى ؛ وذلك فى الثامن عشر من كيهك واذا بَقِى من كانون الأول ثمانيةُ أيام،وآخره اذا أتت الشمسُ على آخر درجةٍ من الحُوت فيكون له من البروج الجَدْىُ والدَّلْو والحُوت؛ وهذه البروج تدلُّ على السكون؛ والطالعُ فيه مع الفجر سعدُ الذابحُ، وسعدُ بُلَعَ، وسعدُ السُّعود، وسعدُ الأَخْبِيَة، والفَرْغ المقدَّم والفَرْغ المؤخَّر، والرِّشاء . فيه تهُبُّ رياح الدَّبُور،وهو بارد رَطْب . فيه يهيج البَلْغَمُ، وتضعُف قُوى الأبدان . له من السنّ الشَّيْخوخة، ومن القُوى البدنيَّة القُوّة الدافعة؛ وفيه يشتدّ البَرْد . ويخْشُن الهواء، ويتساقط ورقُ الشَّجَر، وتَتْجَحرُ الحيَّات، وتكثر الأنواء، ويُظْلم الجوُّ، وتصير الأرضُ كأنها عجوزٌ هَرِمة قد دنا منها الموتُ . وله من الكواكب المُشْتَرِى وعُطاردٌ، ومن الساعات العاشرةُ والحادية عشرة . ويقال اذا حلَّت الشمسُ الجَدْىَ : مدّ الشِّتاء رُواقَه، وحلّ نِطاقَه؛ ودبَّت

عقاربُ البَرْد لاسِـبة ، وتقع مُدَّخَرُ الكسب كاسِبه . وللبلغاء فى وصف حال من أظله ، مُلَحٌ تدفع عن المقرور متى استعدّ بها طَلّه ووبْلَه .

فمن ذلك قول بعضهم يصف شدّة البرد : برد يغيِّر الألوان ، وينشِّف الأبدان ، ويجمِّد الريقَ فى الأشداق ، والدمع فى الآماق ، بردٌ حال بين الكلب وهريره ، والأسد وزئيره ، والطير وصفيره ، والماء وخريره .

ومن كلام الفاضل : فى (1) ليلة جَمَد خمرُها ، وخَمَد جمرُها ، الى يوم تَوَدّ البَصَلة لو ازدادت قُمُصا الى قُمُصها ، والشمسُ لو جَرّت النارَ الى قُرْصها ، أخذه بعضهم فقال :

ويومُنا أرياحُــهُ قَــرَّةٌ * تخمش الأبدانَ من قَرْصها
يومٌ تودُّ الشمسُ من بَرْدِه * لو جَرّت النـارَ الى قُرْصها

ولابن حكينا البغدادى :

اِلْبَسْ اذا قَــدِم الشّـتاءُ بُرودَا * وافْرُشْ على رَغْم الحَصير لُبُودَا
الرِّيقُ فى اللَّهواتِ أصبَحَ جامدًا * والدَّمْعُ فى الآماقِ صـار بُرُودا
واذا رمَيْتَ بفَضْل كأسِكَ فى الهَوَا * عادَتْ اليْكَ من العَقِيقِ عُقُودا
وترى على بَرْدِ المِيـاهِ طُيورَهـا * تختـارُ حَرَّ النـار والسَّـفُّودا
يا صاحبَ العُودَيْنِ لا تُهمِلْهُما * حَرِّقْ لنـا عُـودًا وحَرِّكْ عُودا

ولبعضهم :

شِـتاءٌ تَقْلِصُ الأشداق منـه * وبَردٌ يجعَـلُ الشُّبَّانَ شِيبًا
وأرضٌ تَزْلَقُ الأقدامُ فيهـا * فـا تَمْشى بهـا إلا دَبِيبـا

ومن كلام الزمخشرى :

أقبلْتَ يابَرْد بِـبُرْدٍ أجْـودِ * تفْعَل بالأوجُهِ فِعْـلَ المِبْرَدِ

(1) لعله «من» بدليل الى .

أَظَل فى البَيْت كِشْـل المُقْعَدِ * مُنْقبِضًا تحتَ الكِسَاءِ الأَسْوَدِ
لَوْ قِيـلَ لِى أنْتَ أميرُ البَـلَدِ * فهاتِ للبَيْعةِ كَفًّا يُعْـقَدِ

ومن كلام أبى عبد الله بن أبى الخِصَال يصف ليلةً باردةً من رسالة : والكلبُ قد صافحَ خيشومُهُ ذَنَبــه ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه ، والتوى الْتِوَاءَ الحُبَاب ، واستدار استِدَارةَ الحَبَاب ، وجَلَّده الجَليد ، وضَرَّبه الضَّريب ، وصَعَّد أنفاسَه الصَّعيد ، فحِمَاه مُبَاح ، ولا هَريرٌ ولا نُبَاح .

ومن شعر الحماسة فى وصف ليلة شديدة البَرْد :

فى ليلةٍ من جُمادى ذاتِ أنْدِيَةٍ * لا يُبْصِرُ الكَلْبُ من أنْدائها الطُّنُبا
لا يَنْبَحُ الكَلْبُ فيها غَيرَ واحِدةٍ * حتّى يَلُفَّ على خَيْشُومه الذَّنَبـا

ولأبى القاسم التنوخىّ :

ولَيْـلَةٍ تَرَكَ البَرْدُ البِـلادَ بهـا * كالقَلْبِ أُسْـعِرَ نَارًا فهو مَثْلُوج
فإنْ بَسَطْتَ يَدًا لم تَنْبَسِطْ خَصَرًا * وإنْ تَقُـل فبِقَوْلٍ فيـه تَثْبِيجُ
فنَحْنُ منه ولم نُخْرَسْ ذَوُو خَرَسٍ * ونحْنُ فيـه ولم نُفْلَـجْ مَفَالِيجُ

وقال بعضهم يصف يوما باردا كثير الضَّبَاب :

يَوْمٌ من الزَّمْهَرِيرِ مَقْـرُورُ * عَلَيه جَيْبُ السَّحابِ مَزْرُورُ
وشَمْسُـهُ حُرَّةٌ مُخَـدَّرَةٌ * لَيْس لَهـا مِنْ ضَـبَابِهِ نُورُ
كأنَّمـا الجَـوُّ حَشْـوُهُ إبَرٌ * والأرْضُ منْ تَحْتِـه قَوارِيرُ

وحكى أنَّ أعرابيًّا اشتدّ به البردُ فأضاءتْ نارٌ فدَنَا منها ليَصْطِلَى ، وهو يقول: اللهم لاتَحْرِمْنيها فى الدُّنيا ولا فى الآخرة؛ أخذه بعضُهم فقال وهو فى غاية المبالغة :

أيارَبِّ إن البَرْدَ أصْبَحَ كالِحًا * وأنتَ بِحَالِى عالِمٌ لا تُعَـلَّمُ
فإن كُنْتَ يَوْما مُدْخِلى فى جَهَنَّمٍ * ففِى مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ طابَتْ جَهَنَّمُ

وقد اعتنى الناس بمدحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه تغيبُ فيه الهوامُّ، وتنجحر الحشرات، ويموت الذباب، ويهلكُ البعوض، ويبرد الماء، ويسخن الجوف، ويطيبُ العناق، ويظهر الفرش، ويكثر الدخن، وتلذ جمرة البيت لكفى.

وتابعه بعض الشعراء فقال :

تركتْ مقدِّمةُ الخريف حميده * وبدا الشِّــتاءُ جديدُه لا يُنْكَرُ
مَطَرٌ يروقُ الصَّحْوُ منه وبعدَهُ * صَحْوٌ يكادُ من الغضارةِ يمطـر
غيثـان والانواءُ غيث ظاهرٌ * لكَ وجْهُهُ والصَّحْوُ غيْثٌ مُضْمَر

وقال أبو الفتح كُشَاجِم :

أذنَ الشِّـــتاءُ بلَهْوِهِ المستقْبَلِ * فــدَنَتْ أوائلُه بغيثٍ مُسْــبَلِ
مُتَكاثِفِ الأنواءِ مُنْغَدِقِ الحَيَـا * هَطِلِ النَّدى هَزِجِ الرُّعود بِجُلْجُلِ
جاءتْ بعَزْلِ الجَدْبِ فيهِ فبَشَّرتْ * بالخِصب أنواءُ السِّماكِ الأعْزلِ

وقد وَلِـع الناسُ بذكر الاعتداد لهـا قديمـا وحديثا .

قيل لأعرابيّ : ما أعددْتَ للبرد؟ فقال : طُولُ الرِّعْدة، وتقرْفُص القِعْدة، وذُوبُ(١) المِعْدة . أخذه ابن سُكَّرة، فقال :

قيــلَ ما أعْدَدْتَ للبَرْ * دِ وقــد جاء بِشِــدَّهْ
قُلْتُ دُرَّاعــةُ عُرْيِ * تحتَهـا جُبَّــةُ رِعْــدَهْ

وأعلم أن ما تقدّم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطلح المعروف، والطريق المشهور . وقد ذكر الأُبيّ فى كتاب الدرّ : أن العرب قسَّمت السنة أربعة أجزاء فجعلوا الجزء الأول الصَّــفَرِيَّة، وسمّوا مطرَه الوَسْمِي، وأوّله عندهم سُــقُوط عَرْقُوة الدَّلْو السُّفْلى، وآخِرُه سقُوط الهَقْعة، وجعلوا الجزء الثانى الشتاء، وأوّله سقوط الهَنْعة ،

(١) لعل الصواب «وذرب» بالراء بدل الواو .

وآخره سقوطُ الصَّرْفة . وجعلوا الجزء الثالث الصيف، وأوله سقوط العَوّاء، وآخره سُقُوط الشَّوْلة . وجعلوا الجزء الرابع القَيْظ ، وسموا مطَرَه الخَريف، وأوله سقُوط النَّعائم، وآخره سقوط عَرْقُوَة الدلو العُلْيا :

وذكر ابن قتيبْة فى "أدب الكاتب" طريقا آخر فقال :

الربيع يذهب الناس الى أنه الفصل الذى يتبع الشتاء ويأتى فيه الوردُ والكَمْأة، والنَّوْر، ولا يعرِفون الربيع غيره . والعرب تختلف فى ذلك فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تُدْرِك فيه الثمارُ، وهو الخريف، وبعده فصلُ الشتاء، ثم فصل الصيف وهو الوقت الذى تسمِّيه العامَّةُ الربيعَ، ثم فصلُ القَيْظ وهو الذى تسميه العامة الصيفَ ، ومنهم من يسمِّى الفصلَ الذى تُدْرِك فيه الثمارُ وهو الخريف الربيعَ الأوّل، ويسمِّى الفصل الذى يلى الشتاء وتأتى فيه الكَمْأة والنَّوْر الربيعَ الثانى؛ وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع"

وفى بعض التعاليق أن من العرب من جعل السنة ستة أزْمنة . الأول الوَسْمى وحصّتُه من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازلَ وثُلثا منْزلة وهى العَوّاء، والسِّماك والغَفْر، والزُّبانان، وثلُثا الإكليل . الثانى الشتاءُ، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثلُثا منزلة وهى ثلُثُ الإكليل، والقلبُ، والشَّوْلة، والنَّعائمُ، والبَلْدة، وثلُثُ الذَّابح . الثالث الربيع، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلثا منزلة، وهى ثُلُثا الذابح، وبُلَعُ، والسُّعود، والأخبيَةُ، والفَرْغ المقدّم . الرابع الصيف، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل وثلثا منزلة، وهى الفَرْغ المؤخَّر، وبطْن الحوت، والشَّرطان، والبُطَين، وثلثا الثريّا . الخامس الحَميم؛ وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلثا منزلة وهى ثلث الثريا، والدَّبرانُ، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع وثُلُثُ النثرة . السادس

الخريف، وحصّته من السنة شهران، ومن المنـازل أربعُ منازلَ وثُلُثا منزلة وهى ثلثا النَّثْرة، والطَّرْف، والجَبْهة، والخَرَتان، والصَّرْفة .

والأوائل من علماء الطِّب يقسِمُون السنة الى الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون الشتاء والصيف أطولَ زمانا وأزيد مُدَّة من الربيع والخريف ، فيجعلون الشِّتاء أربعةَ أشهر، والصيفَ أربعة أشهر، والربيع شهرين، والخريف شهرين، إذ كانا متوسطَين بين الحرّ والبرد وليس فى مُدّتهما طُول ولا فى زمانهما اتِّساع .

واعلم أن ما تقدّم من تفضيل بعض الفُصول على بعض إنما هو أقاويل الشُّعَراء وأفانينُ الأدباء، تفننًا فى البلاغة؛ وإلا فالواضع حكيم جعل هذه الفصولَ مشتملةً على الحرّ تارة وعلى البرد أخرى لمَصالح العباد، ورتَّبها ترتيبا خاصا على التدريج، يفهم ذلك أهلُ العقول وأرباب الحِكْمَة ، جلَّتْ صنعتُه أن تكون عَرِيَّة عن الحكمة ، أو موضوعة فى غير موضعها ﴿ما تَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمٰن من تَفَاوُتٍ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى منْ فُطُور ثم ٱرْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ اِلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً وهو حَسِيرٌ﴾ :

الطــــرف الرابع

فى أعيـاد الأمم ومواسمها ، وفيه خمس جمل

الجمـــلة الأولى

فى أعيـاد المسلمين

واعلم أن الذى وردت به الشريعة وجاءت به السنَّة عيدان : عيدُ الفطر، وعيدُ الأضحى . والسبب فى اتخاذهما ما رواه أبو داود فى سُنَنه عن أنس بن مالك رضى الله عنه، "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدِم المدينةَ ولِأَهْلِها يَوْمان يَلْعَبُونَ فيهما، فقال : ما هذانِ اليَوْمان؟ فقالوا : كُنَّا نَلْعَبُ فيهما فى الجاهليَّة؛ فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم إنّ اللهَ عزّ وجلّ قد بدّلكُمْ خيرًا منْهما يومَ الأضحى، ويومَ الفِطْر" فأوّل مابُدِئَ به من العيدين عيد الفطر، وذلك فى سنة اثنتين من الهجرة . وروى ٱبن باطيش فى كتاب الأوائل أن أوّل عيد ضحّى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سنة ٱثنتين من الهجرة وخرج الى المصلّى للصلاة، وحينئذ فيكون العيدان قد شُرِعا فى سنة واحدة؛ نعم قد ٱبتدعت الشيعة عيدا ثالثا وسمّوه عيد الغَدير. وسبب ٱتخاذهم له مؤاخاة النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ كرم الله وجهه يومَ غَدِير خُمّ وهو غَدِير على ثلاثة أميال من الجُحْفَة يَسْرَةَ الطريق تصُب فيه عينٌ وحوله شجرٌ كثير، وهى الغَيْضة التى تسمّى خُمًّا، وذلك أن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم لما رجع من حَجّة الوَدَاع نزل بالغَدير وآخى بين الصحابة ولم يؤاخِ بين علىّ و بينَ أحدٍ منهم فرأى النبيّ صلى الله عليه وسلم منه ٱنكسارا فضمّه إليه وقال "أمَا تَرْضى أن تكونَ منّى بمنزلة هارُونَ من مُوسى إلا أنّه لا نبيَّ بَعْدى والتفتَ الى أصحابه وقال مَنْ كُنْتُ مَوْلاه فعلىّ مَوْلاه، اللهم وَالِ مَنْ وَالاهُ، وعادِ مَنْ عاداه" وكان ذلك فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنةَ عشرٍ من الهجرة . والشيعة يُحْيُون ليلةَ هذا العيد بالصلاة و يصلّون فى صبيحتها ركعتين قبل الزوال وشعارُهم فيه لُبْس الجديد، وعِتْقُ العبيد، وذَبْح الأغنام، و إلحاق الأجانب بالأهل فى الإكرام . والشعراء والمترسلون يهنّئون الكبراء منهم بهذا العيد .

الجملة الثانية

فى أعياد الفرس

وكان دينهم المجوسية ، وأعيادهم كثيرة جدّا حتّى إن علىّ بن حمزة الأصبهانىّ عَمِل فيها كتابا ذكر فيه أسباب ٱتخاذهم لها، وسببَ سُلُوكهم فيها؛ وقد اقتصرنا منها على المشهور الذى وَلِع الشعراءُ بذكره، وٱعتنى الأمراء بأمره؛ وهى سبعة أعياد .

العيد الأوّل النَّيْروز — وهو تعريب نُوروز، ويقال إن أوّل من آتخذه جم شاد أحد ملوك الطبقة الثـانية من الفُرْس، ومعنى شاد الشُّعاع والضياء؛ وإن سبب آتخاذهم لهذا اليوم عيدا أن الدِّين كان قد فسد قبـله ، فلمـا ملك جدّده وأظهره فسمّى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى اليوم الجديد . وفى بعض التعاليق أن جم شاد ملَك الأقاليمَ السـبعةَ والجنّ والإنس ، فاتخذ له عَجَـلة ركِبَها؛ وكان أوّل يوم ركبها فيه أوّل يوم من شهر افرودين ماه، وكان مدّة ملكه لا يُريهم وجهه، فلما ركبها أبرز لهم وجهـه، وكان له حظ من الجَمَـال وافرٌ، فجعـلوا يوم رؤيتهم له عيدا، وسمَّوْه نوروزا . ومن الفرس من يزعُم أنه اليومُ الذى خلق الله فيه النُّور، وأنه كان معظَّما قبـل جم شاد . وبعضهم يزعم أنه أوّل الزمان الذى آبتدأ الفَلَكُ فيـه بالدَّوَران . ومدّته عندهم ستة أيام أوّلهـا اليوم الأوّل من شهر افرودين ماه الذى هو أوّل شهور سنتهم . ويسـمُّون اليومَ السادس النُّوروزَ الكبير، لأن الأكاسرة كانوا يقضُون فى الأيام الخمسة حوائجَ الناس على طَبَقاتهم، ثم ينتقلون إلى مجالس أُنْسِهم مع ظُرَفاء خواصِّهـــم .

وحكى آبن المقفَّع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتىَ الملِكَ رجل من الليل قد أُرْصِد لمـا يفعله، مليح الوجه، فيقفُ على الباب حتّى يُصْبِح، فإذا أصبح دخل على الملِك من غير آسـتئذان، ويقفَ حيثُ يراه، فيقول له : من أنتَ؟ ومن أين أقبلتَ؟ وأين تُريد؟ وما آسمُك؟ ولأىّ شىء وردْت؟ وما معك؟ فيقول : أنا المنصورُ، وآسمى المُبارَك، ومن قِبَل الله أقبلتُ، والملِكَ السعيدَ أردتُ، وبالهَناء والسـلامة وردْت، ومعى السَّـنةُ الجديدة، ثم يجلس؛ ويدخُلُ بعـده رجل معـه طَبَق من فضّة وعليه حِنْطة، وشعير، وجُلْبَانٌ، وحِمّص، وسِمْسِم، وأُرُزّ من كل واحد سبْعُ سُنْبُلات، وسبعُ حبّات، وقِطعةُ سُكَّرٍ، ودينارٌ ودرْهم جديدان؛ فيضع الطَبق بين

يدى المَلِك، ثم تُدْخَل عليه الهدايا، ويكون أوّل من يدخل عليه بها وزيرُه، ثم صاحب الخَرَاج، ثم صاحبُ المَعُونة، ثم الناس على طبقاتهم، ثم يقدَّم للملك رغيف كبيرٌ من تلك الحبوب مصنوعٌ موضوع فى سَلَّة، فيأ كُل منه ويُطْعِم من حضر، ثم يقول : هـذا يومٌ جديدٌ، من شهر جديد، من عامٍ جديد، يحتاج أن يجدّد فيه ما أَخْلَقَ من الزَّمان، وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأسُ لفضله على سائر الأعضاء . ثم يخلَع على وُجُوه دولته، ويصِلُهم ، ويفرّق عليهم ما وصل اليه من الهدايا .

وأما عوامّ الفرس فكانت عادتُهم فيه رفعَ النار فى ليلته، ورشَّ الماء فى صَبِيحته، ويزعمون أن إيقاد النِّيران فيه لتحليل العُفُونات التى أبقاها الشِّتاءُ فى الهواء . ويقال إنما فعلوا ذلك تنويها بذكره، وإشهارا لأمره . وقالوا فى رَشّ الماء : إنما هو بمنزلة الشُّهْرة لتطهير الأبدان مما انضاف اليها من دُخَان النار المُوقَدة فى ليلته .

وقال آخرون : إن سبب رش الماء فيه أن فَيْروز بن يزدجرد لما استتم سُورَجَىّ ، وهى أَصْبَهان القديمة لم تُمْطَر سبعَ سنين فى مُلْكه، ثم مُطِرت فى هذا اليوم ففرح الناسُ بالمطر وصَبُّوا من مائه على أبدانهم من شدّة فَرَحِهم به ، فصار ذلك سُنّة عندهم فى ذلك اليوم من كل عام، وما أَحلى قولَ بعضهم يخاطب مَنْ يهواه، ويذكر ما يُعتَمَد فى النيروز من شب النِّيران وصَبِّ الأمواه :

كَيْفَ ابتهاجُكَ بالنَّيْروز يا سَكَنِى * وكُلُّ ما فيه يَحْكِينِى وأَحْكِيه
فتارةً كلهيب النّارِ فى كَبِدِى * وتارةً كتَوَالِى عَبْرَتِى فيه
أَسْلَمْتَنِى فيه يا سُؤْلِى الى وَصَبٍ * فكَيْفَ تُهْدى الى مَنْ أنتَ تُهْدِيه

وأوّل من رسم هدايا النَّيْروز والمَهْرَجان فى الإسلام الحجاجُ بْنُ يوسفَ الثَّقفىّ، ثم رفع ذلك عمرُ بْنُ عبد العزيز رضى الله عنه ، واستمرّ المنعُ فيه الى أن فتح بابَ

الهديّة فيه أحمدُ بن يوسف الكاتبُ فانه أهدى فيه للمأمون سَفَطَ ذهبٍ فيه قِطعة عُودٍ هندىّ فى طُوله وعَرْضه ، وكتب معه : هذا يومٌ جرَتْ فيه العادة ، بإتحاف العبيد السادة ، وقد قلت

عَلى العَبْدِ حَقٌّ وهْو لاشَكَّ فاعِلُهْ * وإن عَظُم المَوْلى وجَلَّتْ فَواضِلُهْ

أَلَمْ تَرَنا نُهْدِى الى الله مالَهُ * وإنْ كان عَنْهُ ذا غِنًى فهو قابِلُهْ

فلَوْكان يُهْدى لِلجَليل بقَدْره * لَقَصَّرَ عَنْهُ البَحْرُ يَوْمًا وساحِلُهْ

ولكنّنا نُهْدِى الى مَنْ نُجِلُّهُ * وإنْ لم يَكُنْ فى وُسْعِنا ما يُشاكِلُه

وكتب سعيد بن حميد الى صديقٍ له يومَ نَيْروز : هذا يومٌ سَهَّلتْ فيه السنَّةُ للعبيد الإهداءَ للملوك ، فتَعَلَّقتْ كلُّ طائفةٍ من البر بحسَب القُدْرة والهِمَّة ، ولم أَجِد فيما أملِك ما يَفِى بحقِّك ، ووجدتُ تقريظَك أبلغَ فى أداء ما يجب لك ، ومن لم يُؤْتَ فى هَدِيَّته ، إلا من جِهَة قُدرته فلا طعنَ عليه .

هذا مايتعلق بنَيْروز الفُرْس من ذكر الهَدَايا فيه ، وإيقادِ النار ، ورشِّ الماء ، وأوّلِ من سنَّه . وأما تعلُّقه بالخراج فسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند الكلام على جِبَاية الخَراج فى فنِّ الدِّيْونة .

العيد الثانى من أعياد الفُرس المَهْرجانُ — وهو فى السادس والعشرين من تشرين الأوّل من شهور السُّرْيان ، وفى السادس عشر بن مَهْرماه من شهور الفُرْس ، وفى التاسع من أبيب من شُهور القبط ، وبينه وبين النيروز مائةٌ وسبعةٌ وستون يوما ، وهذا الأوانُ فى وسط زمانِ الخريف ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أُحِبُّ المَهْرَجانَ لأنّ فيه * سرورًا للْمُلوك ذَوِى السَّناءِ

وبابًا لِلّصِين الى أوانٍ * تُفَتَّحُ فيه أبوابُ السَّماءِ

ومدّته ستة أيام، ويُسمّى اليوم السادس منه المَهْرجان الأكبر، كما يُسمّى اليوم السادس من أيام النَّيْرُوز عندهم النَّيْروز الأكبر .

قال المسعودى : وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يُسمُّون شُهُورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك يسمّى مَهر يسير فيهم بالعُنْف والعَسْف فمات فى النصف من هذا الشهر، وهو مَهْرماه، فسمّى ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره نفس مهر ذهبت؛ والفُرْس تقدّم فى لغتها ما تؤخره العرب فى كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهى الفارسية الأولى وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حِفَاظ وجان الروح، وفى ذلك يقول عبيدُ الله بن عبد الله بن طاهر :

اذا ما تَحَقَّقَ بالمَهْرَجا * ن مَنْ لَيْس يَعْرِفُ مَعْناهُ غَاظا
ومَعْناهُ أن غَلَبَ الفُرْسُ فيه * فَسَمَّوْه للرُّوح فيه حِفَاظا

ويقال : إنما ظهر فى عهد افريدون الملك، ومعنى هذا الاسم إدْراكُ الثأر؛ وذلك أن افريدون أخذ بثار جدّه جم شاد من الضَّحَّاك، فانه كان أفسد دينَ المَجُوسيَّة وخرج على جم شاد فأخذ منه المُلْك وقتله؛ فلما غَلَبه افريدون قتله بجبل دُنْباوَنْدَ، وأعاد المجوسية الى ما كانت، فاتّخذ الفُرْسُ يوم قتْله عيدا، وسمّوه مَهْرجان، والمهر الوفاء، وجان سلطان، وكان معناه سلطان الوفاء .

وزعم بعضُ الفُرْس أن الضحّاك هو النُّمْرود وافريدون هو إبراهيم عليه السلام، بلغتهم .

ويقال إن المَهْرجان هو اليوم الذى عُقد فيه التاج على رأس اردشير بن بابك، أوّل ملوك الفُرْس الساسانيَّة . وكان مذهب الفرس فى المهرجان أن يَدَّهِن ملكُهم بدُهن البان تبرُّكا، وكذلك العوام، وأن يَلْبَس القصبَ والوَشْى، ويُتَوَّج بتاج عليه صورة الشمس وعجلتها الدائرة عليها، ويكون أوّل مَنْ يدخل اليه المُوبَذان بطبق فيه

أُتْرُجَّة، وقطعة سُكَّر، ونَبِقٌ، وسفَرْجل، وعُنَّاب، وتُفَّاح، وعنقودُ عِنَب أبيض، وسبع طاقات آس، قد زَمْزَم عليها؛ ثم تدخُل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك، وربما كانوا يذهبون الى تفضيله على النَّيْروز؛ وفيه يقول عبيدُ الله بن عبد الله بن طاهر.

أخَا الفُرْس إن الفُرْس تَعْلَمُ إنَّهُ * لَأَطْيَبُ منْ نَيْروزها مَهْرَجانُها
لإدبار أيَّامٍ يغُمُّ هـــواؤُها * و إقبـالِ أيَّامٍ يَسُرّ زَمَانُهـا

قال المسعودى : وأهل الْمُرُوءات بالعراق وغيرها من مُدُن العجم يجعلون هذا اليوم أوّلَ يوم من الشتاء فُيغَيِّرون فيه الفُرُش والالات، وكثيرا من الْمَلَابس .

العيد الثالث السَّذَق — ويسمّى أبان روز، ويعمل فى ليلة الحادى عَشَر من شهر بهمن ماه من شهور الفُرْس، وسُنَّتهم فيه إيقاد النِّيران بسائر الأدهان والوَلُوع بها حتّى إنهم يُلْقُون فيها سائر الحُبُوب؛ ويقال إن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن الأب الأوّل، وهو عندهم كيومرت لما كَمُل له من ولده مائةُ ولد زوّج الذكور بالإناث، وصنع لهم عُرْسا أكثر فيه وَقُود النيران، ووافق ذلك الليلةَ المذكورة فاستسنَّتْ ذلك الفرسُ بعده . وقد وَلِعت الشعراءُ بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرِّز يصف سَذَقا عمله السلطان ملكشاه بدَجْلة، أشعل فيه النِّيران والشموعَ فى السُّمَارِيَّات(١) من أبيات :

وكُلُّ نارٍ على العُشَّاق مُضْرَمَةٌ * من نارِ قَلْبِيَ أوْ منْ لَيْـلةِ السَّذَقِ
نارٌ تجلَّتْ بهـا الظَّلْمـاءُ واشتَبَهَتْ * بسُدْفة الليـــل فيهـا غُرَّةُ الفَلَقِ
وزارتِ الشمْسُ فيها البَدْرَ واصطَلَحا * على الكَوَاكِبِ بعْدَ الغَيْظِ والحَنَقِ
مَدّتْ على الأرض بُسْطًا من جَوَاهِرِها * ما بَيْنَ مُجْتمِع وارٍ ومُفْـــتَرِق
مِثْل المَصَـابِيحِ إلَّا أنَّهـا نَزَلَتْ * من السَّماءِ بلا رَجْمٍ ولا حَرَقِ

(١) كذا فى نهاية الأرب أيضا والأظهر السميريات وهو اسم لنوع من السفن .

أعْجِبْ بنارٍ ورضوانٌ يسعّرها * ومالكٌ قائمٌ منها على فَرَقِ
فى مجلس ضحكتْ روضُ الجنان له * لما جلا ثغره عن واضحٍ يَقَق

وقال ابن حجاج من أبيات، يمدح بها عَضُد الدولة :

لَيْلَتُنا حُسنُها عَجيبٌ * بالقَصْف والتِّيهِ قد تحقّقْ
لِنارها فى السّما لِسانٌ * عن نُور ضَوْءِ الصّباح ينطِقْ
والجوُّ منها قد صارَ جَمْرا * والنجمُ منها قد كاد يُحْرِقْ
ودِجْلةٌ أُضرمتْ حَريقًا * بألفِ نارٍ وألفِ زَوْرق
فماؤها كلُّه حميمٌ * قد فار مما غلى وبَقْبق

وقال عبد العزيز بن نُباتة من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لَعَمْرى لقد أذكى الهُمامُ بأرضه * مُشَهَّرةً ينتابُها الفخرُ صاليا
تَغيبُ النُّجومُ الزُّهْرُ عِنْدَ طُلُوعها * وتَحْسُدُ أيّامُ الشهورِ اللّياليا
قلادةُ مَجْدٍ أغفلَ الدَّهرُ نَظْمَها * عليه(١) وقد السِّنينَ الخَواليا
هىَ اللّيلةُ الغرّاء فى كُلِّ شَتْوةٍ * تُغادرُ جِيدَ الدَّهرِ أبْلَجَ حاليا

العيد الرابع الشركان — وهو فى الثالث عشر من تيرماه من شهور الفُرْس، زعموا أن أرس رمى سهمه لما وقعتِ المُصالحةُ بين منوجهر وفراسياب التركى من المملكة على رَمْية سهم، فامتدّ السهمُ من جبال طبرِسْتان الى أعالى طخارِستان .

العيد الخامس أيام الفرودجان — وهى خمسة أيام، أوّلها السادسُ والعشرون من أبان ماه من شهور الفُرْس، ومعناه تربيَة الرُّوح، لأنهم كانوا يعملون فيها أطعمةً وأشربةً لأرواح موتاهم، ويزعمون أنها تغتذى بها .

---

(١) كذا فى الأصل . ولعله وقد بذ الخ .

العيـد السادس رُكُوب الكَوْسَج — ويعمل فى أوّل يوم من ادرماه من شهور الفُرْس، وسُنّتهم فيه أن يركب فى كل بلد من بلادهم رجل كَوْسَج، قد أُعدّ لما يُصْنَع به بأكل الأطعمة الحارّة كالجَوْز، والثُّوم، واللَّحْم السمين ونحوها، وبشُرْب الشراب الصِّرف أيّاما قبل حلول الشهر، فإذا حلّ الشهر لبس غِلالة سابُورِيّة، وركب بقرة وأخذ على يده غرابا، ويَتْبَعه النـاس يصُبُّون عليه المـاء، ويَضْربونه بالثَّلْج، ويروِّحُون عليـه بالمَرَاوح، وهو يَصيح بالفارسية: كرم كرم أى الحَرّ الحَرّ، يفعل ذلك سبعةَ أيام، ومعه أو باش الناس ينهَبُون ما يجِدُون من الأمتعة فى الحوانيت؛ وللسلطان عليهم مال، فإذا وُجِدوا بعد عصر اليوم السابع ضُربوا وحُبِسوا.

قال المسعودى: ولا يُعْرَف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم؛ وأهـلُ الشام والجزيرة ومصرّ واليمن لا يعرفون ذلك. ويقال إن هذا الفِعْل كان يتداوله أهـلُ كل بيت منهـم كَوْسَجٌ، وحكى الزمخشرى فى كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك أن كَوْسَجا كان يَشْرَب فى هذه الأيام الدَّواء ويَطْلِى بدنه فيها فغَلَب عليها، وفى ذلك يقول الشاعر:

قَدْ رَكِبَ الكَوْسَجُ يا صَاحِ * فانْزِلْ على الزَّهْرة والرَّاحِ
وانْعَمْ بآدرماه عَيْشًا وخُذْ * مِن لَذَّة العيش بأفْيَاحِ

والسَّنَة عندهم منقسمة على أقسام، فى أوّل كل قسم منهـا خمسةُ أيام تسمّى الكنبهارات، زعم زرادشت أن فى كل يوم خلق الله تعـالى نوعا من الخليقة فهم يتخذونها أعيادا لذلك.

العيد السابع عيد بهمنجة — ويتخذونه فى يوم بهمن من شهر بهمن ماه، وسُنّتهم فيه أنهم يأكلون فيه البَهْمَن الأبيض باللَّبن الحامض على أنه ينفع الحفظ، ورؤسا،

خُراسانَ يعملون فيه الدّعوات على طعام يطبُخُون فيه كلَّ حبٍّ ما كولٍ ولحم حيوان يؤ كل، ويحضر ما يوجد فى ذلك الوقت من بقل أو نبات .

فهذه أعياد الفُرْس المشهورة الدائرة بين عامّتهم وخاصّتهم .

الجملة الثالثة

فى أعياد القبط

وآعلم أن أعياد القبط كثيرة، وقد أتينا على ذكر تفصيلها سردا فى خلال شهور القبط معذكر غيرها، وأوردنا كلَّ عيد منها فى يومه من شهور القبْط، وربما ذكرنا بعضها أيضا فىشهور السُّريان والروم، على أن منها مالا يتعلق بوقتٍ مقيدٍ كالفِصْح الأكبر عنـدهم، فإنه متعلق بفطْرهم من صومهـم الأكبر، وهو غير مؤقت بوقتٍ معينٍ، بل يتغير بالتقديم والتأخير قليلا على ما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى ، ونحن نقتصر فى هذا الفصـل على المشهور من أعيادهم دون غيره ، ونبين أوقاتها ، ونشرح أسبابها . وهى أربعة عشر عيدا . وهى على ضربين . كبار وصغار .

الضرب الأوّل

الكبار، وهى سـبعة

العيد الأوّل البِشارة، ويَعْنون به بِشارة غِبْريال، (وهو جبريل على زعمهم) لمريم عليها السـلام بميلاد عيسى صلواتُ الله عليه، يعْمَلُونه فى التاسع والعشرين من برمهات من شهور القبط .

الثانى الزّيْتونة، وهو عيد الشّعانين، وتفسيرُه بالعربيّة التّسْبيح، يعملونه فىسابع أحد من صومهم ؛ وسنَّتُهم فيه أن يُخْرِجوا بسَعَف النخل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح لليَعْفُور، (وهو الحمار) فى القُدْس ودُخولِه صهْيَوْن وهو راكب والناس يسبّحُون بين يديه، يأمر بالمعروف وينْهى عن المنكر

الثـالث الفِصْح ، وهو العيـد الكبير عندهم ، يعْمَلونه يوم الفطر من صومهم الأكبر ، يزعُمُون أن المسيح قام فيه بعْدَ الصَّلَبُوت بثـلاثة أيام ، وخَلَّص آدم من الجحيم ، وأقام فى الأرض أربعين يوما آخرهـا يوم الخميس ، ثم صَـعِد الى السماء . ﴿ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

الرابع خميس الأربعين ، ويسميه الشامِيُّون السُّلَّاق ، وهو الثانى والأربعون من الفِطْر ، يقولون إن المسيح عليه السلام تسَلَّق فيه من تلاميذه الى السماء بعد القيام ، ووعدهم بارسال الفارقليط ، وهو رُوح القُدُس عندهم .

الخامس عيد الخميس ، وهو عيد العُنْصُرة يعملونه بعد خمسين يوما من القيام ؛ وهو فى السادس والعشرين من بشنس ، ويقولون إن رُوحَ القُدُس حلَّتْ فى التلاميذ وتفرّقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة ، وذهب كلُّ واحد منهم الى بلاد لسانِه الذى تكلَّم به يدعوهم الى دين المسيح .

السادس الميلاد ، وهو اليوم الذى يقولون إن المسيح ولد فيه ببيتِ لَحْم (قرية من أعمال فِلَسْطين) ويعملونه فى التاسع والعشرين من كيهك من شهور القِبْط ، وهم يقولون إنه وُلد يوم الاثنين ، فيجعلون عشـيَّةَ الأحد ليلةَ الميلاد ، فيُوقِدون فيهـا المصابيحَ بالكنائس ويزيِّنُونها .

السابع الغِطَّاس ، يعملونه فى الحادى عشَرَ من طوبه ، من شهور القبط . يقولون إن يحيى بن زكريَّا عليه السلام ويَنْعَتُونه بالمعمدان غَسَل عيسى عليه السلام بِبُحَيْرة الأُرْدُنّ ، وأن عيسى لـما خرج من المـاء آتصل به روح القدس على هيئة حمامة ، والنصارى يغْمِسون أولادهم فيه فى المـاء على أنه يقع فى شدّة البرد ، إلا أنّ عقبـه يحمى الوقت ، يقول المصريون : غَطَّستم صيَّفتم ، ونَوْرَزْتُم شتَّيتم .

الضـــــرب الثـــانى

من أعياد القبط الأعياد الصِّغار ، وهى سبعة أيام

الأوّل الخِتان، ويعملونه فى سادس بشونة من شُهور القبطِ . ويقولون : إن المسيح خُتِن فى هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثانى الأربعون، يعملونه فى الثامن من شهر أمشير من شُهور القبط، ويقولون: إن سَمْعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه بعد أربعين يوما من ميلاده الهَيْكل وبارك عليه؛ تلك عقول أضلّها باريها، وإلا فأين مَقَامُ الكاهن من مَقام عيسى عليه السلام، وهو رُوح الله وكلمتُه .

الثالث خَميس العهد، يعملونه قبل الفِصْح بثلاثة أيام، وشأنهم أن يأخذوا إناء ويملئُوه ماء ويزمزموا عليه، ثم يغسل البطريرك به أرجل جميع النصارى الحاضرين، ويزعمون أنّ المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه فى هذا اليوم يعلّمهم التواضعَ . وأخذ عليهم العهد ألّا يتفرقوا وأن يتواضع بعضُهم لبعض، والعامّة من النصارى يُسمُّون هذا الخميس خميس العَدَس؛ وهم يطبخون فيه العَدَس على ألوانٍ .

الرابع سَبْت النُّور، وهو قبل الفِصْح بيوم . يقولون : إن النور يظهر على مقبُرَةِ المسيح فى هـذا اليوم فتشتعل منه مصابيحُ كَنِيَسةِ القُمامة بالقُـدْس . قال صاحب "مناهج الفكر" وغيره : وما ذاك إلا من تخييلاتهم النيرنجية التى يفعلها القِسّيسون منهم ليستميلُوا بها عقولَ عوامِّهم الضعيفةَ . وذلك أنهم يعلّقون القناديل فى بيت المَذْبَح ويتحيّلُون فى إيصال النار اليها بأن يمدّوا على جميعها شريطا من حديد فى غاية الدقة مدهونا بدُهْن البَلَسان ودهن الزنبق، فإذا صلّوْا وجاء وقتُ الزوال فتحُوا المَذْبَحَ فتدخل الناس اليه ، وقد اشتعلت فيه الشموعُ ويتوصّلُ بعضُ القوم الى أن يُعْلِق

النار بطَرَف الشريط الحديد فتسرى عليه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد ؛ إذ من طبيعة دُهْن البَلَسان عُلُوق النار فيـه بسُرْعة مع أدنى ملامسة ، فيظنّ مَنْ حضر من ذوى العُقول الناقصة أن النار نزلتْ من السماء فأوقدتِ القناديلَ ، فالحمد لله على الإسلام .

الخامس حدّ الحُدُود ، وهو بعد الفِصْح بثمانية أيام ؛ يعملونه أوّل أحدٍ بعـد الفطْر ، لأن الآحاد قبله مشغولةٌ بالصوم ؛ وفيه يجدّدون الآلات وأثَاث البُيوت ، ومنه يأخذون فى الاستعداد للعاملات والأمور الدُّنْيويّة .

السادس التجلّى ، ويعملونه فى الثالث عشر من مسرى من شهور القبط ، وآخره السابع والعشرون منها . يقولون : إن المسيح عليه السلام تجلّى لتلاميذه بعد أن رُفع فى هذا اليوم ، وتمنَّوْا عليه أن يُحْضِرَ لهم إيليا وموسى عليهما السلام ، فأحضرهما لهم بمصلّى بيت المَقْدس ثم صَعِدَ وصَعِدا .

السابع عيد الصَّليب ، وهو فى السابع عشر من توت من شهور القبط ، والنصارى يقولون ، إن قُسْطَنطين بن هيلانى انتقل عن اعتقاد اليونان الى اعتقاد النصرانية ، وبنى كنيسة قُسْطَنْطينية العظمى وسائر كنائس الشام ، ويزعمون أن سبب ذلك أنه كان مجاوراً للبُرْجان (١) فضاق بهم ذَرْعا من كثرة غاراتهم على بلاده فهمّ أن يصانعهم ويَفْرِض لهم عليه إتاوة فى كلّ عام ليكُفُّوا عنه ، فرأى ليلةً فى المنام أن ملائكةً نزلتْ من السماء ، ومعها أعلامٌ عليها صُلْبَان فحاربت البُرْجان فانهزمُوا ؛ فلمـا أصبح عمل أعلاما وصوّر فيها صُلْبانا ثم قاتل بهـا البُرْجان فهزمهم ، فسأل من كان فى بلده من التُّجّار هل يعرفون فيما طافوه من البلاد دينا هذا زِيُّه ؟ فقالوا له : دِينُ النصرانيّة ، وإنه فى بلد القُدْس والخليل من أرض الشـام . فأمر أهـل مملكته بالرُّجُوع عن دينهم اليه ، وأن يُقَصُّوا شعورَهم ويحلِقُوا لِحَاهم . وإنمـا فعل ذلك لأنهم يَزْعمون

(١) البرجان : جنس من الروم (قاموس) .

أن رُسُل عيسى عليه السلام كانوا قد وَرَدُوا على اليُونان قبلُ يأمرونهم بالتعبُّد بدين النصرانيــة فأعرضوا عنهم ومثّلوا بهم هذه المُثْلة نَكَالا لهم ففعلوا ذلك تأسِّيا بهم . ولمـا تنصّر قسطنطين خرجت أمّه هيلانى الى الشام فبنت به الكنائسَ ، وسارتْ الى بيت المَقْـدِس وطلبت الخشـبةَ التى زعمتِ النصارى أن المسيح صُلِب عليها فحُمِلتْ اليها فغشّتْها بالذهب ، واتخذت ذلك اليوم عيدا .

وسيأتى الكلام على ذلك مفصّـلا فى ترجمة قُسْطنطين فى خاتمة الكتاب عند ذكر الملوك الذين استَوْلَوْا على الديار المصرية ، وفيما ذكرنا هنا مَقْنع والله سـبحانه وتعـالى أعلم .

وقد صار من أعيادهم المشهورة بالديار المصرية النَّيْروز ، وهو أوّل يوم من سنتهم ؛ وإن لفظة النيروز فارسـية معرّبة ، وكأن القبط والله أعلم اتخذوا ذلك على طريقة الفُرْس واسـتعاروا اسمه منهـم فسمَّوْا اليوم الأوّل من سَنتِهم أيضا نَيْروزا وجعلوه عيدا .

قال فى "مناهج الفكر" وهم يظهرون فيه من الفَرَح والسرور ، وإيقاد النيران ، وصَبِّ الأمواه أضعافَ ما يفعله الفُرْس ، ويشاركهم فيه العوامُّ من المسلمين .

قال المسعودىّ : وأهل الشام يعملون مثلَ ذلك فى أوّل سنتهم أيضا ، وهو أوّل يوم من ينير من شهور الروم ويوافقه كانون الثانى ، وهو الشهر الرابع من شهور السُّرْيان ؛ وذلك فى السادس من طوبة من شهور القبط ، ويسمُّونه القلنـداس ، الا أن أهل مِصْرَ يزيدون فيه التَّصَافُع بالأنطاع ، وربمـا حملهم تركُ الاحتشام على أن يتجرءُوا على الرجل المُطَاع ؛ ولولا أنَّ وُلاة الأمر يَرْدَعُونهم ويمنعونهم من ذلك ، لمنعُوا الطريق من السالك ؛ وهم مع ذلك مَنْ ظَفِروا به لا يتركونه إلا بما يُرْضيهم . والذى استقرّ عليه الحال بالديار المصرية الى آخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة أنهم

يقتصرون على رَشّ الأمواه والتَّصافُع، وترك الاحتشـام دون إيقاد النيران، إلا من يفعل ذلك من النصارى فى بيته أو خاصّته .

ولهم أعياد ومواسمُ سوى ما تقدّم، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها على ترتيب شهور القبط، وهى :

عيد سيغورس ، وعيد مَتّى الإنجيلى، وهمـا فى الثانى من توت . عيد سَمْعان الحبيس؛ وهو فى الرابع من توت . عيــد ماما؛ وهو فى الخامس من توت . عيد شـعيا؛ وهو فى السادس من توت . عيــد ساويرس؛ وهو فى السابع من توت . عيد موسى النبىّ عليه السلام؛ وهو فى الثامن من توت . عيد تُوما التلميذ؛ وهو فى التاسع من توت . وخروج نُوح عليه السـلام من السفينة ، ومَوْلِد مَرْيَم عليها السـلام ، وهما فى العاشر من توت . عيــد باسيليوس، وهو فى الحادى عشَرَ من توت . عيد ميخائيل، وصوم جدْليا؛ وهما فى الثالث عشَرَ من توت . عيد سمعان الحبيس ، وعيد تادرس الشهيد؛ وهما فى الرابع عشر من توت . عيد اسقانوس؛ وهو فى الســادس عشر من توت . وصـوم كبور؛ وهو فى العشرين من توت ؛ ونياحة أبى جرج؛ وهى فى الثانى والعشرين من توت . عيد أولاد الفرس؛ وهو فى الثالث والعشرين من توت . عيد أليصابات؛ وهو فى السادس والعشرين من توت . عيــد اسطاتوا ، وانتقال يوحنا؛ وهمـا فى السابع والعشرين من توت . عيــد اجرويفون؛ وهو فى أوّل بابه . عيــد سوسنان؛ وهو فى الثانى من بابه . عيد يعقوب بن حلفا؛ وهو فى الخـامس من بابه . عيد أبو بولا؛ وهو فى السابع من بابه . عيد تُوما؛ وهو فى الثـامن من بابه . عيد أبى مسرجة؛ وهو فى العاشر من بابه . عيد يعقوب؛ وهو فى الحـادى عشر من بابه . وشهادة متّى؛ وهى فى الثـانى عشر من بابه . عيــد القُرات؛ وهو فى الثـالث عشر من بابه .

وشهادة يُوحَنّا ؛ وهى فى العشرين من بابه . وتذكار السيدة ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بابه . عيد لُوقا ؛ وهو فى الثانى والعشرين من بابه . عيد أبى جرج ؛ وهو فى الثالث والعشرين من بابه . ودخول السيدة الهيكل ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بابه . عيد يَعقوبَ و يُوسفَ ؛ وهو فى السادس والعشرين من بابه . عيد أبى مقار ؛ وهو فى السابع والعشرين من بابه . عيد مُرْقُص ؛ وهو فى آخر يوم من بابه . عيد بُطْرُس البطرك ؛ وهو فى أول يوم من هاتور . عيد زَكَرِيّا ؛ وهو فى الرابع من هاتور . واجتماع التلاميذ ؛ وهو فى السادس من هاتور . وتكريز أبى جرج ؛ وهو فى السابع من هاتور . وعيد الأربع حيوانات ؛ وهو فى الثامن من هاتور . وتذكار الثلثمائة وثمانية عشر ؛ وهو فى التاسع من هاتور . ونِياحة إسحاق ؛ وهو فى العاشر من هاتور . عيد ميكائيل ؛ وهو فى الثانى عشر من هاتور . وشهادة أبى مينا ؛ وهو فى الخامس عشر من هاتور . عيد فيلبس الرسول ؛ وهو فى التاسع عشر من هاتور . عيد أساسياس ؛ وهو فى العشرين من هاتور . عيد شَمْعون ؛ وهو فى الحادى والعشرين من هاتور . تذكار الشهداء ؛ وهو فى الثانى والعشرين من هاتور . عيد مركوريوس ؛ وهو فى الرابع والعشرين من هاتور . عيد أبى مقورة ؛ وهو فى الخامس والعشرين من هاتور . عيد ادفيانيوس ؛ وهو فى السادس والعشرين من هاتور . عيد يعقوب المُقَطَّع ؛ وهو فى السابع والعشرين من هاتور . عيد ياهور ؛ وهو فى الثانى من كيهك . عيد اندراس ؛ وهو فى الرابع من كيهك . عيد سيورس ؛ وهو فى الخامس من كيهك . عيد بزباره ؛ وهو فى السابع من كيهك . عيد أيامين ؛ وهو فى الثامن من كيهك . عيد مارى نُقُولا ؛ وهو فى العاشر من كيهك . عيد سَمْعان ؛ وهو فى الرابع عشر من كيهك ونِياحة يوحنا ؛ وهى فى السادس عشر من كيهك ؛ وصوم الميلاد ؛ وهو

فى الثالث والعشرين من كيهك . وقتل الأطفال؛ وهو فى الثالث من طوبه . عيد يُوحَنَّا الإنجيلى؛ وهو فى الرابع من طوبه . وعيد توما؛ وهو فى السابع من طوبه . عيد الخِتَان؛ وهو فى الثامن من طوبه . عيد إبراهيم؛ وهو فى التاسع من طوبه . وصوم الغطاس؛ وأوّله العاشر من طوبه . وصوم العذارى ؛ وهو فى الثالث عشر من طوبه . عيد ملسوس؛ وهو فى الرابع عشر من طوبه . عيد غاريوس، وهو فى الخامس عشر من طوبه . عيد قيلانوس ؛ وهو فى السادس عشر من طوبه . عيد يوحنس؛ وهو فى التاسع عشر من طوبه. ونزول الإنجيل، وتذكار السيدة؛ وهما فى العشرين من طوبه . وصوم نينوى؛ وهو فى الحادى والعشرين من طوبه. ومقتل يحيى؛ وهو فى الرابع والعشرين من طوبه. عيد أبى بشارة؛ وهو فى الخامس والعشرين من طوبه . عيـد الشهداء ؛ وهو فى السادس والعشرين من طوبه . عيـد طيارس الرســول ؛ وهو فى السابع والعشرين من طوبه ؛ وآخر نيـاحة نقولا؛ وهو فى اليوم الآخر من طوبه . عيد العذارى، وعيــد يهوذا ؛ وهما فى الأوّل من أمشير. عيد مقار؛ وهو فى الثانى من أمشير. ونياحة تيادرس؛ وهو فى السادس من أمشــير. ونياحة برصوما ؛ وهو فى التاسع من أمشير. عيــد بيطن، وشهادة يعقوب؛ وهما فى العاشر من أمشير. عيد أبى مسرجة ؛ وهو فى الرابع عشر من أمشير. عيد قلانوس؛ وهو فى السادس عشر من أمشير. عيد يعقوب الرسول ؛ وهو فى السابع عشر من أمشير، عيد بطرس الشهيد؛ وهو فى التاسع عشر من أمشير. ونزول السيدة من الجبل؛ وهو فى الحادى والعشرين من أمشير. وشهادة سدرس؛ وهو فى السادس والعشرين من أمشير. ووجود رأس يوحنا؛ وهو فى اليوم الآخر من أمشــير. عيد الجلبانة؛ وهو فى الثالث من شهر برمهات . عيــد أرمانوس ؛ وهو فى السابع من برمهات . عيــد المعمودة؛ وهو فى التــاسع من برمهات . وظهور

الصليب؛ وهو فى العاشر من برمهات . عيد أبى مينا؛ وهو فى الحادى عشر من برمهات . عيد ميلانحى؛ وهو فى الثانى عشر من برمهات . عيد إلياس الشهيد ؛ وهو فى السابع عشر من برمهات . ونياحة بولص ؛ وهى فى الثانى والعشرين من برمهات . عيد العازر؛ وهو فى الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين ؛ وهو فى الرابع والعشرين من برمهات . عيد المرسونة، وهو فى الخامس والعشرين من برمهات . وغسل الأرجل ؛ وهو فى الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة الصلبوت ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلى ؛ وهو فى اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطرك؛ وهو فى الثانى من برموده . عيد حزقيال النجيب؛ وهو فى الخامس من برموده . عيد مرقص ؛ وهو فى السابع من برموده . والأخذ بالجديد؛ وهو فى الثامن من برموده . عيد يوحنا الأسقُفّ؛ وهو فى الحادى عشر من برموده . عيد جرجس؛ وهو فى الثالث عشر من برموده . عيد أبى مَتّى؛ وهو فى السادس عشر من برموده . عيد يعقوب، عيد سنوطه، وهما فى التاسع عشر من برموده . وذكران الشهداء ؛ وهو فى الحادى والعشرين من برموده . عيدساويرس؛ وهو فى السادس والعشرين من برموده . عيد أبى نيطس؛ وهو فى السابع والعشرين من برموده . عيد أصحاب الكهف؛ وهو فى التاسع والعشرين من برموده . عيد مرقص الإنجيلى، وهو فى اليوم الآخر من برموده . عيد تيادرس؛ وهو فى الثانى من بشنس . عيد شمعون؛ وهو فى الثالث من بشنس . عيد الخندس؛ وهو فى الرابع من بشنس . ونياحة يعقوب؛ وهو فى السابع من بشنس . عيد دفرى سوه؛ وهو فى السادس من بشنس . عيد أساسياس ؛ وهو فى السابع من بشنس . وصعود المسيح عندهم فى الثامن من بشنس . عيد دير القصير ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بشنس . ونزول السيد الى مصر؛ وهو فى الرابع والعشرين

من بشنس . عيد سوس ؛ وهو فى الخامس والعشرين من بشنس . عيد توما التلميذ ؛ وهو فى السادس والعشرين من بشنس . عيد سمعون العجاس ؛ وهو فى السابع والعشرين من بشنس . عيد طيارس ؛ وهو فى التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشا ؛ وهو فى اليوم الآخر من بشنس . عيد أبى مقار؛ وهو فى الثانى من بشونه . ووجود عظام لوقا؛ وهو فى الثالث من بشونه . عيد توما ، وعيد مامور؛ وهما فى الرابع من بشونه . عيد يوحنا ، ونزول صحف ابراهيم (عليه السلام)؛ وهما فى التاسع من بشونه . عيد أبى مينا؛ وهو فى الخامس عشر من بشونه . عيد أبى مقار، وهو فى السادس عشر من بشونه . عيد السيدة؛ وهو فى الحادى والعشرين من بشونه. عيد اتريب وهو فى الثالث والعشرين من بشونه. عيد أبى مينا ، وهو فى ... ...[1] والعشرين من بشونه ؛ وتذكار تيادرس ؛ وهو فى أول أبيب . ونياحة بولص؛ وهو فى الثانى من أبيب والثالث منه أيضا . وعيد المعينة؛ وعيد القيصرية؛ وهما فى الخامس من أبيب . وعيد أبى سنوبة ؛ وهو فى السابع من أبيب . وعيد اسنباط ؛ وهو فى الثامن من أبيب . وشهادة هارون؛ وعيد سمعان؛ وهما فى التاسع من أبيب . وعيد تادرس نطيره ؛ وهو فى العاشر من أبيب . وعيد أبى هور ؛ وهو فى الثانى عشر من أبيب . وعيد أبى مقار ؛ وهو فى الرابع عشر من أبيب . وعيد اقدام السريانى؛ وهو فى الخامس عشر من أبيب. وعيد يوحنا وذكريا ؛ وهو فى السادس عشر من أبيب . وعيد يعقوب التلميذ ؛ وهو فى السابع عشر من أبيب . وعيد بولاق، وهو فى التاسع عشر من أبيب . وعيد تادرس الشهيد، وهو فى العشرين من أبيب . وعيد السيدة، وعيد ميخائيل ؛ وهما فى الحادى والعشرين من أبيب . وعيد سمعان البطرك ، وعيد شنوده؛ وهما

(١) بياض بالأصل .

فى الثالث والعشرين من أبيب . وعيد سمنود، وهو فى الرابع والعشرين من أبيب . وعيد مرقوريوص ، وهو فى الخامس والعشرين من أبيب . وعيد حزقيل النبى عليه السلام، وهو فى السابع والعشرين من أبيب . ورفعة إدريس عليه السلام، وعيد مريم، وهما فى الثامن والعشرين من أبيب . وحرم السيد، وهو فى اليوم الآخر من أبيب . وعيد الخندق، وهو فى اليوم الأوّل من مسرى . وعيد أبى مينا، وهو فى اليوم الثانى من مسرى . وعيد سمعان المعمودى، وهو فى الثالث من مسرى . ودخول نوح السفينة،وهو فى الثامن من مسرى . وعيد طورسينا، وعيد السيدة، وهما فى التاسع من مسرى . وعيد اللباس، وهو فى العاشر من مسرى . وشهادة أنطونيوس، وعيد العدوية، وهو فى الخامس عشر من مسرى . وعيد يعقوب الشهيد، وهو فى السابع عشر من مسرى . وعيد أبى مقار،وهو فى الثامن عشر من مسرى . وعيد اليَسَع ،وهو فى التاسع عشر من مسرى . وعيد أصحاب الكهف، وهو فى العشرين من مسرى . وصوم الأربعين، وهو فى الحادى والعشرين من مسرى . وعيد الجوزة بدَمَشْق، وهو فى الثالث والعشرين من مسرى . وعيد صوفيل، وهو فى السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم وإسحاق، وهو فى الثامن والعشرين من مسرى . وعيد موسى الشهيد، وشهادة يوحنا، وهو فى اليوم الآخر من مسرى .

الجمـــــلة الرابعة

فى أعياد اليهود، وهى على ضربين

الضرب الأوّل

ما نطقت به التوراة بزعمهم، وهى خمسة أعياد

العيد الأوّل — رأس السنة، يعملونه عند رأس سنتهم ويسمّونه عيد رأس هيشا أى عيد رأس الشهر، وهو أوّل يوم من تشرى يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا، ويقولون : إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السـلام بِذَبْح إسمـاعيل ابنه فيه وفَدَاه بِذِبْح عظيم .

العيد الثانى — عيـد صوماريا ويسمونه الكبور، وهو عندهم الصوم العظيم الذى يقولون : إن الله تعالى فرض عليهم صومه، ومن لم يصمه قُتِل عندهم. ومدّة هـذا الصوم خمس وعشرون ساعة يُبْدأ فيها قبـل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرى، وتختم بمضىّ ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر، وربما سَمَّوْه العاشور . ويُشْـترط فيه لجواز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عنـد الإفطار وهى عندهم تمـام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السـلام . ولا يجوز أن يقع هـذا الصوم عندهم فى يوم الأحد، ولا فى يوم الثـلاثاء، ولا فى يوم الجمعة؛ ويزعمون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ماخلا الزنا بالمحصَنة، وظلمَ الرجل أخاه، وجحده ربوبية الله تعالى .

العيد الثالث — عيد المِظَلَّة، وهو سبعة أيام أوّلهـا الخامس عشر من تشرى. وكلها أعياد عندهم، واليوم الآخر منها يسمّى عرايا أى شجر الخلاف، وهو أيضا حج لهم، يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلَال من جريد النخل وأغصان الزَّيْتون

والخلاف، وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقُه على الأرض؛ ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله إياهم فى التيه بالغمام .

العيد الرابع — عيد الفَطِير ويسمُّونه الفِصْح، ويكون فى الخامس عشر من نَيْسانَ؛ وهو سبعة أيام أيضا، يأكلون فيها الفطير، ويُنَظِّفون بيوتهم فيها من خبز الخمير لأن هذه الأيامَ عندهم هى الأيامُ التى خلَّص الله فيها بنى اسرائيل من يدِ فرعون وأغرقه، فخرجوا الى التيه، فجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفَطِير وهم بذلك فرحون، وفى أحد هذه الأيام غرق فرعون

العيد الخامس — عيد الأسابيع، ويسمَّى عيد العُنْصرة وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع؛ وآتخاذهم لهذا العيد فى السادس من سيوان من شهور اليهود، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القِبْط . يقولون : إنه اليوم الذى خاطب الله فيه بنى إسرائيل من طُورسينا، وفى جملة هذا الخطاب العشر كلمات، وهى وصايا تضمنت أمرا ونهيا، وضمنت التوفيق لمن حصَّلها حفظا ورعيا، وهو حج من حجوجهم؛ وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع، والفطير، والمِظَلَّة؛ وهم يعظمونه، ويأكلون فيه القطائف، ويتفننون فى عملها، ويجعلونها بدلا عن المنّ الذى أنزل الله عليهم فى هذا اليوم، ويسمَّى هذا العيد أيضا عشرتا، ومعناه الآجتماع .

الضرب الثانى

ما أحدثه اليهود زيادة على ما زعموا أن التوراة نطقت به، وهو عيدان

العيد الأوّل — الفوز، وهو عندهم عيد سرور ولهْو وخَلاَعة يُهْدِى فيه بعضُهم الى بعض؛ وهم يقولون : إن سبب آتخاذهم له أن بختنصر لما أجلى مَنْ كان ببيت المَقْدس من اليهود الى عراق العجم أسكنهم بجَىّ، وهى إحدى مدينتى أصفهان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكت الفرس الأولى والأخيرة، فلما ملك أردشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس ، وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون، ولليهود يومئذ حَبْرٌ يسمّى بلغتهم مردوخاى ، فبلغ أردشير أن له ابنة عمّ من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا، فطلب تزويجها منه فأجابه لذلك، فحَظِيت عنده حُظْوة صار بها مردوخاى قريبا منه، فأراد هيمون إصغاره واحتقاره حسدا له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التى فى جميع مملكة أردشير، فرتب مع نوّاب الملك فى جميع الأعمال أن يقتلَ كلُّ أحد منهم من يعلمه من اليهود ، وعين له يوما وهو النصف من آذار، وإنما خَصّ هذا اليوم دون سائر الأيام لأن اليهود يزعمون أنّ موسى ولد فيه وتُوُفِّى فيه ، وأراد بذلك المبالغة فى نِكَايتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وبموت موسى، فاتضح لمردوخاى ذلك من بعض بِطَانة هيمون، فأرسل إلى ابنة عمه يُعْلِمها بما عزم عليه هيمون فى أمر اليهود، وسألها إعلام الملك بذلك، وحضّها على إعمال الحيلة فى خلاص نفسها وخلاص قومها، فأعلمت الملك بالحال وذكرت له : إنما حمله على ذلك الحسد على قُرْبنا منك ونصيحتنا لك، فأمر بقتل هيمون وقتلِ أهله ، وأن يكتب لليهود بالأمان والبِرّ والإحسان فى ذلك اليوم ، فاتخذوه عيدا . واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام؛ وفى هذا العيد يصوّرون من الورق صورة هيمون ويملئون بطنها نخالة ومِلْحا ويلقونها فى النار حتّى تحترق ، يخدعون بذلك صِبْيانهم .

العيد الثانى، عيد الحنكة، وهو ثمانية أيام، يوقدون فى الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا، وفى الليلة الثانية سراجين، وهكذا إلى أن يكون فى الليلة الثامنة ثمانيةُ سُرُج . وهم يذكرون أن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلّب على بيت المقدس وقتَل باليهود وافتضّ أبكارهم ، فوثب عليه

أوّلا كُهّانَهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم، وطلب اليهود زيتا لوَقُود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا وزّعوه على عدد ما يُوقِدونه من السُّرُج على أبوابهم فى كل ليلة الى تمـام ثمـان ليال فاتخذوا هذه الايام عيدا وسَمَّوْه الحنكة، ومعناه التنظيف لأنهم تَطَّفوا فيه الهيكلَ من أقذار شيعة الجبار، وبعضهم يسميه الربانىّ .

الجمـــلة الخـامسة

فى أعيـاد الصابئين

ومَدَار أعيادهم على الكواكب، وأعيادهم عند نزول الكواكب الخمسة المتحيِّرة وهى زُحَلُ، والمشـتَرِى، والمِرِّيخُ، والزُّهَرَةُ، وعُطَارِدٌ فى بيوت شَرَفها، وذلك أن من البروج ما يقوم لهذه الكواكب مَقَام قصر العز للملك، يشتهر فيه و يعلو و يشرُف، وفيها درجاتٌ معلومة يُنْسَب الشرف اليها، ومنها ما يخْمُلُ فيه ويفسُد حاله، ويكون ذلك أيضا فى درجات معلومة، تقابلُ درجاتُ الشرف به من البرج المقابل. ويسمى ذلك هُبُوطًا، فزُحَلُ شرفه فى إحدى وعشرين درجة من الميزان، ويهبِط فى مثلها من الحَمَل، والمشترِى يشرُف فى خمس عشرة درجةً من السَّرَطان، ويهبط فى مثلها من الجَدْيِ، والمرِّيخ يشرف فى ثمانَ عشرةَ درجة من الجَدْى، ويهبط فى مثلها من السَّرَطان، والزُّهَرة تشرُف فى تسع وعشرين درجة من الحُوت، وتهبط فى مثلها من السُّنْبلة، وعُطَارِدٌ شرفُه فى خمسَ عشرةَ درجة من السنبلة، ويهبط فى مثلها من الحوت، وكذلك الشمس تشرُف فى تسعَ عشرةَ درجة من الحَمَلِ، وتهبط فى مثلها من الميزان، والقمر يشرُف فى ثلاث درجات من السنبلة، ويهبط فى مثلها من الحوت . وهم يعظمون اليوم الذى تنزل الشمس فيـه الحَمَلَ، ويلْبَسون فيه أفخر ثيابهم . وهو عندهم من أعظم الأعياد . وكانت ملوكهم تَبْنِى الهيا كل وتجعل لهـا أعيادا بحسَب الكواكب التى بُنِيت على اسمها فيه .

البـاب الثـانى

من المقـــــالة الأولى

فيما يحتاج اليـه الكاتب من الأمور العملية وهو الخط وتوابعه ولواحقه ؛

وفيه فصـــلان

الفصـــل الأوّل

فى ذكر آلات الخط، ومباديه وصوره، وأشكاله، وما ينخرط فى سلك ذلك ؛

وفيه ثلاثة أطـــراف

الطـــرف الأوّل

فى الدّواة وآلاتها ؛ وفيه مقصدان

المقصـــد الأوّل

فى نفس الدّواة، وفيه أربع جمل

الجمـــلة الأولى

فى فضـــلها

قد أخرج ابن أبى حاتم من رواية أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "خَلَق اللهُ النُّونَ وهى الدّواة" وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : "لَمَّا خلق اللهُ النُّونَ وهى الدّواة وخَلَق القَلَمَ فقال اكْتُبْ فقال وما أَكْتُبُ قال اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة" . وهذا الخبر والأثر دالّان على أن المراد بالنون فى الآية هو الدّواة، وإن فسره بعضهم بغير ذلك . إذ الدواة هي المناسبة فى الذّكر لذكر القلم وتسطير الكتابة فى قوله تعالى :

﴿نٓ وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . و بالجملة فان الدواة هى أُمُّ آلات الكتابة ، وسِمْطُها الجامعُ لها . ولا يخفى ما يجب من الاهتمام بأمرها ، والاحتفال بشأنها ؛ فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ خَرَج مَنْ بيته بغير مِحْبَرة وأداةٍ فقد عَزَم على الصَّدَقة" . قال المدائنى : يعنى بالأداة مثلَ السِّكِّين والمِقْلَمة ، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن سابور : مَثَل الكاتب بغير دَوَاة كمَثَل مَنْ يسير الى الهيجاء بغير سلاح .

الجملة الثانية

فى أصلها فى اللغة

قال أبو القاسم بن عبد العزيز : تقول العرب : دَوَاة ودَوَيات فى أدنى العدد ، وفى الكثير دُوىٌّ ودِوِىٌّ (بضم الدال وكسرها) و يقال أيضا دُوَاء ، ودِوَاء (بضم الدال وكسرها) ودَوَايَا مثل حَوَايَا ، وأدْوَيت دَوَاة أى اتخذت دَواة ؛ و رجل دوّاء (بفتح الدال وتشديد الواو) اذا كان يبيعها ، كقولك عَطّار و بَزّاز .

الجملة الثالثة

فيما ينبغى أن تتخذ منه ، وما تحلّى به

أمّا ما تتخذ منه فينبغى أن تُتّخذ من أجود العِيدَان وأرفعها ثمنا كالآبَنُوس ، والسَّاسَم ، والصَّنْدَل ، وهذا اعتماد منه على ما كان يعتاده أهلُ زمانه ، و يتعاناه أهلُ عصره .

قلت : وقد غلب على الكُتّاب فى زماننا من أهل الإنشاء وكُتّاب الأموال اتخاذُ الدُّوِىِّ من النُّحاس الأصفر ، والفُولاذ ، وتغالَوْا فى أثمانها وبالغُوا فى تحسينها . والنُّحاس أكثر استعمالا ، والفُولاذ أقلّ لعزّته ونَفَاسته ، واختصاصه بأعلى درجات الرياسة كالوزارة وما ضاهاها .

وأمّا دُوِىُّ الخشب فقد رُفِضت وتركت إلا الآبنُوس والصَّنْدل الأحمر، فإنه يتعاناه فى زماننا قضاةُ الحكم ومُوَقّعوهم و بعض شهود الدواوين .

وأمّا التحلية ، فقال الحسن بن وهب : سبيل الدَّواة أن يكون عليها من الحِلْيةِ أخفُّ ما يكون و يمكن أن تُحَلّى به الدُّوِىُّ ، فى وَثَاقةٍ ولُطْفٍ ، ليأمن من أن تتكسر أو تتقصم فى مجلســه ، قال : وحق الحليــة أن تكون سَاذَجَةً بغير حُفَرٍ ولا ثَنِيَات فيها ليأمن من مسارعة القــذَى والدَّنَس اليها ، ولا يكون عليها نقشٌ ولا صُورة . وحقُّ هــذه الحِلْيَة مع ما ذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون الفضّة والذهب . على أن بعض الكُتّاب فى زماننا قد اعتاد التحلية بالفضة ، ولا يخفى أنّ حكم ذلك حكم الضــبة فى الإناء فتحرم مع الكِبَرِ والزينة ؛ وتكره مع الصغر والزينة والكِبَر والحاجة ، وتباح مع الصغر والحاجة من كَسْر ونحوه ، كما قرّره أصحابنا الشافعية رحمهم الله ، نعم يحرم التكفيت بالذهب والفضة ، وكذلك التمويه اذا كان يحصل منه بالعرض على النار شيء والله أعلم .

الجمـــــلة الرابعة

فى قـــدرها وصـــفتها

قال الحسن بن وهب : سبيل الدواة أن تكون متوسطة فى قَدْرها ، لا بالقصيرة فتقصُر اقلامها وتقبُح ، ولا بالكثيفة فيثقل مَحْمَلُها وتُعجف . فلا بدّ لصاحبها أن يحملها و يضَعَها بين يدى مَلِكه أو أميره فى أوقات مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولّى ذلك غيره . قال الفضل : ويكون طولُهـا بمقدار عَظْم الذراع أو فُوَيْقَ ذلك قليلا لتكون مناسبة لمقدار القــلم . قلت : وقد اختلفَتْ مقاصد أهل الزمان فى هيئة الدواة : من التدوير والتربيع . فأما كُتّاب الإنشاء فانهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة

الرأسين، لطيفة القدّ، طلبا للخفّة، ولأنهم إنما يتعانون فى كتابتهم الدَّرْج، وهو غير لائق بالدواة فى الجملة . على أن الصغير من الدَّرْج لا يأبى جعله فى الدواة المدوّرة .
وأما كُتّاب الأموال، فانهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا، ليجعلوا فى باطن غطائها ما استخفوه مما يحتاجون اليه من وَرَق الحِسَاب الديوانىّ المناسب لهذه الدواة فى القطع . وعلى هذا الأنموذج يتخذ قضاة الحكم ومُوَقِّعوهم دُوِيَّهم، إلا أنها فى الغالب تكون من الخشب كما تقدّم .

واعلم أنه ينبغى للكاتب أن يجتهد فى تحسين الدواة وتجويدها وصونها . ولله المدائنى حيث يقول :

جوّد دَوَاتَكَ واجتهد فى صَوْنِها * إن الدُّوِىَّ خزائنُ الآداب

وأهدى أبو الطَّيِّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب الى صديق له دواة آبِنُوس مُحَلَّاة وكتب معها :

لم أرَ سَوْداءَ قبلَها ملَكَتْ * نَوَاظِرَ الخَلْقِ والقُلُوبَ مَعَا
لا الطُّولُ أزرى بِهَا ولا قِصَرٌ * لَكِنْ أتتْ للوُصولِ مجتمِعا
فَوْقَكَ جُنح من الظَّلام بها * وبارقٌ بائتلاقها لَمَعَا
خُذْهَا لِدُرٍّ بها تُنَظِّمُه * يَروقُ فى الحُسْن كلَّ مَنْ سمِعَا

أما المِحْبَرة المفرَدة عن الدواة فقد اختلف الناس فيها، فمنهم من رجَّحها ومالوا الى اتخاذها لِخِفَّة حَمْلها، وقالوا : بها يكتب القرآن والحديث والعلم . وكرهها بعضهم واستقبحها من حيث إنها آلة النسخ الذى هو من أشدّ الحِرَف وأتعبها، وأقلها مَكْسَبا .

ويروى أن شعبة رأى فى يد رجل مِحْبَرة، فقال : آرم بها فانها مشئومة لا يبقى معها أهل ولا ولد، ولا أمّ ولا أب .

الطـــرف الثانى

فى الآلات التى تشتمل عليها الدواة، وهى سبع عشرة آلة، أوّل كل آلة منها ميم

الآلة الأولى — المِزْبَرُ (بكسر الميم)، وهو القلم أخذا له من قولهم زَبَرت الكتاب إذا اتقنتَ كتابته، ومنـه سميت الكُتُب زُبُراً كما فى قوله تعالى : ﴿ وَ إِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ وفى حديث أبى بكر أنه دعا فى مرضه بدواة ومِزْبَرٍ أى قلم. وفيه جملتان،

الجمـــلة الأولى

فى فضـــله

عن الوليد بن عُبَادة بن الصامت رضى الله عنه قال : دعانى أبى حين حضره الموتُ فقال : إنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أوّلُ ما خَلَق الله القَلَمُ ، فقال : اكتُبْ، قال : يارَبِّ وما أكْتُب؟ قال : اكتبِ القـدَرَ وما هو كائنٌ الى الأَبَد" رواه أحمـد وأبو داود والتِّرمِذِىّ، وقال : حسن غريب ، وابن أبى حاتم واللفظ له . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه "إن أول ما خَلَق اللهُ القـلَمُ والحُوتُ ، فقال له اكتُبْ، فقال : يارَبِّ وما أكْتُب ؟ قال : اكتُب كلَّ شىء كائن الى يوم القيامة" ثم قرأ ﴿ نٓ وَالقَـلَمِ ﴾ رواه الطبرانىّ ووقفـه ابن جرير على ابن عبَّاس . وفى رواية قال ابن عباس : "أول ما خلق اللهُ القَـلَمُ ، قال : اكتب، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب القَـدَر ، فجرى بمـا يكون من ذلك اليوم الى يوم قيام الساعة، ثم خلق النـون ورفع بُخار المـاء، فتفتَّقتْ منـه السماءُ وبُسِطت الأرضُ على ظهر النُّـون، فاضطرب النُّون ، فمـادَتِ الأرضُ، فأُثبِتَتْ بالجبال، فانها لتَفْخَر على الأرض لأنها أُثْبِتَتْ عليها" رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

وروى محمد بن عمر المدائنى بسنده الى مجاهد " إن أوّلَ ماخلق الله البراعُ، ثم خلَق من البَرَاع القَلَم ، فقال له : اكتُب ، قال : ما أكتُب ؟ قال : ما هو كائن، قال : فجرَى القلمُ بما هو كائن الى يوم القيامة " . وأخرج بسنده الى ابن عباس، قال : " أوّلُ ما خلَق اللهُ البراعُ : وهو القَصَب المُثقَّبُ، فقال : اكتُبْ قضائى فى خَلْقِى الى يوم القيامة " . ويروى أنه لما خلقه الله تعالى نظر اليه فانشَقّ بنصفين، ثم قال : اجْرِ قال : يارب بما أجرى ؟ قال : بما هو كائن الى يوم القيامة، فجرى على اللوح المحفوظ بذلك، وكان منه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ . ويروى أنَّ خلقَه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألفَ سنة .

واعلم أن القلم أشرفُ آلات الكتابة وأعلاها رتبة، إذ هو المباشر للكتابة دون غيره، وغيرُه من آلات الكتابة كالأعوان، وقد قال الله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم به، وذلك فى غاية الشرف . ولله أبو الفتح البُسْتىُّ حيث يقول :

إذا أَقسَمَ الأبطالُ يوماً بِسَيفِهِمْ * وعَدُّوهُ مما يُكْسِبُ المجدَ والكَرَمْ
كفى قَلَمَ الكُتَّابِ عِزًّا ورِفْعَةً * مدَى الدَّهرِ أن اللهَ أقسمَ بِالقَلَم

وقال تعالى : ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ فأضاف التعليم بالقلم الى نفسه . قال ابن الهيثم : من جلالة القلم أن الله عز وجل لم يكتب كتابا إلا به، لذلك أقسم به . قال المدائنى : وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ قَلَمَ قَلَمًا يكتب به علما أعطاه الله شجرةً فى الجنة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها» . وقد قيل الأقلام مَطَايا الفِطَن، ورُسُل الكَرَم. وقال عبد الحميد : القلم شجرةٌ ثمرها الألفاظ، والفِكْرُ بحر لُؤْلُؤه الحِكْمة ، وفيه رِىُّ العُقُول الكامنة . وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصر يناجيه بما سُتِر عن الأسماع. وقال ابن المقفَّع : القلم بريد العلم يحث

على البصر، ويبحث عن خفىّ النظر (١)؛ وقال أحمد بن يوسـف : ما عَبَرات الغوانى فى خُدودهن بأحسَنَ من عَبَرات الأقلام . وقيل : القلم الطلسم الأكبر . وقيل : البيان اثنان : بيان لسان، وبيان بَنَان؛ ومن فضل بيان البَنَان أن ما تثبته الأقلام باقٍ على الأبد، وما يَنْبِسُه اللسان تدرسُه الأيام . ويقال : عقول الرجال تحت أسنَّة أقلامها ، بنوء الأقلام يَصُوب غيثُ الحكمة . وقال جعـفر بن يحيي : لم أر باكيًا أحسن تبسُّما من القلم .

قال ابن المعتز : القلم مجهِّز لجيوش الكلام، تخدُمه الإرادة، ولا يَمَلُّ من الاستزادة، كأنه يُقَبِّل بساط سُلْطان؛ أو يفتِّح نَوْرَ بُسْتَان .

ومن إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير الجزرى، من جواب كتبه للعماد الأصْـفَهانى : وكيف لا يكون ذلك ، وقلَمُها هـو اليراع الذى نفَثت الفصـاحة فى رُوعِه ، وكَمَنت الشجاعة بين ضُـلُوعه ، فاذا قال أراك كيف تُنَسَّـق الفرائد فى الأجيـاد .

ومن كلام أبى حفص بن برد الأندلسى : ما أعجبَ شأنَ القلم ! يشرب ظُلْمَةً، ويلْفِظ نُورا؛ قد يكون قلم الكاتب ، أمضى من شَبَاةِ المُحَارِب ؛ القـلم سهم ينْفُذ المَقَاتِل، وشَفْرَةٌ تَطِيح بها المفاصل . ومن كلام العميد : عمر بن عثمان الكاتب: قلم يُطلِقُ الآجالَ والأرزاق ، وينْفُث السّم والدِّرياق ؛ قلم تَدِق عن الإدراك حركاتُه، وتحلّى بالنفائس فتكاته؛ يُسرِع ولا انحدارَ السـيل الى قراره ، وانقداحَ الضوء من شراره، معطوفة الغايات على المبادى، مصروفة الأعجـاز إلى الهوادى؛ واذا صال أراك كيف اختلاف الرماح بين الآساد . وله خصائصُ أخرى يبدعها إبداعا، فإذا

(١) كذا بالأصل ولعلها الخبر

لم يأت بها غيره تَطَبُّعًا أتى بها هو طبعا، فَطَوْرًا يُرى إماما يُلْقِى درسا ، وطَوْرا يرى ماشطة تجلو عِرْسًا ، وطورا يُرى وَرْقَاءَ تصـدَحُ فى الأوراق، وطورا يرى جوادا مُخلَّقًا بخلوق السِّباق، وطورا أُفْعُوانا مطرقا، والعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق! ولطالمـا نَفَثَ سِحْرا، وجلب عِطْرا، وأدار فى القِرْطاس خمرا، وتصرَّف فى صنوف الغَنَاء فكان فى الفتح عُمَر، وفى الهَـدْي عَمَّارا، وفى الكيد عَمْرا، فلا تَحْظَى به دولة إلا نخرت على الدول، واستغنت عن الحِيل والحَوَل .

وقال الإسكندر : لولا القـلم ما قامت الدنيـا، ولا استقامت المملكة . وكُلُّ شيء تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان على كل شيء، والقلم يريكهما صورتين، ويوجدُكَهُما شكلين .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم، والسيف تحت القـلم . وقال آخر : فاقت صـنعة القلم عند سائر الأمم جمع الحكم فى صحون الكتب . وقال العتـابى : ببكاء القـلم تبسم الكتب . وقال البُحْتُرِىّ : الأقلام مَطَايا الفِطَن . وقال أبو دُلَف العِجْلِىّ : القلم صائغ الكلام، يفرغ ما يجمعه الفكر، ويصوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضمير، إذا رُعِفَ أعلن أسراره، وأبان آثاره . وقال ثمامة : ما أَثَّرته الأقلام لم تطمع فى دَرْسه الأيام، وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنيع القلم والخطّ الذى هو جَنَى العقول . وقال على بن منصور : بنور القلم تُضِيء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف النعمة فى بيـان اللسان كان بفضـل النعمة فى بيان القلم أعْرَف، وقال غيره : بالقلم تُزَفُّ بنـاتُ العقول الى خُدُور الكُتُب . وقال المأمون : لله درّ القلم كيف يحوك وَشْيَ المملكة . وقال بعض الأعراب : القلم ينهَضُ بمـا يَظْلَع بحمله اللّسان ، ويبلغ مالا يبلغه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعـل للكتب أَلْسُنا ناطقة، وأعيُنا مَلاحِظَة؛

وربما ضمنها من ودائع القلوب مالا تبوح به الإخوان عند المشاهدة . وقال أوميرس الحكيم : الخط شيء أظهره العقل بواسطة سن القلم ، فلما قابل النفس خشقته بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : الخط بالقلم يُنَمِّى الحكمة . وقال جالينوس : القلم الطلسم الأكبر . وقال بقراط : القلم على إيقاع الوتر (١) ، والمِهْنة المعطقية مقدّمة على المِهْنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طبيب المنطق . قال أرسطاطاليس : القلم العلّة الفاعلة ، والمداد العلة الهَيُولانيَّة ، والخط العلة الصُّورية ، والبلاغة العلّة التمامية . وقد أكثر الشعراء القول فى شرف القلم وفضله .

فمن ذلك قول أبى تمّام الطائىّ :

إن يَخْدُمِ القلمُ السَّيفَ الذى خَضَعَتْ * له الرِّقابُ وذَلَّتْ خَوْفَه الأمَمُ
فالمَوْتُ والموتُ لا شىءٌ يغالبه * ما زال يَتْبَعُ ما يجرى به القَلَمُ
كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيَتْ * أن السيوفَ لها مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

وقوله :

لك القلمُ الأعلى الذى بِشَباتِه * تُصَاب من الأمر الكُلَى والمفاصِلُ
لُعَابُ الأفاعِى القاتلاتِ لُعَابُهُ * وأَرْىُ الجَنَى اشتارته أيدٍ عَوَاسِلُ
له رِيقةٌ طَلٌّ ولكنّ وقْعَها * بآثاره فى الشَّرق والغرب وَابِلُ
فَصيح إذا استنطقته وهو راكب * وأعجمُ إن خاطَبْته وهو رَاجِلُ
إذا ما امتطى الخمسَ اللِّطافَ وأُفْرِغَتْ * عليه شِعَابُ الفِكْرِ وهى حَوَافِلُ
أطاعته أطرافُ القَنا وتقوّضت * لنَجْواه تقويضَ الخِيَام الجَحَافِلُ
إذا استغزر الذهنُ الجلىّ وأقبلت * أعاليه فى القِرْطاس وهى أَسَافِل

(١) ولعله مقدم على أو نحو ذلك .

وقد رَفَدَتْهُ الخنصرانِ وسدّدت * ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأناملُ
رأيتَ جليلًا شأنُه وهو مُرْهَف * ضَناً وسَميناً خطبُه وهو ناحلُ

وقول أبي هلال العسكري :

أُنظرْ الى قلمٍ يُنكّسُ رأسَه * ليَضُمَّ بين مُوَصَّل ومُفَصَّل
تَنْظُرْ الى مِخْلَابِ لَيْثٍ ضَيْغَمٍ * وغِرَارِ مسنون المَضارب مِفْصَل
يَبْدُو لناظره بلَوْنٍ أصفرٍ * ومَدَامِعٍ سُودٍ وجِسْمٍ مُنْحَل
فالدَّرْجُ أبيضُ مثلُ خدٍّ واضحٍ * يَثْنِيهِ أسودُ مثلُ طَرْفٍ أكحل
قَسَم العَطَايا والمَنَايا في الورى * فإذا نظرتَ إليه فاحذَرْ وأمِّلِ
طَعْمانِ شَوْبُ حلاوةٍ بمرارةٍ * كالدّهرِ يَخْلِطُ شَهْدَهُ بالحَنْظَل
فإذا تَصَرَّفَ في يديك عِنَانُه * ألحقتَ فيه مؤمّلا بمُؤمَّل
ومُذَلَّلا بمعزَّز ولربّما * ألحقتَ فيه معزَّزا بمذلَّل

وقوله :

لكَ القَلَمُ الجارى ببُؤْسٍ وأنْعُمٍ * فمنها بَوَادٍ تُرْتَجى وعوائدُ
إذا مَلأ القرطاسَ سُودُ سُطوره * فتلك أُسُودٌ تُتَّقى وأَسَاودُ
وتلك جِنَانٌ تُجْتَنى ثمراتُها * ويلقاك من أنفاسهنّ بَوَارِدُ
وهنّ بُرُودٌ ما لَهُنَّ مَنَاسِجٌ * وهنّ عقودٌ ما لهن مَعَاقِدُ
وهنّ حَيَاةٌ للوَلِيِّ رَضِيّةٌ * وهنّ حُتُوفٌ للعدوّ رَوَاصِدُ

الجمـــــلة الثـانية

فى اشـــتقاقه

وقد اختُلِف فى ذلك، فقيل : سمى قَلَمًـا لاستقامته كما سميت القِـدَاحُ أقلاما فى قوله تعـالى : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُـمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ قال بعض المفسرين تشاحُّوا فى كفالتها فضربوا عليها بالقداح، والقداح مما يضرب بها المَثَل فى الاستقامة، وقيـل : هو مأخوذ من القُلَّامِ وهو شجر رِخْوٌ فلما ضارعه القـلم فى الضعف سمى قلمـا، وقيل : سمى قلما لِقَلْمِ رأسـه ، فقد قيل إنه لا يسـمّى قلما حتّى يُبْرى ، أما قبل ذلك فهو قَصَبة . كما لا يسمّى الرمح رُمْحا إلا إذا كان عليه سِـنَانٌ وإلا فهو قَنَاة . ومنه قُلَامة الظفر، والى ذلك يشير أبو الطِّيِّب الأزدىّ بقوله :

قَـلَمٌ قَـلَّمَ أظفـارَ العِـدا * وهو كالإصبع مقصوصُ الظُّفُرْ

أَشْـبَهَ الحَيَّـةَ حتّى إنه * كُلَّمـا عَمَّـرَ فى الأيدى قَصُرْ

وقيل لأعرابىّ : ما القلم؟ ففكّر ساعة وقلب يده، ثم قال : لا أدرى، فقيل له : توهمه ، قال : هو عود قُلِّمَ من جوانبه كتقليم الظُّفُر، فسمى قلما .

الجمـــــلة الثـالثة

فى صـــفته

قال ابراهيم بن العباس لغـــلام بين يديه يعلمه الخطّ : ليكن قلمك صُـلْبًا بين الدِّقة والغِلَظ، ولا تَبْره عند عُقْدة فإن فيه تعقيد الأمور ، ولا تكتب بقلم ملتوى، ولا ذى شَقٍّ غير مستوى، وإن أعوزك البحرىّ والفارسىّ ، واضطررت الى الأقلام النبطية فاختر منها ما يميل الى السُّمْرة .

وقال إبراهيم بن محمد الشيبانى : ينبغى للكاتب أن يتخيَّر من أنابيب القصب أقلَّه عُقَدا، وأكثفه لحما، وأصلبه قِشْرا، وأعدله آستواء . وقال العتابى : سألنى الأصْمعىُّ يوما بدار الرشيد : أىّ الأنابيب للكتابة أصلَحُ وعليها أصبر؟ فقلت : مانَشِف بالهجير ماؤه، وستره من تلويحه غِشَاؤه؛ من التِّبْرِيَّة القشور، الدُّرِّيَّة الظهور، الفِضية الكُسُور .

وكتب علىّ بن الأزهر الى صديق له يستدعى منه أقلاما :

أما بعدُ، فإنا على طول الممارسة لهذه الكتابة التى غلبت على الآسم، ولزمت لزوم الوَسْم ، فحلَّت محل الأنساب ، وجَرتْ مجرى الألقاب ، وجدنا الأقلام الصخريَّة أجرى فى الكَوَاغد، وأمرّ فى الجلود؛ كما أن البحريَّة منها أَسْلَس فى القراطيس، وألين فى المعاطف، وأشدّ لتصرُّف الخط فيها ؛ ونحن فى بلد قليل القصب رديئه ، وقد أحببت أن نتقدّم فى آختيار أقلام صخرية، وننتوق (1) فى آقتنائها قِبَلك ، وتطلبها من مظانِّها ومنابتها، من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم؛ وأن تتيمن (2) باختيارك منها الشديدة الصُّلبة، النقيَّة الجلود، القليلة الشحوم، الكثيرة اللحوم، الضيِّقة الأجواف، الرزينة المَحْمَل، فإنها أبقى على الكتابة، وأبعد من الحَفَاء . وأن تقصد بانتقائك الرقاق القُضْبان ، المقوّمات المتون، المُلْس المعاقد، الصافية القشور، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القَوَام ، المستحكمة يُبْسًا، وهى قائمة على أصولها لم تُعْجَل عن إبَّان يَنْعِها، ولم تؤخَّر الى الأوقات المخوفة عليها من خَصَر الشتاء، وعفَن الأنداء ، فإذا آستجمعت عندك ، أمرت بقطعها

(١) فى العقد الفريد : نتأنق وهو بمعناه . قال ذو الرمة .

كان عليها سحق لفق تنوقت * به حضرميات الأكف الحوائك

(٢) فى العقد الفريد : تتيمم .

ذراعا [ذراعا][(١)] قطْعا رفيقا ، ثم عبّأت منهــا حُزَما فيما يصُونها من الأوعية[(٢)]، وتكتب معه بعدّتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان .

وأهدى ابن الحرون الى رجل من إخوانه الكُتّاب أقلاما، وكتب اليه :.

إنه لمـا كانت الكتابة (أبقـاك الله) أعظمَ الأمور، وقِوام الخلافــة ، وعمود المملكة، أتحفتك من آلتها بمـا يخف محْمَله ، وتثقل قيمتُه، ويعظم نفعــه، ويجلُّ خَطَره، وهى أقلام من القصب النابت فى الصخر، الذى نَشِف بحز الهجير فى قشره ماؤه، وستره من تلويحه غشاؤه ، وهى كاللآلئ المكنونة فى الصّدف، والأنوار المحجوبة فى السّــدَف، تبْريّةُ القشور ، دُرّيّةُ الظهور ، فضّيّةُ الكسور، قد كستها الطبيعــة جوهرا كالوَشْيِ المُحَبّر، ورونقا كالديباج المنيّر .

ومن كتاب لأبى الخطاب الصابئ يصف فيه أقلاما أهداها فى جملة أصناف:
وأضفتُ اليها أقلاما سليمةً من المعايب ، مُبَرّأة من المثالب، جمّة المحاسن ، بعيــدةً عن المطاعن ، لم يربهـا طُول ولا قصر، ولا ينقصها ضَعْف خَوَر ، ولا يَشِينها لين ولا رخاوة ، ولم يَعِبْها كَزازة ولا قساوة ، وهى آخذة بالفضائل من جميع جهاتهـا ، مستوفِيَة للمَمَادح بسـائر صفاتها ، صُلْبــة المَعَاجم ، لَدْلة[(٣)] المقاطع ، موفيــة القدود والألوان، محمودة المَخْبَرِ والعِيَان، وقد استوى فى المَلاسة خارجها وداخلها، وتناسب فى السّلاسة عاليها وسافلُها، نبتت بين الشمس والظل ، واختلف عليها الحرّ والقرّ ، فلفَحَها وَقَدَانُ الهَوَاجر، ولفَعَها سَمَـائِم شهر ناجر، ووقذها الشّفّان بصَرَده ، وقذفها الغمام بَبَرَده، وصابَتْها الأنواء بصَيّبها ، واستهلّتْ عليهـا السحائب بشآبيبها ، فاستمرّت

(١) الزيادة عن العقد الفريد .

(٢) فى العقد : ووجهتها مع من يؤدّى الأمانة فى حراستها وحفظها و إيصالها وكتبت الخ .

(٣) لعله وافية القدود ، أى تامة كاملة .

مرائرها على إحكام ، واستحصد سَحْلُها[1] بالإبرام ؛ جاءت شتَّى الشِّيَات ، متغايرة الهيئات ، متباينة المحالّ والبُلْدان ، تختلفُ بتباعد ديارها ، وتأتلف بكرَم نِجَارها .

فمن أنابيبِ قَنًا ناسبَتْ رماحَ الخط فى أجناسها وشاكلَتِ الذهب فى ألوانها وضاهت الحرير فى لَمَعانها ، مضابطة الجفاء ، مُمَرَّة القُوى ، لا يسيطها القط ، ولا يُشَعِّبُ بها الخط .

ومن مصْريّة بيض كأنها قَباطِيُّ[2] مِصْرَ نقاء ، وغِرْقِئُ[3] البَيْض صفاء ، غَذَاها الصعيد من ثراه بلُبِّه ، وسقاها النيل من نَميره وعَذْبه ، فجاءت ملتئمة الأجزاء ، سليمة من الالتواء ، تستقيم شقُوقُها فى أطوالها ، ولا تَنكَّب عن يمينها ولا شمالها ، مقترن بها صفراءُ كأنها معها عقْيانٌ قُرِنَ بلُجَين ، أو ورقٌ خُطَّ بعيْن ، تختال فى صُفْر مَلاحفها ، وتَميس فى مُذْهَب مَطارفها ، بلون غياب الشمس ، وصِبْغ ثياب الوَرْس .

ومن منقوشة تَرُوق العين ، وتُونِق النفس ، ويُهْدِى حسنُها الأرْيَحِيَّةَ الى القلوب ، ويَحُلُّ الطَّرْف لها حَبْوة الحليم اللبيب ، كأنها اختلاف الزَّهر اللامع ، وأصناف الثمر اليانع .

ومن بحريّة مَوْشِيَّة اللِّيط ، رائقة التخطيط ، كأنّ داخلها قطرةُ دم ، أو حاشية رداء مُعْلَم ، وكأنّ خارجها أرقم ، أو متن وادٍ مُفْعَم ، نشرت ألوانا تُزْرِى بوَرْد الخدود ، وأبدتْ قامات تفضَح تأوّد القُدود .

ومن كلام ابن الزيات : خير الأقلام ما استحكم نُضْجه ، وخف بزره ، قد تساعدتْ عليه السعود فى فَلَك البروج حولا كاملا ، تؤلفه بمختلف أركانها وطباعها ، ومتباين أنوائها وأنحائها ، حتّى اذا بلغ أشدّه واستوى ، وشقّتْ بوازله ، ورَقّتْ

(١) لعله حبلها وحرر .   (٢) القباطيّ : ثياب بيض من كتان كانت تعمل بمصر .

(٣) غرقئ البيض : القشرة الملتزقة ببياضه .

شمائله ، وابتسم من غشائه ، وتأدّى من لحائه ، وتعرّى عنه ثوب المَصيف ، بانقضاء الخريف ، وكشف عن لَوْن البَيْض المكنون ، والصَّدَف المخزون ، قُطِعَ ولم يُعَجَّل عن تمـام مصلحته ، ولم يؤخَّر الى الأوقات المخوفة عاهاتُها عليـه من خَصَر الشتاء ، وعَفَن الأنداء ، فجاء مستوِىَ الأنابيب معتدلَها ، مُثَقَّفَ الكعوب مقوَّمها .

وقد حرر الوزير أبو علىّ بنُ مقلةَ رحمه الله مَنَاط الحاجة من هذه الأوصاف ، واقتصر على الضرورىّ منها فى ألفاظ قلائل فقال :

خير الأقلام ما استحكم نُضْجه فى جرمه ، ونَشِف ماؤه فى قشره ، وقُطِـع بعد إلقاء بزره ، وبعد أن اصفرّ لحَاؤه ورَقّ شحمه ، وصلب شحمُه ، وثقُل حجمه .

الجمـــــلة الرابعة

فى مساحة الأقلام فى طولها وغِلَظها

قال ابن مقلة ، خير الأقلام ما كان طولُه من ستةَ عشر إصبعا الى اثنى عشر ، وامتلاؤه ما بين غِلَظ السَّبَّابة الى الخِنْصر . وهذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام على اختلافها .

وقال فى موضع آخر : أحسنُ قُـدود القلم ألّا يُتجاوَز به الشِّبْر بأكثر من جِلْفَتِه ويشهد له قول الشاعر :

فتًى لو حوى الدنيـا لأصبح عاريًا ＊ من المـال معتاضا ثيابا من الشكر
له تَرْجُمانٌ أخرسُ اللفظ صامتٌ ＊ على قاب شِبرٍ بل يزيد على الشِّـبر

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازى : أحمدُ الأقلام ما توسطت حالته فى الطول والقِصَر ، والغِلَظ والدقة ، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليـه الأنامل فيبقى مائلا الى ما بين الثلث ، والغليظَ المفرط لا تحمله الأنامل

وقال فى الحلْيَة : اذا كانت الصحيفة لينة ينبغى أن يكون القلم لَيِّن الأُنْبوب ، وفى لحمه فضل ، وفى قِشْره صلابة ؛ و إن كانت صُلْبَةً ، كان يابس الأُنْبوب صُلْبَه ، ناقص الشحم ، لأن حاجته الى كثرة المداد فى الصحيفة الرِّخْوَة أكثر من حاجته اليه فى الصحيفة الصُّلْبَة . فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الاستمداد ؛ ويكفى فى الصحيفة الصُّلْبَة ما وصل اليها فى القلم الصُّلْب الخالى من المداد ، والله جل ذكره أعلم .

الجملة الخامسة

فى بَرْى القلم ؛ وفيه خمسة أنظار

النظر الاول

فى اشتقاقه وأصل معناه

يقال بَرَيْت القلم أَبْريه بَرْيًا و بِرَايةً غير مهموز ، وهو قلم مَبْرِىٌّ ، وأنا بَارٍ للقلم بغير همز أيضا . قال الشاعر :

يابارِىَ القـوس بَرْيًا ليس يُحْكِمُهُ * لاتُفْسِدِ القوس أَعْطِ القَوْسَ بارِيهَا

ويقال أيضا : بَرَوْتُ القلم والعُودَ بروًا بالواو ، والياءُ أفصح . ويقال لما سقط منه حالة البَرْى بُرَايَةٌ (بضم الموحدة فى أوله) على وزن نُزَالَة وحُثَالَة ، والفُعالة اسم لكل فضلة تفضل من الشىء ، وتقول فى الأمر : اِبرِ قلمك .

النظر الثانى

فى الحث على معرفة البِرَاية

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب الى خلال ، منها : جودة بَرْى القلم ، وإطالة جِلفته ، وتحريف قَطّته ، وحسن التأتى لامتطاء الأنامل ، وإرسال المَدّة بعد

إشباع الحروف، والتحرُّز عنـد فراغها من الكشوف، وترك الشكل على الخطّ والإعجام على التصحيف .

ومن كلام المَقرّ العـلائى ابن فضـل الله، طيب الله مَهْجَعـه : من لم يحسن الاستمداد، وبرىَ القلم، والقطّ وإمساك الطُّومار، وقسمةَ حركة اليد حال الكتابة، فليس هو من الكتابة فى شىء .

ويحكى أن الضَّحاك كان إذا أراد أن يبرىَ قلمـا توارى بحيث لا يراه أحد، ويقول : الخط كلُّه القلم . وكان الأنصارىّ اذا أراد أن يبرى فعل ذلك، فاذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رءوس الأقلام حتّى لا يراها أحد .

وقال إسحاق بن حَمّاد : لاحذْق لغير مميز لصنوف البِراية . ورأى ابراهيم بن المحبس رجلا يأخذ على جارية قَلَمَ الثلث، فقال : أعلمتها البِراية؟ قال : لا، قال : كيف تحسن أن تكتب بمـا لا تحسن بَرايته؟ تعليم البِراية أكبر من تعليم الخط .

قال المقرّ العلائى ابن فضل الله : ورأيت بخط أبى علىّ بن مقلةَ رحمه الله، نَعَمْ نَعَمْ مِلَاك الخطّ حسن البراية، ومَنْ أحسنها سهُل عليه الخط، ولا يقتصر على علم فنّ منها دون فنّ، فانه يتعين على من تعاطى هذه الصناعة أن يحفظ كل فنّ منهـا على مذهبه من زيادة فى التحريف، ومن النقصان منه، ومن اختلاف طبقاته . ومن وعى قلبُه كثرةَ أجناس قَطِّ الأقلام كان مقتدرا على الخط، ولا يتعلّم ذلك إلا عاقل، والقلم للكاتب كالسيف للشُّجاع .

وقال الضحّاك بن عَجْلان : القلم من أجناس الأقلام كاللحن من أجناس الألحان فى الصناعة، والبراية الواحدة من أجناس البراية كذلك .

ومن كلام المقرّ العلائى ابن فضل الله : جَوْدَةُ البراية نصفُ الخط

ومنهم من ذهب الى أن العبرة بحسن الصنعة دون برى القلم، حتى حكى الغزالى رحمه الله فى نصيحة الملوك أن الصاحب بن عبّاد كان وزيرا لبعض الملوك ، وكان معه ستة وزراء غيره فكانوا يحسُدونه ، ولم يزالوا حتّى ذكروا للملك أنه لا يُحْسِن براية القلم ، وعمدوا الى أقلامه فكسروا رءوسها ، ثم إن الملك أمره بكتب كتاب فى المجلس ، فوجد أقلامه كلّها مكسرة الرءوس فأخذ قلما منها ، وكتب به الى أن انتهى الى آخر الكتاب بخط فائق رائق ، فقال له الملك : إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن بَرْى القلم ، فقال : إن أبى علمنى كاتبا ولم يعلمنى نجّارًا .

النظر الثالث

فى معرفة محلّ البِرَاية من القلم

قال إبراهيم بن محمد الشَّيْبَانِىّ : يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصبة يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة على أصلها ، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس . والى هذا المعنى أشار أبو تمّام الطائىّ بقوله فى أبياته المتقدّمة :

اذا استغزر الذهن القوىّ وأقبلت * أعاليه فى القِرْطاس وهى أسافلُ

وقال أبو القاسم : اذا أخذ القلم ليبْرِيَه فلا يخلو من استقامة فى البنية أو اعوجاج فى الخلقة ، فإن كان مستويا فالبرية من رأسه ، وهو حيث استدق ، وإن كان مُعْوَجًّا ودعت الضرورة إليه ، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقل التواء من أعلاه .

النظر الرابع

فى كيفية إمساك السِّكين حال البرى

قال ابن البربرىّ : اذا بدأت بالبراية فأمسك السكين باليد اليمنى ، والأنبوبة باليسرى ، وضع إبهامك اليمنى على قفا السكين ، ثم اعتمد على الأنبوبة اعتمادا رفيقا .

النظـــــر الخـامس

فى صــــنعة الـــبراية

قال العَتّابىّ : سالنى الأصْمعىّ يوما بدار الرشيد : أىُّ نوع من البرى أصْوَبُ وأكْتَبُ؟ فقلت : البَرْية المســتوية القَطَّة التى عن يمين سنها برية تأمن معها المجة عند المدّة والمطة، الهواءُ فى شــقها فتيق، والريح فى جوفها خريق، والمــداد فى خرطومها رفيق .

واعلم أنه ربمـا حَسُن الخط باعتبار براية القــلم، وإن لم يكن على قواعد الخط وهندسته، فقد قيل : إن الأحول المحرّر كان عجيب البراية للقلم،فكان خطه رائقا بَهِجّا من غير إحكام ولا إتقان . قال الأنصـارى المحرّر : كنت أكتب فى ديوان الأحول ، فقُربت منــه وأخذت من خطه ، وسرقت من دواته قلما من أقلامه ، فجاد خطى به، فلاحت منه نَظْرة الى دواتى، فرأى القلم فعرفه، فأخذه وأبعدنى . وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رءوس أقلامه كلّها .

واعلم أن البَرْىَ يشتمل على معان .

المعنى الأوّل — فى صفته، ومقداره فى الطول، والتقعير .

قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله: ويجب أن يكون فى القلم الصُّلْب أكثر تقعيرا، وفى الرِّخْو أقلّ ، وفى المعتدل بينهما . وصفته أن تبتدئ بنزولك بالسكين على الاســتواء، ثم تُميِّل القطع الى ما يلى رأس القلم، ويكون طول الفتحة مقــدار عُقْــدة الإبهام ، أوكمناقير الحمـام ، والى ذلك أشار الشيخ علاء الدين السُّرَّمَرّىّ رحمه الله فى أرجوزته بقوله :

وطُولُهـا كعُقْدة الإبهامِ لا * أعلى ولا أدنى يكون أرْذَلا

قال الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله : كل قلم تقصر جِلْفَتُه، فان الخط يجيء به أَوْقص، والوَقَص قِصَرِ العنق، ولذلك سمى متفاعلن فى عروض الكامل اذا حذفت منه التاء أوقص، وكأنه يريد بالقِصَرِ ما دون عقدة الإبهام .

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولى الكاتب : أطِلْ خُرْطوم قلمك . فقيل له : أله خرطوم؟ قال : نعم، وأنشد :

كأنّ أُنوفَ الطير فى عَرَصَاتِها * خراطيمُ أقلامٍ تَخُطُّ وتُعْجِمُ

وقال عبد الحميد بن يحيى كاتبُ مَرْوان لرغبان، وكان يكتب بقلم قصير البَرْيَة : أتريد أن يَجُود خطُّك ؟ قال : نعم ، قال : فأطل جِلْفَةَ قلمك وأسمنها، وحَرِّف القطة وأيمنها؛ قال رغبان : ففعلت ذلك فجاد خَطّى .

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : إذا طالت البَرْية ، فإنه يجيءُ الخط بها أخف وأضعف وأجلى؛ وإذا قصرت جاء الخط بها أصفى وأثقل وأقوى .

المعنى الثانى — النحت .

قال الوزير أبو علىّ بن مقلة : وهو نوعان : نحت حواشيه ، ونحت بطنه . أما نحت حواشيه ، فيجب أن يكون متساويا من جهتى السن معا، ولا يحمل على إحدى الجهتين فيضعف سنه ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا لِخلْفَةِ القلم دقّ أو غَلُظَ . قال : ويجب أن يكون جانباه مسيَّفين، والتسييف أن يكون أعلاه ذاهبا نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرىُ المداد من القلم . قال : وأما نحت بطنه فيختلف بحسب اختلاف الأقلام فى صلابة الشحم ورخاوته: فأما الصُّلْبُ الشحمة فينبغى أن يُنحت وجهه فقط، ثم يجعل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط الذى يُؤْثِرُ الكاتبُ أن يكتبه؛ وأما الرخو الشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتّى

تنتهى الى الموضع الصُّلب من جرم القلم ، لأنك إن كتبت بشحمه ، نشـطى القلم ولم يَصْفُ جريانه .

ومن كلام ابن البربرى : لا تقصع البِرَاية ، ولا تخالف بين حذى القلم ؛ فإن ذلك حِيَاكة ، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول .

ثم الحِلْفَةُ على أنحاء ، منها : أن يرهف جانبى البَرْية ، ويَتسمن وسطها شيئا يسيرا ؛ وهذا يصلح للبسوط والمعلَّق والمحقَّق .

ومنها ما تستأصل شحمته كلها ، وهذا يصلح للرسل والممزوج والمفتح .

ومنها ما يرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية فى الأيمن ؛ وهذا يصلح للطوامير وما شابهها .

ومنها ما يرهف من جانبى وسطه ، ويكون مكان القطة منه أعرض مما تحتها ؛ وهذا يصلح فى جميع قلم الثلث وفروعه .

المعنى الثـالث — الشق . وفيه مهيعان .

المهيـــع الأوّل

فى فائدته

قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : لو كان القلم غير مشقوق ما استمرت به الأنامل ، ولا اتصـل الخط للكاتب ، ولكثُر الاستمداد ، وعُدِم المشـق ، ولمـال المداد الى أحد جنبى القلم على قدر فتل الكاتب له .

المهيع الثانى

فى صفة الشق ، وفيه مُدْرَكان

المُدْرك الأوّل

فى قدره فى الطول

قال ابن مقلة : ويختلف ذلك بحسب اختلاف القلم فى صلابته ورخاوته . فأما المعتدل فيجب أن يكون شَقُّه الى مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها . والمعنى فيه أنه اذا زاد على ذلك انفتحت سنا القلم حال الكتابة وفسد الخط حينئذ . واذا كان كذلك أمن من ذلك .

وأما الصُّلْبُ ، فينبغى أن يكون شقه الى آخر الفتحة، وربما زاد على ذلك بمقدار إفراطه فى الصلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السُّرَّمَرِّىّ رحمه الله فى أرجوزته فقال :

وٱعلم بأن الشَّقَّ أيضا يَخْتَلِف * بحسب الأقلام فافهم ما أَصِف
فإن يكن معتدلا شُقَّ الى * مقدار ثُلْث الحلْفَة ٱنقل وٱقبلا
والرِّخْوُ للنصف أو الثلثين زد * والصُّلْبُ بالفتحة أَلْحِقْ تَسْتَفِدْ
وربّما زادوا على ذاك إذا * أفْرَطَ فى الصلابة ٱعرِف ذا وذا

المُدْرَك الثانى

فى محله من الحلْفَة فى العرض

وقد تقدّم من كلام ابن مقلة رحمه الله فى المعنى الثالث أنه يجب أن يكون الشق متوسطا لحلْفَة القلم ، وعليه جرى الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله فقال وليكن غِلَظ السنين جميعا سواءً . قال : ويجوز أن يكون الأيمن أغلظَ من الأيسر

دون العكس على كل حال؛ وهذا إنمـا يأتى إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين الى جهة اليسار ، أما اذا كانت آخذة من جهة اليسار الى جهة اليمين كالقبطية فإنه يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوى الأعتماد على اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع — القَطّ ؛ وفيه مهيعان :

المهيـــع الأوّل

اشـتقاقه ومعنـاه

يقال قطَطْت القلم أقُطُّه قَطًّا فأنا قاطٌّ وهو مَقْطُوط وقَطِيط : اذا قطعت سنّه وأصل القَطّ : القطع ؛ والقَطُّ والقدّ متقاربان ، إلا أنّ القط أكثر ما يستعمل فيما يقع السيف فى عَرْضه ، والقـدّ ما يقع فى طُوله . وكان يقال : اذا علا الرجل الشيءَ بسيفه قدّه ، واذا عرضـه قَطّه . وذلك أن مخرج الطاء والدال متقاربان ، فأبدل أحدهما من الآخر كما يقال مط حاجبيه ، ومدّ حاجبيه .

المهيـــع الثـانى

فى صفته

وآعلم أن أجناس القَطّ تختلف بحسب مقاصد الكُتَّاب ، وهو المقصود الأعظم من البِرَاية ، وعليـه مَدَار الكتابة . قال الضَّحَّاك بن عجلان : من وعى قلبـه كثرةَ أجناس قطّ الأقلام كان مقتدرا على الخط . وقال المقرّ العلائىّ ابن فضل الله تغمده الله برحمته : كان بعض الكُتَّاب اذا أخذ الأنْبوبة ليَبْرِيها تفرّس فيها قبـل ذلك ، فإذا أراد أن يقُطّ توقف ثم تحرّى فتوقف ثم يقُطّ على تثبّت .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقط على نوعين :

النوع الأوّل ـــ المحرّف، وطريق بريه أن يحرف السكين فى حال القط، وهو ضربان: قائم ومصوّب؛ أما القائم فهو ماجعل فيه آرتفاع الشحمة كارتفاع القشرة؛ وأما المصوب، فهو ما كان القِشْر فيه أعلى من الشحم .

النوع الثانى ـــ المستوى؛ وهو ما تساوى سناه؛ وأجودهما المحرّف، وقد صرح بذلك الوزير أبو على بن مقلة، فقال : وأحمدها ما كان ذا سنّ مرتفع من الجهة اليمنى آرتفاعا قليلا اذا كان القلم مصوّبا، وهــذا معنى التحريف؛ وذلك اذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين الى جهة اليسار كما تقدّم عند ذكر سِنَّى القلم، بخلاف ما اذا كان آخذا من جهة اليسار الى جهة اليمين . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : وأجودها المحرّفة المعتدلة التحريف، وأفسدها المستوية، لأن المستوى أقلّ تصرفا من المحرّف . قال : وقد كان بعض مَنْ لا يعتدّ به يقطّ القلم على ضــدّ ما يعتمده الأستاذون، فيصير الشحم من القلم هو المشرف على ظاهره، فكان خطه لا يجىء إلا رديئا ، وإذا كانت القَطّة على الضــدّ من ذلك كان الكاتب متصرّفا فى الخط، متمكنا من القرطاس . قال الوزير ابن مقلة: وأَضْجِــع السكين قليــلا اذا عزمتُ على القطّ ولا تنْصِبها نصــبا ، يريد بذلك أن تكون القطة أقرب الى التحريف، وأن تكون مصوّبة .

قال الشيخ شمس الدين بن أبى رقيبة : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام: والتحريف والتدوير، فقال : الرقاع والتوقيع أميلُ الى التدوير بينَ بينَ، قَطَّةٌ مُرَبَّعة ، والنسخ والمحقّق والمشعر أميل الى التحريف ، والمحقق أكثر تحريفا منهما . وقد فسر ابن الوحيد قول ابن البوّاب : لكن جمــلة ما أقول بأنه ما بين تحــريف الى تدوير، ان المعنى أن لكل قلم قَطّ صــفة، فقطّة الريحانى أشدّها تحريفا ، ثم يَقِلّ التحريف فى كل نوع من أنواع قط الأقلام حتّى تكون الرقاع أقلها تحريفا .

النظـــــر السادس

في معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالبِرَاية، وما لكل من سِنَّي القلم من الحروف

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف: من لم يَدْرِ وجه القلم، وصدْره، وعَرْضه، فليس من الكتابة فى شيء . وقد فسر ذلك الوزير أبو على بن مُقْلة فقال : اعلم أن للقلم وَجْها وصَدْرا وعَرْضا؛ فأما وجهه فحيث تضع السكين وأنت تريد قطَّه، وهو ما يلى لحمة القلم؛ وأما صدره فهو ما يلى قشرته؛ وأما عرضه، فهو زوالك فيه على تحريفه. قال : وحرف القلم هو السنّ العليا وهى اليمنى .

الجمـــــلة السادسة

فى مساحة رأس القلم ومقدارها من حيث موضع القطة ، وتفرعها عن قلم الطومار، ونسبتها من مساحته على اختلاف مقاديرها فى الدقة والغِلَظ والتوسّـط ، وما ينبغى أن يكون فى دواة الكاتب من الأقلام :

أما مساحة رأس القلم، فاعلم أن رُءوس الأقلام تختلف باختلاف الأقلام التى جرى الاصطلاح عليها بين الكُتَّاب ، وأعظمها وأجلُّها وأكثرها مساحةً فى العَرْض هو قلم الطُّومار، وهو قلم كانت الخلفاء تُعَلِّمُ به فى المكاتبات وغيرها . وصفته أن يؤخذ من لب الجريد الأخضر، ويؤخذ منه من أعلى الفتحة مايسع رءُوس الأنامل ليتمكن الكاتب من إمساكه، فإنه إذا كان على غير هذه الصورة، ثقل على الأنامل ولا تحتمله؛ ويتخذ أيضا من القصب الفارسىّ؛ ولا بدّ من ثلاثة شقوق لتسهل الكتابة به ويجرِىَ المداد فيه . ولهم قَلَمٌ دونه ويسمى مختصر الطومار، وبه يكتب النوّاب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتمادَ على المراسيم ونحوها . وقدّروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرةً من شعر البِرْذَوْن مُعْتَرِضَات، وهو

أصل لما دونه من الأقلام، فقلم الثلثين من هذه النسبة مقدّر بست عشرة شعرة، وقلم النصف مقدّر باثنتى عشرة شعرة، وقلم الثلث مقدّر بثمان شعرات، ومختصر الطومار ما بين الكامل منه والثلثين. وكل من هذه الأقلام فيه ثقيل وهو ما كان الى الشّبع أميل، وخفيف، وهو ما كان الى الدقة أقرب. اذا تقرّر ذلك فطول الألِف فى كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه فى مثله ويجعل طولها نظير ذلك، ففى قلم الطومار يضرب مقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة فى مثلها خمسمائة وستا وسبعين شعرة وهو طولها، وفى قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطُّومار وهو ثمان شعرات فى مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعا وستين شعرة وكذلك الجميع فاْعلمه.

وأما عدد أقلام الدواة فقد قال الوزير أبو علىّ بن مقلة: ينبغى أن تكون أقلامه على عدد ما يؤثره من الخطوط، وكأنه يريد أن يكون فى دواته قلم مبرىّ للقلم الذى هو بصدد أن يحتاج الى كتابته ليجده مهيأ، فلا يتأخر لأجل برايته.

الآلة الثانية — المِقْلَمة: وهى المكان الذى يوضع فيه الأقلام، سواء كان من نفس الدواة أو أجنبيا عنها، وقد لا تعدّ من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالبا.

الآلة الثالثة — المُدْيَةُ، والنظر فيها من وجهين:

الوجه الأوّل

فى معناها واشتقاقها

قال الجاحظ: تقال بضم الميم وفتحها وكسرها وتجمع على مُدًى: وهى السكين، وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كانت امْرأتانِ معَهُما ابناهُمَا فجاء الذئبُ فذهَبَ

بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا الى سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال: ائتونى بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل رحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى" قال أبو هريرة: إن سمعت بالسكين إلا يومئذ، ما كنا نقول إلا المدية.

ثم الأصل فى السكين التذكير، قال أبو ذؤيب:

يُرى ناصحًا[1] لى ما بدا فإذا خلا * فذلك سكينٌ على الحلق حاذقُ

قال الكسائى: ومن أنث أراد المدية وأنشد:

فعيَّثَ[2] فى السنام غداة قرٍّ * بسكينٍ موثقةِ النصاب

ويقال سكينة بالهاء، وهو قليل. وفى حديث المبعث" أنه لما شق الملك بطنه صلى الله عليه وسلم قال: ائتنى بالسكينة "وتجمع على سكاكين، سميت مدية أخذا من مدى الأجل وهو آخره، لأنها تأتى بالأجل فى القتل على آخره، وسميت سكينا لأنها تسكن حركة الحيوان بالموت. ونصاب السكين أصلها، ونصاب كل شىء أصله قال الشاعر:

وإن نصابى إن سألت وأسرتى * من الناس حىٌّ يقتنون المُزَنَّما[3]

أى وإن أصلى. ويقال أنصبت السكين اذا جعلت لها نصابا، كما يقال أقبضتها جعلت لها مقبضا، وأقربتها اذا جعلت لها قرابا، وأغلفتها إذا جعلت لها غلافا، والحديدة الذاهبة فى النصاب سيلان. ويقال أحددت[4] السكين فأنا أحده إحدادا وحد السكين نفسه صار حادا، وأحد فهو محد، وسكين حاد، فإذا أمرت من أحده قلت: أحدده، ومن حده قلت: حده.

(١) فى اللسان والصحاح يرى ناصحا فيما بدا. (٢) أى أثر فى السنام بالسكين أنظر اللسان.

(٣) المزنم من الابل: الكريم تقطع أذنه ويترك لها زنمة

(٤) أى وحددتها أيضا كما يستفاد من سياق عبارته.

الوجـــه الثـانى

فى صـــفتها

قال بعض الكُتَّاب : هى مِسَنُّ الأقلام، تستحَدّ بها اذا كَلَّتْ، وتطلق بها اذا وقفتْ وتلُمُّها اذا تشعَّثت . فتجب المبالغـة فى سَقْيها و إحدادها ليتمكن من البرى، فيصفو جوهر القلم، ولا تتشظَّى قَطَّتُه . وينبغى ألّا يستعملها فى غير البِرَاية لئلا تَكِلّ وتفسُـد . قال الصُّولى : وأَحْدِدْ سكينَك ولا تستعملها لغير ذلك . قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : واستحِدّ السكين حدّا، ولتكن ماضية جدّا، فانها إذا كانت كالَّة جاء الخط رديئـا مضطربا . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : فساد البِرَاية من بَلَادة السكين . قال محمد بن عمر المدائنى : ينبغى أن تكون لطيفة القدّ، معتدلة الحدّ . فقد كره المبالغةَ فى سقيها، لتمكن البارى من بريها . ولاعيب فى حملها فى الكُمّ والخُفّ، فقـد روى المدائنى عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال : اتخاذ الرجل السكينَ فى خُفّـه من المروءة . قالوا : وأحسنها ما عَرُض صـدرُه، وأُرْهف حدُّه، ولم يَفْضُل عن القَبْضـة نِصَابُه، واستوى من غير اعوجاج . قال الشيخ عمـاد الدين بن العفيف : ورأيت والدى وجماعةً من الكُتَّاب يستحسنون العُقَابِيَّة وهى التى صـدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكينا، فقال : وسكِّين عتيقة الحَديد، وَثِيقـة الشَّعيرة، مُحْكَمَة النِّصاب، جامعةُ الأسـباب، أحدُّ من البَيْن، وأحسنُ من اجتماع مُحِبَّيْن، وأمضى من الحُسَام، فى بَرْى الأقلام . ولله القائلُ فى وصفها :

أنا إن شئتَ عُدَّةٌ لعدوّ * حين يُخْشى على النُّفُوس الحِمَامُ
أنا فى السِّـلم خادمٌ لدَوَاة * وبحـدّى تُقَوَّمُ الأقـلامُ

الآلة الرابعة — المِقَطّ (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهرىّ فى الصّحاح إلا أنه قال فيه : مِقَطّة بالتأنيث .

قال الصّولى : ينبغى أن يكون المِقطّ صُلْبًا فتمضى القَطّة مستوية لامَشْظِيَّة . قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : اذا قططتَ فلا تَقُطّ إلا على مِقَطٍّ أملَس صُلْبٍ غير مُثَلَّم ولا خَشِنٍ لئلا يَتَشَظّى القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ويتعين أن يكون من عودٍ صُلْب كالآبِنُوس والعاج ، ويكون مسطَّحَ الوجه الذى يُقَطّ عليه ، ولا يكون مستديرا لأنه اذا كان مستديرا تشظّى القلم ، وربما تهلّلت القَطَّةُ فتأتى الإدارات والتشعيرات غيرَ جَيِّدة . قلت : وينبغى ألّا يكون مع ذلك مانعا كالحديد والنُّحاس ونحوه فإن ذلك يفسد السكين ، ولا تجئ القَطَّةُ صالحة .

الآلة الخامسة — المِحْبرة ، وهى المقصود من الدواة ، وتشتمل على ثلاثة أصناف :

الصنف الأوّل — الجُونة ، وهى الظّرف الذى فيه اللِّيقه والحِبْر .

قال بعض فضلاء الكُتّاب : وينبغى أن تكون شكلا مدوّر الرأس يجتمع على زاويتين قائمتين ، يوقذهما خط ، ولا يكون مربعا على حال لأنه اذا كان مربعا يتكاثف المداد ، فى زواياه فيفسد المداد ، فإذا كان مستديرا كان أبقى للداد ، وأسعد فى الاستمداد .

الصنف الثانى — الليقة ، وتسميها العرب الكُرْسُف تسميةً لها باسم القُطْن الذى تتخذ منه فى بعض الأحوال كما سيأتى ، والنظر فيها من وجهين .

الوجـــه الأوّل

فى اشـــتقاقها

يقــال ألَقْتُ الدواة ولِقْتُها ، أخذا من قولهم : فلان لا تُليق كفُّه درهمــا أى لا تَحْبِسُه ولا تُمْسِكه ، وأنشد الكسائىّ :

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُليــق دِرْهَمــا * جُودا وكَفٌّ تُعْطِ بالسيف الدَّمَا

يصفه بالجود، أى كَفَّاك ما تُمسِكُ درهما ، ويقال : ما لاقَتِ المرأة عند زوجها أى ما عَلِقَتْ . قال المبرد : دخل الأصْمَعِىّ على الرشيد بعد غَيْبة غابها ، فقال له : كيف حالُك يا أصمعىّ ؟ فقال : ما ألاقَتْنى نحوَك أرضٌ يا أمير المؤمنين ، فامسك الرشيدُ عنه ، فلما تفرق أهل المَجْلس قال له : ما معنى ألاقتنى ؟ قال : ما حبسَتْنى ، فقال : لا تكلِّمْنى فى مجلس العامّة بمــا لا أعلم . قال الجاحظ : ولا تستحق اسم اللِّيقة حتّى تُلَاق فى الدواة بالنِّقس وهو المِداد .

الوجه الثــانى

فيما تتخذ منه وتتعاهد به

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصُّوف والقطن ، ويقال فيه الكُرْسُفُ ، والبِرْسُ ، والطُّوطُ ، والعُطْبُ ، والأولى أن تكون من الحرير الخشن : لأن انتفاشها فى المِحْبرة وعدم تَلَبُّدها أعونُ على الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتعين على الكاتب أن يتفقد اللِّيقة ويطيِّبها بأجود ما يكون ، فإنها تُرَوِّح على طول الزَّمن ، ولله القائل :

مُتَظَرِّفٌ شَهِدَتْ عليه دواتُهُ * أن الفتى لا كان غيرَ ظَريف

إن التفقُّدَ للدَّواة فضــيلةٌ * موصوفةٌ للكاتب الموصوف

وكان بعض الكُتّاب يطيّب دواته بأطيب ما عنـده من طِيب نفسه ، فسئل عن ذلك فقال : لأنى أكتبُ به اسمَ الله تعالى واسم رسوله صلى الله عليه وسلم واسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وربما سبق القلم بغير إرادتنا فتلحَسُه بالسنتنا ونمحوه بأ كامنا .

قال الشـيخ علاء الدين السُّرَّمرّىّ : ويتعين على الكاتب تجديد اللّيقة فى كل شهر ، وأنه حين فَرَاغه من الكتابة يُطبِّق المِحْبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه ، فيفسد الخط . ونظم ذلك فى أرجوزته فقال :

وَجَدِّدِ اللِّيقَـــةَ كُلَّ شَهْـرِ * فَشَيْخُنَا كان بهـــذا يُغْـرِى

لأجل ما يَقَـعُ فيها مِنْ قَذى * فَيَنْثَنِى من ذاك فى الخَطِّ أذى

وينبغى له مع ذلك أن يصُونها عن الأشْيَاء القَذرة كالبُصَاق ونحوه ، فقد حكى محمد بن عمر المدائنى أن بعض العلماء رأى صَبياً يبصُق فى دواته فزجره وقال لمعلّمه : امنع الصِّبيان عن مثل هذا ، فإنما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر المدائنى : كأنه تحرج أن يُكتبَ القرآن بمـداد غير نظيف . قال المدائنى : وكان بلغنى عن ابن عباس أنه أجاز أن يبصُق الرجل فى دواته ، فسألت أحمـد بن عمرو البزاز عن ذلك فأنكره ، وقال : هذا حديث كذب ، وضـعه عاصم بن سليمان الكوذن ، وكان كذّابا ذكرته لأبى داود الطيالسى فقال : هو كذّاب يجب أن تعرفوا كذبه ، صفوا له مسئلة حتّى يحدّثكم بحديث ؛ فقال : فجئت أنا وعمر بن موسى الحارثىّ فى جماعة ، فقال له عمر : ما تقول فى الرجل يبزُقَ فى الدواة ويستمدّ منهـا ؟ وكان قد ذهب بصره ، فقال : حدّثنا عبد الله بن نافع عن ابن عمر أنه كان يبزق فى الدواة ويستمدّ منها ، ثم قال : وحدّثنـا هشام بن حسان عن عكرمة عن ابن عباس مثـل ذلك ،

قال : فهمز بعض أصحابنا وقال : كان ابن عباس لا يبصر، قال : ففهم، فقال : نعم . كان ابن عباس لا يرى بذلك بأسا .

الصنف الثالث — المداد والحبر وما ضاهاهما . والنظر فيه من أربعة أوجه :

الوجه الأوّل

فى تسميتهما واشتقاقهما

أما المِدَاد فسمّىَ بذلك لأنه يَمُدّ القلم أى يُعينه، وكل شيء مددت به شيئا فهو مداد، قال الأخطل :

رَأَتْ[1] بارقاتٍ بالأكُفّ كأنّها • مصابيحُ سُرْجٍ أُوقِدَت بِمِدَادِ

سمى الزيت مدادا لأن السِّراج يُمَدّ به، فكل شيء أمددت به الليقة مما يكتب به فهو مِدَاد، وقال ابن قتيبة فى قوله تعالى: ﴿قُل لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى﴾ : هو من المداد لا من الإمداد . ويقال : أمدّ القلم فى الخير مثل ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ﴾ ومَدّه فى الشر، مثل ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدًّا﴾ . ويقال فيه أيضا نِقْسٌ ونَقْس، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ، والكسر أفصح، ويجمع على أنقاس .

وأما الحِبْر، فأصله اللون، يقال فلان ناصع الحِبْر يراد به اللون الخالص الصافى من كل شيء، قال ابن أحمر يذكر امرأة :

تَبِيسهُ بفاحِمٍ جَعْـدٍ • وأبيضَ ناصعِ الحِبْرِ

يريد سواد شعرها ، وبياض لونها؛ وفى الخبر "يَخْرُج من النار رجُلٌ قد ذَهبَ حِبْرُه وسِبْرُه" بكسر الحاء المهملة والسين فيهما . قال ابن الأعرابى: حِبْره: حسنه،

---

(١) فى اللسان رأوا بواو الجماعة .

ويسبّره هيئته، وقال المبرد: قال التوزى: سألت الفرّاء عن المداد لم سمى حبرا؟ فقال: يقال لِلْمُعَلِّمِ حَبْرٌ وحِبر يعنى بفتح الحـاء وكسرها، فارادوا مداد حبر أى مداد عالم، فحذفوا مِدَاد وجعـلوا مكانه حبْرا . قال : فذكرت ذلك للأصْمَعِي فقـال : ليس هذا بشيء إنمـا هو لتأثيره . يقال : على أسنانه حِبْر اذا كثُرت صُفْرتها حتّى صارت تضرب الى السواد، والحبر : الأثر يبقى فى الجلد، وأنشد :

لقد أشْمَتَتْ بى آلَ فَيْدٍ وغَادَرَتْ * بجِـلْدِىَ حِبْرًا بِنْتُ مَصَّانَ بَادِيًا

أراد بالحبر الأثرَ، يعنى أثرَ الكتابة فى القرطاس، قال المبرد : وأنا أحْسَب أنه سمى بذلك لأن الكتّاب يُحَبِّر به أى يُحسِّن، أخذا من قولهم : حَبَّرْتُ الشيء تحبيرا اذا حَسَّنْتُه .

الوجـــه الثـانى

في شرف المداد والحبر، واختيار السواد لذلك

فى الخـبر «يُؤْتى بمدادِ طالبِ العلم ودَمِ الشهيد يومَ القيامة، فيُوضَعُ أحدهمـا فى كِفَّةِ الميزان والآخر فى الكِفّة الأخرى فلا يرجَحُ أحدُهمـا على الآخرِ» قال بعض الحكماء: صُورة المداد فى الأبصار سوداء، وفى البصائر بيضاءُ . وقد قيل : كواكب الحِكَم فى ظُلَمِ المِداد . ونظر جعفر بن محمد الى فتى على ثيابه أثر المِدَاد، وهو يستُره منه، فقال له : ياهذا، إن المِدَاد من المُرُوءه . وأنشد أبو زيد :

اذا ما المِسْكُ طَيَّبَ ريحَ قَوْمٍ * كَفَتْنِى ذاك رائحةُ المِـدَادِ

وما شىءٌ بأحْسَـنَ من ثِيَابٍ * على حَافَاتِها حُمَـمُ السَّـوَادِ

وقال بعض الأدباء : عطِّروا دفاتر الآداب بسَوَاد الحِبر . وكان فى حِجْر ابراهيم ابن العباس قِرْطاس يَمْشُق فيه كلاما فأسقط، فمسحه بكمه، فقيل له : لو مسحته بغيره؟ فقال: المـال فرع والقلم أصل، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد فى ذلك :

إنَّما الزعفرانُ عطرُ العذارَى * ومدادُ الدُّوِيِّ عطرُ الرِّجالِ

وأنشد غيره .

مَنْ كان يُعجبه ان مَسَّ عارِضَهُ * مِسكٌ يُطَيِّبُ منه الريحَ والنَّسَمَا

فإن مِسْكِي مِدَادٌ فوقَ أَنْمُلِي * اذا الأصابعُ يوما مَسَّتِ القَلَمَا

على أن بعضهم قد أنكر ذلك، وقال : المداد فى ثوب الكاتب سَخافة، ودَنَاءة منه وقلة نَظَافة . قال أبو العالية : تعلمت القرآن والكتابة، وما شَعَرَ بى أهلى، وما رؤى فى ثوبى مِدَادٌ قط . وأنشدوا :

دَخِيلٌ فى الكتابة يَدَّعِيهَا * كدَعْوى آل حَرْبٍ فى زِيَادِ

يُشَبِّهُ ثوبُهُ للمَحْو فيه * اذا أبصرتَه ثوبَ الحِدَادِ

فَدَعْ عنك الكِتَابةَ لَسْتَ منها * ولو لَطَّخْتَ وجْهَكَ بالمِدَادِ

وقال فارس بن حاتم : ببريق الحبر تَهْتَدى العقولُ لخبَايَا الحِكَم ، لأنه أبقى على الدهر، وأنمى للذِّكْر، وأزيدُ للأَجْر .

وآعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مَدَار الربع منها وأنشدوا فى ذلك :

رُبْعُ الكتابة فى سَوَادِ مِدَادِهَا * والرُّبْعُ حُسْنُ صِنَاعة الكُتَّابِ

والرُّبْعُ من قَلَمٍ تُسَوِّى بَرْيَهُ * وعلى الكَوَاغِدِ رَابِعُ الأَسْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما آختير فيه السواد دون غيره لمضادّته لون الصحيفة . قال : وليس شيءٌ من الألوان يضادّ صاحبه كمضادّة السواد للبياض . قال الشاعر :

فالوجهُ مثلُ الصبح مُبْيَضٌّ * والفَرْعُ مثلُ الليل مُسْوَدُّ

ضِدَّان لما استجمعا حَسُنَا * والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ويقـال فى المداد : أسودُ قاتمٌ، وهو أوّل درجة السـواد، وحالكٌ وحَانِكٌ، وحُلْكُوكٌ، وحُلْبُوبٌ، وداجٍ، ودَجُوجِىٌّ، ودَيْجُورٌ، وأدْهَمُ، ومُدْهَامٌّ .

قال المدائنى: حدّثنى بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضحاك عن أبى عبيدة.

كتب جعفر بن حدار بن محمد الى دَعْلَج بن محمد يستهديه مِدَادا :

يا أخى للسـوَداد لا للمِـدَادِ * وصَدِيقى من بين هـذا العِبَادِ
والذى فيه أَلْفُ مَجْدٍ طَرِيفٍ * قد أُمِـدَّتْ بِأَلْف مَجْدٍ تِلَادِ
أنا أشكُو إليـك حالَ دَوَاتِى * أَصْبَحَتْ تقتضى قَميصَ حِدَادِ

ولله منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وسَـوْداءَ مُقْلَتُهـا مِثْلُهَـا * وأجفانُها من لُجَيْنٍ صَقِيلْ
اذا اذرفتْ عَبْرَةً خِلْتَهَـا * كَغَالِيَـةٍ فوقَ خَدٍّ أَسِيلْ

الوجه الثالث

فى صنعتهما، وفيه نظران :

النظر الأوّل — فى مادّتهما .

واعلم أن الموادّ لذلك منها ما يُستعمل بأصله ولا يُحتاج فيه الى كبيرِ علاجٍ وتدبير كالعَفْص، والزاج، والصمغ، وما أشبهها . ومنهـا ما يحتاج الى علاج وتدبير، وهو الدُّخَان . قال أبو القاسم خلوف بن شسعبة الكاتب : ويُتَوخّى فى الدخان أن يكون من شىء له دهنية، ولا يكون من دخان شىء يابس فى الأصل لأن دخان كل شىء مثله وراجع اليه .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : كان يأتينا رجل فى أيام خُمَارويه ببغداد لم أر أنعم منه، ولا أشدّ سوادا منه . فسألته من أىّ شىء آستخرجته؟ فكتم ذلك عنى، ثم

تلطفت به بعد ذلك، فقال لى : من دهن بزر الفُجْل والكتّان، أضع دُهْن ذلك فى مَسَارجَ وأوقِدها، ثم أجعل عليها طاسا حتّى اذا نَفِد الدهن، رفعتُ الطاس، وجمعت ما فيها بماء الآس والصمغ العربىّ . وإنما جمعه بماء الآس ليكون سواده مائلا الى الخُضْرة، والصمغ يجمعه ويمنعه من التطاير .

قال صاحب الحلية : وإن شئت أخذت من دخان مَقَالى الحِمّص وشبهه، وتُلق عليه ماء، وتأخذ ما يعلو فوقه وتجمعه بماء الآس، والعسل والكافور والصمغ العربى والملح، وتمدّه وتقطعه شوابير، والدخّان الأوّل أجود والله أعلم .

النظر الثانى — فى صنعتهما، وفيه مسلكان :

المسلك الأوّل

فى صنعة المداد، وبه كانت كتابة الأوّلين من اهل الصنعة وغيرهم

قال الوزير أبو علىّ بن مُقْلة رحمه الله : وأجود المداد ما اتُّخِذ من سُخَام النِّفْط، وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرطال، فيجاد نخله وتصفيته، ثم يلق فى طنجير، ويُصَبُّ عليه من الماء ثلاثة أمثاله، ومن العسل رطل واحد، ومن الملح خمسة عشر درهما، ومن الصَّمْغ المسحوق خمسةَ عشر درهما، ومن العَفْص عشرة دراهم، ولا يزال يساط على نار لينة حتّى يثخن جِرْمُه ويصير فى هيئة الطين، ثم يترك فى إناء ويرفع الى وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة الى أنه لاينحصر فى سُخَام النِّفْط، بل يكون من دُخَان غيره أيضا كما تقدّم . نَعَمْ ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك الى الكافور لتطيب رائحته، والصَّبِر ليمنع من وقوع الذباب عليه . وقيل : ان الكافور يقوم مقام الملح فى غير الطيب .

المســـــلك الثـانى

فى صـــنعة الحـــبر، وهو صنفان

الصنف الأوّل — ما يناسب الكاغَد أى الورق : وهو حبر الدُّخَان ، ونحن نذكر منه صفات إن شاء الله تعالى .

"صفة" يؤخذ من العَفْص الشامىّ قدر رطْلٍ يُدَقُّ جريشا ويُنْقَع فى ستة أرطال ماءٍ مع قليل من الآس : (وهو المرسين) أسبوعا، ثم يغلى على النار حتّى يصير على النصف أو الثلثين، ثم يصفّى من مئزر ويترك ثلاثة أيام، ثم يصفّى ثانيا، ثم يضاف لكل رطل من هذا المـاء أوقية من الصَّمْغ العربىّ، ومن الزاج القُبْرسىّ كذلك، ثم يضاف اليه من الدخان المتقدّم ذكره ما يكفيه من الحَلاكة . ولابدّ له مع ذلك من الصَّبِرِ والعسل ليمتنع بالصَّبِرِ وقوعُ الذباب فيه، ويُحفَظ بالعسل على طول الزمن؛ ويجعل من الدخان لكل رِطْل من الحبر ... ...(١) بعـد أن تَسْحَق الدخَان بكُلْوة كفك بالسكر النبات والزعفران الشعر والزِّنجار الى أن تُجيد سَحْقــه، ولا تَصْحنه فى صلاية ولا هاوُن يفسُد عليك .

الصنف الثـانى — ما يناسب الرَّقّ، ويسمّى الحِبر الرأس، ولا دُخَان فيه ، ولذلك يجىء بَصَّاصا بَرَّاقا، وبه إضرار للبصر فى النظر إليه من جهة بريقه، ويفسِدُ الكاغَدَ على طول؛ ونحن نذكر منه .

"صفة حبر" وهى : يؤخذ من العفص الشامى رِطْل واحد فيُجَرْش، ويلقى عليه من المـاء العذب ثلاثة أرطال ، ويجعل فى طِنْجير ، ويوضع على النار ويوقَد تحته بنار لَيِّنة حتّى يَنْضَج، وعلامة نُضجه أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بَصَّاصَة،

---

(١) بياض بالأصل . وفى الضوء : ثلث أوقية بعد الخ .

ثم يلقى عليه من الصمغ العربيّ ثلاث أواقٍ، ومن الزاج أوقيّة ثم يصفّى ويودع في إناء جديد، ويستعمل عند الحاجة

"صفة حبر سَفَرِيّ" يعمل على البارد من غير نار، يؤخذ العفص فيُجْرش جرشا جيّدا ويسحق لكل أوقيةٍ عَفْصٍ درهم واحد من الزاج، ودرهم من الصمغ العربيّ، ويلقى عليه ويرفع الى وقت الحاجة. فاذا احتاج اليه صُبَّ عليه من الماء قدر الكفاية واستعمله .

الوجه الرابع
في لِيَق الافتتاحات

وهي ما يكتب به فواتح الكلام: من الأبواب، والفصول والابتداءات ونحوها، ولا مدخل لشيء من ذلك في فني الإنشاء والدّيونة، إلا الذهب فإنه يكتب به في الطّغراوات في كتب القانات، وفي الأسماء الجليلة منها، كما سيأتي في موضعه من المكاتبات من فنّ الإنشاء إن شاء الله تعالى، وباقي ذلك إنما يحتاج اليه كُتّاب النّسْخ إلا أنه لا بأس بالعلم به فإكمال الكاتب

ونحن نذكر منه ما الغالب استعمالُه وهو أصناف:

الصنف الأوّل — الذهب، وطريق الكتابة به أن يُحَلّ ورقُ الذهب، وصفة حله أن يؤخذ ورق الذهب الذي يستعمل في الطّلاء ونحوه، فيجعل مع شراب الليمون الصافي النقيّ، ويفتل فيه في إناء صِينيّ أو نحوه حتّى يضمحلّ جِرْمُه فيه، ثم يصب عليه الماء الصافي النقيّ ويغسل من جوانب الإناء حتّى يمتزج الماء والشراب، ويترك ساعةً حتى يَرْسب الذهب، ثم يصفى الماء عنه ويؤخذ ما رَسَبَ في الإناء، فيجعل في مفتلة زجاج ضيقة الأسفل، ويجعل معه قليل من اللّيقة، والنزرُ اليسير

من الزعفران بحيث لا يُخْرِجه عن لون الذهب ، وقليلٌ من ماء الصمغ المحلول ، ويكتب به . فاذا جَفّ صقل بمِصْقلة من جَزْع حتّى يأخذ حدّه ، ثم يُزَمَّك بالحبر من جوانب الحرف.

الصنف الثانى — اللّازَوَرْدُ ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها المعدِنىّ ، وباقى ذلك مصنوع لايناسب الكتابة ، وإنما يستعمل فى الدّهانات ونحوها ، وطريق الكتابة به أن يذاب بالماء ، ويلق عليه قليل من ماء الصمْغ العربى ، ويجعل فى دواةٍ كدواة الذهب المتقدّم ذكرها ، وكلما رَسَبَ حُرّك بالقلم ، ولا يكثر به الصمغ كى لا يَسْوَدّ ويفسُد .

الصنف الثالث — الزُّنْجُفْرُ ، وأجوده المغربى ، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتّى ينعَمَ ، وإن سحق بماء الرمّان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء الصمغ ، ثم يُلاقى بليقة كما يُلاق الحبر ، ويجعل فى دواة ويكتب به .

الصنف الرابع — المَغْرة العِراقيـة ، وهى مما يُكتب به فى نفائس الكتب ، وربما كتب بها عن الملوك فى بعض الأحيان . وطريقه فى الكتابة كما فى الزُّنْجُفْر ، والله أعلم .

الآلة السادسة — المِلْوَاق (بكسر الميم) وهو ما تلاق به الدواة أى تحرّك به الليقة . قال بعض الكُتّاب : وأحسن ما يكون من الآبنُوس لئلا يغيره لونُ المداد . قال : ويكون مستديرا مخروطا ، عريض الرأس ثخينه .

الآلة السابعة — المِرْمَلَة ، واسمها القديم المِتْرَبَةُ ، جَعْلًا لها آلة للتراب ، إذ كان هو الذى يُترّب به الكتبُ .

وتشتمل على شيئين :

الأوّل — الظرف الذى يُجعل فيه الرملُ ، وهو المسمّى بذلك . ويكون من جنس الدّواة إن كانت الدواة نُحاسًا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشبا على حسب ما يختاره رَبُّ الدواة . ومحلها من الدواة ما يلى الكاتب مما بين المحبرة و باطن الدواة مما يقابل المِنْشاة الآتى ذكرها ، ويكون فى فمها شُبَّاك يمنع من وصول الرمل الخشن الى باطنها . وربما اتُّخِذت مِرملة أخرى أكبر من ذلك تكون فى باطن الدواة لاحتمال أن تَضيق تلك عن الكفاية لِصغَرها . وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مِرْمَلَة كبيرة تقارب حبّة الرَّانج (١) ، لها عنق فى أعلاها ، تكون فى الغالب من جنس الدواة من نُحاس ونحوه ، وربما اتُّخذت من خشب لقُضاة الحكم ونحوهم .

ومما ألغز فيها القاضى شهاب الدين ابن بنت الأعز :

ظَريفةُ الشَّكل والتِّمثال قد صُنِعتْ * تَحكى العَرُوسَ ولكن لَيْسَ تَغْتَلِمُ
كأنَّها من ذَوِى الألبـاب خاشعةٌ * تَبْكِى الدِّماءَ على ما سَطَّرَ القَلَمُ

وتسمّى المِتْرَبَةَ أيضا ، وفى ذلك يقول الوجيه المناوى :

يا مَادِحًا أمرًا ولم يَأْتِهِ * ولم يَنَلْ منه ولا جَرَّبَهْ
لا تَغْبِط الكاتبَ فى حاله * فإنه المِسْكينُ ذُو المَتْرَبَهْ

الثانى — الرمل ، وقد اختار الكُتّابُ لذلك الرملَ الأحمرَ دون غيره ، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة ما لا يكسوه غيره من أصناف الرمل ، وخيرُه ما كان دقيقا . وهو على أنواع :

النوع الأوّل — ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملاصق للجبل المُقَطَّم من الجهة الشرقية ، وهو أكثر الأنواع وأعمُّها وجودا بالديار المصرية .

(١) أى الجوز الهندى

النوع الثانى — يؤتى به من الواحات، وهو رمل متحجر شديد الحمرة، يتخذ منه الكُتّاب حجارة لِطافًا تُحتّ بالسكين ونحوها على الكتابة، وأكثر ما يستعملها كُتّاب الصعيد والفيّوم وما والاهما .

النوع الثالث — يؤتى به من جزيرة ببحر القلزم من نواحى الطُّور، وهو رمل دقيق أصفر اللون، قريب من الزعفران، وله بهجة على الخط إلا أنه عزيز الوجود .

النوع الرابع — رمل بين الحُمْرة والصُّفْرة، به شُذُور بصّاصة يخالها الناظر شُذُور الذهب، وهو عزيز الوجود جدًّا، وبه يُرَمِّل الملوك ومن شابههم .

الآلة الثامنة — المِنْشاة، وتشتمل على شيئين أيضا .

الأوّل — الظرف، وحاله كحال المِرْمَلة فى الهيئة والمحلّ من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لا شُبّاك فى فمه ليتوصّل الى اللصاق، وربما اتخذ بعض ظرفاء الكُتّاب مِنْشاةً أخرى غير التى فى صدر الدواة من رَصاص على هيئة حُقٍّ لطيف، ويجعلها فى باطن الدواة كالمِرْملة المتوسطة، فإن اللصاق قد يتغيّر بمكثه فى النُّحاس، بخلاف الرَّصاص .

الثانى — اللِّصاق، وهو على نوعين : أحدهما النَّشا المتخذ من البُرّ، وطريقه أن يطبخ على النار كما يطبخ للقُماش، إلا أنه يكون أشدّ منه، ثم يجعل فى المِنْشاة، وهو الذى يستعمله كُتّاب الإنشاء ولا يعوّلون على غيره لسرعة اللصاق به، وموافقة لونه للورق فى نَصاعة البياض، والثانى المتخذ من الكَثِيراء، وهو أن تُبلّ الكَثِيراءُ بالماء حتّى تصير فى قِوام اللِّصاق، ثم تجعل فى المِنْشاة . وكثيرا ما يستعمله كُتّاب الدَّوَاوين، وهو سريع التغير الى الخُضْرة ولا يسرع اللصاق به . وينبغى أن يستعمل فى اللِّصاق فى الجملة المَاوَرْدُ والكافور لتطيب رائحته .

الآلة التاسعة — المِنْقَذُ، وهى آلة تشبه المِخْرَز. تتخذ لخرم الورق، وينبغى أن يكون محل الحاجة منها متساويا فى الدِّقَّة والغِلَظ، أعلاه وأسفله سواء، لئلا تختلف أثقاب الورق فى الضيق والسَّعَة ، خلا أن يكون ذُبَابه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ فى المقصود، وحكمه فى النِّصاب فى الطول والغِلَظ حُكْمُ المُدْية ، وقد سبق . وأكثر مَنْ يحتاج الى هذه الآلة من الكُتّاب كُتّابُ الدواوين ، وربما احتاج اليها كاتب الإنشاء فى بعض أحواله .

الآلة العاشرة — المِلْزَمَةُ ، قال الجوهرىّ : الملزم بالكسر خشبتان تشد أوساطهما بحديدة تكون مع الصَّياقلة والأبَّارين، ولم يزد على ذلك . وهى آلة تتخذ من النُّحاس ونحوه ، ذات دَفَّتين يلتقيان على رأس الدَّرْج حال الكتابة يمنع الدرج من الرجوع على الكاتب، ويُحْبَس بِمَحْبَس على الدَّفَّتين .

الآلة الحادية عَشرةَ — المِفْرَشة، وهى آلة تتخذ من خِرَقِ كَتَّان: بِطانةً وظِهارة أو من صوف ونحوه، تُفْرَش تحت الأقلام وما فى معناها مما يكون فى بَطْن الدواة .

الآلة الثانية عشرة — المِمْسَحَة، وتسمّى الدفتر أيضا ، وهى آلة تُتَّخَذ من خِرَقٍ متراكبة ذات وجهين ملوّنين من صوف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القُمَاش، يُمْسح القلم بباطنها عند الفَرَاغ من الكتابة لئلا يجف عليه الحبر فيفسد؛ والغالب فى هذه الآلة أن تكون مدوّرة مخزومة من وسطها . وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سَعَة الدواة . وفيها يقول القاضى رحمه الله :

مِمْسَحَةٌ نَهَارُها * يُجِنُّ ليلَ الظُّلَمِ
كأنها مُذْ خُلِقَتْ * مِنْدِيلُ كُمِّ القَلَمِ

وقال نور الدين علىّ بن سعيد المغربىّ فيها :

وِمِمْسَحةٍ لَاحَتْ كأُفُقٍ تبَدَّدَتْ * به قِطَعُ الظَّلْمَاءِ والصُّبحُ طالِعُ
ولَّما أطالَ الليـلُ فيها وُرودَه * حَكَتْهُ ومُدَّتْ للصَّبَاحِ المَطالِـع

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

ومِمْسَحَةٍ تنَاهى الحُسْنُ فيهـا * فأضْحَتْ فى المَلَاحَة لا تُبَارَى
ولَا نُكْرٌ على القَلَـمِ المُوافِى * إذا فى وَصْلِهَا خلَعَ العِـذَارَا

الآلة الثالثة عشرة — المِسْقاة، وهى آلة لطيفة تتخذ لصب المـاء فى المِحْبَرة وتسمّى المَـاوَرْدِيَّة أيضا: لأن الغالب أن يجعل فى المِحْبرة عِوَضَ المـاء ماوَرْدٌ لتطيب رائحتها، وأيضا فإن المياه المستخرجة كماء الوَرْد والخِلَاف والرَّيْحَانِ ونحو ذلك لاتُحَلُّ الحبر ولا تفسده بخلاف المـاء . وتكون هـذه الآلة فى الغالب من الحلزون الذى يخرج من البحر المِلْح، وربما كانت من نُحَاس ونحوه، والمعنى فيهـا ألّا تخرج المِحْبرة من مكانها ، ولا يصب من إناء واسع الفم كالكوز ونحوه، فربمـا زاد الصب على قدر الحـاجة .

الآلة الرابعة عشرة — المِسطرة، وهى آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها مايُحتاج الى تسطيره من الكتابة ومتعلّقاتها، وأكثر مَنْ يحتاج اليها المُذَهِّبُ .

الآلة الخامسة عشرة — المِصْقلة ، وهى التى يُصْقَلُ بها الذهب بعـد الكتابة، وهى من آلات الدواة لا محالة .

الآلة السادسة عشرة — المُهْرَقُ (بضم الميم وفتح الراء) وهو القِرْطاس الذى يكتب فيه، ويجمع على مَهَارِقَ . قلت : وعدّ صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ منها المِدَاد، وهو ظاهر، والمِخْيَط، وفى عدّه بُعْدٌ .

الآلة السابعة عشرة — المِسَنّ، هو آلة تتخذ لإحداد السكين؛ وهو نوعان: أكهبُ اللون، ويسمّى الروميّ، وأخضرُ، وهو على نوعين: حجازيّ وقوصيّ؛ والروميّ أجودها، والحجازيّ أجوده الأخضرُ.

الطرف الثالث — فيما يكتب فيه، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة اليه فى بعض الأبيات المتقدّمة، وفيه ثلاث جمل:

الجملة الأولى

فيما نطق به القرآن الكريم من ذلك

وقد نطق القرآن بثلاثة أجناس من ذلك:

الأوّل اللوح . قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ قرأ العامّة بفتح اللام على أن المراد اللوح واحد الألواح؛ سمى بذلك لأن المعانىَ تلوحُ بالكتابة فيه؛ ثم اختلفوا، فقرأ نافع برفع محفوظ على أنه نعت للقرآن بتقدير بل هو قرآن مجيد محفوظ فى لوحٍ، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغيير والتبديل والتحريف. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقرأ الباقون بالجرّ على نعت اللوح. قال أبو عبيد: وهو الوجه، لأن الآثار الواردة فى اللوح المحفوظ تصدّق ذلك، وهو أم القرآن، منه نُسِخَ القرآن الكريم والكتب المُنَزَّلة، ومنه تنسَخُ الملائكة أعمالَ الخلق. قال ابن عباس: وهو لَوْحٌ من درّة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرضَ، وعرضه مابين المشرق والمغرب، وحافتاه الدُّرّ والياقوت، ودفتاه ياقوتة حمراء، وأصله فى حِجْرِ مَلَكٍ. وقال أنس: اللوح المحفوظ فى جبهة إسرافيلَ عليه السلام، وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العَرْش،

قال ابن عباس : وفى صدر اللوح مكتوب : "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دينه الإسلام ، ومحمد عبدُه ورسولُه . فمن آمن بالله وصدّق بوعده واتبع رُسُلَهُ أدخله الجنة" . وسمى محفوظا لأن الله تعالى حَفِظه عن الشياطين ، وقيل : حفِظه بما ضمنه .

وقيل : اللوح صدر المؤمن .

وقرأ يحيى بن يَعْمَر فى لُوحٍ بضم اللام ، وهو الهواء . يقال لما بين السماء والأرض اللُّوحُ ، والمعنى أنه شىء يلوح للملائكة فيقرءُونه . وهو ذو نور وعلوّ وشرف . وقد ورد فى القرآن بلفظ الجمع ، قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد ألواح التوراة . قال الكلبىّ : كانت من زَبَرْجَدَةٍ خضراء . وقال سعيد بن جُبَيْر : من ياقوتة . وقال مجاهد : من زُمُرُّدٍ أخضر . وقال أبو العالية والربيع بن أنس : من بَرَدٍ . وقال الحسن : خَشَبٍ ، وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "الألواحُ الّتِى أُنْزِلَتْ على موسى من سِدْرِ الجَنَّة ، وكان طُولُ كلِّ لوح منها اثنَىْ عشر ذراعا" . وقال وهب بن منبه : من صخرة صَمَّاء ألانَها الله له فقطعها بيده ، ثم قطعها بأصابعه .

واختلف فى عددها ، فقيل : سبعة ، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس ، وقيل : لوحان ، رواه أبو صالح عن ابن عباس أيضا ، وجُمعت على عادة العرب فى إيقاع الجمع على التثنية كما فى قوله تعالى : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ يريد داود وسليمان عليهما السلام واختاره الفراء . وقيل : عشرة . قاله ابن منبه ، وقيل : تسعة . قاله مقاتل . وقال أنس : نزلت التوراة وهى سبعونَ وِقْرَ بعير .

الثانى — الرق (بفتح الراء) قال تعالى : ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ قال المبرد : هو ما يرقّق من الجلود ليُكْتب فيه . قال المعافى بن أبى السيار : ومن

ثمّ استُبعد حمله على اللوح المحفوظ، والمنشور المبسوط، واختلف فى الكتاب المسطور فيه، فقيل[1] : اللوح المحفوظ، وقيل : القرآن، وقيل : ما كتبه الله تعالى لموسى وهو يسمع صرير الأقلام .

الثالث — القرطاس والصحيفة، وهما بمعنى واحد وهو الكاغَدُ .

أما القرطاس، فقال تعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال ابن أبى السيار : القِرْطاس كاغَدٌ يتخذ من بَرْدِىّ مصر، وكل كاغَد قِرْطاس، قال : والجمهور على كسرها، وضمها أبو زيد وعكرمةُ وطلحةُ ويحيى بن يَعْمَر، والذى حكاه الجوهرىّ عن أبى زيد يخالف ذلك، فإنه قال فيه : قَرْطَسٌ (بفتح القاف من غير ألف بعد الراء) والمراد بالكتاب فى الآية الكريمة المكتوبُ لا نفس الصحيفة . قاله المعافى .

وأما الصحيفة، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع . قال تعالى : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ وقال جل وعز : ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ وتجمع أيضا على صحائف، وسمى المصحف مُصْحَفًا لجمعه الصحف . قال الجوهرى : وسمى التصحيف تصحيفا للخطإ فى الصحيفة

الجملة الثانية

فيما كانت الأمم السالفة تكتب فيه فى الزمن القديم

وقد كانت الأمم فى ذلك متفاوتة، فكان أهل الصِّين يكتُبون فى ورق يصنعونه من الحشيش والكلإ، وعنهم أخذ الناسُ صنعةَ الورق، وأهل الهند يكتبون

(١) يظهر أنه وقع هنا تخليط من الناسخ، وحاصل ما يؤخذ من كتب التفسير أنه اختلف فى الرق فقيل : الجلد، وقيل : اللوح المحفوظ . واختلف أيضا فى الكتاب المسطور فيه فقيل : القرآن، وقيل ما كتبه الخ فتنبه .

فى خِرَق الحرير الابيض، والفُرْسُ يكتُبُون فى الجلود المدبوغة من جلود الحواميس والبقر والغنم والوحوش ،وكذلك كانوا يكتبون فى اللِّخاف(بالخاء المعجمة) : وهى حجارة بيض رِقَاق ،وفى النُّحاس والحديد ونحوهما ،وفى عُسُب النخل (بالسين المهملة) وهى الجريد الذى لا خُوصَ عليـه ، واحدها عَسِيب ، وفى عظم أكتاف الإبل والغَنَم . وعلى هـذا الأسلوب كانت العربُ لقربهم منهم . وٱستمرّ ذلك إلى أن بُعِث النبيّ صلى الله عليه وسـلم ونزل القرآن والعـربُ على ذلك ، فكانوا يكتُبُون القرآن حين ينزل ويقرؤه عليهـم النبي صلى الله عليه وسـلم فى اللِّخَاف والعُسُب ، فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال عند جمعه القرآن : "فجعَلْتُ أتَتَبَّع القُرْآنَ من العُسُب واللِّخاف" . وفى حديث الزهرىّ : "قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآنُ فى العُسُب" وربما كتب النبي صلى الله عليه وسلم بعض مكاتباته فى الأَدَم كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وأجمـع رأىُ الصحابة رضى الله عنهـم على كتابة القرآن فى الرَّق لطُول بقائه ، أو لأنه الموجود عنـدهم حينئذ . وبقى الناس على ذلك إلى أن وَلِىَ الرشيدُ الخلافةَ وقـد كَثُر الورق وفشا عمـله بين الناس أمر ألّا يكتب النـاس إلا فى الكاغَد، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادةَ فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى مُحِى منه فسد، وإن كُشِط ظهر كَشْطُه . وانتشرت الكتابة فى الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قَرُب وبعد، واستمرّ الناس على ذلك إلى الآن .

الجملة الثالثة

في بيان أسماء الورق الواردة في اللغة ، ومعرفة أجناسه

الوَرَق (بفتح الراء) اسم جنس يقع على القليل والكثير، واحده ورقة، وجمعه أوراق ، وجمع الورَقة ورَقات . وبه سمى الرجل الذى يكتب ورّاقا . وقد نطق القرآن الكريم بتسميته قِرْطاسا وصَحِيفة كما مر بيانه . ويسمى أيضا الكاغَد (بغين ودال مهملة) ويقال للصحيفة أيضا طِرْس ، ويجمع على طُروس، ومُهْرَق (بضم الميم وإسكان الهاء وفتح الراء المهملة بعدها قاف) ، ويجمع على مَهَارق . وهو فارسى معرّب، قاله الجوهرى . وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غرفا صَقيلا، متناسب الأطراف ، صبورا على مُرُور الزمان . وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البَغْدادى وهو ورق ثخين مع ليونة ورِقَّةِ حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدا، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربما استعمله كُتَّاب الإنشاء فى مكاتبات القانات ونحوها كما سيأتى بيانه فى المكاتبات السلطانية . ودونه فى الرتبة الشامى (١) ، وهو على نوعين : نوع يعرف بالحَمَوى ، وهو دون القطع البغدادى . ودونه فى القدر وهو المعروف بالشامى ، وقطعه دون القطع الحموى ، ودونهما فى الرتبة الورق المصرى ، وهو أيضا على قطعين : القطع المنصورى ، وقطع العادة والمنصورى أكبر قطعا . وقلّما يُصْقَل وجهاه جميعا . أما العادة فإن فيه ما يصقل وجهاه ويسمّى فى عرف الورّاقين : المصلوح . وغيره عندهم على رتبتين : عال ووسط ، وفيه صِنْفٌ يعرف بالفوّى صغير القطع ، خشن غليظ خفيف الغرف ، لا يُنْتفع به فى الكتابة يُتَّخذ لِلحَلْوَى والعِطْر ونحو ذلك . وإنما نبهت على ذلك وإن كان

(١) أى ونوع دونه الخ فتنبه .

واضحا لأمرين: أحدهما ، ألّا نُخْلِى كتابنا من بيان الورق الذى هو أحد أركان الكتابة ؛ الثانى ، أنه قد ينتقل الكُتّاب إلى إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصرى كما لا يَعْرِف المصريُّون ورق غير مصر مَعْرِفَتَهُمْ بورق مصر ، فيقع الاطلاع على ذلك لمن أراده . ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجة فهو ردىء جدّا ، سريع البِلَى ، قليل المكث ؛ ولذلك يكتبون المصاحف غالبا فى الرَّقّ على العادة الأولى طلبا لطول البقاء .

وسيأتى الكلام على مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الدَّيْوَنة عند ذكر ورق كل فنّ ، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالى .

تمّ الجزء الثانى ، ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث ، وأوّله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى ،

فى الكلام على نفس الخط)

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠١١٨ س.ت ٦٣٤١١

